المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

إنقاذ آدم سميث

قصة الثروة والتحول والفضيلة

تأليف: جوناثان ب. ويت

ترجمة: سمير كريم

تقديم: جودة عبد الخالق

1306



لو عاد آدم سميث إلى الحياة مرة أخرى، هل سيعجبه النظام الرأسمالى العالمى الذى يمجده ويفخر به، أم سيصيبه الفزع منه؟

مع أن كتاب ثورة الأمم هو أكثر كتب آدم سميث شعبية، فإن آدم سميث نفسه كان يعتز بكتابه عن " نظرية المشاعر الأخلاقية "، فهو أحد الكتب الكلاسيكية غير المقروءة، التى تبحث عن منابع السعادة الإنسانية والفضيلة. هناك فضائل فى الأسواق، إلا أن آدم سميث كان سيروعه هذا العالم الذى يتشبث بالثورة أكثر من التزامه بالعلاقات والروابط الإنسانية، عالم الأسواق التى لا يدعمها أساس من النسيج الأخلاقى... عالم مثل عالمنا الذى نعيش فيه.

وهكذا ففى الخيال العجيب الذى قدمه لنا جوناثان . ب . ويت فى كتابه " إنقاذ آدم سميث " يقف آدم سميث أمامنا اليوم، كريمًا وقاطعًا واضح المعالم والالتزام، أمينًا لا يجفل له طرف. وبالقدر نفسه الذى كان به آدم سميث يمثل إلهامًا ووحيًا لمعاصريه، فإنه ما زال كذلك بالنسبة إلينا رجلاً لم تكن رسالته الحقيقية - التى طالما أغمط قدرها نتيجة لقرون من المعلومات الخاطئة والسخرية - أكثر حيوية لاستدامة الأعمال والمجتمع مما هى عليه الآن.

تصميم الغلاف : مروى يونس



إنقاذ آدم سميث

قصة الثروة والتحول والفضيلة

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٣٠٦
- إنقاذ آدم سميث (قصة الثروة والتحول والفضيلة)
- جوناثان ب. ويت
- سمير كريم
- جودة عبد الخالق
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:

Saving Adam Smith: A Tale of Wealth, Transformation, and Virtue
(A Novel)
By: Jonathan B. Wight

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House. El Gezira. Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 – 27354526. Fax: 27354554

إنقاذ آدم سميث

قصة الثروة والتحول والفضيلة

تأليف: جوناثان ب. ويت

ترجمة: سمــــــير كريـــم

تقديـــم: جودة عبد الخالق



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

ب. ويت، جوناثان.
إنقاذ آدم سميث: تأليف: جوناثان ب. ويـت؛ ترجمـة: سمير كريّم؛ تقديم: جودة عبد الخالق. ط١ - القـاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨
٣٧٢ص؛ ٢٤ سم

أ- كريّم، سمير (مترجم)
ب- عبد الخالق، جودة (مقدم)
ج- العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٧٦٨٠
الترقيم الدولى: 1 - 888 - 437 -977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الجزء الرابع: ملاحق

المقـدمـة

لهذه الرواية معى قصة طريفة، فبعد وصولى بقليل إلى مدينة لوس أنجلوس لقضاء العام الدراسى ٢٠٠٢/٢٠٠٣ فى مهمة علمية كأستاذ زائر فى جامعة جنوب كاليفورنيا، سألنى صديق لى من أساتذة قسم الاقتصاد بالجامعة: هل قرأت "**إنقاذ آدم سميث؟**" أجبت بالنفى، معترفًا بأننى لم أسمع بالكتاب من قبل. فأضاف صديقى: "إنها رواية ممتازة صدرت منذ عشرة شهور عن دار نشر برنتس هول الشهيرة، ضمن سلسلة كتب فايناشيال تايمز- برنتيس هول".

استهوانى العنوان الكامل للرواية "**إنقاذ آدم سميث: حكاية الثروة والتحول والفضيلة**". فأنا أعرف بحكم تخصصى أن آدم سميث هو مؤسس علم الاقتصاد، بعد أن نشر فى عام ١٧٧٦ كتابه الشهير "**بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم**" والمعروف اختصارًا ب "**ثروة الأمم**". كما أنه الداعية الأكبر لمبدأ حرية التجارة والأعمال كما تجسده مقولة **اليد الخفية** وعبارة "**دعه يعمل دعه يمر**". وما أن بدأت مطالعتها حتى استغرقنى الموضوع والأسلوب تمامًا، فخصصت لها حصةً من وقتى إلى جانب البحث والتدريس. وبعد أن انتهيت من قراءتها أخذت أتأمل مغزاها. إنها تذكرنا بمقولة حكيمة لآدم سميث "إن الناس مهتمون بالثروة، فى حين أن عليهم التساؤل عما إذا كانت الثروة هى الهدف النهائى".

قلت لنفسى: "إن هذا العمل الأدبى - العلمى الرصين يلقى ضوءًا كاشفًا على الممارسات والسياسات الاقتصادية التى يُرّوج لها الليبراليون الجدد. أولئك الذين أفضل أن أسميهم "كهنة الأسواق". ومنهم كثيرون فى كل بقاع العالم- على مستوى المنظمات الدولية مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، ومنظمة التجارة العالمية، وعلى مستوى الحكومات والشركات أيضًا. بل على مستوى أساتذة الاقتصاد فى معظم الجامعات". وكما هو واضح للعيان، يلعب كهنة الأسواق دورًا بارزًا هذه الأيام فى تشكيل مصير الأمم والشعوب ونشر الفقر والبؤس على أوسع نطاق باسم "الإصلاح الاقتصادى". فقد رأيت بعينى فى مدينة لوس أنجلوس فى كاليفورنيا أغنى الولايات الأمريكية تلك الثمار المريرة للريجانية الاقتصادية. رأيت كيف يفترش البؤساء الأرض ويلتحفون السماء، وكيف

يتنقلون بين صناديق القمامة لجمع ما تيسر لهم من الغذاء! حقًا، يا له من منظر يدمى القلب!

وعندما عدت إلى مصر بعد انتهاء المهمة العلمية فى عام ٢٠٠٣، اقترحت على المجلس الأعلى للثقافة ترجمة رواية "إنقاذ آدم سميث" إلى العربية ونشرها ضمن سلسلة "المشروع القومى للترجمة". فوافق المجلس مشكورًا، ثم أحيل الأمر إلى المركز القومى للترجمة بعد إنشائه وانتقال مهمة الترجمة إليه.

أما عن الرواية فكتبها باقتدار جوناثان وايت أستاذ الاقتصاد والدراسات الدولية فى مدرسة "روبنز للأعمال" بجامعة ريتشموند بولاية فيرجينيا الأمريكية. وقد بذل جهدا مضنيا فى التنقيب الشامل فى كل ما يتعلق بأعمال آدم سميث وسيرته الذاتية. وحُمِد له أيضًا، أنه جمع فيها بين دقة العالم وخيال الأديب. لقد حقق بالفعل توازنا مدهشا يستحق كل التقدير. وقد قام بمهمة الترجمة بحب وحماس الأستاذ سمير كريم، فأسدى إلى قرّاء العربية مزيدًا من الفضل بترجمة عمل يجمع بين الجدية والتشويق، فله الشكر على ما قدم.

ولكن قبل الدخول فى موضوع رواية "إنقاذ آدم سميث"، لا بد من التعرف على الشخصيات الرئيسية لهذه الدراما.

ريتشارد بيرنز: بطل الرواية، طالب دراسات عليا فى جامعة كمبردج بولاية ماستشوستس الأمريكية، يحضر أطروحته للدكتوراه فى موضوع يتعلق بالخصخصة. ولكسب عيشه يقوم بيرنز فى نفس الوقت بتدريس علم الاقتصاد فى كلية هيرست فى بلدة فريدركسبرج بولاية فرجينيا القريبة من العاصمة الأمريكية واشنطن. ويسعى بيرنز فى رسالته إلى بناء نموذج ديناميكى لتقييم الأوراق المالية فى بورصات البلاد التى تقوم بإعادة هيكلة سريعة تتضمن برنامجًا طموحًا للخصخصة. بل حتى فى الدول التى كانت إلى وقت قريب اشتراكية مثل روسيا. ومن خلال أستاذه المشرف، أبدت عدة شركات اهتماما بنموذجه، فى مقدمتها شركة (وورلدكيم) العالمية العملاقة التى يعمل أستاذه مستشارًا لها. فقد رأى مسؤولو الشركة بحسهم الافتراسى أن نموذج بيرنز هو الأداة التى تمكنهم من الفوز بشراء شركة الألمونيوم الروسية المطروحة للبيع وتحقيق مكاسب هائلة فى أكبر عملية خصخصة فى التاريخ.

البروفسيور روبرت آلين لاتيمر: المشرف على رسالة ريتشارد بيرنز، هو أستاذ كرسى آدم سميث للاقتصاد فى جامعة كمبردج بمدينة بوسطن بولاية ماستشوستس. يعمل مستشارا للحكومة الأمريكية والعديد من الحكومات الأجنبية والمنظمات الدولية. وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى، طرح نفسه على أنه مهندس الاقتصاد العالمى فى فترة ما بعد الحرب الباردة من خلال رفع شعار الإصلاح الشهير "ث – ح – خ" (ثبّتوا!.. حرِّروا!.. خصْخصُوا!). إنه كبير كهنة الأسواق.

جوليا بروكس: صديقة ريتشارد بيرنز، هى الشابة الجميلة طيبة القلب، المتدينة وذات الحس الإنسانى المرهف الذى قادها إلى الكنيسة لمساعدة المحتاجين. وقد اعتادت الذهاب إلى الكنيسة كل أحد للصلاة وللقيام بالنشاط الخيرى. وهى تمارس الرسم على سبيل الهواية.

هارولد تيمز: مهاجر إلى أمريكا، يعمل ميكانيكى شاحنات لإصلاح محركات الديزل. تقمصته روح آدم سميث، وأصبح صوت سميث يلح عليه بلا توقف: "لابد من إصلاح العالم، فالوضع خطير ولابد من عمل شيء"!.

الشركة الدولية لتوريد الكيماويات والمواد (وورلد كيم): وقد بدأت نشاطها فى أثناء الحرب العالمية الثانية كمعمل صغير فى سان فرانسيسكو كان يقوم بتصنيع المتفجرات لتلك الحرب. ثم تطورت إلى شركة عملاقة متعددة الجنسية للصناعة والمواد الخام، يمتد نشاطها إلى ٣٥ بلدًا حول العالم. وقد عُيِّنَتْ البروفيسور" لا **تيمر**" فى مجلس إدارتها بحكم شهرته الذائعة كأستاذ متخصص فى الاقتصاد الدولى وطمعا فى قطف الثمار من شعاره الأثير "ث–ح–خ".

تقع أحداث الرواية فى أقل من ثلاثة شهور من منتصف يونيو حتى أوائل سبتمبر. أما فكرتها فهى بسيطة وعميقة فى آن. فهى تقوم على توظيف ظاهرة معروفة فى علم النفس هى ظاهرة تقمص الشخصية (Channeling). فقد تقمصت روح آدم سميث شخصية ميكانيكى الشاحنات هارولد تيمز، فصار يتردد على كنيسة البلدة التى يعيش فيها كل يوم أحد. وينطق عبارات غير مفهومة لجمهور المترددين على الكنيسة يقول إنها من كلام آدم سميث أبى علم الاقتصاد، بل إنه يدّعى أنه هو آدم سميث ذاته!

يلفت كلام هارولد تيمز وأطواره الغريبة نظر جوليا بروكس ناشطة الأعمال الخيرية من خلال الكنيسة، وتلاحظ أن ما يقوله متصل بالاقتصاد. فتلح على صديقها ريتشارد بيرنز بحكم تخصصه في الاقتصاد أنْ يقابل هارولد للتحقق مما يدعيه. ولكن ريتشارد كان نتاجا خالصا للقالب الفكرى للمدرسة الأمريكية فى علم الاقتصاد بطابعها النيوكلاسيكي، الذى يختزل الاقتصاد فى نموذج "الإنسان الاقتصادى" كبطل على مسرح الأسواق مجردًا من المشاعر والعواطف والقيم، ومدفوعًا فقط بالتوقعات الرشيدة. لذلك لم يتحمس فى البداية للقاء هارولد. وتحت ضغط وإلحاح صديقته وافق على مقابلته ليثبت لها أن هارولد إما أن يكون مريضا نفسيا أو مدعيا.

واستعدادًا للقاء آدم سميث المزعوم، تردد ريتشارد على مكتبة كليته وقرأ كل ما بها من أعمال آدم سميث وسيرته الذاتية. وفى النهاية حدد موعدا للقاء هارولد ليثبت لصديقته أنه ليس آدم سميث. ولدهشته الشديدة، اكتشف أن الرجل يتكلم وكأنه آدم سميث تماما... سواء فى نهجه أو نبرات صوته أو تعبيرات وجهه أو مفردات كلامه أو أفكاره أو أطروحاته. بل إن هارولد أدهش ريتشارد بالمعلومات الشخصية التى تطابقت مع ما هو ثابت عن نشأة آدم سميث وحياته، وأعماله، ومراسلاته. وانتابت ريتشارد حيرة شديدة، فهو يعرف أن آدم سميث قد توفى عام ١٧٩٠، أى منذ أكثر من قرنين. لكن ها هو يرى آدم سميث أمامه رأى العين بشحمه ولحمه كما يقولون، فهل بعث الله آدم سميث من جديد؟!

كان ريتشارد على موعد مع أستاذه لاتيمر فى شهر سبتمبر بمقر شركة (وورلد كيم) بسان فرانسيسكو، حيث يعرض على مجلس إدارة الشركة النموذج الذى طوره والذى بموجبه يمكن للشركة الحصول بثمن بخس على أسهم شركة الألمونيوم الروسية التى كانت مطروحة للبيع وقتها للمستثمرين الأجانب. ولما كانت سيارته قديمة ومتهالكة، فقد رآها فرصة مناسبة. فاصطحب معه هارولد فى الرحلة عبر أمريكا من الساحل الشرقى إلى الساحل الغربى، لعل خبرته كميكانيكى سيارات تفيد عند الحاجة فى تلك الرحلة الطويلة والشاقة. واستمرت الرحلة أسبوعين تعرف خلالها ريتشارد على هارولد عن قرب، وهنا حدث التحول. فقد اقتنع ريتشارد بمقولات آدم سميث فى النهاية، وراجع أفكاره النيوكلاسيكية.

وفى اليوم الموعود لاجتماع مجلس إدارة (وورلدكيم)، انهمك ريتشارد فى عرض نموذجه على المجلس فى نبرة لا تنقصها الخيلاء. وما أن وصل إلى معادلة "الصيغة المشتقة" كما يسميها الاقتصاديون من خبراء النماذج الرياضية، حتى صاحت المحللة المالية للشركة مهللة: "إن امتلاك شركتنا وحدها لهذه الصيغة سيقلل معامل المخاطرة فى الصفقة بالنسبة لنا ويمكّننا بالتالى من عرض سعر أعلى من أى منافس. وبفضل هذه الصيغة سنفوز بالصفقة ونحقق مكاسب خيالية فى نفس الوقت، إذ سيُمكِننا استرداد استثماراتنا بالكامل فى خمس سنوات ثم نخرج بعدها من روسيا بربح طائل". وأضاف عضو آخر من أعضاء مجلس الإدارة: "عندما نمتلك مناجم البوكسيت (وهو الركاز اللازم لصنع الألمونيوم) سنقوم بغلق صناعة الألمونيوم فى روسيا، وبذلك سنسيطر على ٦٠% من الإنتاج العالمى للألمونيوم. إن استخدام هذه الصيغة سيرفع سعر سهم شركتنا فى البورصة ثلاث مرات".

وعندئذ تذكر ريتشارد تحليلات سميث عن دنيا الأعمال والأسواق. واستعاد من الذاكرة قوله الشهير: "إنه نادرًا ما يجتمع رجال الصناعة، إلا وتنتهى المناقشات بمؤامرة ضد الجمهور، أو بألاعيب لرفع الأسعار". فما كان من ريتشارد إلا أن صاح فى أعضاء المجلس موبخاً: "إن المعرفة قوة، خصوصا إذا كانت لدى طرف واحد فقط. وهى وسيلتكم للسيطرة على السوق، مما يؤدى إلى عدم الكفاءة وإلحاق ضرر بالغ بالمستهلكين والعمال. ولن أمكنكم من ذلك، لذلك قمت هذا الصباح بنشر هذه المعادلات بالفعل على الشبكة الدولية العنكبوتية (WORLD WIDE WEB) لتكون المعرفة متاحة للجميع". نزل كلام ريتشارد على أستاذه لاتيمر وعلى أعضاء مجلس الإدارة كالصاعقة.

لقد انقلب ريتشارد على أستاذه وعلى مجلس إدارة شركة (وورلد كيم) رافضًا تسليمهم حصريًا المعادلات التى توصل إليها، وفضل نشرها على شبكة الإنترنت لتكون متاحة للعامة. فقد ضحى بمصلحته الخاصة فى سبيل المصلحة العامة تطبيقا لتعاليم آدم سميث. فخسر ريتشارد بيرنز درجة الدكتوراه، كما خسر جائزة سامولسون التى رشحه لها أستاذه المشرف لاتيمر. لكنه بفضل حكمة آدم سميث كسب نفسه وصديقته جوليا، التى صارت زوجته. إنها نهاية سعيدة مزدوجة بكل المقاييس!

كما تكشف هذه الرواية القيمة، كيف تم اختزال فكر آدم سميث على مستويين. فقد اختزل علماء الاقتصاد فكر آدم سميث فى كتاب " **ثروة الأمم**" الذى نشره عام ١٧٧٦. وفى عصر العولمة، قام كهنة الأسواق باختزال محتوى كتاب "**ثروة الأمم**" فى كفاءة السوق واليد الخفية. ومعلوم كما تؤكد ذلك أيضًا قراءة رواية " **إنقاذ آدم سميث**"، أن كتاب "**ثروة الأمم**" ليس هو أهم ما كتب آدم سميث. انظر إلى باقى إنتاجه الفكرى الغزير الذى تم نشر معظمه بعد وفاته: "**نظرية المشاعر الأخلاقية**" (١٧٥٩)، "**مقالات فى موضوعات فلسفية**" (١٧٩٥)، "**محاضرات فى البلاغة والآداب الرفيعة**" (١٩٦٣)، "**محاضرات فى فلسفة التشريع**" (١٩٩٦)، و"**مراسلات آدم سميث**" (١٩٧٧).

فكما ذكر بحق مؤلف الرواية فى المقدمة: "لقد عمل سميث على صياغة نسق فكرى ينتهى إلى توحيد العلم الإنسانى، خصوصا فى مجال الأسواق والأخلاق. هذه الرؤية الأخلاقية الموحدة طالما أهملها الاقتصاديون. ولكنها أصبحت تحظى بأهمية متزايدة فى غمار الجدل المحتدم حول العولمة. إن سميث لا يسعده أن تنفصم الثروة عن أسسها الأخلاقية، وهو يقدم تحذيرًا قويا: "إن المجتمع الحر والأسواق باتت مهددة بسبب إهمال الأساسيات، وفى مقدمتها ضمان العدالة وغرس الفضيلة". ويرى سميث أن السعى المحموم لجمع الثروات مفسدة أى مفسدة، مما يسلبنا تلك الأشياء التى تجعل لحياتنا معنى وتضمن سعادتنا الحقيقية: ألا وهى وجود ضمير إنسانى قائم على إحساس حقيقى بغيرنا من البشر. إن آدم سميث يبشر بنموذج للأعمال أساسه القيم، بحيث يجمع بين أرقى عقل وأرق قلب.

والآن تأمل معى ما يريد أن يقوله آدم سميث على لسان بطل الرواية، فى إشارة إلى حماس الاقتصاديين فى زماننا لحرية الأسواق: "لديكم الشمع، لكن لا ضوء بلا أكسجين. لقد نسيتم الجوهر الذى يجعل الأسواق تعمل فى المجتمع. إن السوق لا يمكن أن تعمل بمعزل عن الناس. فالناس بالنسبة للأسواق هم تماما مثل الأكسجين بالنسبة للشمعة – لا تضىء إلا به. إن حرية الإنسان أهم من حرية الأسواق!".

ولا يقلل آدم سميث من قدرات الرأسمالية، لكنه كان شديد الشك فى دوافع رجال الأعمال، فهو يرى أن هذه الطبقة لها مصلحة مكتسبة فى تقييد المنافسة. فالأسهل عندهم هو تعظيم الأرباح بتقليل الإنتاج بدلا من زيادته. وهذا تحديدًا ما فعله "جون روكفلر" قبل

أن يقوم القضاء الأمريكي بتفكيك إمبراطوريته "ستاندرد أويل" العملاقة إلى أجزاء عام ١٩١١. إذن لا سوق ولا كفاءة ولا تقدم دون دور فاعل للدولة.

إن مقولة سميث أبي علم الاقتصاد التي أساء فهمها البعض وأساء تأويلها البعض الآخر لمصلحته (كهنة الأسواق) هي أن السوق ضرورة قصوى للكفاءة ولمصلحة المجتمع، بشرط أن تكون سوقا تنافسية. ولذلك نجد في بعض البلاد رأسمالية بلا أي منافسة حقيقية. إن التحالف بين رجال السلطة وأصدقائهم في عالم الأعمال يخلق نظام رأسمالية المحاسيب (crony capitalism). فأولئك المستفيدون اقتصاديا من هذا النظام تزداد قدرتهم السياسية مما يجعل محاربة هذا الفساد أكثر صعوبة.

ولا يحتاج القارئ الفطن إلى تفكير كثير ليلاحظ أن كلام آدم سميث وصف دقيق لما يحدث في مصر الآن.

وفي كتابه "**نظرية المشاعر الأخلاقية**" أوضح آدم سميث أن المشاعر الأخلاقية هي تلك المشاعر والأحاسيس التي تتعلق بالصواب والخطأ. ولا يمل من تذكيرنا بأن علم الاقتصاد بدأ كفلسفة أخلاقية. فالأخلاق يجب وضعها كأساس للقواعد التي نطبقها في عالم التجارة والأعمال. ألا يعتبر ذلك تبشيرًا بما يطلقون عليه هذه الأيام المسئولية الاجتماعية لرأس المال؟

"قد تستحق الثروة أن نفضلها، لكنها لا تستحق أن نسعى إليها بحماس فياض يجعلنا نضرب بقواعد الحصافة والعدل عرض الحائط، أو يفسد علينا راحة البال. إذا أصبحت الثروة وحدها هي الهدف، فسنجد دائمًا من يملك أكثر، ولا يكون ما لدينا مشبعا إذا لم يكن الحد الأقصى". وكلام آدم سميث هنا يذكرنا بقول الشاعر العربي:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

عزيزي القارئ العربي، يسعدني حقا أن أقدم لك بلسان عربي مبين هذه الملحمة البديعة عن العولمة والأسواق والأخلاق. فلعل فيها بعض المعونة لكشف أباطيل كهنة الأسواق. وبهذه المناسبة أكرر شكري للمؤلف والمترجم، والشكر موصول أيضا إلى المركز القومي للترجمة في شخص مديره الدكتور جابر عصفور ومساعديه، خصوصا الدكتورة شهرت العالم والأستاذ طلعت الشايب.

ورحم الله آدم سميث!

٢٦ يوليو ٢٠٠٨

جودة عبد الخالق

تقديم

تعددت كتابات آدم سميث الذى يُعد أحد أعظم عقول التنوير، واتسمت كتاباته بالدقة والفطنة في نطاق واسع من النظم والفنون، والعلوم الطبيعية والقانون، والسياسة والاقتصاد (وهذا الموضوع الأخير جزء لا يتجزأ من الفلسفة الأخلاقية). وعمل سميث على وضع نظام فكرى يوحد فروع العلم "الإنسانى"، وخاصة في مجال الأسواق والأخلاق. وهذه الرؤية الخاصة بالتوحيد مجال طال إهماله من جانب الاقتصاديين – وأصبح الاهتمام به يتزايد مع الجدل المحتدم حول العولمة. وقد اكتشفت اقتصاديات الأسواق الصاعدة بعد تخليها عن الهياكل القديمة، أنها لو لم تفعل ذلك ربما لم تكن لتحقق الهياكل الاجتماعية والمؤسسية المتوازنة التى تفترض الديمقراطيات المتقدمة وجودها كأمر عادى. وببساطة شديدة، فإن آدم سميث لم يكن سيسره انتزاع الثروة من أسسها الأخلاقية، وربما يتساءل المرء، ما الآثار العملية لأفكار سميث في عالم الأعمال في الوقت الحاضر؟

يتناول كتاب "إنقاذ آدم سميث" هذا الموضوع في عمل خيالى من الأدب القصصى الأكاديمى – يقوم فيه أبو الاقتصاد بتقديم القراء إلى الاقتصاد العالمى، وإلى الجذور الأخلاقية التى يقوم عليها، ومع أن التجارة الدولية والتخصص الدولى هما حجر الزاوية وركن الأساس اللذان تحقق الأعمال من خلالهما الثروة؛ فإن سميث يوجه إنذاراً قوياً مغزاه: أن المجتمع الحر والأسواق الحرة يتعرضان للتهديد نتيجة إغفال وعدم مراعاة الأساسيات – وبصفة رئيسية الاهتمام بالعدالة وغرس الفضيلة. وهذه العناصر أساسية إذا ما كان يراد للنظام التجارى أن يحقق الاستدامة عبر الأجيال بأدنى قدر من التدخل الحكومى.

فى وسط الكثرة والوفرة، هناك أيضاً الذين يواجهون تحديات نفسية وروحية عميقة. ويلاحظ آدم سميث أن السعى الجامح وراء الثروات يؤدى إلى "الفساد"، ويسلب منا نفس الأشياء التى يمكن أن توفر لنا معنى السعادة القصوى، إذ إن تنمية الضمير الأخلاقى تقوم على الشعور الأصيل بالكائنات البشرية الأخرى. وهكذا كان سميث يتوقع

قيام نموذج للأعمال على أساس القيم يكون وفقا لقول سميث توحد بين "أفضل رأس وأفضل قلب"، فإن الكفاءة الاقتصادية والفضيلة تعززان بعضهما بعضًا.

ويتحدث آدم سميث إلينا بإلحاح صادق فى وقتنا الحاضر، كما كان كذلك فى فجر الثورة الصناعية. وفى جميع نصوص هذه الرواية يجرى استخدام نفس كلمات آدم سميث، على الرغم مما قد ينال عباراته من اختصار أحيانًا أو من إعادة صياغة الجمل للمحافظة على تدفق الحوار أحيانا أخرى. ويمكن للقراء المهتمين أن يجدوا مصادر كتابات سميث في الملاحظات الهامشية. كما توفر الملاحق أيضا دليلاً للمعلمين، وتاريخا للفترة الزمنية لحياة آدم سميث، وتوصيات بقراءات إضافية.

أما ما يتعلق بمدى موافقة آدم سميث العظيم على استخدام كلماته فى عمل روائى خيالى، فإنه يقول ما يلى:

"إن راوى القصص السخيفة وحده هو مَنْ يمكن التغاضى عما يقوله فى أحاديثه؛ لأننا نعلم أنه لا يقصد به الضرر؛ ولذا، فإننا عادة ما نميل إلى إعطائه بعض التجاوز".

(محاضرات عن البلاغة والأدب الرفيع صـــ١١٩).

وبهذه الروح، دعونا ننصت إلى الأب – وربما أيضا "الأم" الحكيمة – للأعمال وللاقتصاد الحديث.

جوناثان ب. وايت.

تنـــــويه

فيما عدا ما يشار إليه صراحة، فإن كل الشخصيات الواردة فى هذا الكتاب هى محض خيال، ولا تحمل أى تشابه مقصود مع أى أشخاص فعليين، أحياءً أو أمواتًا، وكلية هيرست بفريدريكمبورج، والشركة العالمية للتوريدات والمواد الكيماوية (وورلدكيم WORLCHEMM) بسان فرانسيسكو، الناس فوق الأرباح People Over Profit (POP)، وشركة البترول العملاقة "Mammoth Oil Co"، وجمعية السلوك الحسن بمكان العمل، (Workplace Fair Conduct Association) (WFCA) كلها من خيال المؤلف ولا تحمل أى تشابه مقصود لأى من المنشآت فى الماضى أو الحاضر.

الجزء الأول

الثـــروة

إن كل عمل اقتصادى يقوم به الكائن البشرى من الضرورى أن يكون أيضا عملاً أخلاقيا.

ويليام ليتوين William Letwin

The Origins of Scientific Economics (1964)

أصول الاقتصاد العلمى (١٩٦٤)

الفصل الأول

آدم ينهض

وصل الرجل مع انهمار المطر الغزير، فقد كانت هناك عاصفة رعدية من عواصف فرجينيا الخاصة، وكانت السحب السوداء المنتفخة تتصاعد وتدور فى بداية الأمسية، ومع عصف رياح الربيع التى كانت تتمزق على حواف المظلة الموجودة فى ساحة الدار، بدأت الأمطار تتدفق كأنها تأتى من فوهة واسعة مفتوحة، وترتطم بالأرض ناثرة ذراتها على زجاج الباب المؤدى إلى أرضية الفناء. وأخذ ركس، كلبى الكولى الاسكتلندى الضخم، ذو الأعوام الثمانية، يجرى من غرفة إلى أخرى ينبح الرعد. وذهبت إلى الدور الأعلى لأغلق النوافذ، عندما سمعت طَرْقًا يشبه صوت مصارع نافذة غير محكم الغلق. ومن خلال الزجاج لمحت سيارة محطمة على حافة الطريق، وخطا أحدهم فى عجلة إلى الشرفة الأمامية للمبنى، وهو يسحب أنفاسًا من عقب سيجارة كان يدخنها. وأخذ يطرق الباب مرة أخرى دون صبر - وكأنما كانت الطرقات تنذر بأن تقلب حياة الوحدة المنتظمة التى أحياها رأسا على عقب، وأن تقودنى إلى رحلة طواف فى أرجاء الريف الأمريكى، أوشكت أن تكلفنى حياتى.

إلا أن أيًا من هذه الشكوك لم تساورنى عندما كنت أتفحص ذلك الشبح فى الرواق الأمامى للمنزل. وقمت بالضغط على أزرار الإضاءة، وتمخض الشكل عن رجل تخطى سن الكهولة، ترتفع قامته إلى ستة أقدام، ذى شعر أبيض قصير متساو على جوانب رأسه الأصلع. وانثنى بجسده إلى الأمام يطلب الاحتماء فى ذلك المكان الضيق، ويدور بنظراته بشكل مرتبك. وجذبت ركس جانبا، وفتحت الباب. وتنهد الرجل، مبديا أسنانًا كبيرة. وقال متأتئًا.. مفأفئًا.. "هل أنت دكتور بيرنز؟ لقد أتيت لأقابل د. دكتور ريتشارد بيرنز؟". وأجبت، محتفظا بالباب الأمامى مثبتا بالمزلاج: "أنا هو مستر بيرنز".

وحاول الرجل أن يبتسم، إلا أن شفتيه انقبضتا بشكل عابس. وبدأ يتكلم كما لو كان نعسانًا "لقد أعطتنى اسمك جوليا بروكس من الكنيسة".

ورفعت حاجبى إلى أعلى.

"لقد قالت إنك تقوم بالتدريس فى الكلية".

وأومأت برأسى موافقا.

وقامت عيناه ذات اللون البنى بتقييمى، إلا أنهما لم تتمكنا من احتواء خيبة أملهما. "إنك صغير السن جدا.." وبدأ يستدير مبتعداً، ثم بدا أنه قد غير رأيه. "آه. ربما يمكنك أن تساعدنى.. أنا بحاجة إلى الحديث مع شخص ما... شخص يعرف أحد الاقتصاديين القدامى".

كانت لهجة الرجل غريبة تحمل لكنة العالم القديم، يلفها صوت زخَات المطر المتساقط. ثم رفع الرجل صوته قائلاً: "إنه ليس عجوزًا - أعنى أنه منذ وقت طويل مضى. إنه رجل يدعى "آدم سميث" هل سمعت عنه فى حياتك؟".

واندفعت الدماء إلى وجهى، "رجل يدعى آدم سميث؟". رجل... يدعى؟ وكان المطر مازال يشق طريقه بصوت مزعج، بينما ركس يضرب ببراثنه السجادة خلفى، وهو ما كان شيئا غير مألوف. إذ أنه عادة ما كان يمر أمام الضيف ليحييه.

وسألته: "آدم سميث.. الذى هو "أب" الاقتصاد؟".

"ييه... لابد أن يكون هو".

وترددت لحظة ثم فتحت الباب الأمامى. وهز جسده ملقيا برذاذ الماء عن ملابسه ثم خطا إلى الداخل. وخذل مصباح غرفة المعيشة هذا السيد المهذب المتقدم فى العمر، مظهرًا وجهه المحمر وغضونه الكثيفة، وأنفه البارز بشكل واضح. مع شارب أبيض ناصع فوق شفتيه الرفيعتين المضمومتين. وانغمس الرجل فى داخل الأريكة... بينما جلست على الطرف الآخر، ونظرت إلى ساعتى مازالت هناك خمس دقائق قبل بداية برنامجى التلفزيونى المفضل.

وقال الرجل بصوت واهن: "لقد كانت عدة أسابيع قاسية".. بينما كانت مياه المطر تتسرب من حذائه الأسود على سجادة الحجرة.

وأخذت أفحص الرجل بمزيج من حب الاستطلاع ونفاد الصبر. ومع مظهره الأشعث، كانت هناك كرامة تتناقض مع طريقته. ولو لم تكن جوليا هى التى أرسلته، ربما

لم يكن قد عرف طريقه إلى داخل منزلي. إلا أن جوليا قالت - منذ وقت مضى - إن الوضع المعنوى بدون عمل مجرد كلام. وسواءً أكانت هذه الكلمات من كلامها أم أنها كانت مقتبسة من كلام شخص آخر، فليس لذلك أهمية. إلا أن الكلمات كانت تلدغ، ومع ضيق وقتي وانشغالي الذى كنت عليه، أجبرت نفسي على إظهار الصبر.

وتنحنح الرجل قائلا: "من أين نبدأ؟ هل نعود إلى شهر أبريل الماضي، كما أظن، أى إلى ثلاثة أو أربعة أسابيع، عندما بدأت أحلامي الغريبة. وأنا أسميها أحلامًا لأن الصوت بدأ فى الليل عندما كنت نائما. إلا أنها استمرت بعد أن استيقظت"... وبدأ صوته يتحشرج.. إنها تخيفني حتى الموت!. إنها أصوات تشبه المواعظ ترن فى أذنيَّ... آه!".

وأسقط رأسه، وبدأت كتفاه تهتز.

وبدأ ركس يئن تحتي. ولم يكن يعوى .. وهو ما كان فى مصلحة ضيفي ذى الملابس المبتلة. إلا أنه كان يبدى الحذر، وكذلك رددت شعوره لديَّ وانحنيت لأمسح على رأسه خلف أذنيه.

وأخذ الرجل ينشج باكيا، ويقول وهو يمسح إحدى عينيه: "لقد كانت عدة أسابيع قاسية"، وكان هذا الهذيان فى عقلي ليلا ونهارًا، كما أن هذا الصوت كان لا يتوقف فى رأسي. "وأخذ ينقب ويفتش فى سترته التى تملؤها بقع الدهون.." هل يضايقك أن أدخن؟". ثم غَيَّرَ رأيه وأعاد السجائر إلى علبتها.." أظن أننى سأصاب بالجنون".

أين تجد جوليا هؤلاء الأشخاص؟ ذهبت إلى المطبخ وأحضرت أحد الأطباق الصغيرة لاستخدامها كمنفضة لرماد السجائر. وأشعل سيجارته، مستخدما قداحةً ذات تروس مشرشرة، وأخذ نفسا عميقا... ثم قال: "إن هذا الصوت... ليس له أى معنى، ولكن ليس بالنسبة لي على أى حال".

إنه يتحدث عن شيء مثل" إصلاح وضع العالم" ما الذى يعنيه هذا؟ دكتور بيرنز: إننى أعمل ميكانيكيا لإصلاح سيارات النقل، وأصلح محركات وآلات الديزل. فماذا أعرف عن إصلاح العالم؟ إن هذا الصوت مازال يتردد عليَّ ليلة بعد ليلة... بعد أخرى. ولذا فقد قلت لنفسي: "هارولد.. ابحث عمن يساعدك".

"هارولد؟".

"هذا هو اسمى هارولد تيمز" ومد إلىّ يده. وكانت لهجته تنم عن أصلها الأوروبى بشكل غامض، إلا أن اسمه لا يدل على شيء، وأنا اقتصادى ولست عالما لغويا.

وسألته: "ومن أين أتيت؟".

ورد علىّ، وهو يشد على يدى "من رومانيا... منذ زمن طويل".

فى نهاية السنة الثانية لعملى فى التدريس بكلية هيرست فى فريدريكسبورج، كنت قد استنفدت تماما – نتيجة للإجهاد فى تصحيح الأوراق ورصد الدرجات، واستغرقتنى اجتماعات هيئة التدريس التى لا تنتهى، وأنهكنى النضال المستمر للانتهاء من رسالة الدكتوراه التى أقوم بإعدادها. وكانت المنضدة الموجودة بجانب مكتبى تحمل أكواما من بطاقات التهنئة بأعياد الميلاد التى لم يتم الرد عليها، بينما كانت سلة الغسيل تعانى من طوفان الملابس. وكانت رائحة عشاء الدجاج المشوى تنبعث من جهاز الميكروويف فى المطبخ، مما جعل معدتى تهدر.

وأخذ هارولد تيمز يسحب الأنفاس من سيجارته مرة أخرى وينظر إلى أحد الأركان إلى لا شيء. وكان لا يبدو أن لديه رواية مختصرة لقصته. ولأمر ما، أخطأ فى اعتبارى طبيباً، وكانت الأمانة تقتضى ألا أتركه يستمر. هذا إذا ما غضضت النظر عن قضاء الوقت دون هدف. وسواءً أكانت جوليا أم لا، فقد اتخذت القرار.

"هذا ممتع". قلت هذا وأنا أنهض على قدمى مستخدما يده الممتدة لمساعدته على النهوض. "لعلك تعلم أن هناك أطباء ممتازين لعلاج ما تشكو منه يا مستر تيمز، ولكافة أنواع هذه الأشياء فى أيامنا هذه"، ووجهته إلى القاعة الأمامية ولكننى أخشى أن هناك خطأً كبيراً. فأنا لست طبيبا ولا يمكننى أن أرشدك إلى أى منهم".

ونظر إلىّ مندهشًا وقال: "ولكن يجب عليك أن تساعدنى!!" "إننى متأكد أن جوليا يمكن أن تقترح عليك أحد الأطباء الجيدين، أما أنا فسأضيع وقتك".

وفتحت الباب، وتحرك متثاقلاً إلى الخارج. ووقف فاتحا ما بين قدميه، وعيناه المستديرتان تحدجنى كأننى حيوان أليف هجره أصحابه. وانبعثت ضحكات عالية من التلفزيون واندفعت الأمطار إلى طريق الدخول.

"حظا سعيدا". هكذا قلت بينما كنت ألوح بيدى، ثم أغلقت الباب ببطء وساورنى شيء من الضيق، وأعدت فتح الباب، وكان هذا الإنسان البائس مازال فى مكانه لم يتزحزح.

وسألته "ما علاقة آدم سميث بكل هذا الذى ذكرته؟".

قال: "إنه هو.. لقد سيطر على عقلى... يريد أن يستمع إليه العالم بأسره وإلا...!"

وهززت رأسى وأنا أغلق الباب على هذا الرجل المجنون.

الفصل الثانى

الأعلى والأعمق

كان الأستاذ روبرت ألين لاتيمر، الذى يشغل كرسى آدم سميث للاقتصاد يجلس عبر المائدة التى فصلت بينى وبينه فى "أولد إيبيت"، وهو مطعم للمشويات فى وسط مدينة واشنطن العاصمة. وقد حمل لاتيمر عبء منصبه الرفيع بقامته المديدة التى ترتفع ستة أقدام وبوصتين نحو السقف، ووقفته الشامخة وشعره الرمادى المنسّق بعناية، كما أن طريقة الحلاقة كانت تسبغ عليه الهيئة الصارمة لرجل عسكرى، إلى جانب إخلاصه المفرط ودقته فى المواعيد والارتباط الذى كان يناسب هذه الصورة.

وكان لاتيمر كثيرًا ما يركب الطائرة المكوكية من مقر عمله الأكاديمى ليتشاور مع أولئك الذين يتحركون بسرعة فى عاصمة البلاد. وفى هذه المرة، كان عبر الشارع فى وزارة الخزانة، حيث كانت كارثة تعثر أندونيسيا هى موضوع الساعة. ولما كانت كلية هيرست على بعد لا يتعدى خمسين ميلاً فى فريدريكسبورج، فقد كنت معتادًا – كما كان لاتيمر يتوقع دائما – أن أملأ وقت فراغه، بشطيرة فى يدى أو بمشروب أقبض عليه فى طريقى إلى المطار. أما اليوم فقد كنت أكثر حظًا وجلسنا فعلا على مائدة فى مطعم لتناول الغداء.

"لعلك لا تصدق ما حدث بالأمس؟!" هكذا بدأ الحديث بعد أن طلبت شطيرة كبيرة وزجاجة جعة. "إن هذا الرجل العجوز لا يزال يظهر على عتبة دارى فى أثناء انهمار المطر".

وقاطعنى قائلا: "اسمع يا بيرنز، أجل هذه الثرثرة إلى ما بعد. ماذا لديك بالنسبة لشركة وورلدكيم؟".

وهكذا كان لاتيمر عديم الحس كعادته، ويحتفظ بمزاجه الاجتماعى لأنداده. وكان فيما حدث هنا بعض ما يدل على ذلك. لقد كان لاتيمر ذا سلطة إلهية علىّ. أو بعبارة أخرى كان هو الذى يوجه رسالة الدكتوراه الخاصة بى. وكنت أعمل مساعدًا له فى

(تدريس) البحوث منذ السنة الثانية فى دراساتى العليا، وكان اختيارى من جانب العظيم لاتيمر يعتبر شرفًا يدعو للبهجة والسرور، أو بمثابة اختيار حصان أسود غير معروف لجائزة نوبل، ولكنه كان يعنى أيضا أن حياتى أصبحت لا تخصنى وحدى. فقد كان كل شيء يدور حول جدول محاضراته، واحتياجاته وجدول أعماله. وكان جدول أعماله فى الوقت الحالى هو وورلدكيم، الشركة العالمية للكيماويات والتوريدات.

وقد بدأت وورلدكيم كمعمل صغير فى سان فرانسيسكو يقوم بإعداد مواد كيماوية للحرب العالمية الثانية، ثم أخذت تنمو حتى أصبحت عملاق تصنيع لأنواع متعددة من الكيماويات والمواد الأولية، كما أن عملياتها كانت تغطى خمسا وثلاثين دولة. وكانت شهرة لاتيمر فى ميدان الاقتصاد الدولى سببًا فى أن يصبح صيدًا ثمينا كعضو بمجلس إدارتها.

وكان لاتيمر يزهو بنفسه معتبرًا أنه مهندس الاقتصاد العالمى فى فترة ما بعد الحرب الباردة. ولما كان يعتبر أحد الباحثين البارزين ذوى القدرة على الخلق والابتكار، فقد كان يحصل على منَح حكومية، وفرص استشارية، وطلبات للنشر تزيد كثيرا عما لديه من وقت يسمح له بالوفاء بها. وكان انهيار الاتحاد السوفيتى قد أحدث ما سمى "بأثر الدومينو"، وقام الاقتصاديون مثل لاتيمر بملء الفراغ المحتم فى القوة والأفكار. ولعب شعاره المشهور الآن لتحقيق "الاستقرار والتحرر والخصخصة"، دورًا ملحوظًا بشدة فى تقليص الحكومات وعمليات تحرير النظم فى أرجاء العالم. وكان الشعار يدعو إلى تخفيض عجز الموازنات، وإلغاء إعانات الدعم، وانفتاح الأسواق أمام المنافسة والتجارة الحرة. وتم تفكيك الصناعات الاشتراكية وخصخصتها، وإلغاء إعانات الدعم، إلى جانب قيام الشركات العالمية متعددة الجنسيات بتوفير القدر الأكبر من رأس المال والتكنولوجيا لإعادة بناء الاقتصادات الانتقالية.

أدت وصفات السياسات إلى جعل لاتيمر شخصية شهيرة فى المؤتمرات الدولية، وموائد عشاء مجلس الوزراء فى جورج تاون، وفى منتجعات نهاية الأسبوع فى لونج ايلاند مع رجال المال من وول ستريت. وعلى مدار الوقت، كان لاتيمر يحترق فى شكل صور وتماثيل فى الأحياء البائسة فى ريودى جانيرو ولاجوس وجاكارتا. وفى الواقع، فإن عنوان الصفحة الأولى كان عن قيام المشاغبين فى العاصمة الأندونيسية بأعمال

النهب ردا على إلغاء القيود على أسعار المواد الغذائية. وصورة لاتيمر تحمل جملة "المستشار الأجنبى يصر على إعادة الهيكلة". وكان أحد الأقوال المنسوبة إليه غيرَ متعاطف بالمرة عندما ذكر أن الرئيس السابق للبلاد كان يسلب خير البلاد طوال عدة عقود، والآن يأتي رجل الشارع ليلقي باللوم على صندوق النقد الدولي؟ أفيقوا... ليس هناك شيء اسمه "الغداء مجانًا". بل لابد من "الغُرم مقابل الغنم" وسواء أكان هذا حقيقيا أم لم يكن، فإن تصريحات لاتيمر غير المنمّقة لم تكتسب سوى قليل من التعاطف معها خارج دائرة العاملين فى البنوك المركزية ووزراء المالية.

وفى أحد الأيام بعد انتهاء الدراسة، كنت أشارك لاتيمر فى تناول الغداء، وهو ما أصبح يشكل أحد أسس إعداد رسالتى، وبالتحديد كنت أبحث إمكان بناء نموذج ديناميكى التقييم لسوق الأوراق المالية فى إحدى الدول التى مازالت تمر بمرحلة إعادة هيكلة سريعة، بل حتى فى دولة كانت اشتراكية حتى وقت قريب مثل روسيا. وقد أمسك لاتيمر بالفكرة، وقبل مرور شهر واحد، كان قد عبأ لها دعما صيفيا من قسم الاقتصاد، وأصبحت رسميا أحد أتباعه.

ومن خلال لاتيمر، اهتمت بضع شركات متعددة الجنسيات بما أحققه من تقدم، وكانت وورلدكيم من بينها. وكان عملى نظريا بالطبع، ولم أكن أتحدث الروسية، كما أننى لم أذهب إلى روسيا قط، ولم تكن لدىَّ سوى معرفة سطحية بتاريخها. ولكننى كنت أعرف ما يكفى عن النظريات المالية والرياضية لإثارة إعجاب قادة شركة وورلديكم بالآثار الناشئة عن قيمة الأصول التى تمت خصخصتها على الأقل على الورق.

كانت الإضاءة الغازية قد خفضت فى مطعم أولد إبيت للمشويات، حتى فى وقت الغداء، كى تخلق جوًا من الخصوصية فى مدينة الشخصيات العنيفة والصحافة المثيرة والخطيرة. وقد انجذبت عيناى، حتى فى هذه الظلمة، إلى رجل يبدو فى الأربعينيات من العمر يجلس على بعد منضدتين منا، يحتسى كوبًا من الجعة. وكان يركز نظره بشدة على منضدتنا، ويبدو أنه كان يحاول قراءة حديثنا من حركة شفاهنا. وأغمضت عيناى لحظة قبل أن يهب من مقعده مندفعا إلى الخارج.

"هل تسمع يا بيرنز؟".

"هل تعرف هذا الشخص الذى هناك؟".

واستدار لاتيمر، ثم عاد مرة أخرى بسرعة، مكشرًا لاويًا قسمات وجهه قائلا: "ماكس هيس، أحد أكبر أخطائي. يا لها من طريقة لإفساد اليوم!".

ونهض ماكس هيس وأقترب من منضدتنا. كان قصيرًا ونحيلا وكان شعره الأشقر ينحدر كالشلال على ياقة قميصه المفتوحة.

وقال "آه. دكتور لاتيمر العظيم!".

وتجاهل لاتيمر الرجل. ووقف هيس غير هياب إلى جانبنا، مرتكزًا على المنضدة وسأل: "كيف حاله.. إله حرية الأسواق؟".

وقال "لاتيمر": إنني فى اجتماع هل يزعجك هذا؟". وقال هيس: "إن لديك سقفا فوق رأسك ولديك أطيب الأطعمة التى تتناولها، ولكن ماذا تقول عن مليارات الأطفال الذين ليس لديهم هذا؟".

ولم يقل لاتيمر شيئا، بل أخذ يبحث عن مديرة المكان.

ومضى الرجل، والاحتقار فى نغمة صوته قائلاً: "الاستقرار والتحرر والخصخصة.."، وكأنما كان يبصق مقاطع كلامه "إن الفقراء يتضررون جوعًا نتيجة للبطالة، وأنت تدعو هذا تثبيتا! ترتفع أسعار اللبن والخبز إلى عنان السماء، وأنت تدعو هذا تحريراً. ويقوم النخبة بسرقة أموال الشعب، وأنت تسمى هذا خصخصة!!".

وضاقت عينا لاتيمر حتى أصبحتا كشقّين، ولمعرفتى بما لديه من خلفية العمل مع قوات المارين، لم أظن أنه سيمضى وقت طويل قبل أن تصل إلى سمع هيس الجمل غير المعتادة والمَلونة من لاتيمر.

واستمر هيس قائلاً: "لقد جرى اغتصاب العالم الثالث من أجل أرباح التصدير. ولماذا حدث ذلك، لمجرد سداد مستحقات مصرفى أجنبى سمين؟".

ووصلت مديرة المكان، وانسحب هيس بعيداً. "إنك رجل شرير يا دكتور لاتيمر". والتقت عينا هيس الرماديتان بعيناى قائلةً: "ومَن هذا، أهو تابعك الجديد؟". وسرت رعدة إلى أسفل عمودى الفقرى بينما كان يرحل عن المكان.

هز لاتيمر رأسه قائلا: "إن درجات امتحان الدراسات العليا لم يكن بإمكانها التنبؤ بمثل هذا الشخص، فقد كانت درجاته ٨٠٠ فقط".

وسألته: "هل كان أحد تلاميذك؟".

أومأ برأسه قائلا: "منذ عشرين عامًا. كان ولدا ألمانيًا، طبيعيًا تمامًا، ثم قام بقضاء صيف في عمل ميداني في بوليفيا، ثم عاد يتحدث بإسهاب عن شي جيفارا".

ثم سألته: "وماذا عن رسالته؟".

زمَّ لاتيمر شفتيه: "مامبوجامبو وكلام غير مفهوم أو متسق عن حرب الطبقات، ولم تكن هناك معادلة واحدة في كل هذه الرسالة اللعينة. ولم يكن ممكنا أن أوافق عليها".

"والآن؟".

"أصبح يغدو ويروح، ويظهر هنا وهناك، ودائمًا يشتم ويسب. ولا أظن أنه قد وجد وظيفة". قالها لاتيمر وهو يهز كتفيه بدون مبالاة "مخاطر المهنة، كما أظن. على أية حال، دعنا نعود إلى عملنا". وأخذ يهز كوب قهوته وهو يقول: "لقد أعجبت شركة وورلدكيم بالقسم الأخير يابيرنز، كان عملاً جيداً. متى سأرى الفصل الأخير؟".

"إنني على وشك الانتهاء منه". هكذا قلت كاذبا، وأنا أتجنب عينيه. بينما كانت عينا رأس حيوان الفظ المعلقة فوق البار تحملق فيَّ منذرة بسوء.

وكان لاتيمر يبدو كما لو كان في غفوة نوم. "اللعنة... أنا لا أخبرك بشيء لا يتهامس به السوق على أية حال يا بيرنز، حتى ذلك الغبي هيس ربما يكون على علم به"، ومال نحوي مخفضا صوته إلى درجة الهمس: "إن وورلدكيم ستتقدم بعطاء في صناعة الألمونيوم الروسية، وستكون أضخم عملية خصخصة يشهدها العالم على الإطلاق".

وأطلقت صفارة من فمي: "إذن هذا هو سر اهتمامهم برسالتي!".

"أصبت.." وكان لاتيمر على وشك الاستمرار إلا أنه توقف، ثم قال أخيرًا "إنك تستمتع يا بيرنز بعمل الأشياء بطريقتك الخاصة، لقد فعلت ذلك دائمًا، كما لو كانت هناك شريحة إلكترونية في كتفك". وابتسم متجهمًا: "إلا إذا كانت هناك أسراب هائلة من أسماك

الأنشوجة تركب عليها. إن نموذجك سيهيئ لشركة وورلدكيم تفوقا ضخمًا فى مفاوضاتها".

ومال إلى الخلف فى مقعد مخملى أخضر قائلاً: "إنه قد يساوى مليار دولار بالنسبة لوورلدكيم فى عملية بهذه الضخامة".

وابتلعت هذا دون سؤال أو اعتراض.

"إنهم لا يمكن أن ينتظروا إلى الأبد يا بيرنز. وفضلاً عن هذا، هل تظن أن كويج مانسفيلد وفريقه فى بالوآلتو يعبثون؟ إن أمامك ميزة منذ البداية يا بيرنز، وستنزل علىّ اللعنات لو هزمتنا جامعة ستانفورد فى نشر هذا". وأنزل لاتيمر شرابه من يده قائلاً: "لقد استوفيت كافة الأشياء الأخرى. إنها ستكون رسالة شديدة الروعة، من أفضل ما أشرفت عليه".

ومثل كثير من الأساتذة، كان لاتيمر يعامل نتائج بحوث طلبة الدكتوراه كما لو كانت ملكًا له. وا.. أسفاه على مرشح الدكتوراه الذى لم يضف اسم لاتيمر فى أوراق بحوثه المنشورة. إن تراث لاتيمر كان هو مجموعة طلبة الدكتوراه الذين درسوا معه، وبدونهم من ذا الذى سيسلم شعلة عظمته إلى الجيل التالى؟ ومن ذا الذى سيقوم بالعمل الذى يتلقى هو عليه التكريم؟

"إن من الصعب جدًا فى هذه الأيام تعيين أو استخدام الطلبة المتفوقين". واستمر لاتيمر قائلاً: "لم يعد هناك سوى قلة جيدة من الأمريكيين، وكلهم يفضلون تصيُّد عربات الإسعاف للعمل كمحامين فى رفع الدعاوى القضائية الجماعية. كما أن مواردنا من طلبة أمريكا اللاتينية فى طريقها إلى النضوب، والساحل الغربى يلتهم معظم السوق الآسيوى".

وتنهد قائلاً: "إن هذا يذكرنى يا بيرنز، فقد حولت الفصول الأولى من رسالتك إلى لجنة صمويلسون". وتجمدت فى مكانى، وابتسم بخبث كما لو أن عدم ارتياحى كان فكاهة. "وهم سيرسلونها إلى الخارج؛ لمراجعتها بالطبع، ولكن عند أول ما حولته إليهم، كانوا مبهورين جدًا، تهانىّ".

لقد تم ترشيحى لجائزة صمويلسون، أعلى الجوائز قدرًا من بين ما يمنح لطلبة الدراسات العليا فى الاقتصاد!!وأخذ عقلى يدور كالدوّامة، مما جعل ما قاله لاتيمر بعد

ذلك يطير فوق رأسي، ولكنى أمسكت بذيل إحدى الجمل.. فى ٨ سبتمبر، أيمكنك أن تحقق ذلك؟

كان عقلى خاليا تماما.

"بيرنز، أفق! أيمكنك أن تحقق ذلك أم لا؟".

"آه... بالتأكيد".

قال: "حسنا... إيدا سترسل لك التفاصيل. وأرجو ألا تفسد هذا يا بيرنز، إن سمعتى هى التى على المحك".

واستغربت أن شخصا يتحدث بهذه الطريقة غير اللبقة يمكن أن يمنح كرسيًا فى إحدى الجامعات المتميزة. وعندئذ، تذكرت شرائط تسجيل البيت الأبيض السرية للرئيس نيكسون، والتى امتلأت بالبذاءات والألفاظ السوقية التى قد تدهش وتصدم أى بّحار. إن الهيكل الاجتماعى الأمريكى شديد السيولة حيث إن النجاح لا يشترط أبدًا وجود اللياقات الاجتماعية.

وبينما كان النادل يعد فاتورة الحساب، تذكرت فجأة زائرى فى الليلة السابقة. "على فكرة : إن أغرب شىء حدث الليلة الماضية،.....".

ورفع لاتيمر حاجبه إلى أعلى.

"إن رجلا ظهر على باب بيتى أمس أثناء هطول المطر، ويقول إن لديه هلوسة بأن "صوتًا" ما قد سيطر على عقله! وخذ هذه فتسجد إنها مثيرة للسخرية. "وضحكت فى خفوت: "إنه يقول إنه صوت آدم سميث".

"اسمع يا بيرنز، إننى أحب الثرثرة"، وألقى لاتيمر نظرة خاطفة إلى ساعة معصمه، وسحب أداة تليفون محمول من سترته. "ولكن طائرتى ستغادر فى خلال بضع ساعات، ولابد أن أقوم ببعض الاتصالات"، وكان لاتيمر بالفعل يتحدث فى مكان آخر بينما كنت أنهض من مكانى، وأشعر كأننى خادم مطرود. وبينما كنت أخرج النقود من حافظتى، شعرت بأننى أسرفت فى دفع البقشيش، وكنت متأكدا دون شك أن لاتيمر سيخطئ فى الاتجاه العكسى.

كانت رحلة العودة بالقطار إلى فردريكسبورج فرصة أعطتنى وقتا للتفكير مليًا فى علاقتى الطويلة مع لاتيمر. وبقدر ماكنت مدينًا له لرعايته، فقد أزعجنى اهتمامه المفاجئ بإنهائى للرسالة. وقد كنت فى ذلك الوقت ما يطلقون عليه ABD أى أننى أنهيت كل ما هو مطلوب لدراسة درجة الدكتوراه فيما عدا الرسالة. وهو ما جعلنى ميتًا بالنسبة إلى سوق العمل، وأجبرنى على قبول أجور العبيد. وكان هذا أمرا رائعا بالنسبة إلى لاتيمر وحفنة من الأساتذة الآخرين الذين كانوا يعاملون طلبة الدراسات العليا كخدم تحت التدريب.

لقد قابلت كثيرًا من الأساتذة ممن كانوا على العكس تمامًا من لاتيمر، ولكن حظى كان قد التقى بشخص غريب الأطوار مثله. وكانت شهرته الواسعة قد أعمتنى، فلم أفكر فى أى شيء آخر. واخترت المشرف (المستشار) على رسالتى بعد ترجيح التكاليف والمزايا، ناسيًا أن أحد الدروس الأولى فى الاقتصاد، هو أن التكلفة الحقيقية لأى شيء غالبا ما تكون مستترة. وتحققت، ولكن بعد السنة الخامسة أننى لن أنتهى من الرسالة ما دمت قد "تزوجت" لاتيمر. ولذا، قاومت النظام بشدة، وهجرت القاعات المكسوة باللبلاب فى كامبردج، فى قلب بوسطن الأكاديمى، وذهبت إلى القاعات المكسوة بالطوب الأحمر فى كلية هيرست، فى فيرجينيا، كمكان يمكن فيه أن أركز على الطلبة، وأعمل وحيداً. وكانت هذه على الأقل، هى خطتى، وبمجرد أن أصبحت أحد رجاله، ودائما أحد رجاله، وطوال وقت إشرافه على رسالتى، فإن عليَّ أن أكون على الحافة العليا فى سفينته، وأن أبحر فى اتجاهه. وكان مشروع شركة وورلدكيم قد قدِّم إليَّ باعتباره أمرا نهائيا لا يمكن الحديث بشأنه: إما أن أتقبله، وإما أن يتنحى لاتيمر عن إشرافه على رسالتى. وكانت عملية إيجاد أستاذ آخر، فى هذا الوقت المتأخر لدراساتى العليا، أمرا لا يمكن بالفعل، التفكير فيه.

تباطأ القطار، وأخذت صفارته تعوى بينما كنا نسير على مهل خلال مدينة كوانتيكو. وعلى البعد، رأيت جنود مشاة البحرية (المارينز) يرتدون القمصان الرياضية والسراويل القصيرة، يمارسون الجرى الوئيد فى شارع تصطف الأشجار على جانبيه. وفى لحظة زاد القطار من سرعته، عندما أصبح يسير موازيا لنهر بوتوماك. وكانت تتخلل الأشجار شواطئ رملية بها صخور، رملية ضخمة وسرعان ما وصل القطار إلى

حافة الشاطئ، واتسع النهر إلى مجرى عريض من المياه. وأومضت شمس ما بعد الظهر مضيئة المكان، بينما هبت ريح منعشة تلفح الموجات المزبدة. وعلى اليمين، كان أحد البيوت الجليلة الضخمة القديمة يقف وحيدًا فى أحد الحقول، كما لو كان قد تحمل غزو الأسطول البريطانى لنهر البوتوماك فى عام ١٧٧٦.

وأخذت أفكارى تهيم متعرجة مع سير القطار، واعترفت لنفسى أننى كنت سأذهب مع لاتيمر الآن. لقد كذبت، لقد كنت "مقتصداً" مع الحقيقة، وكنت أقول له ما كان يود أن يسمعه. والحقيقة أننى لم أكن على الإطلاق قد اقتربت من إنهاء الفصل الأخير من رسالتى. لقد كتبته ثلاث مرات، ثم وضعت المسودة على الرف فى كل مرة. إن لدىَّ العناصر ولكنها لا تتلاحم، وربما كان هناك شىء مفقود، وقد يكون ما لدىَّ جيدًا بما يكفى للبدء فى العمل، وربما أراد لاتيمر أن يسترضى شركة وورلدكيم بما يكفى؛ لكيلا تكون للموضوع أهمية. إلا أن الشىء المؤكد هو أننى لن أربح جائزة صمويلسون إلا إذا أنهيت رسالتى.

وبمجرد عودتى إلى مكتبى فى فريدريكسبورج، طلبت رقم تليفون لاتيمر فى كامبردج. وأجابت إيدا ماكوى علىَّ بعد أول رنين للتليفون. ومع أنها قمة فى كفاءة السكرتارية، فإن إيدا أيضا كانت قلب قسم الاقتصاد. كانت تتذكر أعياد الميلاد، وترسل زهورًا للمرضى، وتقدم الدعم اللطيف والإنصات الحانى. وبعد تبادل التحيات الدافئة، سألتنى إيدا عن حياتى. وكذبت للمرة الثانية فى ذلك اليوم عندما أكدت لها أن كل شىء على ما يرام، ثم استفسرت عن الاجتماع الغامض فى شهر سبتمبر.

"٨ سبتمبر؟". وسكتت إيدا بعدها، وكان يمكننى أن أسمع حفيف تقلب الصفحات. "هذا موعد الاجتماع السنوى لشركة وورلدكيم فى مقرها الرئيسى بسان فرانسسكو. وقد طلب منى دكتور لاتيمر أن أحجز لك؛ إذ إنك ستتحدث أمام مجلس الإدارة".

وصفرت بفمى بينما كنت أتنهد، لقد تم تحديد الموعد، وأصبح لابد من الانتهاء من الفصل الأخير. وبدأت أسخط على أكوام الأوراق المتراكمة على مكتبى. لقد حان الوقت للانتهاء، ومع ذلك فمازلت متعثرًا.

وفى منزلى وبعد بضع ساعات، قمت بتحضير شراب من ويسكى درامبوى لمساعدتى على النوم، وجلست مضطجعًا وكلبى ركس ممدد فى حجرى. وكانت الظلال السوداء لفرائه ذات اللون العسلى ترسم على عينيه شريطا من الكحل الأسود. كما كانت هناك حلقة بيضاء ناصعة حول رقبته تتخللها بقع داكنة، تظهر مرة أخرى فى الذيل، بينما كانت كل قدم تبدو وكأنها كرة بيضاء من الثلج: كان كلبًا لا يمكن توقع تصرفاته.

وكانت مسحات يدىَّ على أذنى ركس قد جعلت الراحة تسرى فى جسدى بقدر ما أراحته. وكان غدائى مع لاتيمر كافيا لكى تضطرب معدتى. وفوق ذلك كله، كان ذلك اللقاء غير المرتب مع ماكس هيس، طالب الدراسات العليا السابق ونظراته المحملقة السامة. وكان زائر الليلة السابقة هارولدتيمز، فى حد ذاته أمرا مرعبا، عندما كان يصر على أن آدم سميث قد سيطر على عقله المجنون. يا لها من شخصيات عجيبة تلك التى غزت عالمى فى هذه الساعات الأربع وعشرين الماضية!!

وتثاءب ركس، ناظرًا إلى أعلى ليرمقنى بعينيه ذات اللون البنى، وأكاد أقول عينيه البريئتين ومع أننى لم أكن أعلم مقدار ما يمكن أن يحدثه ركس من إزعاج، إلا أننى فى هذه المرة تعجبت لما رأيته فى عينيه من ومضة تأنيب للكيفية التى عاملت بها موضوع هارولدتيمز فى الليلة الماضية. وأخذت رشفة من ويسكى دارمبوى واستغرقنى التفكير، كان ذلك كله فى الماضى.

الفصل الثالث

مهمة خطيرة

بعد أسبوعين، التقيت مع جوليا بروكس فى مكتبة الكنيسة التى كانت بمثابة البهو. وكانت مصافحتنا ودية، بل كادت أن تكون بحنان. وكانت لمعة ابتسامتها الحقيقية تحمل لمسة ذلك الوقت منذ عام مضى، عندما تناولنا العشاء معًا بضع مرات. ومنذ ذلك، لم أرها إلا فى الكنيسة. وكانت جوليا فى مثل عمرى، تناهز الثلاثين، ولكنها كانت من نوع المرأة التى يمكن أن تبدو مثل الطفلة أو امرأة محنكة بمجرد حركة سريعة ترفع بها شعرها البنى الطويل. وقد أسبغ عليها بنيان جسدها الصغير الأنيق منحنيات لطيفة. وكنت دائما ما أرى أنها جذابة بشكل لطيف.

"شكرًا على مجيئك"، قالت ذلك وعيناها الخضراوان تتراوحان ما بين الاعتذار والتأنيب.

كنت أفكر فيما قد أقوله فى ذلك الاجتماع، إلا أن وجودها أمامى جعلنى أقل تأكدا من ذلك. وصببت كوبًا من القهوة، بينما فضلت هى كوب شاى باللبن وجلسنا على إحدى الأرائك البالية.

"إنى آسفة لتوريطك فى هذا الموضوع"، قالت وقد بدأت آثار من صلاتها بإنجلترا تتسلل إلى لهجة حديثها. "لقد كنت أنا والقس فى حيرة، وأنت الاقتصادى الوحيد الذى نعرفه".

وابتسمت مترددا وأنا أقول: "أنا لا يمكننى التعامل مع المدعو هارولد تيمز". "إن المسكين سيصبح مجنونا تمامًا، فقد مضى شهران منذ أن بدأ هذا الصوت يتردد فى رأسه". وهزت رأسها وهى تقول: "إن قيامه بالاتصال الروحى ليس شيئا من اختياره، بل هو استحواذ فكرى، رهيب فى خطورته" ونظرت إلىّ مباشرة قائلة: "إنه بحاجة للتحدث معك".

"ربما ينبغي عليه أن يرى متخصصًا في طرد الأرواح الشريرة؟!". وغمزت بعيني؛ آملاً في ضحكة. إلا أنها زمت شفتيها معاً، وهنا تحققت أن فكرتها ورأيها فيَّ لهما أهميتهما.

وأخذت جوليا نفسا طويلا أخرجته في زفرة شديدة. "صدقني ياريتش، إن هذا ليس استحواذًا شيطانيًا، كما أنه ليس جنونًا أيضا".

وهمهمت، ثم رشفت قهوتي. ورأيت عينيها وقد تحولتا إلى نبعين من الأسف السائل، وهز ذلك مشاعري للحظة ثم سألتها: "كيف عرفت ذلك؟".

"لقد مررت بهذا كله من قبل"، قالت وصوتها يغلظ:" ربما تتذكر أن أمي وأبي كانا من المبشرين، وقد عشنا في نيجيريا بين قبائل اليوروبا. وقد توصلت إلى تقدير، إن لم يكن بالنسبة إليّ قبول، رؤيتهم العامة بأن أسلافهم يقطنون في الأرض، في شكل أرواح. وهم يتصلون بالأرواح التماسا للشفاء والإرشاد. وقد أُسيء فهم هذه الممارسة تماما في أمريكا، فضلا عن الحط من قدرها باعتبارها "فودو" أو ما يشبه تلك الديانات الزنجية القائمة على السحر والشعوذة".

"وكيف دخلت أنت في الموضوع؟".

"قبل الرسم، اشتغلت على نطاق ضيق في الأنثروبولوجي (علم أصل الإنسان)، حتى أنني كتبت رسالة الماجستير عن كاندومبولي، ألم تسمع عنه؟".

وهززت رأسي نافيا.

"كان العبيد الأفارقة يجردون من دياناتهم عندما يؤخذون إلى العالم الجديد. إلا أن منع تلك الممارسات الروحية لم يقض عليها، بل إنها ظلت مختفية تحت الأرض. وكانت الطبول تستخدم لاستدعاء الأرواح، وهذا هو أصل رقصة السامبا البرازيلية. أما في أمريكا، فقد كان لدينا "البلوز" وهي الموسيقى والأغاني المملوءة شجنا".

وقلت: "هذا ممتع، ولكنه يقع خارج مملكتي الأكاديمية".

"هذا ليس أكاديميا بالنسبة لي، ولكنه شخصي"، ووضعت ذراعيها متقاطعتين فوق صدرها وهي تقول: "لقد ذهب هارولد إلى القس ينشد المساعدة، وطلب إليّ القس أن

أساعده. إن هارولد على اتصال روحى بإنسان طيب ورحيم، ويتعجل بإلحاح الاستماع إليه".

"إنه يبدو كذلك".

"لقد توفيت زوجته منذ عام مضى. مما جعله يشعر بالمرارة بعد السعادة، مع نوبات جيشان أو انفجار غاضب مما يكشف - كما أعتقد - عن الوحدة والخوف. وليس هناك من عائلته من يعيش قريبا من هنا، كما أنه فقد أصدقاءه. وعلاوة على ذلك، أتى هذا الصوت ليهدر فى رأسه طوال أربع وعشرين ساعة فى اليوم. فأصبح لا يقدر على النوم ولا يقدر على العمل".

"ربما كان يصدر أصواتًا فى حالة نشوة دينية". قلت ذلك متأكدا أن جوليا قد رأت تكشيرتى".

"يتحدث منتشيا دينيا؟". كان صوتا عميقا يتردد خلفى. واستدرت لقد كان القس. كانت رأسه منتصبة، ويداه على أردافه على بعد بضع ياردات منى. وكان رجلا عريض الأكتاف، ذا شعر فضى، يلبس نظارة ذات إطار من أسلاك الصلب، وكان قميصه الأسود ذو الأكمام القصيرة مزينا بياقة كهنوتية بيضاء.

وقالت جوليا: "إننا نتحدث عن هارولد تيمز، الذى يتحدث فى نشوة دينية، ويثرثر اقتصاذا". إن الحديث فى نشوة دينية هبة من الروح القدس"، هكذا قال القس بصوته الرنان الباريتون، والذى نما وتطور فى أحد أحياء شيكاغو الفقيرة. "لقد سمعت بنفسى الأمريكيين الهنود - الشامان - يتحدثون إلى الأرواح. هل يثير هذا دهشتك باعتباره أمرًا شاذا ياريتش؟". وحيّانى وربت بلطف على كتفى.

"شاذ جدًا".

"حسنا لقد تلقيت رسالة تليفونية من هارولد. أخشى أن تكون أخبارًا سيئة. لقد فقد عمله فى الجراج".

وخبطت جوليا بكفها على ذراع الأريكة قائلة: "أوه... لا!!".

وقال القس: "إنك لا يمكن أن تقاومي التغيير، ولكن عليك أن تواجهيه"، واستدار لينصرف "من الأفضل أن أذهب لرؤيته".

وقلت لجوليا "أنا لا أدرى لماذا يحتاج إلىَّ هارولد"، إن لديك الخلفية التى تمكنك من فهم ما يقوله هذا الصوت. وهارولد لا يمكنه القيام بذلك، كما لا يمكن للطبيب أيضا الذى سيقوم بمجرد تخديره ليصمت. وإذا ما تمكن هارولد من حل هذه المسالة، فإنه سيستعيد حريته وحياته".

"ريتش، أرجو أن تعدنى بمساعدته؟ فضلا عن أننا مازلنا فى الصيف. ولديك متسع من وقت الفراغ الآن، أليس كذلك؟".

الوقت يساوى المال، هكذا فكرت، ولكننى بدلا من هذا قلت: "إننى مشغول حقا".

"ومن منا ليس كذلك؟". وحدجتنى بنظرة من هاتين العينين المتوهجتين، ووجدت نفسى آسفًا على كلماتى المتسرعة.

ونظرًا لأننى لم أكن شخصا انبساطيًا، كما أن إشراك الآخرين فى مشاكل حياتى لم يكن من الأشياء التى أفعلها عادة؛ فقد جعلنى هذا أحس بتعرضى للمخاطر، وخاصة مع تلك المرأة الجميلة التى كنت أواعدها ذات يوم. وجذبت إحدى الخطابات المكرمشة من جيبى، وكان من كبير الإداريين فى كلية هيرست.

"اسمعى"، هكذا قلت محاولاً تقليد الإيقاع الرسمى المتكلف لصوت كبير الإداريين، "إن تجديد عقدك للخريف القادم يتوقف على استيفاء وإتمام درجتك النهائية". قالت بهدوء: "أنا أفهم هذه الكلمات، ولكن ما معناها؟".

"إننى بحاجة إلى الانتهاء من رسالتى، وإلا سيتم فصلى". ونهضت واقفًا، دون أن أنتظر إجابتها، ولكنى كدتُ أهمهم لنفسى: "نحن فى منتصف يونيو وأنا محتاج لقبول اثنين من أبحاثى فى إحدى المجلات الجيدة، وإلا فإننى لن أحصل أبدًا على جائزة صمويلسون، ألا يمكنك أن ترى أن لا وقت لدىّ!!.

كانت هادئة وجامدة، ثم قالت: "ربما كان لديك من الوقت أكثر مما تظن". وكانت إجابتها نافذة؛ لأنها كشفت عن مدى معرفتها بى. وأصبح هارولد وأوراقى البحثية، وكبير

الإداريين - لا يشكلون أعذارًا، ولكن مجرد مخاوف. والأمر الأكثر أهمية، هو ما كان يبدو من معرفتها بأسرارهم.

* * *

كان منزل جوليا الفيدرالى العتيق، عبر نهر راپاهانوك فى فولماوث، أحد المنازل القليلة الباقية منذ فترة المستعمرات، وكانت حوائطه الخشبية الخارجية قد طليت باللون الأبيض حديثًا، بينما كان سطحه الصفيح الأحمر قد أعيد طلاؤه بعناية. وكانت قطع الأثاث القليلة الموجودة مزيجا منتقى من القديم والحديث، تم الجمع بينها معًا؛ لخلق جو دافئ على الرغم من تفرقها وتناثرها.

جلست جوليا مع هارولد ومعى فى غرفة المعيشة. وكان الصباح حاراً. أما كيف انتهى بى الأمر إلى هنا، فلم يكنْ واضحًا تمامًا بالنسبة لى. كنت أعلم أننى لم أفهم جوليا، وبشكل غير جيد، حتى عندما انجذبت إليها مرة أخرى. لقد أحببت فيها الانضباط الذى كان يبدو أنها تمارسه على حياتها، وهو ما لا يشبه ما لدىّ. وكان تحققى من ذلك سببا فى تشجيعى وخجلى معاً. ومنذ بضعة أيام أحسست كأن الماء يندفع فى شكل دوامة، واليوم أنا قد فعلت ما أرادت، وليس فقط من أجلها.

على منضدة القهوة، كان هناك جهاز تسجيل صغير تم وضعه بين هارولد تيمز وبينى. وكنا الزوج غير المتماثل: كانت الأوردة الدموية تملأ ظلال أنفه، هابطة من عينيه الكبيرتين ذات اللون البنى. وكان خداه السمينين يحملان جانبين طويلين لشاربه، وذلك على النقيض من شعر لحيتى الأسود الذى كان يخفى طفولة خدىّ، وشعرى الذى كان ينسدل برفق على ظهر ياقتى. بينما استقرت على أنفى نظارة ذات زجاج يحاكى درقة السلحفاة. وعلى النقيض من بطن هارولد الضخم، كانت معدتى نحيلة ومشدودة، وذلك بسبب التوتر.

وجلست جوليا عبر الحجرة. وكانت تراقبنى وأنا أثقل على نفسى حتى أكون لطيفًا مع هارولد تيمز. "قل لى بماذا أناديك... دكتور سميث أم بروفسيور سميث؟". واستخدم هارولد تيمز يده ليغطى على سعاله، وأغمض عينيه. وعندما أعاد فتح عينيه، أصبح هناك

صوت جديد ظاهر الغرابة، قوى ولكنه خشن. ولكن اللهجة البريطانية والتواءها أخفت تمتمته.

"ادعنى سميث... سميث فقط تكفى".

واعتدلت فى جلستى، وقد أجفلت بسبب التغير التام. وبحثت عن رد فعل جوليا، إلا أنها كانت تنظر إلى الأرض وهى تنصت باهتمام.

قلت: "من أين نبدأ؟ فإننى لم أقم بهذا من قبل"، وظهر الارتباك علىّ. "اترك ذلك لى". قالها بثقة وسلطان "إن الأمر يجب أن يوضع فى مساره السليم، وأنا الذى سيفعل ذلك. إن الناس لديهم رأى بغيض فىّ. لقد أصبحت مسخاً، أو حتى سخرية!! آه.. إن هذا ليس زهوى الذى يتحدث. وأن أقول لك إن حريتنا معلقة فى الميزان".

"هل العالم الحر على وشك الانهيار؟". وحافظت على وجهى جامداً. ثنى هارولد يده فى شكل قبضة ثم وضعها فى فمه. وأطبقت أسنانه على عظمة إصبع السبابة. وانتظرته حتى يتحدث، ولم يقل شيئا. لا شيء على الإطلاق.. واستخدمت فترة السكون؛ لأتمعن فى الحجرة. كان كل حائط مغطى بلوحات من رسوم جوليا الموضوعة فى إطارات، وكل لوحة منها مرسومة بألوان الباستيل لأزهار كبيرة الحجم عليها حشرات ضخمة وجميلة. وفى إحداها كانت عنكبوت الأرملة السوداء مستقرة على إحدى أوراق الشجر، وبطنها يتلألأ لامعاً. وأومأت إلى الرسم، ثم إلى جوليا، وأومأت هى بابتسامة.

واستمر الصوت بقوة: "إن نظامنا التجارى تجرى مهاجمته، والناس يجرون من حوله كالنمل على وعاء العسل، ولا أحد يهتم بالأسئلة الكبرى. الأسس: آه إنك قد تضحك، ولكن بدون ذلك، سيضيع المجتمع المتمدن ويصبح تحت رحمة التيارات بلا هدى". ودق على ذراع الكرسى. "أنا أوجه هذا بصفة خاصة لزملائى الاقتصاديين".

وهمهمت قائلا: "كالجحيم".

وضاقت عينا الرجل: "ماذا تقول؟".

أقول: "إن الاقتصاديين يؤلهون آدم سميث"، ولو كنا نتبع المذهب الكاثوليكى فإن سميث كان سيصبح القديس الراعى لنا".

هز رأسه قائلا: "إن الاقتصاديين قد يكرمونني بشفاههم، ولكن ليس بقلوبهم، وباطلاً يعبدونني، وهم يقومون بتدريس آرائهم باعتبارها تعاليمي".

وأحنت جوليا رأسها: "هذا في إنجيل مرقس، أليس كذلك؟".

وعقبت قائلاً: "إن الاقتصاديين أذكوا شعلة حرية الأسواق وروجوا أعمال "اليد الخفية". وأخشى ألا تكون قد علمت بالأحداث التي يرثى لها في آسيا وأفريقيا وغيرهما. بل حتى في روسيا، من بين كل أرجاء العالم، يقومون بخصخصة الصناعة".

"إن ما لديك هو نصف الحقيقة". ونهض متثاقلا على قدميه، تظللني ضخامة جسده. وانتقل إلى النافذة ثم استدار عائدًا، واضعًا يديه الكبيرتين على أردافه: "إن لديك الفتيل، ولديك الشمع، إلا أن الشمعة لن تضئ دون أوكسجين".

"يعني؟".

"أنا مسرور بالتحرك نحو حرية الأسواق، وأرجو ألا تسيء فهمي. أما سبب عودتي، وأقسم بالله أن هذا لم يكن سهلاً - حاول أن تدخل في عقل هارولد!!- فقد كان لأنكم جميعا أخطأتم الجوهر الذي يجعل السوق يعمل في المجتمع. هل رأيت؟".

وكنت على وشك أن أسأل عن تلك الصلة بين ما في علم الاجتماع والاقتصاد الحديث، عندما ذهبت جوليا إلى ذلك المدعو "سميث" وجلست مترددة على حافة الأريكة.

قالت: "هل تعلم، أن هناك شيئا واحدا.. شيئا وأحدا لا يبدو ملائما... لهجتك إنجليزية.. وليست اسكتلندية".

ورفعت كلا حاجبيّ " آه – آه".

ونظر هذا الإنسان إلى الخلف بهدوء.

واستمرت جوليا تقول: "إن من السهل على أي أمريكي ألا يدرك هذا، ولكنني إنجليزية - كما تعلم - وقد أخبرني ريتش أن آدم سميث الحقيقي كان اسكتلنديا". ورمقتني جوليا بلمحة من عينيها، ثم استدارت إلى هارولد.

أخذ يحرك فمه كأنما كان يمضغ حشوة من الطباق، التي لم تكن في فمه، وأخيرا قال: "إذا كنت تريد فإنني يمكن أن أقلد تماما اللهجة الأيرلندية. فهل يسعدكما هذا؟ هل

تودون سماع نغمة المناطق الجبلية؟ هل أقوم بإحدى الرقصات السريعة؟ أم تودون أن ألبس التنورة الاسكتلندية، وأن أعزف موسيقى القرب؟ هل سيكون ذلك هو دليلكم لتصديقي؟".

وقفت إلى جانب جوليا وقد فقدنا النطق.

واستمر قائلاً: "آه، قم بعمل هذا يا أخ....!!" وأخذ ينطق بكلمات بلغة غير مفهومة.

"ولكن كيف ــــــــ؟".

"ليس هناك غموض". قال عائدا إلى اللغة الإنجليزية الرصينة: "إن كل أساتذتى الاسكتلنديين كانت لهجتهم الإنجليزية تتسم بالتفوق، وأنا كذلك ومع ذلك فإننى لم أكن سأواصل دراساتى فى إنجلترا لو لم أحسن نطق حرف R. وأى شخص كان ينطق بلهجة تشبه الاسكتلندية، كان عرضة للضرب بالعصا بسببها. وكانت هناك حرب أهلية كما تعلم. فقد ثار اليعاقبة ضد الإنجليز فى سنة ١٧٤٥ ولكن ذلك لا يعنى كثيرًا بالنسبة إليك".

وضرب بكف يده على مسند الكرسى: "أنا رجل عملى، ولست غبيا، ولهذا أمكننى التكيف. لقد أصبحت لا ألفت النظر من خلال تحدث لغة الأم السائدة، ولم لا؟ إن اللغة الاسكتلندية فى زمانى كانت لغة فاسدة. كيف يمكن أن يحدث تقدم علمى فى خضم هذا الخليط من المصطلحات؟!".

واستغرق سميث فى التفكير للحظة، ثم قال: "قد تحب أن تعلم، أننى بدأت حياتى كمدرس للبلاغة – نعم، بل والأدب أيضا. هذا عندما كنت عاطلا، لمدة بضع سنوات بعد انتهاء الدراسات العليا، وعندما كنت أعيش فى موطنى مع أمى، واقترح أحد الأصدقاء أن أذهب إلى "إدنبره" وإعطاء دروس عامة، فإن ذلك لم يؤثر فى أجرى، رغم لهجة أوكسبريدج التى كنت أتحدثها، بل على العكس تماما. وقد ساعدتنى هذه المحاضرات على تولى أحد مناصب هيئة التدريس فى جلاسجو بعد بضع سنوات.

ونظرت إلى جوليا، التى قالت:

"إن أوكسبريدج هى اختصار لجامعتى أوكسفورد وكامبريدج، إن هذا كافيار التعليم، وقمة الأناقة الثقافية للسادة".

وقطبت ما بين حاجبي، كان من الصعب أن يكون هذا ما تخيلته عن تواصل الأرواح مع العالم المادى. فإذا كان هارولد قد عثر على هذا الصوت وعلى هذه الكلمات من خلال نوع من الجنون، فإنه عندئذ يكون سائرا فى إحدى الخدع الجيدة. ومع ذلك، فقد فكرت أن آدم سميث الحقيقى، لو كان سيوصل أى شىء على الإطلاق، كان سيتعاطف معى بشأن الضرائب المرتفعة، وتدخل الحكومة فى حياتنا. وبدلا من ذلك، فإننى شعرت كما لو كان يجرى استجوابى فى امتحان شفهى بإحدى المدارس العليا.

واستمر يقول: "وإذا ما قلت ذلك، فإن إحدى المشكلات البلاغية فى الاتصال هى أن السامع قد يسمع شيئًا مختلفا عما يقصده المتحدث. وهكذا، فإن هذه هى المشكلة الحقيقية التى أواجهها اليوم. الاقتصاديون المحدثون، حتى عندما ينصتون، لا يفهموننى".

وسألته: "هل يمكن أن نعود إلى نقطتك التى ذكرتها عن الفتيل والشمع؟ وما الذى أهمله الاقتصاديون فيما يخص المجتمع؟".

ورفع إصبعًا للتأكيد: "إن التفاعل الحيوى فيما بين الكائنات البشرية هو الذى يجعلها مجتمعاً، والإحساس بالزمالة هو أساس السلوك الأخلاقى".

وأومأت إلى جوليا وقلت وأنا أؤكد على اللقب فيما بين "دكتور سميث فى تلك الأيام وهذا العصر، يتناول الأطباء النفسيون علاج العواطف، بينما يتولى الاجتماعيون ما يخص المجتمع، أما الفلاسفة فيناقشون الأخلاق، ويقف الاقتصاديون بعيدًا عن كل أولئك الذين يدرسون الأسواق".

وهو ما يطلق عليه "تقسيم العمل"، الذى أيدته، إلا إذا كنت مخطئا.

وأشار إلىّ قائلا: "إننى قلت أيضا إن الإفراط فى تقسيم العمل يمكن أن يجعل المرء غبيًا، وأن يجعل الأجزاء الأكثر نبلاً من خصائص البشر تغمض وتختفى. لا تكن لطيفا أيها الشاب، فإننى أعلم أن ما كتبته أفضل قليلا مما كتبت أنت".

وسلمت بذلك قائلا: "ما رأيك؟".

تجهم سميث: "إن السوق لا يمكن أن توجد فى فراغ بعيدًا عن الناس. إذ إن الناس هم الصمغ والسبب. إن القوة غير الشخصية للسوق لا تعنى أننا سنصبح أناسا غير شخصيين".

"ما الذى تتحدث عنه؟".

"الصورة الكبيرة تقول إن المشاعر ذات أهمية. وحتى لو كانت آلية السوق غير مهتمة، فأنا كشخص لا يمكن أن أكون كذلك، ولا يجب أن أكون".

"ما علاقة هذا بالأعمال... بربِّك؟".

قال سميث: "إنك شخص نافد الصبر.. أليس كذلك؟".

وقالت جوليا وهى تقاطع حديثنا: "ينبغى عليكما أن تأخذا قسطًا من الراحة".

قلت وأنا أنهض: "وإذا كنت آدم سميث، فلماذا تتصل من خلال هارولد؟".

"كفى، إننا نأخذ فسحة من الوقت"، قالت جوليا بإصرار.

ومشيت مع جوليا إلى الفناء الخلفى، وسألتنى: "ماذا تظن؟".

"إنه مجنون". قلت وأنا أرفع يدىَّ فى الهواء: "أنا لا أعرف ماذا أظن فهو قد قدّم تفسيرًا مقبولا للهجته الإنجليزية، وهذا فى حد ذاته عمل فذ، إذا ما أخذنا فى الاعتبار لغته الرومانية المعوجة وفى الحقيقة، ما زلت، لا أدرى ما صلة هذا بآدم سميث الذى أعرفه".

"ألا يمكنك أن تتوقف عن مهاجمته وتبدأ فى الإنصات إليه – أعنى الإنصات الحقيقى؟ إن الموضوع فى حد ذاته يمثل خطورة كافية بالنسبة لهارولد، وهو أشد خطورة بالنسبة لى، فقد أفقد عقلى".

قالت: "أنا جادة فيما أقول. وقد حقق إدجار كايس الشفاء لآلاف من المرضى نتيجة للقراءات النفسية، بالقرب من الطريق إلى شاطئ فرجينيا، لقد قتله الإجهاد. إن أولئك الذين يتصلون بالأرواح لا يعرفون الراحة، ولا النوم، ولا يمكنهم التفكير حتى يتموا تبليغ الرسالة. إن هارولد يوشك أن ينفجر".

"إذن عليك أن تأخذيه إلى طبيب نفسي. اذهبى به إلى طبيب حقيقى". وحملقت جوليا: "إن هارولد ليس مهووسا أو مصابا بانفصام الشخصية، إنه مجرد قناة اتصال مع الأرواح. ويمكنك أن تشعر بالفرق".

فقلت: "لو كان ميكانيكيا، فلماذا؟ لا يتحدث بطلاقة عن هنرى فورد؟ انظرى لقد تدربت على أن أصبح كثير الشك، "وهذا بالضبط ليس علمًا".

وتضايقت جوليا: "هل الأمر كذلك؟". ومرت بأصابعها فى خلال شعرها، دون اهتمام بكيفية سقوط الخصلات إلى الوراء فى أماكنها. "ما رأيك فى دراسة منهج عن المعجزات، منقول عن طريق الاتصال الروحى من خلال اثنين من الأساتذة النفسيين فى كولومبيا؟ هل هذا تأصيل مقبول؟".

"أرجو أن يكونا من الأساتذة الدائمين".

ورفعت جوليا شعرها إلى أعلى فى شكل كعكة، وكانت إشارة ساحرة دون وعى منها، أدت إلى إثارة كثير من الذكريات عن علاقتنا القصيرة معًا.

"لقد استغرقا سبع سنوات وهما ينقلان كتابيا عن هذا الصوت". ثم قالت: "لقد باعا مليون نسخة من كتبهما وغيرًا آلافًا من حياة البشر".

"إذن لماذا لا يتصل آدم سميث من خلالى؟".

"ريتش، إن هذه الأشياء لا تخضع لاختيارك، ومن المحتمل أن يكون هارولد وهذه الروح يتقاسمان خطا معينًا أو بينهما لقاء أرواح، ولا يمكنك أن تعرف أبدًا إذا ما كان هذا هو آدم سميث الحقيقى، إلا أنه من المؤكد أنك ستعرف شيئا نتيجة ما يقول. أليس كذلك؟".

وفى تلك اللحظة، كان ظهرها يضغط على الباب، وكانت الشمس تلمع على وجهها، مع ظل خفيف على أنفها وحاجبها، حتى أن الفكرة التى خطرت فى عقلى مرة ثانية كما حدثت فى عدة أيام، هى أن جوليا مازالت جميلة وبنفس درجة جمالها كما أتذكره. والذى لم يكن مجرد جمال ظاهرى، ولكن كان خاصية داخلية. وكان يبدو أن روحها فى حالة فوران يجردنى من كل اعتراضاتى.

وبدا عليها أنها تقرأ ما يدور فى عقلى: "ريتش: أنا هنا من أجل هارولد، وأرجو أن تعدنى بمساعدته؟".

* * *

ملأ الصوت الغرفة لدى دخولنا.

"دعنى أجيب عن سؤالك: لماذا انتقيت هارولد؟ ولكن يمكنك بنفس الدرجة أن تسأل، لماذا اختارنى هارولد؟".

نظرت أنا وجوليا كل منا إلى الآخر.

"إنك تظن أن هذه هى المرة الأولى التى اتصلت بها من خلال شخص ما؟ أف - أبداً. لقد همست فى كثير من عقول الشبان، محاولاً أن أوقظ الوعى بتعاليمى. لقد حققت حالات نجاح هنا وهناك. والأمر يتطلب أكثر من بضعة أفراد". وابتسم لى قائلا: "لقد نجحت معك، لفترة".

قلت: "أنا؟".

"فى المدرسة الثانوية، وبداية الكلية كنت تنصت، إلا أنك فى المدارس العليا بدأت تنكر حدسك وتخمينك. وبدأت تردد كالببغاء ما يقوله الأساتذة مفترضًا أنهم يجب أن يكونوا على علم بكل شىء. وهذه مأساة، فإن العقول الشابة تعمل بسرعة. أما العقول الأكبر سنا فهى تشبه القلاع الحديدية الصدئة".

ونهضت دون أن أنبس ببنت شفة، ووضع يده على كتفى قائلا: "آسف إذا ما كنت قد عكّرت صفوك".

وانسحبت بعيداً، بينما قال هو برقة: "إنك توافق على أنك ستكون أسعد فى هذه الأيام؛ حيث الرعاية المجانية قبل أن تتخلى عن قيمك".

"أنا لم أتخلَ عن شىء".

"أين قلبك؟".

"فى جسدى على الأقل".

ونهض الرجل وذهب إلى منضدة بالمطبخ وأمسك بليمونة أخذ يدحرجها وهو يفكر. "لماذا اخترت هارولد؟ لأننا نشترك في تردد معين، ليس بالمعنى الثقافى بالطبع. هو رجل طيب وبسيط، ولكنه مضطرب نفسيًا، وعادة ما يكون الأمر أسهل عندما يحتاج كل منا إلى الآخر".

وقلت: "يبدو أنه لا يوافق".

"انتظر حتى تحصل على الحقائق".

"لماذا تحتاج إلىَّ؟".

"إنك قد تحتاج إلىّ أكثر مما أحتاج إليك. إنك يجب أن تعدنى بأنك ستكتب ما أقول، وأن تعمل على نشره".

فقلت: "لا وعود"، ولكن من أجل جوليا سأنصت إليك، هذا كل شىء".

* * *

هناك بجوار النهر يوجد مطعم فرنسى صغير متواضع، حيث التقيت مع جوليا لتناول العشاء فى تلك الليلة، بناءً على اقتراح منى. كان العشاء المكون من السمك مع المحار وزجاجة نبيذ فرسكاتى الخفيف يتجاوز ميزانيتى، إلا أن المناسبة كانت تتطلبها. وأحسست أننى فى تجربة ممتعة للوقت واللحظة ولم أكن أرغب أن تتوقف. هل كنت أحاول أن أؤثر فى جوليا؟ بالطبع!!

واصلنا أحاديث خفيفة. وكان ضحكها معديا عندما كانت تعيد حكاية تجربتها، عندما كانت تدرس علم أصل الإنسان. إلى أن قررت فى النهاية أن تهجر العمل الأكاديمى، والذى يتطلب قدرا كبيرًا جدًا من الكتابة التى يسودها التظاهر، كما تقول. وكان الرسم أكثر إرضاءً لها، كما أن رد الفعل العام كان أسرع وأكثر عائدًا.

"إن المشترين عادة لا يخجلون من طلب ما يريدونه" كما تقول جوليا، "وأنا أعرف ما الذى يمكن بيعه، وقيامى بعمل بضع لوحات يهيئ لى وقتا أفعل فيه ما أحب"، ومن حسن الحظ، فإن الجمهور كان يتعلم كيف يقدر أعمالها الجيدة حسب ما قالته. ولوحاتها نادرًا ما تستمر معلقة لفترات طويلة فى المعارض.

وتوقفت الحالة النفسية الجميلة للأمسية فجأة، عندما هزمتنى جوليا وسبقت إلى دفع الحساب قائلة: "إنها دعوتى".

فقلت: "ولكننى أنا الذى دعوتك".

قالت بنعومة: "إنها تعبير عن بعض من الشكر الذى تستحقه لمساعدتك هارولد".

إنها تريد أن تحافظ على العلاقة رسمية تماماً، وأحسست بالدم يندفع إلى وجهى خجلاً، ومشينا معاً إلى مكان انتظار السيارات. وساعدتها فى إخراج سيارتها، فاستدارت تنظر إلىّ إلى أعلى، وابتسامة حلوة على وجهها، ثم رحلت.

ووضعت حذائى دون قصد فى كومة من الحصى، الذى تناثر إلى حيث ينبغى أن يكون، وكنت أشعر بالرضا؛ لأننى تمكنت من التحكم فى جزء صغير من عالمى.

الفصل الرابع

هل يمكن أن يتفضل آدم سميث الحقيقي بالوقوف؟

سألت: "والآن يا دكتور آدم سميث، ما الرسالة العاجلة الموجهة إلى العالم؟ هل تريد أن يعرف الناس أسرار الثروة، والمكاسب من التجارة؟".

"بالطبع بالطبع. هذا أمر أساسي".

كان هارولد يتنفس بعمق، معبرًا في هذه اللحظة عن صوت سميث الأكثر رخامة. وكان ضوء الشمس يدخل من خلال الستائر نصف المرفوعة إلى غرفة معيشة جوليا، يجعل نصف وجهه مختفيًا في الظل جزئيًا.

إلا أن ذلك قد يكون بمثابة الاندفاع بالعربة، واستمر يقول: "ربما كان الناس يهتمون بالثروة، عندما ينبغي عليهم أن يسألوا ما إذا كانت الثروة هي هدفهم النهائي؟".

"إننا يمكن أن نفترض أن معظم الناس يريدون الثروة".

وتنهد قائلاً: "نعم، يمكننا أن نفترض هذا، ولكن باستخدام المنطق. هل إذا حدث لشيء أن أصبح هدفًا هامًا، أن يجعله ذلك الأكثر أهمية؟".

"إن الحجر الثقيل في الحديقة ليس هو بالضرورة الأثقل على الإطلاق"، ومن ثم، فإننا يمكن أن نتفق على أن زيادة الثروة أمر مرغوب بشدة، حتى لو كان هناك شيء آخر مرغوبًا بدرجة أعلى، حتى لو كان هذا الشيء غير ملموس؟".

وقلت: "إن الأشياء غير الملموسة لا يمكن قياسها أو حصرها عدديا". قال "آه.. إنك تحب الأعداد... إذن كيف يمكنك قياس الحياة الناجحة؟".

"أرجو أن تتحملني إذا كان في إمكانك، كيف تحدد هذا؟".

وهززت كتفي لا مباليا: "السعادة".

"نعم والسعادة هي نتاج..." وانتظر متوقعًا.

وقلت مازحًا: "الموت مع معظم اللُعب".

ومسح خدّه بظهر مؤخرة يده قائلاً: "لا، لا، لا، فكّر!!.. هذا شيء أساسي".

فكرت في سيارتي الكبيرة من طراز ستيشن واجون ذات السنوات الثماني، وما يحتاج إليه نظام ناقل السرعات فيها من صيانة شاملة. لو كنت أملك مالاً، لاستبدلتها بسيارة جديدة حديثة من طراز ساب. أليس هذا أساسيا لسعادتي؟! وهناك كوخ لقضاء العطلات على نهر راباهانوك طالما تمنيته. وكانت الدفعة المقدمة ليست في متناولي، ولكن هذا الكوخ قد يكون مصدر سرور حقيقي، من خلال التنقل بزورق الكاباك نهاراً، ورقص الروك في الشرفة ليلاً مع كوب من الجعة الباردة. إلا أن الحصول على الأساس الحقيقي، وكسب جائزة صمويلسون يمكن أن يوفر لي الازدهار الذي أحتاج إليه في عملي، ليقذف بي بسرعة الصاروخ إلى جامعة بحثية ذات فرص لا تعد ولا تحصى للاستشارات. يجب عليّ أن أتحرك، إلا أن هذا كان ثمنًا ضئيلاً لتقدير الوضع الأدبي. ورفع سميث يديه إلى أعلى قائلاً: "إنها راحة البال".

"هه!" قلت وأنا أفيق من حلم اليقظة الذي استغرقني.

"إنه أمان الوجود". "هذا هو أساس السعادة". "ولكن من الصعب أن يكون ذلك هو الرغبة الدافعة لي أو لأي شخص آخر". هكذا كان ردّيّ السريع.

"آه.. ولكن يجب غرسه. فالبشر يحتاجون إلى اكتساب المهارات في التنمية الأخلاقية كما هو الحال في التنمية المادية".

وقَلبت عينيّ فيما حولي. "إننا نسهب في الحديث عن السلام والمحبة في أيام الآحاد، ولكن ما صلة هذا بالاقتصاد؟".

ودخلت إلى الغرفة نسمة محببة نفخت ستائر الدانتيلا ونقلت رائحة زهور أشجار الماجنوليا التي تظلل الحي. وأمسكت باللحظة وفكرت في هذا الوقت الطويل الذي انقضى منذ أن أبديت استحساني لهذا الوقت الرائع من السنة. والآن، أصبح كل شيء يأتي مع موعد نهائي محدد، وأنا هنا أجلس في وقت جوليا الضائع، بينما كان ينبغي أن أكون... حسنًا، في مكان آخر.

خطا سميث على البساط الذى يغطى أرض الغرفة، وبعد دقيقة أبطأ فى سيره، وتوقف أمام إحدى اللوحات من رسم جوليا. وكانت لنحلة طنانة، بمقياس رسم ضخم، تحوم فوق حقل برسيم. ورفع سميث يده كما لو كان سيضربها على بطنها المخطط كجلد النمر.

"ما الصلة؟ لماذا تجذب الاقتصاد إلى هاوية فلسفية؟".

أجفل سميث، وبدأ يتنفس بصعوبة. وكان الخاطر الذى برق فى عقلى، هو أن هارولد رجل ضعيف وتقدم فى العمر. وكانت الغضون فى وجهه تشبه كتلة من النهيرات. وكانت أوعيته الدموية متغلظة، بينما كانت توجد بقع داكنة من العرق تحت إبطى قميصه. ثم جلس مسترخيًا على أحد الكراسى.

جاءنى صوت سميث هامسًا: "كيف يمكن أن أبرر فى جملة واحدة هذه الأفكار التى أمضيت ما يزيد على أربعين سنة فى عملها؟ إن أعمالى الرئيسية تفسر كل هذا".

أصابنى الروع. إن كتاب "ثروة الأمم" - تحفة آدم سميث الرائعة - كان هو حجر الأساس فى دراستى. ومع أننى لم أقرأ الكتاب على الإطلاق، إلا أننا جميعًا نعلم أن هذا كان الرسالة الرسمية لاقتصاد "دعه يعمل" أو حرية العمل، ورفع يد الحكومة. ولا يبدو أنه من الممكن التفكير فى الاقتصاد دون "اليد الخفية" لآدم سميث ألا وهى السوق.

وهز سميث رأسه قائلاً: "لا، لا، لا، إن نظريتى عن المشاعر الأخلاقية هى الأساس".

ولم أكن قد سمعت عنها قط.

ورفع إصبعه، مخاطبًا مجموعة من المستمعين الخياليين: "إن الخطر على الحرية يكمن فى نسيان المعنى الأخلاقى. وقبل أن يتأخر الوقت، فإننى يجب أن أوقظ الناس لأنبههم إليها اليوم، وفى هذا العصر".

وسألته: "هل معنى ذلك أنك تقول إن آدم سميث يظن - أنك تظن - أن أهم إنجازاته كان فى التنمية الأخلاقية، وليس فى التنمية الاقتصادية؟".

أجاب قائلاً: "تماما، إن كل إنسان يكون غنيا أو فقيرًا حسب الدرجة التى يمكنه بها الحصول على الضروريات، ووسائل الراحة، ونواحى التسلية فى الحياة. إلا أن نفس

الثراء، ونفس الفقر ليس له ارتباط أساسي بالسعادة". ورجع إلى الخلف مسترخيا في جلسته، كما لو أنه قد ظن أنني فهمت في نهاية الأمر.

في العامين اللذين قضيتهما في التدريس المباشر للطلبة، كان هناك صراع مستمر لتقسية القلوب العاطفية للطلبة كي تتقبل حقائق العالم، وواقع أن منشآت الأعمال تتبع بعناد وصلابة تحقيق الأرباح حتى آخر دولار حدى، وأن الدول تعمل دون هوادة أو كلل على زيادة الناتج المحلى الإجمالى، حتى لو كان ذلك يحتمل أن يؤثر سلبا في البيئة والأجيال القادمة. وكنت أفكر في آدم سميث الذي تخيلت أنه كان الدليل وقائد الهتاف إلى هجوم السوق الحرة المحبة لاكتساب المال والثروة المادية. وقد تبلور في عقلي أن رسالتي ظلت دون عناية من أحد بينما كنت أنصت إلى هراء ذلك الشخص غير المتعلم، البالي الواهم.

ولما كنت ثائرا، قلت دون تفكير: "هل تتوقع أنني سأصدق أن آدم سميث كان يعتني بالأخلاق أكثر من عنايته بالأسواق؟".

ونهضت جوليا ووقفت عاقدة ذراعيها قائلة: "ريتش...".

وهنا فتح المدعو سميث فمه، ولكنني كنت أشعر بالدم الساخن يتدفق في عروقي، "لماذا ينبغي أن أصدق ولو للحظة واحدة أنك أنت آدم سميث الحقيقي؟".

جذبت جهاز التسجيل الخاص بي، واتجهت إلى الباب ولم توقفني جوليا. "من المفروض أنك شخص أكاديمي". قال وهو يصرخ خلفي وكان صوته يلاحقني من خلال الباب المفتوح" قم بواجبك، هل لا يوجد من يقرأ في هذه الأيام؟!".

° ° °

مشيت بخطوات مهتاجة إلى مكتبي في والترهول، وهو مبني من الطوب الأحمر على طراز مساكن جورجيا. يطل على التل التاريخي للمدينة. كان الموقع ميدانًا لمعركة دامية في أثناء حصار فريدريكسبورج في خريف ١٨٦٢. واحتل الجنرال أمبروز بيرنسايد والاتحاديون الزرق أعلى التل، وقام الكونفدراليون الرماديون تحت قيادة (روبرت إي لي) بسحقهم من خلف حائط حجري حصين. وذبح الآلاف تحت القيادة العاجزة للقائد بيرنسايد. ولم يتمكن من الرد على أحداث اليوم التالي، أو من الرد وهو واقف على قدميه، وتم سحق جيش البوتوماك في ذلك العام، وتم تحويل مهمة بيرنسايد

إلى قتال جو هوكر. وأحسست كأننى أحد أولئك الزّرق، أشق طريقى إلى أعلى المرتفع، دون أن تكون لدىَّ قدرة الرد على الأحداث.

كان المشى عادة ما يجعلنى أحس بالراحة، ولكن ذلك لم يحدث فى هذا اليوم. وكنت مستاءً من تحويل المنصب الذى جعلنى اليوم محط الاستفسار. لم أكن راضيا عن حياتى بالطبع، وافترضت أن الانتهاء من رسالتى، ثم استلام عقد دائم بعد ذلك فى إحدى الجامعات البارزة، قد يأتى بشعور الرضا بعد وقت ما فى المستقبل. والوصول إلى هذه المحطات سيأتى إلىّ بالمال، والمكانة بل والشهرة. وبعد ذلك، يمكننى أن أهتم بأشياء أخرى.

وعندما دخلت إلى مكتبى، راجعت على الرسائل الصوتية، وقمت بإنزال بريدى الإلكترونى. وكان ما وجدته هو الارتفاع المعتاد فى بريد طلبة الدراسات العليا الذين يحتاجون إلى الاستشارات وخطابات التوصية. وكان أحد الطلبة يرغب فى مناقشة درجته النهائية. وتسللت إلى بهو هيئة التدريس، آملاً أن أتجنب الزملاء. ولحسن الحظ، كان البهو خاليًا. وكان صندوق البريد متخما بالأوراق كالمعتاد، وكان التدفق يتباطأ قليلاً عند الانصراف من الدراسة. وكان هناك تقرير العميد عن إصلاح المنهج، وطلب من أحد الناشرين مراجعة أحد الكتب الدراسية، ومذكرة من المسجّل بأن مراجعة البيان كانت منتظرة منذ أسبوع مضى.

صدمنى وجود مظروف ضخم ملىء بالأوراق من الحجم الكبير. وكانت به نسخة إحدى الجرائد الشهيرة كنت قد أرسلت إليها مقالاً منذ ستة شهور مضت. وجلست على أريكة البهو، وأنا أحس بأنفاسى تتسارع. إن كل فرصة للنشر لها أهميتها، وخاصة الآن. وقمت بفتح حافة المظروف. كانت تعليقات المحكمين كثيرة ولاذعة، إلا أن خطاب رئيسة التحرير كان مشجعاً. كانت الورقة تحتاج إلى مراجعة أساسية، كما كتبت، إلا أنها أعربت عن ترحيبها بإعادة إرسالها إليها. الحمد لله!.... نعم، فى جريدة لا تنشر سوى مقال من كل عشر مقالات ترسل إليها، وكانت تأشيرة "رجال المراجعة والإعادة" أفضل ما يمكن أن يتوقعه شخص غير معروف.

صرخت مهللاً، لم يرن أحد سوى تلك الحمامات التى رفرفت بأجنحتها بعيدًا عن أفاريز البناء عند صيحتى. وأسرعت إلى مكتبى وأدرت رقم تليفون جوليا. وقبل أن يتم

الاتصال، وضعت سماعة التليفون. ونهضت وحدقت فيما خارج النافذة، على الساحة رباعية الزوايا، حيث كان طلبة الدراسات الصيفية فى سراويلهم القصيرة يتقاذفون الأقراص البلاستيكية فيما بينهم. بينما كان آخرون يمشون الهوينى بأقماع الآيس كريم. وعدت بنظرتى إلى كتل الأوراق المكدسة على مكتبي – الفصل الأخير عن الخصخصة – كيف يمكن لأى فرد أن يجد الوقت لقراءة أى شيء آخر؟

وضعت تعليقات المحكمين داخل أحد الملفات، واضطجعت للوراء على الكرسى. وكانت مقابلتى مع صوت سميث المتصل مازالت تثير اضطرابي. وكنت أسمع كلماته الأخيرة: افتراضه أننى أكاديمى افتراض حسن! أنا فى الواقع لم أحصل على درجة الدكتوراه بعد، وهو ما يجعلنى حساسا بالنسبة لموضوع مؤهلاتى. لم يكن لدى أى نية فى رؤية هارولد مرة أخرى، إلا أننى أردت أن أخبر جوليا عن مدى المهزلة الساخرة التى يمثلها الموضوع بأسره. ماذا أعرف عن كتابات سميث؟ ونهضت متعبًا لأقف أمام خزانة كتبى.

أين وضعت الكتاب؟ هناك، استخدمته كحاجز نهائى لملفات بحوثى، كان كتاب آدم سميث، بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم، المنشور فى عام ١٧٧٦. وكنت قد وجدته معروضا للبيع فى أحد أفنية المنازل مع أشياء أخرى مستعملة، ولغرابته كما يدل اسمه، لم أظهره فى المدرسة مطلقًا. لماذا كان ينبغى علىَّ ذلك؟ كان تاريخ الفكر الاقتصادى أحد ميادين الدراسات المهجورة فى أثناء دراساتى العليا، التى كان أغلب الدارسين بها من أولئك الذين لا يتحملون حسابات التفاضل والتكامل والمنظومات الجبرية. بينما كان مؤرخو الفكر الاقتصادى الأكبر سنا إما قد توفوا أو تقاعدوا، وكان من حلوا محلهم من المتخصصين فى الميادين الحديثة لنظرية التحليل الرياضى للسياسات، والاقتصاد الرياضى، وديناميكيات الاقتصاد الكلى. ومع انتشار المعرفة فى الوقت الحاضر، من ذا الذى سيكون لديه الوقت لتناول آثار الماضى؟ لا، فقد اقتبس آدم سميث البليغ فى كتابه المدرسى أوصافًا مختصرة هى كل ما يحتاجه أى فرد من سميث فى الوقت الحاضر.

وانتقلت إلى مقدمة المحرر.

قبل التوجه إلى دراسة الاقتصاد، قد يكون من الأفضل استعراض العناصر الرئيسية للفروع الأخرى من أعمال سميث، ولتوضيح بعض الارتباطات فيما بينها.. وقد

قام سميث نفسه بتدريس عناصر الاقتصاد على خلفية فلسفية وتاريخية.. مهتما بدرجة أكبر كثيرا من الاقتصاد وفقا للفهم الشائع للمصطلح فى الوقت الحاضر.

أما ما كان يعنيه هذا، فقد أصبح واضحا على الفور. وقد تركزت أسئلة سميث على: "كيف تتكون الفضيلة؟"، و"كيف تمت التوصية بهذه الخاصية الفكرية؟".

"اللعنة". وأغلقت الكتاب بعنف. إننى أريد إجابات سهلة، يمكن تحديدها جديًا، وليس إجابات معقدة غير ملموسة. كان - حيث القرن الثامن عشر عن الفضيلة - يبدو إضاعة محزنة للوقت. ولكن كيف علم هارولد تيمز باهتمام سميث بالفلسفة الأخلاقية؟ لاح فى خاطرى استنتاج غامض. هل يمكن أن يكون ذلك الاتصال الروحى والفكرى جزءًا من فكاهة محبوكة؟ كان هناك مازحون مجيدون فى الجامعة ممن يضيعون وقتهم فى مثل هذه الأعمال. وكانوا يقومون بتلفيق أعمال هجائية مازحة شديدة التعقيد، وكان الأستاذ المساعد "بيرجى بيرجس"، فى القسم الذى أعمل به، هو الذى يتزعم هذه الزمرة من المازحين، وكانت أذناه وعيناه الحادتان لا تخطئ فى رصد أقل الملاحظات، كما كان هناك شىء واحد يربط بين هؤلاء المتحرشين هو: الإحباط فى أعمالهم، مما جعلهم يستديرون نحو أى شخص يبدو محققا لأى تقدم. أما تهريجهم الغريب الذى لم يكن مقصورًا على الورق، فقد كان يمكن أن يكون وحشياً، وفى إحدى عطلات نهاية الأسبوع، منذ بضع سنوات مضت، قاموا خلسةً بسد باب مكتب العميد الراحل عن طريق بنائه بالطوب الأحمر، وذلك قبل وصول المسئولين عن إخلاء ونقل الأثاث يوم الإثنين. وفى مرة أخرى، قاموا بتفكيك سيارة فولكس فاجن صغيرة خاصة بأحد الزملاء، ثم قاموا بإعادة تجميعها على أرض صالة للألعاب الرياضية فى يوم ترقيته إلى منصب الأستاذية. وكل هذه المزحات الأخوية كانت توضح أن هؤلاء الأشخاص يملكون وقت فراغ يتصرفون فيه. فهل يمكن أن يكون الاتصال الفكرى لهارولد أحد هذه الفكاهات المحبوكة، أو سخرية أخيرة لتأكيد أننى قد التحقت بمراتب الجامدين أكاديميًا؟

ويقوم المازح باختبار سرعة بديهتهم وفطنتهم مقابل سذاجتى. ويمكننى أن أسمع صوت بيرجى يتردد صداه فى بهو الكلية. "لقد اشتراها! هو.. هو.. يواجه صعوبة فى رسالته، وأول شىء يفعله هو جلسة تحضير أرواح مع آدم سميث!!". وتتبع ذلك صيحات

وقهقهات. وقد يقوم ببرجي بالنهيق بصوت أكثر ارتفاعًا" إنه يستعمل ميكانيكي الجراج – الذي يعمل لدي – وسيلة اتصال!!". وعندئذ تنفجر الحجرة بضحكات عالية من الأعماق.

وستنتشر الحكاية إلى غرفة خلع ملابس هيئة التدريس، ومن هنا تتضخم بطريقة مثيرة على البريد الإلكتروني، وقد تجد طريقها في نهاية الأمر إلى نائب رئيس الجامعة ورئيس الجامعة، والعالم كله بعد ذلك. وقد تنشر صحيفة الطلبة خبرًا ساخرًا عنها. بل حتى زوجات أعضاء التدريس قد يعلمن عنها. وتصبح المناسبات الاجتماعية محنًا مؤلمة والرؤوس تطأطئ في طريقي، والقهقهات المكبوتة والمزاح غير اللطيف من أولئك الذين عينوا أنفسهم حراسًا للإذلال.

وقد يصبح الأمر أسوأ. ماذا لو سمعت لجنة صمويلسون بهذا؟ إن الجائزة كانت أكبر الجوائز التي تَمنح للعلماء الشبان مكانة وقدراً، وكان الذي يحصل على الجائزة يتلقى شيكا بمبلغ ١٠,٠٠٠ دولار، كما ينال شرف التحدث إلى خمسة آلاف من أعضاء المؤتمر في الاجتماع السنوي للجمعية الاقتصادية الأمريكية. ويجري طبع بحثي في "الكتاب المقدس" للصحف، ألا وهي المجلة الاقتصادية الأمريكية. لقد كانت هذه هي الفرصة التي أحتاج إليها للقفز إلى مدرسة أفضل، مع مساعدتي مدرسين وطلبة دكتوراه يكتبون تحت إشرافي، شيء من التغيير. كانت الجائزة تمثل دافعا مهنيًا مضموناً، إذا لم يَصرْعني موضوع سميث قبل ذلك.

كنت أضيع وقتي في رياضات عقلية، عندما كان العمل مطلوبا، والتقطت حقيبة الظهر وأسرعت خارجًا من الباب.

° ° °

عندما كنت أخترق الساحة الرئيسية المربعة، تفاديت بصعوبة الاصطدام بمجموعة من الطلبة المنتظرين وآبائهم في جولة بالكلية. وصعدت درجات السلم إلى مكتبة لي، التي تم تجديدها آخر مرة في عام ١٩٨٥. وكانت هناك إضافة كبيرة من الزجاج والحديد تقف أمام واجهتها ذات الطراز الجيورجي. وكان الجناح الجديد مختوما بإحكام شديد، مما كان يجعل الهواء المعاد تدويره عتيقا جامداً، محملاً بروائح السجاد والستائر، وحبر الطابعة. وكانت الكراسي المعدنية طويلة ونحيلة، مستقيمة الظهر ذات الزاوية القائمة. كان لا يمكن

أن يستريح أى معمارى أو إدارى بالكلية إلى هذا المكان العتيق الكئيب، إلا أنهم قد تخيلوا أن الطلبة وهيئة التدريس قد يستريحون إليه.

عند دخولي إلى الردهة الرخامية للبنيان القديم، مررت بمنطقة المراجعة الأمنية ووقفت أمام منضدة طويلة عليها حسابات إلكترونية، وبعد بضع ضغطات على لوحة المفاتيح، ظهرت الإجابة على ما كنت أبحث عنه على الشاشة. وهبطت على الدرجات الدائرية ودخلت إلى مجموعات الكتب الموجودة تحت الأرض. وكان الدور الثاني يعلوها بسبعة أقدام فقط، وكانت الكتب مكدّسة على رفوف معدنية من الأرض إلى السقف، وكان المكان مقبضًا ومخيفًا وكأنه غواصة. وكانت أنوار الفلورسنت تهتز محدثة صوتًا متقطعًا، وكان نظام التهوية البالى العتيق يئز، ويحدث فرقعة، ويتوقف فجأة، مضيفًا إلى ذلك التصور الخيالى الحالم الموجود تحت الماء.

اتخذت مسارًا متعرجًا فى خلال هذا المجلس المظلم، ناظرًا إلى الأرقام الموجودة على الكتب. وعند رقم BJ 1000 استدرت يمينا فى ممر ضيق بين صفوف الكتب، وبعد بضع لحظات، استقر إصبعى السبابة على مجلد سميك. وكان هو!! "نظرية المشاعر" الأخلاقية. وكان الجلد البنى الذى يغطيه قد بهت لونه وتشقق، ورفعته إلى أعلى برقة، ثم مسحت ما على غلافه من تراب.

انتقلت إلى ركن منزو فى المكتبة وجلست. ورفعت الغلاف بحذر، وكانت بطاقة الإعارة توضح أن الكتاب لم تجرِ استعارته سوى مرة واحدة. ولكن كعب الكتاب كان صلبًا، والصفحات غير مفصولة عن بعضها البعض. وهكذا فإن هذا الكتاب لم يقرأه أحد مطلقًا. واقتنصت مطواة من جيبى وبدأت أخلص الصفحات من بعضها البعض. وعلى الفور، جذبت صفحة العنوان نظرى، كان العنوان الفرعى عنوانا ساخرا من القرن الثامن عشر، مقال نحو: "تحليل للمبادئ التى بموجبها يحكم البشر عادة على سلوك و شخصية جارهم أولا، ثم على أنفسهم بعدها".

وتحولت إلى الفصل الأول، وبدأت أقرأ فورا، وعيناى تطرفان، وأنا أتمتم: "كنت أتوقع أن أجد رسالة مملة وغبية وغير ذات صلة بالفلسفة الأخلاقية". وكنت أجد صعوبة فى التوفيق بين هذه النظرة وبين الآراء المتعمقة المنعشة، والكتابات اللامعة التى قفزت من الصفحات، وأصبحت مسحورًا. وعلى نقيض النثر الباهت والجمود المنهجى لتدريبى

الاقتصادى فى الدراسات العليا، كان هذا أمرا جديدًا ومثيراً. وبعد نصف ساعة وضعت الكتاب جانبًا.

"هاها..!". لقد أدى اكتشافى إلى عدم الراحة والحزن لدى الأطراف المتساوية. وأعدت قراءة الفقرة التى أدت إلى اضطراب التوازن لدىّ.

"إن السعادة تكمن فى راحة البال. ما الذى يمكن أن يضاف إلى سعادة الإنسان الذى يتمتع بالصحة، والذى ليس عليه دين، والذى يحظى بنقاء الضمير؟". بالنسبة للمرء فى هذا الوضع، قد تصبح كافة طرق الوصول إلى الثروة - كما يقال - زائدة عما هو ضرورى.

هل يتخيلون أن معدتهم ستكون أفضل؟ أو أن نومهم سيكون أهدأ فى أحد القصور عما سيكون عليه فى كوخ؟ إن العكس غالبا هو ما يحدث وتجرى ملاحظته بشكل واضح جدًا.

سواءً أكان ذا مظهر متميز أم لا، كيف تمكن هارولد تيمز - وهو الميكانيكى الرومانى سريع التحول، والذى يشد الحزام على بطنه - من معرفة أقل الأشياء عن رسالة غامضة كتبها آدم سميث؟ كيف وصل إلى أن يعرف حقيقة أن أكثر الاقتصاديين احترامًا فى العالم كان أيضا خزانة مضادة للمادية، بل ويتحدث تماما كمتحمس فقد العاطفة ضد النمو؟ لماذا لم أسمع مطلقا؟ عن هذه الناحية من منطق آدم سميث؟ هل كان هذا الجانب يدحض "ثروة الأمم"، أم قوانين الاقتصاد؟ والأهم من هذا وذاك، هل له أى صلة بالأعمال وبالمجتمع فى الوقت الحاضر؟

وإذا كنت أنا أجهل أى شىء عن هذا العمل، فماذا عن زملائى؟ هل كانوا يعرفون عن المشاعر الأخلاقية لآدم سميث؟ وإذا ما كان هارولد تيمز جزءًا من خدعة محبوكة، فإن علىَّ أن أكشفه. ونهضت من ذلك الركن المنزوى فى المكتبة، وعدت إلى رفوف الكتب. لابد أن تكون هناك طريقة لتمييز الاسكتلندى الحقيقى - إذا ما كان الصوت هو صوته - من أى مازح، أو أى محتال أو مجنون. ولم يمض وقت طويل قبل أن أجد ما كنت أحتاج إليه، واستدرت لأسلك طريقى المتعرج بين المتاهة إلى مكتب الخروج.

"مستر بيرنز" قالت موظفة المكتبة وهى تبتسم: "لقد فاتك لقاء أحد المعجبين بك. لابد أنك تحس بحرارة فى أذنيك الآن؟".

"أوه!".

"لقد قال إنه أحد طلبتك السابقين.. لطيف جدا. وقد سأل عن كل شىء يتعلق بك، وعما تقوم به من بحوث، وقد أخبرته ببحثك عن روسيا".

كنت أمقت هذه النميمة التافهة: "كيف كان يبدو مظهره؟".

فكَّرت الموظفة مليًا، وهى ترفع يدها إلى فمها قبل أن تقول: "مثل باقى الطلبة... كما تعلم، نظارات شمسية، وجينز أزرق، وشعر أشقر. إلا أنه كان يبدو أكبر سنًا عن معظمهم. وقال إنه تخرج منذ خمس سنوات".

"مسز بيبودى. إننى لم أكن أعمل بالتدريس فى ذلك الوقت منذ خمس سنوات، فكيف يمكن له أن يكون أحد طلبتى؟".

وبدا عليها الارتباك، "إنى آسفة. إننى لم أرك طوال الصيف".

"إننى لا آتى إلى هنا كثيرا"، هكذا أجبت. وكنت أود أن أضيف أن المكتبات آخذة فى التحول إلى مفارقة تاريخية، وأن قواعد البيانات الإلكترونية التى يمكن الوصول إليها من منزلى ومن مكتبى فى الوقت الحالى، تقدم إلىّ معلومات تفوق كثيرا مما يمكن أن أحصل عليه من تلك المجلدات المطبوعة المكدسة فى الدور الذى يصعب الوصول إليه تحت الأرض فى إحدى المكتبات. وبعيدًا عن القسوة فى القول، فإننى لن أكون صادقًا فى ذلك، وأنا أمسك تحت ذراعى كتاب آدم سميث عن "المشاعر الأخلاقية"، وكتابين عن سيرته الذاتية وثلاثة كتب عن تاريخ الفكر. إلا أن صبرى كان يوشك على النفاد.

وبدلاً من ذلك، قلت: "شكرًا يا مسز بيبودى على تفكيرك فىَّ. لقد وجدت بعض الجواهر هنا".

* * *

مرت ساعة قبل أن أطلب هارولد، الذى أجاب على التليفون بعد الرنين الرابع. "آسف يا هارولد لقد نفد صبرى عليك هذا الصباح. وبالمناسبة، فإننى لم أفهم أى شيء مما قلته".

تنحنح ينظف حنجرته بسعال مرتفع.

وواصلت حديثى قائلاً: "إننى مازلت حتى الآن لا أعرف من أنت، إلا أن ما قلته ينم عنك".

وقال هارولد وهو يشد نفسًا من سيجارته: "إنه ليس أنا من قال".

"إننى لا أعلم شيئا عما تحدثت عنه أنت والمدعو سميث، ولكن قميصى كان ينضح عرقا، كما لو كنت قد جذبتُ أحد المحركات من مكانه. لقد نمت بقية الصباح. هل تعرف ذلك الصوت المستمر كالراديو فى خلفية السمع؟".

أرجو ألا تزعجنى كثيرًا مادمت قد بدأت تتحدث إليه.

وسألته: "هل يمكنك أن تدير هذا الصوت الآن؟".

"ليم.... اجلس"، قال غاضبا، وكان كل ما سمعته صوت تنفس من الأنف، ثم "هالو هالو". ولم يكن صوت هارولد.

"بروفيسور سميث؟".

"هو نفسه. مازلت هنا، وعلى استعداد للحديث. إننى أتذكر أننا كنا بصدد...".

وقاطعته قائلاً: "اسمح لى".

"... تفسير نظرية المشاعر الأخلاقية..".

وكررت بصوت أكثر ارتفاعا: "اسمح لى".

"... والتى بدونها لا يمكن للمجتمع....".

وصحت قائلاً: "هل يمكن أن تصمت من فضلك؟".

وصمت الطرف الآخر من التليفون.

فقلت: "إن لدىّ قائمة من عشرة أسئلة، وأمامك خمس ثوان للإجابة على كل سؤال، وإلا، فإننى سأعتبرك مزيفًا".

"ماذا تقول باشه... أسئلة؟ هل تعنى اختبارًا؟".

"إنه اختبار بسيط، إذا نجحت فيه فسأتحدث إليك جادًا، وإلا، فإن هذه الخدمة تكون قد انتهت".

"أيها الغريب...". صاح الصوت: "هل تعرف إلى من تتحدث؟".

"إننى أعرف من تدّعى أن تكونه. والآن أمامك فرصة لإثباته. اتخذ قرارك الآن". وكانت قطعة منى تتمنى أن يرفض، وتنتهى المهزلة، ويمكننى أن أخبر جوليا أننى كشفت الخدعة المحبوكة.

وعددت حتى رقم ثمانية قبل أن يجيب الصوت: "أف... إنك تضيع وقتنا الثمين بهذه الحماقة.. ابدأ أسئلتك الآن".

وجذبت من جيبى قائمة الأسئلة.

السؤال الأول: "ما تاريخ ومكان ميلادك؟".

"عام ألف وسبعمائة وثلاثين فى كيركالدى". وكانت الكلمة الأخيرة غير واضحة بالنسبة لأذنى غير المدرّبة فكانت تشبه كير كوم دى". واستمر قائلاً: "إنها قرية صيادين صغيرة فى اسكتلندا، عبر الخليج من إدنبره".

السؤال الثانى: "ما اسم والدتكم ومحل ميلادها؟".

"كانت أمى العزيزة مارجريت، من مقاطعة استراثرى".

"كنت أعنى اسم عائلتها الأصلية قبل الزواج".

"دوجلاس. كان اسمها مارجريت دوجلاس"، وكأن صوته كان يمضى بعيدًا.

السؤال الثالث: "ما اسم والدك ومحل ميلاده؟".

"آدم سميث من سيتون".

السؤال الرابع: "كم كان عمره عند وفاته؟".

"كم كان عمره؟ إننى لم أعرفه أبدا. لقد مات قبل أن أولد. كانت أمى أرملة حبلى. دعنى أرى".

قلت: "الوقت".

"لقد ولد فى عام ألف وستمائة وتسع وسبعين، ومن ثم، فقد كان عمره عندئذ.."

"انتهى الوقت".

"لقد كان عمره ثلاثًا وأربعين".

"دعنا نستمر".

"هل كان لديك إخوة أو أخوات؟".

"هذا هو السؤال الخامس".

"أنت على حق... هو الخامس: أجب عليه".

"نصف أخ، هيو. من زواج سابق لأبى، وكان كثير المرض ضعيفًا واهنًا مثلى، وقد توفى عندما كنت صبيًا".

قلت: "لا يهم،

السؤال السادس: أين درست؟".

"كانت مدرستى الثانوية فى هيل ستريت، ثم فى جامعة جلاسجو. أما درجتى العليا فكانت من كلية باليول فى أكسفورد. يا لها من مكان بائس متحجر!!".

جعلتُ السؤال السابع يبدو حميدًا: "متى تزوجت؟".

"سؤال ماكر!! أنت تعلم تمامًا أننى أعزب". وبدا على الصوت أنه مجروح وحزين شيئا ما. إلا أننى لم أمعن التفكير فى هذا، فإننى كنت أقترب من الأسئلة الحاسمة.

السؤال الثامن: "من التى أطلقت عليك وصف "قبيح كالشيطان؟"، وأكثر "مخلوق قابلته غيابا عن الوعى؟".

"آه. إن هذه هي.. إنها مدام ريكوبوني". ورق صوته: "لقد كنت حبيبها المدلل في باريس. كم كانت معجبة بي. أنا لست كازانوفا - كما ترى - ولكني كنت أحب الكتب كثيرًا بعض الشيء - كما يقولون - ولكن ذلك لا يعني أنني لم تكن لديَّ لحظاتي.

"لا بأس".

السؤال التاسع: "من الذي أدى جنونه بالعظمة إلى حدث دولي، ووضعك في صف تورجوت، المصلح الاقتصادي الفرنسي؟".

ولم يتردد لحظة: "إنك تشير إلى هذا الوغد جان جاك روسو! لقد هاجم أعز أصدقائي، ديفيد هيوم، دون أن يكون قد أثاره. وقد حاولنا أن نحتفظ بالموضوع بعيدا عن علم الصحافة، إلا أن الموضوع تسرب في نهاية الأمر. ولم يكن هناك شيء يمكن أن أفعله أو يفعله تورجوت بشأنه. وهذا موضوع كان سيئًا من جميع نواحيه".

وكنت قد احتفظت بالسؤال الفاصل إلى النهاية.

العاشر: "ماذا تعرف عن الغجر؟ أولئك المتجولون الرحل؟". ها. بالطبع، هذه عملية اختطافي. لقد كنت في الثالثة وكنت ألعب في حقل خلف قلعة ستداتندري..".

"هذا يكفي جدًا".

"لقد كنت أعبث في المكان، ملقيًا بالصخور، ومحاولاً إمساك صرصور الحقل، وأدرس السحاب. وكانت هناك مجموعة من المهاجرين قد عسكرت على أحد التلال القريبة. وأثار هذا روح التحدي لديَّ، وربُما حولت نفسي إلى شيء مزعج. وفي الصباح التالي، جاءوا بجمعهم مارين بالقلعة، وقبل أن أدري، جرفتني إلى أعلى عرَّافة عجوز وألقت بي في إحدى العربات. واستقرت بطانية صوفية ثقيلة عليَّ. وصرخت مولولا، ولكن لم يكن هناك تحت الغطاء ما يكفي من الهواء لإحداث ضجيج. وفرّوا بي هاربين إلى الطريق الشمالي".

وابتلع قدرا من الهواء، وتركته كي ينهي حديثه.

"ومرَّت ثلاث ساعات كاملة، قبل أن أسمع صوت عدو خيول وصرخات من الخلف، ووجدت أنه يقذف بي إلى جانب الطريق. وتلقى رأسي ضربة قوية بإحدى

الصخور، ولكن حسنًا فعلت، وهرب الغجر إلى داخل الغابات، وكانت المرأة العجوز وراء ظهري تقذف بالشتائم والسباب والتهديدات على عمي الذي جاء لينقذني. لقد كانت مغامرة.. كما يجب أن أقول كانت مغامرة..".

وساد المكان سكونٌ كئيبٌ، بينما كنت غارقا في تأملاتي. سكون قطعه في نهاية الأمر بقوله.

"حسنًا، هل نجحت؟ هل نجحت؟ أوه... ياللخزي، لماذا حتى أسأل!!".

فكرت مليًا في هذه التوافه بينما كنت أرشف كأسًا من الدرامبوي في ذاك المساء في شرفتي. ماذا كان سيحدث لو أن هؤلاء الغجر قد أفلتوا وهربوا بما سرقوه؟ ماذا لو أن آدم سميث، بدلاً من نشأته في رعاية أمه الحنون المثقفة، قد قامت بتربيته عصابة من الرُحّل الأميين؟ هل كانت كتبه وأقلامه ستستبدل بالطوب والخرق البالية؟ هل كان هذا العالم العملي للمنشآت والأعمال قد تطور بشكل مختلف دون نصائح سميث ضد تطفل وتدخل الحكومة، وتذكيره بالنتائج غير المتوقعة لمذهب do-goodism، ومعارضاته ضد المصالح الخاصة والاحتكارات؟

ضعت بكل أسف في غمار التفكير، أما بالنسبة لرفيقي ركس، فقد أخذ يلعق يدي ليذكرني بمهمته في هرش أذنيه. وتثاءبت، وقمت بعمل ما طلبه. وكان عقلي- على أية حال - مستمرًا في العبث باكتشافات اليوم. ومن بين تلك، كانت المفارقة القاسية، وهي أن آدم سميث وجون ماينارد كينز قد تقاسما نفس يوم الميلاد، ٥ يونيه والذي صادف أنه سيكون غداً. كينز، النابه ومهندس التدخل الحكومي للنهوض بالاقتصاد، وانتشاله من الكساد العظيم، والذي اقترح سياسات تتعارض تمامًا مع مثاليات سميث للحكومة المحدودة. وفيما بعد، هجر كينز دعم الحكومة مستبدلاً به حرية التجارة.

كان اقتناع كينز هو أن الرجال العمليين الذين يعتقدون أنهم معفون من أي تأثير ثقافي وفكري، عادة ما يكونون عبيدًا لأحد الاقتصاديين الأموات. وقد اعتبرت نفسي رجلا عمليا، وأخذت أتعجب إذا لم أكن الآن أنزلق إلى دور من يسترق السمع وينصت إلى أحد الاقتصاديين الذين قضوا نحبهم في القرن الثامن عشر، وسقطت في الكرسي، ما الذي يمكنه أن يظنه هذا المدعو آدم سميث في رسالتي؟

وجفلت منزعجا على رنين جرس التليفون.

كانت جوليا، تدعونى إلى العشاء فى الليلة التالية.

الفصل الخامس

تهريب

كانت جوليا قد أعدت شرائح من لحم الخنزير المحشوة بالبطاطس المسلوقة المطحونة، وحساء الفاصوليا الخضراء، وعصير التفاح. وأحضرت معي زجاجة من نبيذ كاليفورنيا تشاردوني، وهو وإن كان رخيصًا، لكنه مخمر في البراميل على الأقل. كان منزلها الصغير تنقصه غرفة طعام رسمية، ولذلك أكلنا في الرواق، حيث كانت قد وضعت منضدة صغيرة يغطيها مفرش ذو مربعات حمراء، وعليها شمعة. وكان هواء يونيه رقيقًا.

قالت جوليا بعد أن جلسنا: "لقد طلبني هارولد تليفونيًا، لقد قضيت وقتًا معه فيما يبدو، وأنا ممتنة لذلك".

وجعلني ما أبدت من امتنان أصيل، أشعر بقليل من عدم الراحة، حيث كان ما أنفقته من وقت مع هارولد ذا دافع ثنائي.

وأخبرت جوليا عما قمت به من بحث في المكتبة، وعن الاختبار الذي أجريته مع سميث. وأضفت أن اليوم هو عيد ميلاد آدم سميث.

وشكرتني جوليا، ثم قطبت: "إنني قلقة من العبء الذي يفرضه هذا على هارولد". ونظرت إليَّ قائلة: "وأنت أيضا. وأنا أعلم أن هذا يعرّض عملك للاضطراب".

وتستَّرت على ذنبي بابتسامة، وهززت رأسي قائلاً: "أود أن ألوم اندفاعي على هارولد، ولكنني لا أستطيع. فلديَّ ما يكفيني من الشياطين في رسالتي".

ونظرت إليَّ في سكون. ولم يكن بإمكاني أن أعرف إذا كان ما قرأته على وجهها موافقةً أم ترددًا.

وقلت – مغيّرا الموضوع –: "هل دراستك لعلم الإنسان، تساعدك في الفن؟، وماذا عن ذلك الموضوع كاندومبلي؟".

وأجبت: "إنه جزء من حرفتين هما: الملاحظة والإدراك. وهو يساعدنى فى التركيز على الجوهر لا على الشكل".

"هل يساعدك على رؤية الشخص داخليا؟".

وقالت وهى تفحصنى: "هل تعنى بشىء ما بداخلك، مثلاً؟".

"حسنًا. بالتأكيد". وأومأت برأسي، بشىء من الضيق.

وأمسكت بكفي متظاهرة بفحص ما به من خطوط. كانت تلعب معى، ثم قالت وهى تفكر: "يمكننى أن أقول إنك رجل جذاب، ذكى وشديد الإنجاز، هـ. هـ. م. ربما لا تشعر بالارتياح مع نفسك.. وعملك هو الملجأ الآمن: إنك شديد التركيز، حتى إنه لا يوجد مكان لديك..، حسنًا، لأى شيء آخر.." وأخذ صوتها يصبح أقل وضوحًا. كان هذا ممتعًا. فقلت: "ما الذى ترينه غير ذلك؟".

كان خداها متوردين، وقالت: "أوه، إننى لا أرى أى شىء.. ياريتش". وتركت يدى قائلة: "دعنا نتحدث عن شىء آخر - لنشرب نخب آدم سميث".

بعد العشاء، سألتنى ما إذا كنت أحب أن أرى حديقتها، ومشينا متمهلين إلى شجرتين من أشجار التفاح كانت قد زرعتهما، وكان الضوء ضعيفا، ووددت أن آخذها بين ذراعى، أو على الأقل أن أمسك بيدها، ولكننى منعت نفسى. لقد كنا قريبين بهذا القدر مرة قبل ذلك، وعندئذ، فررت من الموقف. منذ سنة واحدة فحسب، كنا قريبين من هذه البقعة، وكنت منجذبًا إلى دفء جوليا وجمالها وذكائها وفنها. كان هذا هو لقاءنا الرابع، وكنا قد رأينا رواية سينمائية وعدنا إلى النبيذ وإلى الضحك عن الكوميديا. كنا نعرف بعضنا جيدًا - ظاهريًا على الأقل - وبشكل جيد إلى حد أن الجذب القوى فيما بيننا كان يتطلب حلاً. كان لابد أن يعطى أحدنا إشارة، أو أن يقدم التزامًا - أن يقفز إلى الأمام نحو شىء عميق وغنى بالوعود - أو أن يسقط على ظهره إلى الخلف إلى حيث الأمان والسيطرة. وبالنسبة لجميع الأشخاص - كما أفترض - يكون الاختيار سهلاً. ويبدو أنه لم يكن هناك شك فى رأسها بهذا الشأن. أما بالنسبة لى، فقد كان عدم اليقين يسيطر علىّ. إذا كان هناك شىء ممكن، فإننى كنت أحب جوليا كثيرا، منجذبا إلى أعماق تعلو فوق رأسى. لم أكن مع امرأة تخيفنى - كان يمكن أن أمزح بطريقتى فى نصيبى من الخيال السعيد

قصير الأجل. ولكنى بدلا من ذلك أحسست بإحساس المحبوس فى مكان مغلق، متأكدا من وجود علاقة أكثر عمقا مازالت مخزونة، علاقة مازالت تتطلب قربا عاطفيا أكثر. وعملت على ترشيد ترددى بتعداد المرات التى أدى القرب فيها إلى الوقوع فى الشرك، وعلى تذكر إننى أحب حريتى كثيرًا كى أفعل ما أشاء، وخاصة إذا كان البديل هو تحمل مخاطر الألم.

هكذا، انسحبت إلى الخلف، مع الاعتذار الجاهز بالرسالة المعلقة فوق رأسى، والتى كانت تقدم عقبة تنقذ ماء وجهى. ومازلت حتى الآن، أشعر بمدى الحماقة التى ارتكبتها. كانت مشاعرى الداخلية، الليلة قد التفت حول بعضها فى شكل عقدة. ولكننى فى هذه المرة، صممت على الاحتفاظ بالمسار الأول. كانت جوليا تقف وظهرها أمامى، رافعة يدها لفحص أحد العناكب على إحدى أوراق شجرة التفاح، ووضعت يدى على كتفها، وفاجأتنى بإدارة وجهها إلىّ، وأخذت يدى بيدها، وقامت بوضعها برقة ولطف إلى جانبى.

واستدارت بعيدًا. وفى مكان ما حيث كنت أسمع ارتفاع وهبوط أجنحة الليل، كنت أسمع نعيق بومة. وأخيرًا قالت: "إننى لم أقم بدعوتك هنا، لأثير ذكريات الماضى. كنت أود فحسب، أن أشكرك على مساعدتك لهارولد، هذا كل شىء. أنا آسفة ياريتش".

كانت تناضل مع إجابتها، وبعد فترة سكون أخرى، عادت مرة أخرى وتشجعت لمدة لا تزيد عن ثانية، وعندئذ قالت: "لعلك تعرف، أن هذه لم تكن فكرة جيدة عندما طلبت منك مساعدة هارولد؛ نظرًا للماضى الذى بيننا. ولست أريد أن أكون السبب فى رؤيتك إياه. ولكن أنت الاقتصادى الوحيد الذى أعرفه"، ونظرت إلى ما وراء كتفى، إلى ضوء القمر الفضى، وربما ضوء النجوم، لا أدرى. ولكننى انجذبت إلى انعكاس النور فى عينى جوليا، إنها لم تكن تنظر إلىّ؛ لأنها قامت بقياسى فوجدتنى أقصر مما كانت تتمنى.

كانت النسمة باردة، وكان ينبغى أن تكون سببا فى الراحة. وكنت أصارع عشرات الأشياء التى علىّ أن أقولها، إلا أننى لم أجد شيئًا واحدًا لا يبدو كعذر غير متكلف.

وضحكت قائلة: "تعال ودعنا نستمتع بالنبيذ".

* * *

"هل يناسبك الغداء معى فى نادى هيئة التدريس؟". كان هذا سؤالى لهارولد على التليفون بعد أسبوع. كان قد مر شهر كامل منذ آخر مرتب حصل عليه، وأصبح يعيش الآن على ما يتلقاه من أهل الخير. كانت جوليا وآخرون يساعدونه من خلال إمداده بالطعام، كما ساعده القس فى تقديم طلب مساعدة بسبب عجز مؤقت. كان نادى الكلية مناسبًا ومدعومًا، ونصف خالٍ فى هذا الوقت من السنة.

"لقد طلبت من بعض زملائى أن يشاركونا الغداء". قلت هذا بغموض، إذ كنت لا أريد أن أخبره بالحقيقة الكاملة، وهو أننى كنت مرتبكًا بشأن الكيفية التى أقدم بها روح آدم سميث إلى زملائى الاقتصاديين، وبدلا من ذلك، أحللت محلهما اثنين من اليساريين – من نظم متصلة بذلك – من الناجين من معارك الحرب الباردة الدائرة فى الدول النامية. كما أن تدريبهم الماركسى التقليدى كان يعطيهم القدرة على أن يشموا آثار أى شىء حتى لو كان فأرا. فهل سيستمر هذا الحديث الذاتى لآدم سميث أمام تمحيصهم الشديد؟

هناك شىء آخر، قلت مؤكدا: "إننى سأقدمك باعتبارك دكتور سمايث أستاذ متقاعد، ومن اليوم أنت دكتور سمايث".

وعند الظهر، وصلت إلى الصندوق الصغير الذى يتخذه هارولد منزلاً، وكانت هناك مجموعات غير منتظمة من الحشائش تتحرك متماوجة مع النسيم. بينما كانت سيارته مرفوعة على كتل حجرية وثلاثة صحف مطوية ملقاة على العشب. والتقطت الصحف ووضعتها على المدخل. وكان هارولد يمسح بيده فى خرقة بالية عندما جاء إلى الباب الأمامى وسيجارة مدلاة من شفتيه. وكانت عيناه المحمرتان تنظران شذرًا فى ضوء الشمس. وكانت جوليا قد حذرتنى من أن الاتصال الفكرى أو الروحى كان يستنزفه، ولم أكن على استعداد تام، فقد كان يبدو رث الهيئة بشكل بائس، وكان قميصه الذى فقد أحد أزراره يظهر قميصه الداخلى المهلهل، بينما كان سرواله مملوءًا ببقع من العشب. وأسقط سيجارته على الأرض، ثم انزلق إلى داخل السيارة. وسواء أكان جنونا أم لم يكن، فإننى لم أكن أملك إلا الأسف له.

وبعد مسافة قصيرة، نظرت إليه مرة أخرى. كانت عيناه مفتوحتين، وكان يجلس معتدلا.

"ريتشارد، هل عليك اعتذار يجب أن تقوم به؟". لم يكن الصوت صوت هارولد، ولكنه صوت سميث.

كانت سرعة تغير الشخصيات قد أثارتني، وكدت أن أسلط عليه الضوء عندما نظرت إليه. ولمحت الكتاب المغلف بالجلد - "نظرية المشاعر الأخلاقية" - وتذكرت بحثي بدون جدوى لإثبات بطلانه. "يبدو أن هذه هي المرة الثانية التي يخرج فيها هذا الكتاب"، وأضفت: "كانت المرة الأخيرة قبل ذلك في عام ١٩٢٣".

وابتسم ابتسامة عريضة قائلاً: "عيد ميلادي المائتين".

ولم أشر إلى تلك الصفحات التي لم تكن فصلت عن بعضها البعض، فليس هناك مؤلف يود معرفة الأسوأ. كان حرم الجامعة يزدحم بالمساحين، وعمال الطلاء، والنجارين في مواقع بناء عديدة، ولكني لم أجد صعوبة في العثور على بقعة أترك فيها سيارتي أمام نادي الكلية. ولحق بنا في الداخل كل من الدكتورة كارول نورتون، وهي عالمة اجتماع، ودكتور وين براون، وهو أستاذ للعلاقات الدولية. ولم يجد أي منهما أن هارولد غير مريح، أو أنه ليس نظيفا بدرجة كبيرة، أو أن هيئته لافتة للنظر، ويبدو أن اهتمام الأستاذ بالشئون الدنيوية الأخرى كان أمرًا مفروغًا منه. وبعد تقديم كل منهم إلى الآخرين وتبادل بضع فكاهات وأحاديث خفيفة، أخذنا طريقنا إلى منضدة. كان الوقت صيفًا، ولا توجد دراسة، ولذا طلبنا مشروبات مع الطعام، نبيذ لكل من كارول ووين، وكوب من جعة لي، وويسكي اسكتلندي لسميث.

وقلت لسميث: "أنا لا أعلم أنك قد شربت ويسكي من قبل".

"إن أمي العزيزة كانت مسيحية بروتستانتية ورعة". قالها سميث مجيبًا عليَّ، واستمر في حديثه قائلاً: "إلا أنني على الدوام كنت أؤيد حرية التجارة في المشروبات الروحية. وأنا نفسي كان لي غرام بالنبيذ الفرنسي، وبعضهم قد يقول إنه كان ولعًا عظيمًا"، وضحك قائلاً: "ولكنني أحس بشكل غريب بأنني أحب أن أتناول شيئًا من إنتاج بلدي اليوم".

وابتسمنا بأدب، وفي تلك اللحظة لمحت كابوس سوزان ميتشيل، عضو لجنة جائزة صمويلسون، تدخل نادي الكلية مع بيرجي بيرجس. كانت لجنة صمويلسون قد قابلت

الزملاء من المرشحين النهائيين، ولكن الله يساعدنى - وليس بيرجى - المازح ذاته، والخصم الرهيب لكل من لديه طموح. كان هذا لقاء غير محتمل، ووددت لو ذبت فى مقعدى. ولكن كان ذلك متأخرًا جدًا، فقد وقع نظرهما علىَّ وتبادلنا الابتسامات. ومع اضطرابي، استدرت مرة أخرى إلى ضيوفى.

كان وين يرشف نبيذه، ثم قال لسميث: "إن ريتش أخبرنا أنك تركت الجامعة لتصبح أحد موظفى الحكومة".

وأومأ سميث برأسه قائلاً: "هذا حقيقى، فقد كنت رئيس الجمارك".

وقالت كارول: "أرجو أن تنزل درجة، أليس كذلك؟ أعنى أن ريتش قد حذرنا من أنك كنت من أنصار الحرية – أصحاب مبدأ حرية العمل Laissez faire وما إلى ذلك – ثم أصبحت محصل ضرائب. إن هذه مفارقة تامةً. وأظن أن المعاشات لا تغطى كثيرًا من المصروفات الآن".

"يا الله... إننى لم أفعل هذا من أجل المال! لقد وهبت معظم ما اكتسبته". ورشف سميث كأسه، ونظر إلى أسفل، إلى ملابسه التى يرتديها، وكان يبدو عليه أنه يراها لأول مرة. "يا الله.."، وتنهد فى دهشة قائلاً: "إن ملابسى اليوم بائسة مثل هذا اليوم الذى أصبحت فيه مسئولا عن الجمارك!"، وأطلق ضحكة عالية.." هل تعلمون، لقد كنت أمتلك خزانة مملوءة بالملابس الثمينة، ولكنها كلها كانت من الواردات المهربة. ولم أكن أعلم ذلك حتى رأيت القائمة الرسمية. وكان علىَّ أن أحرق كل هذه المهربات لأصبح قدوة. وهو ما يبين مدى عدم جدوى إجراءات منع التجارة من الناحية العملية".

"ألم تكن تعرف ذلك؟". قالت كارول موافقةً. "لقد حاولنا منع المخدرات دون نجاح".

"لم يكن هناك شيء مخجل فى العمل بالجمارك، كما ترى". قال سميث مفسراً: "إننا فى أمس الحاجة إلى موظفين حكوميين جيدين. والحقيقة هى أن الوظيفة كانت ممتعة، بل ومثيرة للتحدى. وكل حكومة تحتاج إلى الإيرادات الناشئة من الرسوم المتواضعة".

ونظر سميث إلىَّ باستنكار قائلاً: "على العكس من الانطباع الذى قد يكون ريتشارد قد أعطاه لكم، فإننى لم أكن منحازًا مطلقًا مع أى خيالات لليوطوبيين، مثل تلك الخاصة

بحرية العمل laissez – faire، بل إننى أعتبر عمليا بعيدًا جدًا عن مثل هذه التطرفات. وبحق السماء، فإننى لم أستخدم هذا المصطلح البتة ولو لمرة واحدة".

وكنت قد عزمت على بداية عصبية لحديثى، على الرغم من أن كلاً من كارول أو وين لم يكن مُعَذًا لفهم ما قاله بالطريقة التى فهمته بها، وقلت: "إلا أن أفكارك بالنسبة للحكومة لم تكن بعيدة عن هذا. أليس كذلك؟".

قال سميث: "هذا حقيقى، فليست هناك حكومة تروّج لسعادة البشر بقدر ما تقوم بذلك الحكمة والفضيلة العامة فى المجتمع نفسه". ورفع كأسه، ثم استمر قائلاً: "إن جميع الحكومات ليست سوى علاج ناقص لهذا القصور". ولكن مع هذا القول، فإن نظام التجارة لا يمكن أن يعمل على أفضل وجه دون قدر من الحكومة المحدودة، تماما كما لا يمكنه العمل بأفضل وجه دون الأسس الأخلاقية فى المجتمع. ولقد كنت أحاول أن أشرح ذلك لريتشارد طوال عدة أسابيع حتى الآن".

ونظرت من فوق كتفى إلى المنضدة البعيدة التى كانت تجلس إليها متشيل وبيرجى وهما مستغرقان فى الحديث. وكان هناك بعض فتات الخبز العالق بحلة بيرجى. حسنًا، كنت آمل أن يضع نفسه فى مواقف حرجة.

"لم أكن أعلم أن هناك عنصرًا أخلاقيًا فى الرأسمالية". هذا ما قالته كارول وهى تبتسم ابتسامة عريضة حتى تجعلنا نشعر بقلة احترامها للرأسمالية أو لكهنتها الرئيسيين – الاقتصاديين.

وهنا تدخل وين قائلاً: "ليس عليك أن تكون ماركسيا حتى تتعجب من ذلك. ومرة أخرى، فإن عملية الإنقاذ التى قام بها صندوق النقد الدولى فى آسيا توضح أن النظام مستعد". ونظر حوله ليتأكد من سيطرته على اهتمامنا، إن منشآت الأعمال الكبيرة تتوقع من الحكومة حزمة إجراءات لإنقاذها إذا ما ساءت الأحوال، ولكن انظروا وأنصتوا إلى صراخهم إذا ما طلب منهم دفع جزء من مكاسبهم إذا ما كانت الحالة رخاءً!! إننا نشارك اجتماعيا فى المخاطر، وهم يخصخصون المزايا".

ورشف سميث شرابه، ثم قال صابرًا: "لقد قلت دائمًا إن الناس يحاولون إساءة استغلال نظام السوق لمصلحتهم ومكاسبهم الشخصية. وعلى أية حال، فإننى قد أفنيت

معظم سنوات عمرى وأنا أشير إلى الآثار المترتبة على منح الحكومة احتكارات غبية ومزايا للقلة المحظوظة. وهو ما يعطينى سببًا أكبر لأقول، ونظر فى عينىّ كل منا بالترتيب قائلاً: "إن الحرية الاقتصادية لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة بدون أخلاق، وخاصة على القمة".

وأومأ وين قائلاً: "إن الشيوعيين والفاشيين يوافقون على الالتزام الأخلاقى، وقد هاجم ماوتسى تونج الأخلاقيات الشريرة فى الصين. فى أثناء الثورة الثقافية، كان الأطفال يبلغون السلطات حتى عن آبائهم".

وقالت كارول بخشونة: "ماذا تقول؟ إن حائط برلين قد تهدم، كما ماتت الشيوعية، وأنت ما تزال قلقا بشأن بقاء حرية الأسواق؟". ونظرت كارول حول المنضدة بارتياب. "وفيما عدا جماعات الألوية الحمراء والطريق المضىء وبضع جماعات إرهابية غريبة مثل جماعة... "أولئك الناس فوق الأرباح POP".

ونظرت إليها، بينما كان هناك خط يزداد تقطيبًا على جبينى.

"ألم تقرأ الصحف؟". وجذبت كارول إحدى الصحف من حقيبتها الصغيرة، ونشرتها مفتوحة على المنضدة. وكان العنوان الكبير الصارخ هو "إحباط محاولة اغتيال المبعوث الروسى إلى الأمم المتحدة كان المستهدف". وكان العنوان الفرعى هو "جماعة الناس فوق الأرباح POP تدّعى مسئوليتها عن الانفجار".

- "الناس فوق الأرباح POP؟".

ورفع وين حاجبة قائلاً: "أين كنت فى العام الماضى، يا ريتش؟".

وابتسمت ابتسامة واهنة: "كنت أحاول أن أتخلص من شيطان رسالتى". وأضاء شىء من البريق وجه وين. "حسنًا، إن كل إنسان آخر قد سمع عن جماعة "الناس فوق الأرباح POP". لقد تم اكتشافهم منذ ثلاث سنوات فى ألمانيا، عندما كانوا يعترضون على السياسات التحررية الاقتصادية الجديدة بنفس الطريقة التى تعترض بها جماعة السلام الأخضر على صيد الحيتان".

وحذق وين ببصره إلى كارول قائلاً: "إنهم ليسوا أغرب من الآخرين الذين يناضلون من أجل العدالة – رغم كل شيء، ومعظم المستعمرين الأمريكيين لم يساندوا ثورتنا، إلا بعد أن أتمت انتصارها. ويصدق نفس الشيء هنا".

وواصلت كارول كلامها قائلة: "على أية حال، فقد قامت جماعة "الناس فوق الأرباح POP" بتصعيد نشاطها من المقاومة السلبية إلى أعمال التخريب، وقد صعدوا به الآن إلى القتل".

ووصل الطبق الرئيسى، وبدا الارتياح على سميث الذى انهمك فى تقطيع اللحم الضانى ومضغه مفكرًا بعمق. ثم وضع شوكته قائلاً: "إننى قلق بشأن مدى استمرار الحرية، إنها مفهوم لم يحظَ بالحياة طويلاً، من الناحية التاريخية. وقد كان العنف وظلم الحكام للبشرية من المفاسد القديمة، ولا يقل عن روح الاحتكار لدى التجار والمنتجين. ونفس الشيء هو ما لا يتبع سواه، ولن يتبع غيره حكام البشر، ولكن هل نتوقع منهم أن يتوقفوا عن المحاولة؟".

وقلت: "إنك تعطى وزنًا وثقلا جديدًا لعبارة "العلم الكئيب"، وكنت أحاول أن أجتذب ضحكة من وين وكارول.

واستمر سميث قائلاً: "انظروا هنا، فإن المؤسسات لا يكتب لها البقاء لمجرد أنها تعمل، بل ولا حتى لأنها تعمل جيدًا!! إن المؤسسات تعكس ظروف المجتمع، وهى تبقى حية بسبب الدفاع عنها بواسطة النسيج الأساسى للدعم الأخلاقى. قد تكون أمريكا قد بنيت على أساس نظرية مونتسيكو للفصل بين السلطات، إلا أن مونتسيكو قد أضاف قائلاً: "إن روح الجمهورية هى الفضيلة".

وقاطعته كارول: "الضمير المدنى".

قال سميث وهو يلتقط شوكته: "أليس منطقيا أن كلاً من الديمقراطية وحرية الأسواق قد ظهرتا فى القرن الثامن عشر عندما كان القادة يحقنون بمثاليات التنوير؟ إن مفهوم "الفرد" كان يقوم على طبقات من أفكار الحقوق المتبادلة، والمسئوليات والواجبات. كما أن المفاهيم الأخلاقية لم تعترف فقط بكرامة الأفراد بل أيضا بترابطهم اجتماعيا. إن

المجتمع ينهار ليصبح عدما إذا لم تكن البشرية عامة تنظر باحترام وتقدير للقواعد الأخلاقية".

وقلت: "إن الأسواق والديمقراطية لم تكن أبدًا أكثر قوة".

وتكونت قطرات العرق كالخرز على جبهة سميث. وأكسبه التعب قوة وحدة، كما لو كانت أنفاسه تعد عليه، فقال: "إن الأسواق لا تحثها ولا تدفعها إلا العناصر الأساسية للطبيعة البشرية، وأنت توازن بين هذه وبين النزعة إلى الخير والعدالة كي تكوّن مجتمعا متمدينا". ورفع سميث صوته قائلاً: "ولكن.. ماذا سيحدث لو ألقيت الروادع الأخلاقية للسلوك جانبا؟ هل سيساند الناس مؤسسة حرية السوق إذا ما انطلق الطمع والشره جامحًا دون قيود؟ أو إذا ما أصبح المنطق غير الشخصى والترشيد درعًا لتبرير كافة النتائج غير العادلة؟".

وقلت غاضبا: "كيف يمكن للمنطق أن يضعف أى شيء سوى الخرافات؟". وهنا سقط ظلان لشخصين فوق منضدتنا وأحسست أنينًا بداخلى. "هل هذا وقت مناسب لنرحب بكم؟". كان صوت سوزان ميتشيل يرن من خلفى. ونهضت واقفًا لأقدم ضيوفى، وترددت عندما وصلت إلى تقديم الأستاذ المتقاعد، دكتور سمايث.

وهنا قام بيرجى، زميلى بالاسم وإن لم يكن بالروح مطلقا، برد فعل متأخر. كان قد بدأ ليقول شيئًا، ثم توقف. وفحص سميث كما لو كان يفعل ذلك بجهاز الأشعة، وفى هذا السكون السخيف، ابتسمت سوزان ميتشيل قائلة: "دكتور سمايث، إننا كلنا معجبون بريتش – الذى هو أحد المنافسين النهائيين على جائزة صمويلسون. فهل أنت على دراية بأعماله؟".

حرك سميث فمه فى شكل دائرة، مترددا: "ما دمتم هنا، فأنا متأكد أن عمله لابد أن يكون جيدًا".

وضغط عليه بيرجى قائلاً: "أليس لك رأى خاص؟".

ونظر إلىّ سميث بقسوة. وهز كتفيه باستهجان: "عمله مثل كثير من الأعمال الحديثة، إذ تخفق كتاباته فى تناول الصورة الكبيرة. وهو يقوم بغزل نظريات معقدة من داخله، ومعادلات دقيقة علميا ومنطقية من افتراضات عبثية وسخيفة لم يسبق اختبارها.

وقد يقول البعض إنها ليست سوى "خربشة على سبورة" وليس لها سوى صلة ضئيلة بما يدور في العالم".

وقال وين: "لقد قلت دائما إن الاقتصاديين يحدقون في السرة أو يركزون بشدة على موضوع واحد".

وخفضت رأسي، بينما كانت أفواه الآخرين مفتوحة. وكان سميث يبدو كثير النسيان وغير واع، وماضيًا في القول: "أوه، يمكنني أن أزعم أن هناك عددًا قليلا من الاقتصاديين الذين يقرءون في هذه الأيام، وأقل منهم من يقرءون التاريخ، وقد قال ذلك فرانسيس بيكون - أبو العلوم - بطريقة أفضل عندما قالُ: "كن كالنحل، اذهب إلى الطبيعة بحثا عن المواد الأولية، وقم بدراسة الحيوان الإنساني في بيئته الطبيعية" - أي المجتمع كما أقول.

أومأت كارول قائلة: "هنا، هنا... لقد قال الاجتماعيون كل ذلك". وتمتمت قائلة: "لا أدري بالضبط لماذا تم فصل الصحبة بين الاقتصاد والاجتماع منذ مائة عام - كثير من الطنين ولا نظرية".

الفصل السادس

المصلحة الذاتية ليست أنانية

أخذ سميث يثرثر طوال الوقت الباقى من تناولنا للطبق الرئيسى، وكنت أحاول أن أكتمه. كل هذا الهذيان والثرثرة مع سوزان ميتشيل. ومع ما ظهر من خيبة أمل على وجهها، ومن طرب بلا حدود على وجه بيرجى، تراجع الاثنان عن منضدتنا. وإذا ما كان الإثم يتم من خلال المزاملة، فإننى أكون قد دمرت. كانت جوائز الاقتصاد ذات المكانة المحترمة تقدم عن استنتاج نظريات، معقدة رياضيًا.

ولا تهم الافتراضات طالما كان التنبؤ جيداً. وقد أوضح لنا هذا ميلتون فريدمان، الحاصل على جائزة نوبل. أما ثرثرة سميث السخيفة عن النحل فلن يكون لها أثر جيد مع لجنة صمويلسون.

"كل شىء لهم ولا شىء للآخرين". هذا ما كان يردده سميث منغمًا، بينما كنا نجلس لتناول الحلوى، بعد عشرين دقيقة من هذا الدمار غير المخفف فى وقت الغداء. "كان هذا هو المثل السائر الردىء لحكامنا فى كل عصر".

"إنك تبدو كما لو كنت "رفيقا"، قالها وين وهو يغمس ملعقته فى حلوى الشوكولاته.

وكان السرور يبدو على سميث لما حظى به من اهتمام. "كم هو غريب ذلك بالفعل: لعلك تعرف أن كارل ماركس كان يحب آدم سميث حبا شديدا، وتلك الفقرات الغاضبة التى وردت فى كتاب "ثروة الأمم" والتى يشجب فيها التجار المخادعين والمنتجين، وأصحاب الأراضى على أساس أنهم يستغلون ويضطهدون العمال. بحق جوبيتر، إن أصحاب الأراضى هم أسوأ الجميع، فهم كسالى تمامًا، وجهلة أيضا حتى النخاع، ودافعهم الوحيد لإشباع رغباتهم هو الزهو الصبيانى الفارغ".

ودخلت كارول إلى المناقشة، "مازال هذا يصدق على أمريكا الوسطى، فإن مزارع البن والموز تقوم باستغلال العمال المحليين بعد سرقتها لأراضيهم، وقد كان المستعمرون الأسبان Conquistadors من مصاصى الدماء، ولم يتغير أبناء سلالتهم فى غضون خمسمائة عام".

وبدا الإحباط على سميث: "إن هذا ظلم رهيب حيث لم تقم أى مؤسسة بحماية قدسية ملكياتهم".

وقد حل وصول القهوة والشاى محل الإجابة. وبعد انصراف النادل، استمر سميث فى حديثه، "من المعروف جيدًا أن البحث عن الربح هو المحرك للجزء الأعظم من العمالة المفيدة لكل مجتمع. إلا أن من العجيب اكتشاف أنه بينما ترتفع الأجور والإيجارات مع الرخاء، فإن الأرباح ترتفع مع حق الملكية – نعم، فإن أكثر الأرباح ارتفاعًا تكون عادة فى تلك الدول التى تمضى بسرعة نحو الدمار".

وأومأ وين بشدة.

وقلت: "هذا يبدو تخلفًا، هل ترتفع الأرباح مع الفقر؟".

"إن هذا أمر بسيط، ففى الواقع تكون هناك احتكارات وطوائف فى الدول الفقيرة تفرض قيودًا على التجارة". ونظر سميث حوله، مستندًا إلى داخل المنضدة حتى يقرب رأسه بدرجة أكبر من رؤوسنا. وبدأ يهمس كما لو كان يذيع أحد أسرار الدولة: "إنكم تعلمون، أن الأشخاص الذين يعملون فى نفس المهنة، نادرًا ما يلتقون، حتى بالنسبة للمزاح واللهو – كما نفعل نحن هنا – إلا أن المحادثة تنتهى بمؤامرة ضد الجمهور. فى شىء من التحايل لرفع الأسعار!".

واتكأ إلى الخلف، متحدثًا بصوت أعلى: "أنصتوا إلىَّ، هل تذهب الأرباح المفرطة لهذه الاحتكارات إلى تخفيف الفقر أو تشجيع الصناعة؟ حاشا لله!!". وأخذ نفسا عميقا: "ليس هناك طبقة فى المجتمع تعانى بقسوة شديدة من هذا الركود فى أى اقتصاد مثل العمال، الذين يعيشون على أجور غالبا ما تكفى بالكاد لرعاية أسرة، وفى حالة التدهور، غالبا ما لا يحصلون حتى على هذا المستوى. أما هذا الذى يتخيل أن أصحاب العمل لا يحتالون للهبوط بأجور العمال فهو جاهل بهذا العالم مثل جهله بالموضوع ذاته".

"إن بحثى يكشف ذلك ويعريه". قال وين موافقًا.

وأصبح سميث نكدًا. وأخذ يتحدث برقة، "لا يمكن لأى مجتمع أن يزدهر ويكون سعيدًا إذا ما كان الجزء الأكبر من أعضائه فقراء وبؤساء". ورفع ملعقة، مشيرًا إلى مساعدى النادل الذين يجمعون الأطباق. "وفضلا عن هذا، أليس من العدالة والمساواة أن

يشارك جميع الأشخاص فى ناتج أعمالهم؟ بحيث يحصلون على ما يكفيهم من الطعام والملبس والمسكن بدرجة مقبولة؟".

رفع وين إصبعه قائلا: "يجب أن أعطيكم نسخة من آخر كتبى "الدولة والمجتمع العالمى" الذى يبين كيف أن الحكام الفاسدين فى العالم الثالث إنما هم مجرد دمى للشركة متعددة الجنسيات". وظهر الزهو والفخر على وجهه، "إن مجتمع الفضيلة لا يمكن أن يزدهر إلا إذا تمت مصادرة رؤوس الأموال والأرباح - وتم إلغاء الملكية الخاصة - وقد أظهر كل من ماو (تسى تونج) وفيدل (كاسترو) أن رجلاً منفردًا يمكن أن يحقق إنجازًا فى هذا المجال".

"إلغاء الملكية الخاصة؟". قالها سميث، وكأنه قد تلقى صدمة، وأفاق من حلم. ونظر حول المنضدة، يبحث عن كلمات، وكأن حياته كانت تعتمد عليها. "هل هذا هو كارل ماركس... التابع الشيطانى لآدم سميث!" لقد مضى على طريق خاطئ... يا الله... أيحاول أن يخلق "يوتوبيا" هنا على الأرض؟!".

فغر وين فاه، وأصبحت عيناه كقرصين صغيرين سوداوين. لم يلاحظ سميث ذلك، ودق على المنضدة قائلا: "إن حل الاضطهاد.. لا يكون باضطهاد أكثر. إن حل الاضطهاد هو المنافسة! فالأجور ترتفع مع النمو، والنمو ينتج من الاتجاه الطبيعى للناس إلى التعامل والمقايضة - إذا ما أعطوا الحرية. إن حرية التبادل تعطى العمال مكانًا بديلاً لبيع عملهم. والعمال المفتوح أمامهم خيارات هم ما يذبح صاحب الأرض المتغطرس!".

ومد سميث ذراعيه إلى الخارج قائلاً: "بالنسبة للأخلاقيات، فإنك لا يمكن أن تفرضها؛ إذ إنها يجب أن تغرس وتتم رعايتها. والمجتمع الحر يكون أفضل قدرة على صنع ذلك عما يمكن لرجل من النظام يجلس جاثما على عرشه المرتفع. رجل من النظام..".

أمسك سميث نفسه، وللمرة الأولى لاحظ الاحمرار البطيء على وجه وين. ومد يده قائلاً: "اعف عنى. إننى لست أنا نفسى تمامًا. بل لست نفسى بالمرة. إننى عادة ما أكون على خلق حسن. ولكن علىَّ أن أقترض عقلاً وشخصية إنسان آخر".

كانت قدمى التى تضغط من تحت المنضدة قد أمسكت بمقدمة ساقه، وعندئذ خنقته الكلمات.

. وفحص سميث وجه وين قائلاً: "لقد أثير مزاجى كثيرًا، عندما فكرت أن يترك كل رجل على عرشه المرتفع، والذى يطلق عليه "الديكتاتور الصالح"، ليقوم بوضع كافة قواعد الأخلاق والتجارة. إن هذا الرجل، الذى يبنى نظامه الخاص "الكامل" لابد أن يكون شديد الحكمة وفقا لتصوره الشخصى. وشديد الولع بخطته المثالية الخاصة التى لا يقبل أقل انحراف عنها".

والتقط سميث مذرّة الملح ومذرّة الفلفل كل فى يد وبدأ بطريقة منهجية يضعهما على المربعات المختلفة المرسومة فى مفرش المنضدة. "إن ماو، فى الماضى – أو الحاكم الشيوعى للصين اليوم – يتخيل أن بإمكانه ترتيب مختلف أعضاء المجتمع الصينى العظيم بالسهولة التى ترتب بها يدى قطع الشطرنج. إلا أنه فى اللوحة العظيمة لشطرنج المجتمع البشرى، يكون لكل قطعة منفردة مبدأ خاص لحركتها، يختلف تمام الاختلاف عما قد يريد رجل النظام أن يفرضه عليها.

وأخذت مذرّات البهار تتنقل على المنضدة دون نظام تحت مخالب سميث الكبيرة، "إن قيام رجل النظام بتقرير المستوى الفائق للصواب والخطأ، يتطلب أعلى درجات الغطرسة والتكبر، ومن المؤكد أن يؤدى إلى أعلى درجات البؤس لذلك المجتمع". وبهذه الخاتمة، طوّح سميث بذراعه عبر المنضدة، مرسلاً كلا المذرّتين تتدحرجان بينما تناثر الملح والفلفل، جاذبًا بذلك انتباه الأخرين ممن كانوا يتناولون طعامهم. وقطعت ميتشيل وبيرجى أيضًا غداءهما لينظرا نحونا. وهزت ميتشيل رأسها ببطء، بينما هز بيرجى إصبعه السبابة وابتسم ابتسامة عريضة. وكان يستمتع بنفسه استمتاعا تامًا.

ولما كنت متلهفًا إلى الهرب من هذا الإخفاق التام، فقد اقترحت أن نشرب القهوة فى الشرفة الخارجية التى تشرف على الحرم، والذى كان خاليًا، ووجدنا مكانًا ظليلاً تحت إحدى المظلات. وجلس وين ساكنًا لا يتحدث، يدخن، بينما أخذ سميث يخلل ما بين أسنانه بعود خشبى وبشكل غير واضح، وبحثت عن طريقة تخلصنا من احتكار سميث للحديث. وفى هذه اللحظة، ظهر أحد طلبة الاقتصاد الحاصلين على مرتبة الشرف فى الممر.

وناديته: "أهلا راج".

واقترب راج خجلاً: "أهلاً، مستر بيرنز، لقد انتهيت من قراءة ما أعطيته لى. متى سنلتقى؟".

وكنت على وشك الإجابة عندما تدخل سميث قائلاً: "اجلس معنا أيها الشاب، فلدىّ سؤال أو اثنين لك".

وانكمشت خوفًا.

وجذب راج كرسيًا، جلس عليه وقال: "نعم؟".

"ماذا تعلمت فى دراستك للمبادئ عن آدم سميث مؤلف كتاب "ثروة الأمم؟". وفكر راج للحظة ثم قال: "إن الطمع والشّره أمر جيد. وإن الأعمال الأنانية تؤدى إلى تحسن ظروف المجتمع، حتى لو كانت الأعمال لا تقصد ذلك".

"أرأيت؟".. أحس سميث بالانتصار: "إنه يظن أنه تعلم ذلك منى!".

وتبادل وين وكارول النظرات. وكان راج يبحث عن رد فعل لدىّ. وكان علىّ أن أفكر بسرعة، "لقد قام البروفيسور سمايث برعاية بعض طلبتنا وتعليمهم". ومضيت قائلاً: "ومن الصعب عليه أن يتذكر من هؤلاء، "أقصد من آدم سميث". قال سميث مصححًا نفسه: "هل تظن أن كتاب ثروة الأمم يشجع الشره؟".

"أليس كذلك؟". كان هذا سؤال راج. "إن معلمنا جعلنا نحفظ هذه الفقرة عن ظهر قلب، إننا لا نتوقع الحصول على عشائنا مما يتفضل به الجزار وصانع الجعة أو الخباز، ولكن من نظرتهم إلى مصلحتهم الذاتية".

"اصرف نظرك عن هذا، فهو سوء تفسير تام إذا ما ظننت أنه يعنى أن الأنانية شيء جيد!!". كان هناك ظل بنفسجي على وجه سميث، ثم قال: "كيف يمكن أن تأخذ جملة واحدة، من بين ألف ومائتى صفحة من كتابى سميث، وتفسرها بهذا الشكل؟".

ونظر راج مشدوهًا وخجلاً فى نفس الوقت.

ورفعت يدىّ إلى أعلى لإيقاف سميث. وكنت مثل جميع المعلمين قد حفظت هذه الجملة من كل كتاب للمبادئ. قلت متعجبا: "بالتأكيد!"، فقد قال آدم سميث: "إن أصحاب

الأعمال يوظفون رؤوس أموالهم لتشجيع ملكيتهم لأكبر الأرباح... وبهذا يصبحون تحت قيادة "يد خفية"؛ لدفع المصلحة العامة بشكل أكثر فعالية عما لو كانوا فعلا يقصدون تشجيعها".

وهز سميث رأسه قائلاً: "إن هذه جملة جميلة، ولكنك لا يمكن أن تقرأ "ثروة الأمم" بمعزل. هل يمكن أن تقرأ العهد الجديد وتفهمه دون العهد القديم؟ حسنًا، هل يمكن؟".. وأخيرًا، كان راج هو الذى قال: "لا أظن".

قال سميث غاضبًا: "إذن لماذا يقتبس الناس فقرة واحدة من "ثروة الأمم"، الذى هو تتمة أو تكملة، ويتجاهلون تمامًا أساسه - كتاب "نظرية المشاعر الأخلاقية"- الذى وضع ذلك بوضوح؟"..

كان راج قلقًا ويحاول أن يجذب نظرى إليه، بينما مضى سميث مكررًا: "إنكم جميعًا - بحق الله - قد خلطتم بين آدم سميث وما ندفيل - ذاك الذى قال: "إن الرذيلة الخاصة تخلق فضيلة عامة". وقد أمضى سميث حياته يفند هذا الرأى.

وكتمت كارول ضحكة عالية، واضعة يدها على فمها. وأخيرًا، تلاقت عيناها مع عينى وين. والتقطتْ نظراتهما القذرة، حتى لو كان رجلا كبيرًا فى السن مجنوناً، أليس من الممكن لذواتهم أن تشق طريقها؟ لقد كان هذا الغداء بأكمله مخزيًا.

ووضع سميث كوبه وأخذ يتحدث متوسلاً: "إن المجتمَع البشرى يشبه آلة كبيرة ضخمة، والفضيلة هي طلاء لامع جميل لعجلاته. إن الرذيلة، هى صدأ يتسبب فى إحداث صرير فى العجلات واحتكاك إحداها مع الأخرى. وإذا كنا نعرف ما كتبه آدم سميث، فكيف لامرئٍ أن يقول إنه كان يظن أن الأنانية شيء جيد؟!

واعتدل سميث فى جلسته، ناظرًا إلىَّ من ركن عينه. ولم يتحدث أحد. وأخيرًا: مضى يقول - بينما يشع منه إحساس الرضا: "لقد قال سميث فعلاً. على أية حال، إن حب الذات أمر طبيعى، وفى نطاق حدود معينة يمكن اعتباره فضيلة مطلوبة".

وبدا منتصرًا، وحدقنا مشدوهين دون تعبير. وكان عقلى غارقًا. لقد خاض سميث وعبر مياهًا ثقافية أكثر عمقا وشدة من كل من عرفتهم.

والآن، بعد أن ثبتت حجة سميث، أخذ يطرق على المنضدة قائلاً: "حب الذات، ألا ترى؟ ألم يقل يسوع: "أحب جارك كما تحب نفسك؟ وبحبك لذاتك، هل قال أى شخص أن هذا يعنى أن يسوع يفضل الأنانية؟.

قال راج: "لا، لأن ذلك - بوضوح سيكون خارجًا عن حسن الخلق". "بالضبط". قال سميث وهو يبتسم: "وهل سيكون أيضا خروجًا عن حسن الخلق الظن بأن آدم سميث كان يعنى أى شيء آخر؟. إن حب الذات وسيلة فى "ثروة الأمم" للحث على بذل الجهد والإنتاج. وعندما تدحض الوسائل بالنتائج، فهذا هو الذى يؤدى إلى الأنانية". وقال وين متذمرًا: "ما الفرق؟، إن الرأسمالية هي هي فى أى طريق".

وتنفس سميث قائلاً: "على العكس، إن مشاعر القلب التى يبدأ منها أى فعل والتى تعتمد عليها فضيلته أو رذيلته بأسرها يجب أولاً أن يتم فهمها فى ضوء العلاقة مع الدافع الذى يثيرها".

"ولكن فى الممارسة....".

قال سميث مقاطعاً: "فى الممارسة يختلف حب الذات كثيرًا عن الشره".

"كيف يختلف؟".

"إن حب الذات يعنى قيامك باتخاذ خطوات لتوفير احتياجاتك الخاصة، وأمانك الخاص، وألا تكون طفيليا على المجتمع". وتحول سميث فى مقعده، "ورغم كل شيء، فإن الإهمال فى الأمور الاقتصادية ليس فضيلة. وكل شخص يطلب إليه أولاً - وبصفة رئيسية - أن يتولى رعايته الذاتية، كما أن كل شخص سيكون أكثر صلاحية وأكثر قدرة على العناية بنفسه عن أى شخص آخر".

"ولكن أليست هذه أنانية؟".

"لا بالطبع. إن الأنانية هى ارتباط الذات باحتياجاتك الخاصة عندما تتعارض مع الحقوق الشرعية للآخرين". ونهض سميث وبدأ يخطو. "إن الأنانية يمكن أن تؤدى إلى إلحاق الضرر بالآخر أو إهماله. وليس هناك أى شخص يحب الإنسان الأنانى، وأنا الأقل فى ذلك". وأطلق سميث نظرة نحوى.

وسألت: "الجزار والخباز... أليسوا أنانيين؟".

أجاب: "ليس بالضرورة. إنهم يروجون لمصالحهم الذاتية دون الإضرار بالآخرين. وكان مذهب الكنيسة فى أيامى يقول إن كل المصالح الذاتية خطيئة. وقد أوضحت أن نظر الإنسان إلى نفسه،يمكن أن يكون ذا فائدة للآخرين أيضا. والمصلحة الذاتية تتصف بالفضيلة الأخلاقية بهذا المعنى الضيق؟ ونظر سميث حوله حالما، وعيناه تلمعان!! بالتأكيد ليس هناك من يريد أن يعمل خبزه بنفسه، أو أن يخيط ثيابه بنفسه. هذه هى الحقيقة الأساسية لكل سيد حكيم: ألاّ يعمل فى المنزل ما سيكلفه عمله أكثر مما سيدفعه لشرائه".

وتمايل سميث، وأخذ يتكلم مترنما: "وما يعتبر حكمة في سلوك كل أسرة نادرًا ما يعتبر حماقة فى سلوك أمة عظيمة، ولكن الحكمة لا تتطلب الأنانية".

وبدا سميث أنْ يتجمد.

وسألت: "أليست الأنانية طبيعة بشرية؟".

"نعم، ولكن من الطبيعة البشرية أيضا، أن تحاول موازنة هذا الشعور". وشهق طلبا للهواء: "إن الشخص الفاضل يجب أن يعمل على تنمية هذه العادة، ويجب أن يغرس الوعى... بـــ... بـــ".

وتركزت عيناه على جبهتى. ولما كان يترنح، فقد تسلل فى طرق جانبية إلى المنضدة. وأمسكنا بالمنضدة بشدة، ولكن ذلك كان متأخرًا بعض الشىء. وتهاوت ساقاه، مرسلةً جسده الضخم ليصطدم بالأرض.

الفصل السابع

على الطريق مع آدم سميث

"كيف حال المريض؟".

وفتحت جوليا ذراعيها لتضم غرفة المعيشة: "أفضل. لقد كانت ثلاثة أيام وهو هناك. لقد سأل عنك".

وكنت أرهف سمعي لأستمع إلى اتهام في نغمة صوتها، إلا أنني لم أسمع شيئًا منه. وكانت تبدو مسرورة بأنني قد حضرت أخيرًا. فبعد سقوط هارولد في نادي الكلية، أخذته جوليا معها، وقامت بترتيب غرفة الضيوف لديها. ونقلت لوح قائم السرير حتى يمكنه مد رجليه الطويلتين حتى آخر السرير، ووضعت ستائر ثقيلة تمنع الضوء بدلاً من الستائر الخفيفة، كما وضعت جهاز تلفزيون صغير في متناول اليد.

وكان هارولد يشاهد التلفزيون وهو نصف منتبه إليه عندما دخلنا. كان وجهه منتفخًا، وعيناه تبدوان في حجم زرين معتمين صغيرين على نمر ضخم محشو بالقش وكانت بيجامتي التي أقرضته إياها صغيرة بالنسبة لجسده الضخم، وكان الرسم المطبوع عليها على شكل ماسة مبهرًا للعين.

"آه.. إنه أنت... لماذا تحاول أن تقتلني؟". قال هارولد ذلك بصوت واهن.

أنا لم أحاول أن أقتلك".

"لقد أعطيت شرابا لذلك المدعو سميث.. هل تظن أن هذه الغضون على وجهي كانت نتيجة قيامي بإصلاح الكاربريتور، لقد امتنعت عن الشراب منذ خمسة عشر عامًا حتى الآن".

"لم أكن أعلم ذلك".

"ولكن كبدي قد علم بالتأكيد".

يبدو أن هارولد كان قد شرب أكثر من المعتاد في ذلك اليوم، حتى أن رد الفعل لديه كان بهذا الشكل من مجرد كأس أو اثنين. وربما كانت جوليا قد وصلت إلى نفس النتيجة؛ لأنها نظرت إليه بقلق واهتمام يدلان على معرفة، وهو ما جعلنى أحس بعدم الاكتمال أو عدم الكفاءة أو كليهما.

"لقد أعطانى الطبيب هذه"، وأمسك بزجاجة دواء تم تحضيره وقال: "إن هذه وجهاز التلفزيون قد جعلانى لا أسمع ذلك الصوت مطلقًا. وآخر شيء أريده هو أن تعودا لنفس الشيء مرة أخرى. اللعنة، كانت على وشك أن تقتلنى".

"اللعنة. إنك تكاد أن تكون قد قتلت جائزتى". هكذا تمتمت لنفسى بصوت منخفض.

استدار هارولد مرة أخرى إلى التلفزيون، كان الدواء يجعله نصف نائم. وابتعدنا أنا وجوليا بلطف بعيدًا عن مدى سمعه. وأخبرتها عن تعليقات سميث المدمرة التى قالها لسوزان ميتشيل فى أثناء الغداء.

وسألتنى: "هل سيكلفك ذلك ضياع الجائزة؟ إننى سأشعر بأسف شديد لذلك".

"ربما".

ولكن الأمور لم تمض على هذا النحو. فقد كانت سوزان ميتشيل فى منطقة انتظار السيارات عندما نقلنا هارولد إلى السيارة وأصبحت الآن "السيد الطيب" الذى يحاول مساعدة شيخ خرف".

"إنه ليس خرفًا". قالت وهى تخفض نظرها. كنت أريد أن أخبرها عن مدى الجاذبية التى بدت بها، ولكننى غادرت المكان وحيداً. لقد كنا أصدقاء كما قالت، وكفى.

"أنا آسف. لقد طلب إلىَّ أن أقوم بمراجعة ذلك المقال الصحفى. وأنت تعلمين الضغط الواقع علىَّ".

رفعت عينيها، وعجبت مرة أخرى بل وقدرت لها طاقتها على العفو. وجاهدت لترسم ابتسامة، من النوع الذى أعطيه لكلبى ركس عندما يوقع شيئا فى أثناء حماسه بى". لا. إننى ينبغى أن أعتذر. كانت تلك مخاطرة كبيرة عندما تم اصطحابى لهارولد إلى نادى هيئة التدريس".

ومضت تقول: "إن القلق يجعلنى أكثر إصرارًا على نسيان روح المرح. إنك تستحق الثناء، وليس التذمر. إن ما قمت به يتطلب قدرًا كبيرًا من الشجاعة". كانت الطريقة التى قالت بها ذلك، والبسمة الدافئة التى أضاءت وجهها، قد أعطيانى تلميحًا بشيء مختلف. إن التلميحات الرقيقة دائمًا ما يكون لها طريقة فى الطيران فوق رأسى على أية حال. ربما كانت هى قد أحست أيضا بشيء ما؛ نظرًا لأنها سرعان ما غيرت الموضوع".

"ماذا تظن.. عن هذا الصوت الآتى عبره الآن؟".

قلت: "كان هناك شعور يتنامى بداخلي، وكنت نصف الوقت لا أدرى ما إذا كنت أشعر بالأسف له، أو أخنقه. ومع ذلك فإننى سأفتقده. وأظن أن هارولد يخضع لرعاية طبيب جيد الآن... وأنه لم يعد يسمع الصوت..".

"أو.. هه".

نظرت إلى جوليا، منصتا إلى ما قد يكون من تلميحات فى إجابتها، ثم قلت: "إننى... سأذهب إلى الساحل الغربى فى خلال بضعة أسابيع".

"هل سترحل؟".

"لقد جئت إليك لأخبرك بهذا. وقد قمت باستئجار كوخ بالقرب من يوسميث، إنها إجازة عمل. إن أحسن ما أكتبه دائمًا ما يكون بعيدًا عن البيت".

ربما يكون هارولد قد سمع ما قلت؛ لأنه نظر إلى أعلى قائلا: "هل سترحل بعيدا؟". وكان الذعر باديًا فى صوته.

وتحركت إلى مكان قريب من سرير هارولد. وقلت: "إننى بحاجة إلى ركوب دراجتى بين جبال سييرا، وأن أعسكر عند هاف دوم، وسأرى حتى ما إذا كان يمكننى أن أذهب إلى الكابيتان. إذا ما كان ذلك لن يؤدى إلى خلخلة رسالتى، إننى لا أدرى ما الذى سيحدث".

ضمت جوليا شفتيها وهى تنظر إلى هارولد.

وضعت يدى على كتف هارولد قائلاً: "لقد بدأت أستمتع بصوتك أنت يا هارولد. ولم يكن بدرجة الجنون التى توقعتها، وبه ترابط منطقى، ورؤيا".

قالت جوليا: "ليس هذا هو ما قاله وين عندما ساعدنى فى حمله إلى الداخل".

وضحكت: "لقد كان وين مبهورًا بطلاقة هارولد. كان ينبغى أن تستمع إلى نفسك يا هارولد".

وسارت معى جوليا حتى سيارتى.

"إننى أشفق على هارولد". قلت هذا، عندما رأيت أن الدفء الذى سبقت رؤيته قد أخذ يختفى من عينيها الآن. "إن الدواء يساعده، وهو يبدو فعلاً أفضل. إنك تفهمين حاجتى إلى السفر، أليس كذلك؟".

"بالطبع". قالتها بصراحة تامة.

وسألت: "مازلنا أصدقاء؟".

ووضعت يديها متقاطعتين وهى تبتسم: "بالتأكيد. شكرا لك على كل شىء يا ريتش. وحظًا سعيدًا".

وترددت قليلا ثم انحنيت إلى الأمام لأضع قبلة عاجلة على خدها.

***

أمضيت الأسابيع التالية فى الإعداد لرحلتى. وفى آخر صباح، كنت سأقوم بوضع اللمسات الأخيرة على المقال الصحفى "للمراجعة والإعادة". وقمت بطباعة النسخ الثلاث المطلوبة وكتبت معها خطابًا وأرسلتها. وعندئذ، أخذت فى مسح وتعداد الكورات فى حجرة الطعام، التى أستخدمها كمكتب فى البيت. كان الورق هو ما يحيط بعالمى: مسودات قديمة من رسالتى وهذا الفصل النهائى المضجر كان مكومًا فى مجموعات. وأخذتها كلها بالإضافة إلى ما كان يحتويه صندوق القمامة لدى، ووضعته بالخارج. وكان الصوت المكتوم الذى يحدثه سقوط الورق فى حوض إعادة التدوير بمثابة فجوة مرتفعة لعقلى، أو بابًا تم إغلاقه على ما مضى.

وفى الوقت المتأخر بعد الظهر، كان متجر المعسكر هو بيتى؛ نظرًا لأننى كنت أدلل نفسى مع اللُعب، وأقمت خيمة على شكل نصف قبة – سهلة التجميع. وضعت فيها أنواعًا مختلفة من الملابس والعدد: مخدة أرضية، وكيسا للنوم، ومصباحًا، وموقدًا، وعدة الإسعاف، وتشكيلة من الوجبات المجففة. ومن مكان حفظ اللحوم أضفت زبدة الفول السودانى وبعضا من البسكوت الهش، وأصابع من الحلوى، والحساء، وزجاجتين من ويسكى درامبوى. وملأت ثلاجتى بالجبن والبيض وعصير البرتقال.

وفى مساء يوم الرحيل، كانت سيارتى من طراز ستيشن واجون ممتلئة حتى آخرها. وكانت هناك أربعة صناديق ثقيلة مملوءة بالكتب والجرائد، وأوراق البحوث، قد احتلت الجزء الخلفى من السيارة، بينما كان الحاسب الإلكترونى الشخصى وحقيبة أدواتى مغروسين بين كل ذلك. وتركت مكانًا لاصطحاب ركس، وقمت بتثبيت سلسلة للكلاب فى حزام الكرسى الخلفى. بينما كانت على مقعد الركاب ثلاجة تبريد، وعلى الأرضية تحتى كانت عدة الحلاقة الخاصة بى، وصندوق من الأسطوانات المضغوطة. كان عداد المسافات فى سيارتى قد تجاوز ما يزيد على مائة ألف ميل، ومع هذه الحمولة الثقيلة فإن سيارتى سيكون عليها أن تناضل لصعود جبال روكى. وكان ناقل السرعات قد لحقه بعض الانزلاق مؤخرا، إلا أننى لم أكن أريد إنفاق عدة ألوف من الدولارات لشراء سيارة جديدة أخرى. وسأقوم بضبط السرعة بحيث لا تتعدى ٦٥ ميلاً فى الساعة، كما أدعو الله لسلامة الوصول.

أخذ ركس ينبح دون توقف من داخل المنزل، ربما كان منزعجا من كل هذا الاضطراب. وخطوت إلى الخلف لأعجب بما صنعته يداى، ولأمد لوحى كتفىّ المتألمين. وكنت أتوقع أن تكون الرحلة فى الصباح التالى بداية للاسترخاء والتطهر، وقد منعنى كل هذا الانشغال بالعمل من التفكير فى جوليا أو هارولد. لابد أن التعب كان هو المتهم: وإلا لماذا لم أتمكن من الشعور بشىء؟

دلفت إلى الداخل، لأقوم ببعض مكالمات الوداع، ممسكا بكلبى النباح ركس فى حجرى. طلبت والدى، ولم يكن هناك أحد. وطلبت جوليا، وأيضا لم تكن هناك إجابة. وأخرجت مفكرتى وأخذت أراجع قائمة أصدقائى وزملائى الذين قد يعنى رحيلى بالنسبة لهم شيئا ما. وبدأت فى طلبهم وكانت آخر مكالمة لى مع جارتى المتقاعدة، فرانسيس، كى أسألها إذا ما كانت تحتاج إلى شىء قبل رحيلى.

"إننى سأكون فى غاية الخوف بدون وجودك إلى جوارى فى المنزل الذى يلينى، إن حيوانات الراكون المسعورة قد عادت حولنا مرة أخرى، انظر ماذا فعلوا بقمامتك ولم يكن الظلام قد حل بعدا!".

"قمامتى؟".

قالت: "لقد وضعوها على كل الممر، ولابد أننى قد أخفتهم فهربوا بعيداً، عندما كنت أقود سيارتى منذ نصف ساعة".

وأقسمت وأنا أهمس: "سأقوم بجمعها، شكرا".

وجدت مصباحا ذا بطارية، ومشيت إلى البوابة الخلفية مع ركس، الذى كان قد أخذ الآن يهز ذيله بزهو من يقول: "لقد أخبرتك". كانت حيوانات الراكون قد وصلت فعلا إلى هناك، ولكن الغريب أن سلة إعادة تدوير القمامة كانت هناك أيضا، وكانت محتوياتها متناثرة على الممر، وقمت وأنا متذمر بالتقاط زجاجة من هنا، وقطعة من صحيفة من هناك. وعلى الأقل لم تكن هناك ريح لتقذف بالأشياء بعيدا.

لماذا تتدخل حيوانات الراكون فى عملية إعادة التدوير؟ كانت الزجاجات والعلب الفارغة مغسولة، كما أن الصحف لا تؤكل، حتى من جانب الحيوانات المسعورة. ووضعت كل شيء فى مكان على الأرض. ووقفت ويدى على مؤخرتى، أفحص فى حاويات القمامة على شعاع مصباحى الضيق. وكان هناك شيء ما ليس سليماً. لقد كانت سلة إعادة التدوير ممتلئة حتى نصفها فقط. ومع بزوغ الحقيقة، انطبق فكى بشدة. لقد ضاعت مسودات رسالتى.

***

كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف عندما عدت، وصببت عيارا من ويسكى الدرامبوى على الثلج، وسقطت على كرسىَّ الهزاز ذى الوسادة المنتفخة، ورفعت قدمىَّ إلى أعلى، وأطفأت الأنوار. كان هذا أحد طقوسى بعد عمل يوم شاق: أن أجلس فى الظلام، وركس إلى جانبى، وأستمتع بمذاق الشراب على لسانى وفى حلقى، متناسيا أحداث اليوم.

كانت صدمة الانتهاك التى أحسست بها، وأن شخصًا ما قد كان ينقب فى أوراقى ويعبث بمخطوطاتى، لا تقارن إلا بقيامى شخصيا بعملية جلد ذاتى بالسياط لنفسى لغبائى. يالى من أبله! لقد سمعت عن عدم الأمانة الأكاديمية، وعن سرقة الأساتذة لأفكار الآخرين ونشرها قبلهم بسبب ما قد يكون بينهم من ضغائن. وقد غدا هذا النوع من السرقات بمثابة تقليد أو موروث شعبى فى مراتع جامعة كامبردج وبالو آلتو. ولكنه كان يبدو بعيدا جدا عن فريدريكسبورج النائمة، حتى أنه لم يخطر على بالى بما يثير القلق لدىّ.

كان عقلى يطارد مختلف الاحتمالات. ربما كان ذلك مزاحا عشوائيًا للأحداث المنحرفين الذين يقومون بدحرجة أوعية القمامة. وهززت رأسى إن أيًا من كان قد أخذ هذه الأوراق والنصوص إنما فعل ذلك عمداً. وهذا يعنى أن هناك من كان يراقب المنزل عندما وضعت هذه الأوراق خارجه بعد ظهر اليوم. ولما كانت لدى مسوّدات عديدة فإن ذلك يعنى أنيم يمكن أن يتتبعوا مسار التقدم فى تفكيرى. ومن ناحية أخرى، فإننى لم أكن قريبا بأى شكل من الانتهاء. ولدى القطع متناثرة ولكن ما ينقصنى هو النظرية التى توحدها مع بعضها بعضا. وهذه الأوراق لن تساعدهم. ومع وجود لاتيمر العظيم شاهدا إلى جانبى على حقوق ملكيتى، فإن أى جريدة محترمة لن تجرؤ على نشر بحث لشخص آخر يستعمل المادة العلمية الخاصة بى. إذًا ما الدافع إلى ذلك؟!.

فجأة، تذكرت أن لاتيمر قال ونحن نتناول الغداء معا فى واشنطن، "إن عملية بهذا الحجم يمكن أن تساوى مليار دولار بالنسبة لشركة وورلدكيم". وأخذ عقلى يتخضخض بعنف: هل كان هذا نوعا من الجاسوسية الصناعية؟ ولم تكن شركة وورلدكيم هى العملاق الوحيد ذو الاهتمام بابتزاز الروبلات الروسية بل هناك عشرات من المنشآت التى تحب هذه الفرصة وأدخلت يدى فى شعر رأسى. لقد بدأت فى كتابة رسالة ولم أطلب كثيرا كى أدخل فى مثل هذه التعقيدات. ورشفت جرعة من الشراب وألقيت برأسى إلى الخلف وانزلقت فى غفوة غير مريحة.

عندما استيقظت منتبها، كانت هناك نسمة لطيفة تدخل من خلال النافذة المفتوحة وتنبعث من الحديقة. وقد حملت معها رائحة شجيرة الزيتون المزهرة. وعلى البعد، سمعت أصوات فرقعة وانفجارات، ورأيت وميضا لألعاب نارية. وفجأة، بزغ فى عقلى

أن اليوم هو الرابع من يوليو(*)، وأنا لم أذهب إلى أى مكان للاحتفال، وبالفعل لم يكن إلى جانبى أى مخلوق غير ركس لأحتفل معه. وكنت بلا شك أشعر بالأسف على نفسى.

وتمددت مرة أخرى لأنام، كانت أشعة القمر تتكسر فى شكل زوايا فوق جسدى. وفيما يشبه الحلم، نطقت سحابة حيرى باسمى، بينما كان ضبابها الرقيق يلفنى.

وسمعت صوتا مكتوما، ثم ساد السكون، ثم صوت تنظيف بفرشاة ومكشطة، وأعدت جلوسى على كرسى هزاز، ولكن السحابة عادت تتكلم إلىّ ولم أفهم شيئا.

وفتحت عينىّ فجأة، وكان هناك شكل غير واضح لإنسان ضخم عملاق ينظر إلىّ من النافذة، وكانت هيئته مكونة من أعمدة وظهر يضيئه القمر. وشعرت بشلل فى حالة حالمة لما بدا وكأنه الأبدية، وكنت أحدق إلى خطر هائل، وما كان يُسمَّى كلبى الحارس ركس لم يفعل شيئا لينبهنى، وظل واقفا متنبها بينما أذناه مشرعتان إلى أعلى، وذيله يهتز كأنه علم استعراض يوم الاستقلال.

"إننى سأذهب معك". كان هذا ما قاله الشكل العملاق من النافذة. "من أنت؟". سألت وأنا أفأفئ وأتمتم. "آوه. أنت هارولد، ياالله!".

قال الصوت بخشونة: "ليس هو - بل أنا سميث". وانتفضت واقفا وأنا أقول: "لقد أفزعتنى.. وجعلت الدنيا تظلم فى عينى".

قال سميث: "سأذهب معك، ومعى حقيبة صغيرة بها بعض من أشيائه".

"أنت الآن واقف على شجيرتى، وتسحق شجرة الزيتون!!".

وجاء صوت آخر من خلال النافذة. كان صوت جوليا: "ريتش، أنا لم أتمكن من إيقافه ومنعه".

وفى خلال بضع لحظات، كنا فى حجرة معيشتى: سميث يقف فى مواجهتى مرتديا سترته الداكنة، ويقبض بيده على حقيبة من الخيش، وجوليا واقفة بيننا. وكان ركس يتشمم باهتمام فى قدمى الزائر الكبيرتين.

(*) عيد الاستقلال للولايات المتحدة (المترجم).

"هذا جنون". قلت صارخا "إنك لا يمكن أن تتخذى قرارات لهارولد".

كانت جوليا أقل هدوءا من طبيعتها. "عندما عدت من الاستديو الخاص بى هذه الليلة، كان يجلس على الشرفة الأمامية مع حقيبته".

فكان هارولد يبدو فى حالة طيبة عندما رأيته آخر مرة، "كان طبيعيا جدًا". قلت هذا متجاهلا سميث.

"لقد أصرَّ على أن أحضره إلى هنا". "ثم قالت: لم أعرف ماذا أفعل".

"دعونا جميعا نهدأ قليلا". قال سميث: "ماذا لو كنت أنا؟ إنك ستقدم معروفا لهارولد عندما تأخذنى معك. إن هذه الأدوية تدمر جسده. وهو سيصبح أفضل حالا إذا عرف أن هناك من يستمع إلىّ".

قلت: "أنا لا يمكننى القيام بهذا".

وساد الحجرة سكون للحظة.

ثم تنهدت جوليا، ونظرت إلى أعلى نحوى قائلةً: "إن هذا يعنى طلبا كبيرًا ياربتش، ولكننى كلما فكرت أكثر فيه، كلما وجدت أنه يبدو منطقيا أكثر، فهو إذا لم يذهب معك، سيكون على هارولد أن يجد شخصا آخر يساعدنى فى نقل اتصال سميث. وأنت تعلم مدى استحالة ذلك. فإن هذا لن ينقضى ويذهب بعيدا".

قلت بصوت نائم ونغمة غاضبة: "هذه بالضبط ليست مشكلتى".

واجهتنى جوليا، مستجدية: "هل يمكنك دائما الابتعاد عن الآخرين بهذه السهولة؟".

قلت: "ليس لدىّ مكان. انظرى بنفسك. العربة مكدسة".

قالت وهى ترد بعنف: "لست بحاجة للقيام بذلك. إننا عادة ما نجد مكانا فى حياتنا لما هو مهم".

كانت جوليا ذات موهبة فى تلك الضربات القوية المباشرة.

وبنفس السرعة التى قالت بها هذا، كسا الاحمرار وجهها. "هكذا يمضى لسانى مرة أخرى. أنا آسفة يا ريتش. كان لا ينبغى أن أقول هذا إننا نطلب كثيرا منك". وأخذت ذراع سميث" تعال أيها الرفيق الكبير، دعنا نمضى من هنا".

رفع سميث كتفيه وهو ينظر إلىَّ: "سأتوسل إليك أنا هذه المرة، وإذا لم يكن عن نفسى، فعن هارولد. إن أخته الوحيدة تعيش فى إحدى البلدات التى تدعى أوكلاند، هناك حيث ستذهب".

وأومأت جوليا برأسها ببطء، "لقد نسيت هذا. سيكون بإمكانه الآن استخدام مساعدة أخته. ألا تعلم أن تأمينه الصحى قد انتهى؟".

لم يكن أى من هذه المشاكل يخصنى، وكان لدى كل الحق فى أن أقول: "لا" لهذا الإلزام الأحمق كانت الفكرة بأسرها فكرة مجنونة.

جلس ركس هادئا عند قدمى سميث، كما لو كان ينتظر منحة للكلب. وكان سميث يداعبه بلمسات حانية على أذنيه ثم قال: "هذا كلب أغنام جيد".

وكانت جوليا تقضم أصابعها، وقالت: "انظر، إن هارولد ميكانيكى، ويمكنه أن يساعدك إذا ما توقفت عربتك القديمة". ورفعت نظرتها إلىَّ "يا ريتش. أرجوك قل إنك ستأخذه معك؟".

وأضاف ركس نباحه، وأصبحوا كلهم ينظرون إلىَّ.

وهكذا، كان ذلك ما تم فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى، بدأت رحلتى عبر أمريكا مع هذا المواطن كبير السن ذى الهيكل العظمى الضخم، الرومانى المتعب الذى يصدر من جسده المتهالك صوت روح يدعو نفسه آدم سميث. ومضيت فى طريقى مع هذا الجنون، بعد إغوائى ومداهنتى بأننى لن أكون سائقا أقود سيارتى إلى قدرى، بل سأكون راكبا فى رحلة لم يكن فى إمكانى أن أحددها. ويمكننى أن أقول إننى قبلت ذلك من أجل جوليا فقط، أو لاصطحاب ميكانيكى معى، ولكن هذا لم يكن كل شىء. كان الصوت قد أثار فىَّ روح التحدى، وكان هناك جزء فى داخلى يشتاق إلى سماع المزيد.

الفصل الثامن

خَلْقُ الثروة

بدأنا رحلتنا فى الفجر، كان الندى لا يزال رطبا على عشب الحديقة، والسماء صافية مضيئة فوق رؤوسنا، وكانت جوليا هناك لتلتقط صورة لنا، وتلوح لنا مودعة، وظلت تفعل ذلك حتى درنا بالسيارة حول ركن المنزل، واختفينا عن النظر. كان خط الرحلة الفضفاض يتضمن زيارة زميلى فى الغربة فى أثناء الدراسة فى شيكاغو، ورؤية بضعة مواقع تاريخية فى جبال روكى، والوصول إلى الكوخ الصيفى فى جبال سييرا فى أوائل شهر أغسطس. وعلى الرغم من هواجسى الناشئة من اصطحابى راكبا معى، فإن الرحلة ستمر بسرعة أكبر مع شخص يقاسمك الرتابة والملل. وبمجرد وصولى إلى كاليفورنيا، سأترك هارولد مع شقيقته، وأستمتع بوحدتى مع نفسى فى يوسميت. ولم أكن أفكر فى شىء أكثر من إضافتى لمسافة أطول بعيدًا عن منزلى الخالى.

كنت قد اخترت طريقا غير مباشر لمشاهدة الأراضى الوعرة، والأقل تعرضا لتعديات البشر عن المسافات الشاسعة الواقعة بين الولايات. تركنا فريدريكسبورج على الطرق الخلفية، متجهين شمالا وغربا، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى ريف الخيول الطليقة. كانت الخيول والأفراس الصغيرة ترعى أمام ستار أبيض منتظم من الأسوار والحظائر البدائية الحمراء. وكان الطريق لنا وحدنا ولم أكن أتحدث ورفيقى إلا قليلا.

عند ماناساس، انحرفنا غربا مما أكسبنا ارتفاعا، وفى خلال ثلاثين دقيقة، كانت جبال بلوريدج قد ابتلعتنا، وعندما وصلنا إلى القمة، بدأ فى هبوط شديد الانحدار إلى الفرع الجنوبى لنهر شيناندوا. كان الصيف الجاف الحار قد صبغ الحقول باللون الأصفر، وكانت الأوراق تتعلق بصعوبة بأغصان الأشجار. ثم على الفور تقريبا، ظهر أمامنا السنام الديناصورى لجبال ماسانوتين مرتفعا من السهول، ومرة أخرى تسلقنا لندخل فى الهواء الأكثر برودة قبل أن نهبط إلى وادى شيناندوا المتسع. كان هناك كثير من المزارع الصغيرة المزدهرة التى تملأ جنبات الوادى لعدة أميال – وكأنها مخزن استثنائى مدهش للتفاح والذرة والدواجن والأبقار ومنتجات الألبان. كانت هذه المنطقة هى سلة الخبز

للاتحاد، وهى ذاتها التى قام منها جاكسون الملقب "ستون وول" بهجماته وغاراته المضللة فى السنوات المبكرة للحرب الأهلية. وهى نفس الأرض التى حولها شريدان إلى منطقة مهجورة ومخربة.

وعند نيوماركت هبط الفرع الشمالى لنهر شيناندوا من الجبال، ولم يكن أمامنا أى خيار سوى أن نبتعد عن الطريق الريفى الهادئ إلى الطريق السريع ٨١١. كانت حركة المرور ثقيلة مع تقدم ساعات النهار. كانت عربات النقل الثقيل ذات العجلات الثمانى عشر تئز وهى تمر بنا ولوحاتها تحمل أسماء ولايات أريزونا وفلوريدا وأوهايو، وكانت حمولاتها الثقيلة من مختلف الأحجام والأشكال والألوان. وارتطمنا ببقعة ممطرة، أصبح معها الطريق زلقا، إلا أنها بدت وكأنها لا تدعو أحدا كى يبطئ.

وقلت: "إنها تزداد سوءا، فكل شخص يظن أنه يملك الطريق، اللعنة على هذا الجو".

"رائع!". هكذا صاح سميث كطفل صغير وكانت هناك خريطة للطرق قد استقرت فى حجره، "لقد قطعنا طريقنا من خلال الجبال كأنها غير موجودة. ومررنا فى منطقة جديدة دون أن يستوقفنا أحد!!".

كانت هناك علامة طريق كتب عليها "مرحبا بكم فى ميريلاند".

وأومأ سميث عبر الطريق الواسع المزدحم قائلاً: "هل تذكر اليوم الأول الذى تحدثنا فيه معا؟ لقد سألتنى عن الثروة، هذا هو المفتاح. إن الطرق المدهشة مثل هذه الطرق تعمل على توسيع حجم سوقك إلى ما يناهز ٣٠٠ مليون نسمة!". وانكسر صمته الذى كان عليه، كتصدع سد بعد الفيضان. وأدرت شريطا على جهاز التسجيل.

"إن خلق الثروة ليس سرًا"، واستمر يقول: "عليك أن تحسّن المهارة، والذكاء، وحسن التمييز لدى العمال، ولكن يمكن للمجتمع أن يقوم بهذا؟ كيف تمكن صديقنا هارولد، المهاجر المفلس من رومانيا – الذى أسكن جسده الآن – من أن يزيد قدراته الإنتاجية؟ هـــ. هـــ م؟".

حدجنى سميث بنظرة متأهبة لضفدعة ضخمة لمحت ذبابة على ورقة زنبقة طافية على وجه الماء. "إنه التبادل!" قال وهو يصرخ بقوة: "إن الطبيعة البشرية لديها ميل

طبيعى للتجول والمقايضة، ولاستبدال شيء بآخر. والتبادل يسمح بالتخصص. والاختلافات بين المواهب الطبيعية للبشر محدودة، ولكن الاختلافات تنشأ من العادات والعرف والتعليم. وصديقنا هارولد استهوته محركات الديزل وأحبها، وبمرور الوقت – على الأقل قبل مرور مرضه أخيرا – أصبح هارولد يجيد بصفة خاصة هذا الشيء الوحيد. والمتخصص يؤدى الأشياء بطريق أسرع وأفضل من الشخص العام غير المتخصص. وتقسيم العمل يؤدى إلى تحسين الإنتاجية، ليس بدرجة قليلة، ولكن بمعامل عشرة أو مائة مرة".

كان سميث مستمرا فى حديثه: "والآن، ما الذى يسمح لهارولد بأن يتخصص؟ إن السر يكمن في أنه يقوم بمهنته فى نطاق مدينة كبيرة، مساحة سوق واسعة تتيح له رفاهية توجيه طاقته إلى إصلاح شيء واحد، محركات الديزل. وهو يعلم كل ما هناك عن شمعات التوهج، نسب الضغط، ودقائق هذا الحقل الضيق. والأدوات الخاصة مجهزة، وكل شيء معد لهذه المهمة الواحدة. وهارولد يشق طريقه فى هذه المحركات، بحق السماء!! إن ما يصدق على هارولد، يصدق على أى عامل آخر فى السوق الأوسع – من الزراع والأطباء والمعلمين وعمال المصانع".

ثم قال: "وما فى عقل هارولد هو لى بسبب افتراضه. والآن، دعنى أنهى حديثى. عندما يتم تقسيم العمل بشكل متقن، فإن الشخص لن يمكنه أن يستوفى سوى جزء بسيط من حاجاته بعمله هو ذاته. وبسهولة أكثر سيقوم باستيفاء احتياجاته الأخرى عن طريق مبادلة الفائض لديه بمنتجات الآخرين. وكل شخص عندئذ – سيعيش على التبادل، وينمو المجتمع ذاته إلى ما يطلق عليه مجتمع تجارى".

كنت أنصت بنصف عقلى، مركزا على مجموعة من الناقلات الجرارة المسرعة تبدو خلفى فى المرآة الموجهة إلى الخلف. وكان هناك ما يبدو أنها شبه حاملة لقطيع من الأبقار تقترب خلف مؤخرة سيارتى وكانت ما تزال تزيد فى سرعتها، عندما انحرفت بسيارتى أمامها. ونبح ركس عندما انحرفت عربتنا فجأة.

واستمر سميث، متناسيا ما حدث، يقول: "قارن هذا بما يحدث لو أن إنتاج هارولد كان مقصورا على قرية صغيرة. فإنه للحصول على عدد كاف من العملاء، كان لن يقصر عمله على إصلاح محركات الديزل فحسب، بل كافة المحركات، وليس فقط

المحركات بل وكواتم الأصوات والمكابح، بل وحتى أجهزة نقل الحركة. كم من الأدوات الأخرى سيكون بحاجة إليها؟ وسيظل كثير منها راكدًا دون استخدام؟ وما مقدار التعقيد، والخلط الذى سيواجهه؟".

وثبت سميث عينيه على الأفق، قائلا: "لا... إن السوق المحدود، سواءً أكان نتيجة للعزلة السياسية أو العزلة الجغرافية، لا يمكن أن يساعد فى شيء إلا فى أن يجعل الناس فقراء". واستدار ناحيتى قائلا: "هذا هو السبب فى ازدرائى لشركات المدن الموجودة حاليا؛ لأنها قيدت التجارة، وعزلت المنتجين المحليين عن المنافسة. كانوا من المركانتيلين، وأنا أتحدى إن الفقراء يدفعون كثيرا مقابل هذه الحماقات".

مرت قافلة أخرى من العربات ذات المحركات نصف الديزل، محدثة عاصفة ريح قوية أطاحت بنا إلى حافة الطريق، وتناثر المطر والوسخ على الزجاج الأمامى. وظهرت أمامنا سيارة ركاب زرقاء لا ندرى من أين – مجرد آفة ناتئة كسيارة. ودون أى تحذير أو إنذار، قطعت الطريق أمامنا، وأدرت عجلة القيادة بعنف لأتفادى اصطداما عنيفًا من الجانب. وصرخت: "يا غبى" ضاغطا على "دواسة" البنزين إلى أقصى حد وسرعان ما ابتعدنا عنه. وعندما نظرت إلى الخلف، كانت السيارة الزرقاء قد غيرت حارة سيرها وأصبحت إلى جوارنا تماما. سائق مجنون!! وخفضت زجاج نافذتى، وكان زجاج السيارة الزرقاء هابطًا بالفعل، ومن داخل السيارة، كانت هناك يد توجه مسدسًا إلىَّ.

وضغطت بقوة على الكابحات عند صوت إطلاق الرصاص، وانحرفنا بقوة وانحرفت مؤخرة سيارتنا المحملة إلى اليسار عابرة حارتين من الطريق. وأحسست لبرهة أننى معلق، وأن السيارة والفضاء الخارجى من حولى يلف بحركة بطيئة. وسحقتنا سيارة نقل ذات جرار ببوقها الهوائى المدوِّى. وفجأة، انتهى الكابوس وقذفتنا حركة القوى الطاردة المركزية بسرعة شديدة ومقدمتنا إلى الأمام، إلى خارج الطريق مع قعقعة إلى أسفل الجسر. وانحرفت سيارتنا لتستقر فى أحد حقول الشيكوريا. ولم يكن لدى سميث أو لدىّ أى قدرة على الحركة، فقد تجمدنا فى مكانينا، مثبتين بأحزمة السيارة وبالصدمة التى تلقيناها.

وسرعان ما جاء سائق عربة نقل، ضخم قوى البنية، مسرعًا إلى أسفل الجسر. وفتح الباب المجاور لى وساعدنى على الخروج، ثم رفع سميث ووضعه على العشب.

وكنت لا أزال أرتعد حينما فتحت الباب الخلفي وأبعدت الحقائب جانبا، كانت أنف ركس مدفونة في المقعد، ومخالبه تضغط على رأسه. وأمسكت به السترة التي يرتديها، ودهشنا، ولكنه لم يصب بأذى.

تباطأت حركة المرور مع تكاثر الفضوليين. ووصل سائق سيارة آخر إلينا وهو يعدو: "لا تقلقوا البتة. فقد طلبت النجدة على رقم ٩١١".

وبينما كنا ننتظر المساعدة، قام الرجلان بفحص السيارة: "انظر إلى هنا. إلا أن الأمر لا يبدو شديد السوء". كان هذا ما قاله الرجل الأول وهو يشير إلى الثقب الذى أحدثته الرصاصة في اللوحة الأمامية، ثم تتبع خروجها من الناحية الأخرى: "يا له من حظ! لقد أخطأ خط الوقود".

وسار الرجل الثاني إلى ظهر السيارة: "الاستيشن واجون" وفحص اللوحة الجانبية. وقال: "الإطار سليم. وسيمكنكم قيادة السيارة، بمجرد إخراجكم من هنا".

وسألته: "ماذا عن الشخص الآخر؟".

"ذلك الكويوت الشبيه بالذئب في السيارة الزرقاء ذات الأبواب الأربعة؟ إنه حتى لم يخفض سرعته. على أى حال هذا هو الشرطي".

وكان أحد أفراد شرطة الولاية، مرتديا سترة بلاستيكية شفافة للوقاية من المطر يشق طريقه ناحيتنا ويكتب بسرعة على لوحته المعدنية المثبتة بها الأوراق، ويسأل أسئلة سريعة عني وعن سائقي النقل، وقام بفحص ثقبي الرصاصة. ثم قال وهو يسلمني نسخة من تقريره: "لقد رأيت كثيرا من نوبات الغضب في الطريق هذا العام تزيد على ما رأيته في سنواتي العشر الأولى مجتمعة". وهز رأسه: "إنني أود بالتأكيد أن يكون شخص ما قد التقط رقم سيارته، أو حتى رآه رؤية جيدة. فهناك مئات من السيارات الزرقاء على الطريق. ولم يحدث شيء كثير يستحق متابعة الأمر".

وبعد عشر دقائق توقفت سيارتا جيب كبيرتين على جانب الطريق الرئيسي. "لقد وصلت الضباع". هكذا قال أحد سائقي عربات النقل.

وخرج العاملون. ومن إشارات التلويح بالأذرع، والوجوه المحمرّة، بدا أن هناك خلاف فى الطريق. وأخيرًا، عاد أحد السائقين إلى كابينة قيادته، وأدار المحرك وسار. وفى خلال دقائق، كان قد تم سحبنا إلى أعلى الجسر بواسطة السائق الآخر. وتفقد الميكانيكى سيارتنا بدقة، ثم أدار المحرك، الذى سعل عائدًا إلى الحياة.

ثم قال: "إنكم على ما يرام، ويمكنكم أن تمضوا فى طريقكم".

ودفعت أجر السائق الذى قام بعملية سحبنا، وحاولت أن أضغط وأقدم نقودًا إلى سائقى سيارتى النقل اللذين توقفا، وخفاً إلى مساعدتنا، لتناول مشروب. إلا أنهما رفضا بإصرار، وخشيت أن أكون قد خرقت ميثاق شرف بتقديمى لهذه النقود. ورفعنا أيدينا ملوحين بالتحية، وانطلقت فى حركة المرور، محافظا على سرعة أقل من الحد المسموح به، وكنت لا أزال مهتزًا، فخرجت من المخرج التالى للطريق السريع، ودخلنا إلى أحد الموتيلات الصغيرة. ولم يكن هناك سوى القليل الذى أتحدث به مع سميث، الذى كانت قد ألَمت به الصدمة مثلى نتيجة لاقترابنا الشديد من الموت. وأخذنا نشاهد التلفزيون وعقولنا تحس بالحذر، ثم سقطنا فى نوم غير مريح.

* * *

"لم تكن هذه بداية مبشرة لرحلتنا". قلت ونحن نتناول طعام الإفطار فى اليوم التالى.

قال سميث: "لقد كانت محتملة بالكاد". ومع ذلك فلم يُصبنا جرح، إلا بالنسبة للذاكرة وأنا شاكر جدًا لهذا".

وفى الساعة الثامنة كنا مرة أخرى على الطريق السريع، مع الحذر والانتباه. وقبضت على عجلة القيادة، وكررت مراجعة المرآة العاكسة للخلف، وأخيرا، غلبتنى رقابة الطريق، بينما بدأت حوادث الأمس تذوى. كانت ستكون رحلة سيئة إذا ما أنفقناها فى اضطراب بسبب اعتداء مهووس. ولكن هل كان كذلك؟ وبعد سرقة أوراق رسالتى، لم تكن المسألة مخالفة للمعقول. ولكن لم تكن لدى قوة احتمال لجنون الاضطهاد.

وفى النهاية، تحررت من التوتر بما يكفى لالتقاط طرف خيط المحادثة مع سميث التى كنا قد بدأناها قبل الحادثة. واستخدمت فى ذلك خطا للهجوم كان طلبتى يستخدمونه عادة معى.

قلت: "إننى سأوافقك فى أن التخصص يزيد الإنتاجية، ولكن ألم تنس شيئا؟". إن من الممل إصلاح نفس المحركات، يومًا بعد آخر. وما العمل إذا فرضنا أن هارولد يفضل التنوع والمهارة الحرفية؟".

وأجاب: "هذه نقطة ممتازة. إن تقسيم العمل، يقصر عمل الشخص على بضع عمليات بسيطة، ويلغى الحاجة إلى ممارسة الاختراع، والتغلب على المصاعب، وبراعة الشخص فى حرفته يتم اكتسابها على حساب فضائله الثقافية والاجتماعية". فقلت: "إنك تناقض حجة تقسيم العمل. وهذا يضفى صدقا على اتهام ماركس الذى قال فيه إن العمال مبعدون فى النظام الرأسمالى".

وانتظر سميث حتى مرت إحدى سيارات النقل، ثم رفع إصبعه فى اتجاه السماء قائلا: "إن التقدم يأتى بتكلفة اجتماعية، ولكن هناك علاج - وهو التعليم العام المدعم، لأكثر الأطفال فقرًا".

"مدعّم، عن طريق الكوبونات؟".

"أنا أعنى أن المدرس يحصل على جزء من أجره فقط من الحكومة. وإذا ما كان ناظر المدرسة يحصل على كامل أجره من الحكومة، فإنه سرعان ما سيتعلم أن يهمل عمله".

وقررت أن ألعب دور مساند الشيطان مرة أخرى فقلت: "إن حرية التجارة قد تساعد الأغنياء، ولكن اتحادات العمال تقول إن الرسوم الجمركية وغيرها من عوائق الاستيراد تساعد الفقراء على الاحتفاظ بوظائفهم".

ورد سميث قائلا: "إن انخفاض التجارة يعنى انخفاض الإنتاجية، وهذا يعنى انخفاضًا فى حجم السلع التى تدخل فى دورة التجارة والسلع، وليست النقود الذهبية أو الفضية هى المقياس الحقيقى للثروة". ومسح الفضاء بعينيه ثم قال: "فى زمانى حارب الإنجليز الفرنسيين، حروبًا لا نهاية لها. وأدت النزاعات والعداوة إلى منع القمح الفرنسى الرخيص عن السوق البريطاني. وأدى هذا إلى إعطاء الزراع البريطانيين فرصة للاحتكار. وارتفعت الأعمال المتصلة بالقمح مع الحماية. وأنا أوافقك فى هذا، ولكن بالنسبة للسلعة ذاتها، فإن إنجلترا لم تكن مكانًا مناسبا لإنتاجها. وأولئك منا الذين كان لابد

لهم من شراء الخبز – والذين هم كل إنسان آخر – كانوا يدفعون علاوة مرتفعة لأولئك الذين خلقوا الوظائف المصطنعة".

وأخذ يسرع فى كلامه قائلا: "ونتيجة لذلك، قلَّت أعداد الوظائف المنزلية فى الصناعات التحويليلة الإنتاجية، وهي السلعة التى كان إنتاجها يناسب إنجلترا. إننا لا يمكن أن نصدِّر إلا بشق الأنفس، إذا ما قلَّد الآخرون قيود الاستيراد المطبقة لدينا. ويجب عليك دائما أن تسأل، ما الوظائف التى ستضيع، أو سنفقدها من خلال حروب التجارة؟ ولا تقم فقط بتعداد تلك الوظائف التى تم إنقاذها؟".

ودعك عينيه ثم قال: "إن المزايا الطبيعية التى تتمتع بها دولة على دولة أخرى، أحيانا ما تكون عظيمة إلى الحد الذى يكون فيه من العبث مقاومتها. وعلى سبيل المثال، ففى اسكتلندا يمكننا أن نحصل على أعناب جيدة جدا فى أماكن دافئة، وأن ننتج نبيذا بورجنديًا معقولاً – ولكن على أساس ثلاثين مثلا لما ندفعه فى الاستيراد. فهل نمنع استيراد النبيذ لمجرد تشجيع إنتاجه فى اسكتلندا؟ عليك مقارنة الفائدة مقابل التكلفة! إن فرض هذا القيد لا يحتمل أن يمهد الطريق أمام الأغنياء.

كنت على وشك أن أرد عليه، إلا أنه استمر قائلا: "والنبيذ لا يمكن اعتباره ضروريا للدفاع عن البلاد – وهذا واحد من بضعة أسباب لدعم الصناعة المحلية".

"لكننى أظن أن إنتاج المواد الغذائية مؤهل لذلك؟".

"الملاحون والسفن". برقت عيناه قائلا: "إننا يمكن دائما أن نشترى الغذاء إذا كانت لدينا وسائل النقل والتجارة – هذه هى الطريقة غير المباشرة للاستهلاك".

إن إحدى أعظم الحكم فى الفكر الاقتصادى – كما ذكَّرت نفسى – كانت الطريقة غير المباشرة للاستهلاك من خلال التجارة. والموضوع شديد الأهمية حتى أن تغطيته تتم دائما فى كل منهج تمهيدى لدراسة الاقتصاد. والقضية التى دافع عنها سميث بالنسبة للتجارة، تجاوزتها نظرية دافيد ريكاردو الخاصة بالميزة النسبية، بعده ببضعة عقود. ومع ذلك فقد كنت باستمرار متأثرًا بطريقة سميث السهلة المنطقية فى شرح الموضوعات واسعة النطاق. ومع أن عقلى المنطقى كان لا يمكنه تفسير ما حدث، فإننى لم أعد أفكر فيه كدجال مشعوذ يعمل كوسيلة اتصال روحى، ولكن كصوت حقيقى. ووجدت نفسى

أحتضن هذه الشخصية المقدسة. إنه لم يعد "سميث"، ولكنه كان سميث الواضح البسيط مع إزالة هذه الأقواس الصغيرة من حول اسمه.

غيرنا مسارنا إلى الطريق رقم ٦٨ عند هاجرزتاون، وأخذنا اتجاهًا إلى الغرب موازيا لنهر بوتوماك وقناة شيزابيك وأوهايو التى تم حفرها. وعندما انتهى طريق شيزابيك وأوهايو فى كمبرلاند، أخذنا الطريق رقم ٤٠، وبعد قليل، توقفنا فى منطقة استراحة. وقمت بإعداد شطائر الجبن مع المستردة الحارة، وجلسنا على العشب لنأكل، وكان ركس - الذى مازال يحتفظ بكثير من طباع الجرو الصغير فى داخله - قد أخذ يمارس لعبته المفضلة فى الرعى، وكان يدور حولنا عكس عقارب الساعة قفزًا، ونابحًا أحيانا لجذب الانتباه مع بقائه بعيدًا عنا. وأخيرا، أصابه التعب فاستلقى بقوة إلى جوار سميث.

جذبت إحدى العلامات التاريخية الباهتة انتباه سميث، إنها تقول: "هنا" وتحرك نحو العلامة. "إن طريق كمبرلاند السريع يتبع مسارًا هنديًا قديما من خلال جبال الأبالاش.

وهذا الطريق ركبه جورج واشنطن فى أثناء حرب الفرنسيين والهنود..! ثم عندما أصبح رئيسًا، جعله من أول الطرق الموصلة بين الولايات، فاتحًا بذلك التجارة إلى وادى أوهايو. وارتفع صوت سميث قائلا: "بالله عليك، ألا تعرف هذا الذى أتحدث عنه؟ طريق إلى الأسواق!!".

قلت: "إننى لا أتذكر سوى قليل من التاريخ. كما أن واشنطن لم يقم ببناء الطريق بسبب الاقتصاد فحسب، فقد كان زراع الجبال يعانون من مشاكل نقل محصول القمح الثقيل إلى السوق، ومن ثم قاموا بتخميره وحولوه إلى شراب مسكر. ثم رفضوا أن يدفعوا الضريبة الاتحادية على المشروبات، وأشعلوا بذلك "ثورة الويسكى". وقام واشنطن ببناء هذا الطريق للمحافظة على ولاء المستوطنين، وإبقائهم بعيدًا عن الحلف الفرنسى الهندى".

ورد سميث قائلا: "إننى لم أقل أبدا أن السياسة الجيدة لا تصنع اقتصادا جيدا، نعم. بالفعل كان هذا استخداما حكيمًا للأموال العامة".

أكلنا ما معنا من شطائر، وراقبنا العاصفة وهى تستجمع قواها إلى الجنوب. وسرعان ما اختفت الشمس وراء السحب، وذكرتنى لسعة باردة خفيفة بأن الصيف لن

يستمر إلى الأبد. وفى خلال شهرين فقط سأخاطب أعضاء مجلس إدارة وورلدكيم، ولا يمكننى أن أؤخر العمل إلى ما لانهاية بينما أضيع الوقت متسكعًا عبر أمريكا. واضطجعت إلى الخلف، وأنا أخرج الموضوع من رأسى. كانت إغفاءة النوم هى الشىء المطلوب.

° ° °

أيقظنى ركس بزمجرة لينة، كانت أنفه إلى الأرض، وهو يدور حول سميث النائم. وحاولت أن أسكته، ولكن سميث تحرك بنشاط.

"آه.. هل كنت تتكلم عنى؟".

"لم يعد هذا صوت سميث، ولكنه كان صوت الرومانى الغريب هارولد تيمز "يا إلهى؟ هل عدت يا هارولد؟".

ونظر هارولد حوله إلى الطريق الذى يموج بالحركة، وإلى السيارات الواقفة، وكان كلانا ممددا على رابية عشبية صغيرة مع كلب ينبح عليه.

وسألنى: "أين نحن؟".

قلت: "فى بنسلفانيا. بجوار الحدود تماما".

"إلى أين ستأخذنى؟".

"هارولد، دعنى أشرح لك".

وأعدت رواية أحداث بضعة الأيام الماضية – كيف ظهر سميث فى البيت عندى، وطلب أن آخذه إلى أخت هارولد فى أوكلاند.

حرّك هارولد فكّه، لكن صوته لم يخرج من فمه.

قلت: "إننى آسف، لقد ظننت أن الأمر كان غباءً منذ البداية. فهذه عملية اختطاف، وليس لدى عذرٌ أبديه". ونهضت واقفا، ثم نفضت العشب من على ركبتى: "دعنا نذهب. سآخذك وأعود بك إلى فرجينيا".

وربطت ركس فى حزامه وتوجهت إلى السيارة.

وأخيرا، خرجت كلمات من فم هارولد: "لا... لا أريد العودة". وسقط هارولد مرة أخرى على الأرض، وكانت بعض الأعشاب تبرز من فمه ثم قال: "إننى سأفتقد جوليا، ولكننى بحاجة إلى أختى. لقد فكرت كثيرا فى أن أقوم برحلة إليها، إلا أننى لم أتمكن من التغلب على نفسى والقيام بها. ربما كان هذا هو السبب.." وذبل صوته.

وبنفس السرعة التى وصل بها هارولد كان قد ذهب وعادت شخصية سميث: "إنك تظن إننى قادر على الاختطاف.. أليس كذلك؟".. كان سميث يقول ذلك ببرود شديد. وربت على بطن ركس: "كم صغر حجم تفكيرك فى شخصيتى".

"اختطاف!!".

"هل كان هناك شيء آخر يمكننى افتراضه؟".

قال: "إن هارولد لديه إرادة حرة. مثلا، فأنا أتصل روحيا من خلال عقله، ولكننى لم أصبح عقله. وليس بإمكانى أن أفعل شيئا يخالف طبيعته".

وهكذا كانت زيارة هارولد القصيرة، سببا فى انعطاف كامل جديد للأشياء وتحرش بى سميث كى أفعل ما أصبح أمرا طيبا بالنسبة لأى هارولد. واستغربت سلوكى الشخصى. هل كنت مشدوذا إلى خيوط كخيوط الدمية المربوطة بيد خفية توجهنى كما تريد؟

* * *

جلسنا نستدفئ فى الشمس، وطالت جلستنا فى مكان الاستراحة بأكثر مما قدّرنا. كان سميث قد استغرقه تماما ذلك التيار المتدفق إلى مالا نهاية به من الشاحنات الجرارة التى كانت تمر بجوارنا. وكنت أنا منحنيا على مجلة الاقتصاد الدولى. حيث كانت هناك مقالة عن الانهيار الاقتصادى الروسى قد استرعت نظرى. ومن بين كافة أنباء الإصلاحات المالية، كانت تلك الأنباء المزعجة التى تقول إن مليارات الدولارات التى أقرضها صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى وغيرهما من المؤسسات متعددة الأطراف، قد تم تهريبها من البلاد فى قبضة مجموعة قوية من المافيا أطلق عليها نومينكلاتورا. كان الفساد يتحكم فى الحياة اليومية وتغذيه بيروقراطية مصممة.

وفحص سميث ظهر القصة، بينما كنت أقلب صفحات المجلة.

"هل أنت غاضب منى؟".

كان الصوت الذى صدر من حلقى لا يدل بوضوح على شيء.

"حسنا. هل تحب أن ألخص لك المفاتيح إلى الثروة؟".

وضعت المجلة جانبا.

قال سميث: "عندما تنصت إلى بعض معاصريك، قد لا تظن أنهم فهمونى – ليس بالكامل". وأشار إلى المقال المنشور بالمجلة عن روسيا. "إن خلق الثروة أكثر تعقدا من مجرد السماح بوجود الأسواق. وقبل التجارة – بل قبل أى شيء آخر – يجب على المجتمع أن يعطى كل شخص حقوقه التامة".

وسكت لينفخ قطعة من العشب عن شفتيه: "إن المجتمع لا يمكنه أن يوجد ويدوم بين أولئك الذين لديهم على الدوام استعداد كى يجرح كل منهما الآخر. إن المقصد الأول والرئيسى للحكومة هو منع أى فرد من الاعتداء على آخر، وحماية الضعيف وكبح العنف ومعاقبة المذنب. ومسح سميث جبهته: "إن العدالة هى العمود الرئيسى الذى يقوم عليه بنيان المجتمع. وإذا ما توقف عملها، أو إذا ما ألغيت من المزيج، فإن النسيج الضخم للمجتمع الإنسانى سينهار ويتحول إلى ذرات فى لحظة".

أضافت كلماته الجميلة وزنًا إلى ثقل المادة، وكنت أعرف أن عددًا كبيرًا من الدول يقع تحت هذا التصنيف المعذب للفوضى. وكان يبدو أنه يقرأ أفكارى: "إن العدالة هى الشرط الأساسى والمسبق للنظام الاجتماعى. وعلى هذا الأساس يمكنك أن تبنى التجارة. والاندفاع إلى أى طريق آخر هو الجهل بعينه".

وقلت: "أنا لست محاميا، كما إننى لست فيلسوفًا وبمجرد أن نحصل على العدالة، يمكن أن تحدثنى عن الثروة".

ونظر إلىّ سميث نظرة قاسية، كما لو أننى كنت قد أطفأت شموع حفل عيد ميلاده. "إذا ما استوفيت الشروط المسبقة للعدالة، فإن المفتاح إلى الثروة يصبح بسيطاً: ألا وهو توسيع سوق التبادل، وتشجيع التخصص والمنافسة".

"من خلال الحرية التامة للتجارة؟".

هز سميث رأسه قائلا: "تذكر أننى لست نصيرًا لمذهب معين. إن الحكومات تحتاج إلى تحصيل إيرادات بشكل ما. وأكثر من هذا". ومال سميث على جانبه مفكرًا لبضع لحظات ثم استمر يقول: "إن الدول الغنية، من بين جميع الدول هى التى تجرى مهاجمتها، وما لم تتخذ الدولة إجراءات للدفاع العام، فإن العادات الطبيعية لمواطنيها ستجعلهم غير صالحين للدفاع عن أنفسهم".

"هذه هى حراسة الثروة لاخلقها".

"عندما يكون هناك قدر كبير من الملكيات، يكون هناك عدم مساواة وهذا هو السبب فى أن المجتمع الثرى يحتاج بدرجة أكبر إلى الحكومة لحماية كل عضو من عدم العدالة أو الاضطهاد".

"وإلا قام الفقراء بإحداث الشغب؟".

وضحك قائلاً: "لا، فإن جشع وطموح الرجل الغنى يدفعهم إلى جرح الآخرين، ولا أقل من حسد أو امتعاض الفقراء".

فقلت: "إنك لم تقترح أى دور للحكومة يتعارض مباشرة مع القطاع الخاص".

قال: "إننا سنصل إلى هذا. فإن الاستثمارات فى الأعمال والمؤسسات العامة قد تكون هى أعلى درجة من المزايا للمجتمع. ومع ذلك، فإن لها طبيعة تؤدى إلى عدم تمكن الأرباح من سداد التكاليف مباشرة لأى فرد أو لجماعة صغيرة.

ولذا، فإننا لا يمكن أن نتوقع أبدًا أن أى فرد أو جماعة خاصة ستقوم بإنشاء أو المحافظة على ما يكفى من هذه الاستثمارات".

"مثل؟".

"النقل – ويمكنك أن ترى كيف أن الطرق والجسور والموانئ تعمل على توسيع الأسواق وتحطيم الاحتكارات. كما أن التعليم العام يدخل أيضًا فى هذه الاستثمارات".

وقلت موحيًا: "وللتلخيص، فإن ثروة أى أمة تتوقف على ما يلى: أن يقوم المجتمع من خلال الحكومة – أولا – بإقامة نظام عدالة؛ لحماية الفقراء والأغنياء. وتقوم الحكومة

بالاستثمار فى نواحى محدودة تفتقد تحقيق الربح العاجل، ولكنها ذات قيمة للمجتمع بأسره وللأعمال فى نهاية المطاف – مثل البنية الأساسية والتعليم. وأخيرا، فإن الحكومة تقوم بتوفير الحماية من العدوان الخارجي. وفيما يتجاوز ذلك، حرية؟".

أومأ سميث موافقا ثم قال: "إن كل إنسان – طالما لا ينتهك قوانين العدالة – ينبغى أن يكون حرًا فى متابعة مصالحه بطريقته الخاصة. وهو ما يعنى إقامة منافسة للصناعة ورأس المال مع أى فرد آخر. والادخار وتراكم رأس المال، بمرور الزمن، هو ما يسمح باستمرار التقدم العظيم".

ثم نظر إلى السماء متفحصًا. وقال: "لمَّا كان الأمر هكذا، فإن الجهد الطبيعى لكل فرد لتحسين وضعه هو أحد المبادئ ذات القوة القادرة على نقل المجتمع إلى الثروة والرخاء – وتخطى مئات العقبات التى تتسبب فيها حماقة القانون البشرى".

الفصل التاسع

ابن الفقير

"هناك تناقض". قلت لسميث عندما عدنا إلى الطريق السريع: "إنك الآن شديد الحماس لتوسيع الثروة. ومع ذلك، ففى المرة الأولى التى تحدثنا فيها معًا، كدت تحطم رأسى بقولك إن الثروة كانت الهدف".

"أنا تجريبى". قال سميث، وهو يمسح لوحة أجهزة القياس فى السيارة: "إننى أحب تسجيل الحقائق التى يمكن ملاحظتها، ولهذا فإن علىَّ التزامًا بفحص ما إذا كانت الأشياء المادية تجعل الناس سعداء. والموضوع معقد، وأنا أعترف بذلك، ولكن الاقتصاديين اليوم قد ضاقت عقولهم بحيث لا تبدو لهم أهمية الموضوع".

وأحسست بالتوبيخ، فأجبت: "إن تنامى الناتج القومى أو الناتج المحلى الإجمالى يكاد أن يعتبر دائمًا علامة على صحة الاقتصاد. وهناك بعض الناس من ذوى الآراء المتطرفة يتحدثون عن أن "الصغير جميل" وعن مؤشر التقدم الأصيل GPI – والذى يطرح من الناتج المحلى الإجمالى الآثار السلبية للتلوث والجريمة وارتفاع درجة عدم المساواة، وما إلى ذلك – إلا أن معظم الاقتصاديين لا يتوقفون للنظر فى هذه الموضوعات. وفى الحقيقة، فإن جميع نماذجنا تفترض أنَّ ارتفاع الناتج هو الهدف دون تفكير آخر".

قال سميث: "دعنى أبسط أمامك الصورة الكبيرة محتفظا بالتفاصيل إلى ما بعد". كان يغطى مساحات شاسعة بحديثه، ولم أكن متأكدا أن لدىَّ الصبر، أو أن لديه قوة الاحتمال حتى ينتهى. ومع ذلك فقد أومأت برأسى موافقا.

قال: "لقد اتضح لى أن المحطة المادية للمرء فى الحياة، ليست هى العامل النهائى الذى يفسر السعادة. وقد أيدت هذا ملاحظات عديدة من الطبيعى أن تكون مرويَّة عن آخرين، ولكنها تكفى بالتأكيد لكى تغشى الظاهرة غير المختبرة، التى قبلتها أنت بسهولة

"لا". وسكت برهة كى يؤكد كلماته، "إن السعادة محصنة بشكل معقول ضد الثروة الاقتصادية".

"هل تظن أن سلام العقل (راحة البال) يحدد السعادة؟".

قال فى نهاية الأمر:

"ألا تؤثر الثروة على راحة بالك، وأمنك بالنسبة للمستقبل؟".

"إلى حد ما، إن وجود الإنسان يتطلب كثيرا من الأشياء الخارجة عنه. والجوع القاتل لا يؤدى إلى سلامة العقل، إن منفعة الثروة لا يمكن أن تناقش فى هذا الصدد. وإلغاء هذه الكوارث يُعد ذا أهمية حاسمة؛ لأنه يخفف من الأعباء المادية الحقيقية. وربما كان ثلث سكان الأرض ما يزالون بحاجة إلى الإحساس بهذه المنافع". وضرب سميث بيده على ذقنه: "ولكن بالنسبة لأولئك الذين تجاوزوا العوز والفاقة الشديدة، ليس هناك سوى فرق حقيقى ضئيل بين السعادة المحتملة للشخص الغنى والشخص الفقير".

وسألته: "ولكن هناك فرق، مع بقاء كافة الأشياء الأخرى على حالها؟".

"شيءٌ ما، ولكن ليس كبيرًا. وهل يمكنك حقا أن تبقى كافة الأشياء الأخرى على حالها؟".

ونظر سميث إلىّ قائلا: "هل أخبرك بقصة من كتابى "نظرية المشاعر الأخلاقية" إحدى قصصى المفضلة؟".

وأومأت برأسى موافقًا.

"إنها حكاية رمزية عن ابن الفقير". وأغلق عينيه وبدأ يحكى القصة.

كان هناك ابن رجل فقير، وهبته السماء فى غضبها "الطموح"، فبدأ ينظر حوله ويعجب بأحوال الأغنياء. ووجد أن كوخ والده صغير جدًا لإقامته، وتخيل أنه ينبغى أن يسكن على راحته فى أحد القصور. وكان غير سعيد باضطراره للسير على قدميه، بينما كان يرى أن رؤساءه تحملهم عربات، وكان يتصور أنه يمكنه أن يسافر فى إحدى العربات براحة أكبر. وهو يفترض أن حاشية مكونة من عديد من الخدم ستنقذه من قدر كبير من العناء. ويظن أنه لو حصل على هذه الوسائل المريحة، فإنه سيجلس سعيدًا فى هدوء وضعه ومكانته. وكان مفتونا بالفكرة البعيدة عن هذه السعادة العظيمة".

وأصبح صوت سميث أكثر عمقًا وارتفاعا، ووجدت نفسى منجذبا ومشدودًا إلى هذه القصة كما لو كانت هى قدرى غير السعيد.

"وللحصول على هذه الوسائل المريحة، استسلم هذا الابن فى السنة الأولى، وليس فى الشهر الأول من عمله لقدر أكبر من التعب الجسمانى وقدر أكبر من عدم راحة البال يفوق ما كان يمكن أن يعانيه طوال حياته بسبب الحاجة إلى هذه الوسائل. وكان يكدح ليميز نفسه فى بعض المهن الشاقة التى يكرهها، ويرغم نفسه على الخنوع لأناس يحتقرهم، ولكن نتيجة لذلك، حصل فى النهاية على كافة الثروات المادية التى طالما سعى إليها، ولكنه فى ذلك الوقت كان فى أواخر أيام حياته، بعْد أن أفنى جسده التعب والمرض، وكان عقله ساخطا ومهتاجا بذكريات آلاف الجروح وحالات خيبة الأمل، وبدأ أخيرا يتحقق أن الثروة والشهرة ليستا سوى مجرد أشياء تافهة لمنافع سخيفة، ولا يمكن تكييفها لتوفير راحة الجسد أو هدوء البال بأكثر مما يمكن تكييف حوافظ الملاقيط التى يهواها عشاق اللعُب والدمى".

وسألته: "ما حافظة الملاقيط هذه؟".

قال: "هى صندوق صغير للأدوات الدقيقة.. يحمله الأشخاص الذين لديهم وقت فراغ". وانتظر حتى يستفز هذا لدى. "على أية حال، فإن ابن الرجل الفقير ألقى بعيدا بمفتاح السعادة الذى كان معه. إن العقبة الكئود أمام تحقيق السعادة تكمن فى عقله، وليس فى وسائل الرفاهية". ونظر سميث إلىَّ، كما لو كان ينبغى علىَّ أن أستخرج معنى خاصا.

ولم أستجب، فقد كانت قصة رمزية مؤثرة، ولكننى قاومت نفسى لأقبل دعواه بأن النقود لا يمكن أن تشترى راحة البال.

* * *

أوقفنا عربتنا عند "سونى سبورتس بار" على مشارف ويلنج، بولاية وست فيرجينيا الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى. وكنا قد قضينا الليل فى موتيل متهدم به حشايا مرتخية وغائرة وستائر باهتة. وقد سمحت صاحبة الموتيل لكلبى ركس أن يقيم فى فنائها المسوّر، بينما ذهبنا لتناول الغداء. كانت صفحات الرياضة فى الجريدة الصباحية قد ألهمتنى اختيار المطعم؛ نظرًا لأن موسم كرة السلة كان يزداد حرارة. وكانت هناك

منافسة حامية بين بيتسبرج وسينسناتى، فى القسم الرئيسى من الدورى القومى، قد استرعت نظرى، ولم يكن لدى مؤخرًا سوى قليل من الوقت لمشاهدة الرياضة. وكان التمعن فى الصفحات الصفراء لدليل التليفون قد هدانا إلى شكل تقريبى لما نقف أمامه: مبنى منخفض ذى حوائط خشبية قذرة وسقف هرمى كان هو الوحيد الذى ينم عن هندسة معمارية. وكانت هناك لافتة مضاءة بالنيون معلقة فى النافذة تقول "البار مفتوح".

كان مكان الانتظار المغطى بحبات الحصى نصف مملوء بسيارات متهالكة، معظمها من عربات نصف النقل. وكانت اللافتات على جوانبها تعلن عن تشكيلة من منشآت الأعمال! سباكة، تركيب أسقف، تنظيم وهندسة المناظر الطبيعية. وأوقفت عربتنا بجوار سيارة شيفروليه صارخة اللون من طراز الثمانينات، وذات عجلات مرفوعة إلى أعلى، وطلاء ليمونى أخضر معدنى متلألئ، ومداليات فضية معلقة من مرآة المنظر الخلفى.

مشينا بعيدًا عن النهار الحار الساطع، ودخلنا إلى مكان مظلم مكيف الهواء. كان غرفة كبيرة واسعة وتجولنا حتى وصلنا إلى الحجز الكبير.

"ماذا ستأخذون يا أولاد؟". كان السؤال موجها من مضيفة باسمة، فى الثلاثينيات من العمر بنية الشعر وذات جسد مثير ممتلئ، وترتدى الجينز الأزرق وقميصا ذا أكمام قصيرة، وحذاء رياضيا.

وسألتها: "هل لديكم كورز؟".

"بالطبع، نعم".

وقال سميث: "أما أنا فأريد ماء صودا".

وفى طريقها عائدة إلى البار، مرت برجل مد يده ليربت على مؤخرتها.

"جيمى. دع هذا". وأعطت يده لطمة قاسية، أفعل ذلك مرة ثانية وسأطلب لك الضابط الذى يراقبك".

وتحركت المضيفة بعيدًا لتحيى أحد العملاء القادمين: "لانت، لقد عملتها يا عزيزتى!!أين شارلى؟".

"إنه فى الخلف يا ميلى".

ومع دخول عملاء جدد كان المشهد يتكرر بينما يتردد اسم ميلى، وهى تعطى الأحضان هنا وهناك، بينما تملى الطلبات. وبكفاءة فورية كان يبدو كما لو كانت المضيفة فى كل مكان، تناول الأعزاء زجاجات البيرة، بينما كان الرجل المسمى جيمى جالسا مستغرقا فى التفكير، ويراقب الأحداث من خلف قبعة البيسبول التى كان يرتديها.

وأومأ سميث برأسه مشيرا إلى ثلاثة أزواج جالسين أمامنا. ومن الزجاجات الفارغة أمامهم، بدا أن هؤلاء الأنصار المتحمسين لقراصنة بتسبرج قد بدأوا يستعدون للمباراة منذ عدة ساعات. كان اثنان من الرجال فى الأربعينيات من العمر من أصحاب البطون الضخمة والأذرع التى تشبه جذوع الأشجار. كانت أصواتهم مرتفعة ولكنها صديقة، وكأن الملابس الرياضية البرتقالية المتألقة والمناديل السوداء وأغطية العيون تعطيهم الشجاعة، والحق فى الصراخ والملاحظات الساخرة تجاه أى فرد فى المكان. واستدار أحدهم ناحيتنا مبتسما ابتسامة عريضة قائلا": "إنكم جميعا لستم من هذه الناحية، أليس كذلك؟".

قلت: "إننا مجرد عابرى سبيل".

قال: "إنكم ستحتاجون إلى بعض من هذه". وناولنى بعض كوبونات مقطوعة من الصحف وعليها صور رموز فريق قراصنة بتسبرج. "كل منها يوفر خمسة وعشرين سنتا لكل زجاجة بيرة. أعطوهم لميلى قبل الدفع وشكرته".

"إنه شىء لا يذكر". وأخرج القرصان علبة سجائر ووضعها على سطح المنضدة. ونظر سميث إلى السجائر، وتعجبت ما إذا كان هارولد الموجود فى داخل هذا الجسد مشتاقا إلى النيكوتين. وسحب القرصان سيجارة وتحسس جيوبه باحثا عن الكبريت، وخرج بيده فارغة، ونظر حوله.

تطوع سميث قائلا: "أتريد أن أشعلها لك؟". ووضع يده فى جيوبه وأخرج قداحة زيبو الخاصة بهارولد.

وتردد القرصان، ثم أخذها. وأزاح غطاءها المطبق، وأشعل اللهب، وأشعل سيجارته من أول محاولة. وقال وهو يعيدها: "لطيفة جدا".

قال سميث: "ربما تتفضل بإبقائها معك فلا يبدو أننى بحاجة إليها".

"حقا ؟ هل أنت متأكد؟ شكرًا يا رجل".

ورأى سميث ما أحسست به من ضيق وهمس: "إن عمل الخير جزء من طبيعة هارولد، ومن طبيعتى أيضا. أنا لا يمكننى أن أفعل شيئًا يعترض عليه هو".

فى أثناء ذلك، كانت زوجات القراصنة يَحُمْن حول مجموعة من الصور الفوتوغرافية، ويطلقن الصيحات. وعلى النقيض من أزواجهن، فإنهن كن قد أنفقن وقتا لزينتهن، فكانت شعورهن ملفوفة فى حلقات، وإحداهن كانت ترتدى حلقانا مدلاة من أذنيها، وكانت ملابس الأخرى محلاة باللؤلؤ.

كان الزوج الثالث على المنضدة أصغر سنا، فى العشرينيات من العمر. كان كرسياهما بعيدين عن بعضهما قليلا تفصل بينهما بضع بوصات، وكانت أيديهما وأرجلهما متشابكة. كان الرجل أنيقا يرتدى قبعة رعاة البقر وحذاءهم، وسروالا مكونًا من الجينز الأزرق وقميصًا من القطن ذى المربعات، ثنيت أكمامه إلى أعلى. وكانت المرأة نحيفة، وشعرها أشقر فاتح وطويل يصل إلى منتصف ظهرها. وكان الاثنان منغمسين فى نفسيهما.

سألت سميث: "أتظن أنهما متزوجان حديثا؟".

وأومأ سميث برأسه: "إنهما يبدوان كذلك". وفى صوت حالم قال: "إن ذلك يعيدنى إلى إدنبره، كانت هناك ميس كامبل، كانت رائعة، وذات مرة فكرت... حسنا... لا يهم".

ولمحنا أحد القراصنة ونحن نلاحظهما وقال: "لقد مضت عليهما سبع سنوات وهما مخطوبان لبعضهما. ولكنها لن تتزوجه حتى يكون لهما منزلهما الخاص. وهو الآن فى السابعة والعشرين ومازال يعيش فى بيت أسرته. وضحك بمرح وشخير قائلا: "من ذا الذى يمكنه أن يدخر من أجل بيت إذا كان عليك سداد ثمن الزورق الذى اشتراه؟". ملأ صوت النشيد الوطنى جنبات البار وبدأت المباراة على الشاشة.

ولم يتوقع أحد أن تكون المباراة قاسية بالنسبة لفريق سينسناتى الأحمر على أرضه ضد قراصنة بتسبرج. وكان سميث يراقب المباراة مشدوها، ويقطع ذلك ليسأل بعض

الأسئلة عندما تتوقف المباراة. "إن هارولد لا يعرف شيئا عن لعبة البيسبول". قال سميث ذلك وهو يحرك كتفيه ويهزهما وكأنه يعتذر.

كانت أصوات نداءات الحكم، وضربة الكرة القوية على المضرب، والإمساك بالكرة من جانب أحد المدافعين عن القسم البعيد على ضارب الكرة قد جعل المشاهدين يقفون على أقدامهم وهم يطلقون صيحات الاستهجان والصراخ. وكانت أعداد مشجعى القراصنة والحمر متساوية فى البار، وكان المزاج ذو الطبيعة الجيدة يتطاير أماما وخلفا، وكل العيون ملتصقة بالشاشة، فيما عدا ذلك المنبوذ جيمى، الذى جلس عند الحائط البعيد، يحتسى زجاجة من البيرة ويدخن باستمرار وعيناه كأنما تحدثان ثقوبا فى قاع الكوب.

كانت هناك صرخة أخرى من الجماهير. وارتفعت يدا حكم القاعدة الثالثة ليعلن وصول لاعب القاعدة، بينما اندفع رجل متوسط العمر، يضع نظارات بلاستيك سوداء على عينيه، إلى المنضدة التى يجلس عليها القراصنة أمامنا. وقام بمشهد سحب فيه ورقة من فئة الدولار من حافظة نقوده، ضاربا إياها بيده على سطح المنضدة قائلا: "هذا لرشوة الحكام". وابتسم ابتسامة عريضة أظهرت مكان أسنانه الضائعة. وارتفعت الصيحات والصراخ من الأنصار بين الجماهير.

ونظرت إلى الحائط البعيد، لأجد أن جيمى الكئيب قد رحل.

"الشيلى.. وصل". كانت ميلى تخطو خارجة من المطبخ حاملة وعاءً حديديًا كبيراً. ووقفنا جميعا فى صف واحد وحمل كل منا صحنًا عميقا ساخنا يخرج منه البخار، ووضع كل منا فيه قبضة من خبز يابس هش، وأخذنا شرائح خبز مدهون بالزبد. وجاء الطعام فى الوقت المضبوط فى هذا البار المفرط فى تكييف الهواء، ومُحدثًا فجأة إسرافا وتبذيرًا فى طلبات البيرة كى تطفئ النار فى الأفواه التى كانت تبحث عما يفرج عنها حرارة الطعام. إن هذه المرأة ميلى ليست بلهاء على الإطلاق.

كانت كاميرا التليفزيون تتابع مناظر الاستاد المملوء بنحو ٥٠,٠٠٠ من المشجعين. وخلف الحواجز الزجاجية فى مقصورات فخمة، كان هناك ندل يرتدون الملابس الرسمية السوداء يقومون بخدمة بضعة ضيوف مميزين.

"ها هي مقصورة براتستون كول". صاح رجل ضخم مفتول العضلات: "إن الإدارة تنفق علاواتكم !!" وأطلق الجمهور التهكم والسخرية إلى الشاشة.

سأل سميث: "كم تتكلف تلك المقاعد الفاخرة؟".

وأجبت: "خمسة آلاف فما فوق!! من أموال الشركة".

"هل يعزز هذا من استمتاع الشخص بالمباراة؟ هل هناك نفس الشعور بالمشاركة مثلما هو هنا؟".

هززت كتفيّ باستهجان.

وما أن وصلت المباراة إلى القاعدة التاسعة حتى سيطر التوتر على البار إلى حد الجنون. وكان الفريقان يقومان بأداء فائق في استرداد الكرة والمراوغة وضرب الكرة. وازداد عدد الأوراق النقدية التي يتم ضربها على سطح منضدة القراصنة الجالسين أمامنا، كجزء من مراهنة مجمعة. وبدا أن اللعبة كانت تتجه نحو وقت إضافي إذ كانت النتيجة هي التعادل ٤-٤، وخروج لاعبين، ولاعب قاعدة وحيد.

وأدخل فريق الحمر لاعبا بديلاً ضاربًا أفسد عددًا كبيرًا من الرميات ذات السرعة العالية التي تتجاوز ٩٠ ميلاً في الساعة. وبصبر، أدى إلى أن تصبح النتيجة ٣-٢.

وفجأة هدأ المكان، حتى أن ميلي وضعت صينيتها جانبا.

وأعلن المذيع: "هذه هي الرمية النهائية".

وتأرجح ضاربًا الكرة لتوجيه ضربة بحركة دائرية للذراع. مرسلاً الكرة فوق منتصف الملعب، على بعد بضع بوصات من قفاز اللاعب المندفع بقوة للإمساك بها. وأسرع أحد المدافعين إليها بينما كان لاعب القاعدة قد أتم دورته. فقد وقع لاعب القاعدة وملتقط الكرة في كومة فوق بعضهما، ووقع الحكم فوقهما. ثم تدحرجت الكرة بعيدا ببطء. وانفجر البار صارخا، بصرخات تصم الأذان وصيحات تنذر بالضرر، وهز القراصنة رؤوسهم باشمئزاز وتقزز.

وبدأ البار يخلو من الناس. ووضعت ورقة من فئة العشرين دولارًا على المنضدة مع الكوبونات التى حصلت عليها قبل ذلك. وقبل أن نصل إلى باب البار اندفع أحد القراصنة داخلا، وهو يصرخ.

"من الأفضل أن تخرجى إلى هنا فورًا يا ميلى!".

كان هناك جمهور قد تجمع حول السيارة الشيفروليه ماليبو اللامعة التى أوقفنا سيارتنا إلى جوارها. وكان زجاج المصابيح الأمامية والخلفية محطما، وتناثرت شظاياه على الحصى. بينما كان هناك تصدع يشبه خط الزلزال يغطى الزجاج الأمامى. ووقفت ميلى إلى جوار السيارة، ويدها على فمها، ثم صرخت: "الوغد! إنه لم يكمل شهرا منذ خروجه من السجن".

وكان القرصان الذى صادفنا يمشى الهوينى.

وسألته: "أهو شجار أحباب؟".

"لا. لقد كانا متزوجين وتم طلاقهما فعلا. إن زوجها السابق جيمى - مجنون بشأن ذاته، بسبب الحياة. فقد تم الاستغناء عنه من المصنع منذ خمس سنوات؛ لأن كافة الوظائف الخاصة بأعمال الصلب قد انتقلت إلى كوريا" وهز رأسه: "وإذا ما كنت ذات يوم عامل صلب وعضوًا بالاتحاد، اللعنة... فكيف تقبل أن تقوم بغسيل السيارات لتكسب قوتك وأن تنظر إلى نفسك فى المرآة؟ كيف ستقوم بإعالة أسرتك من تنظيف أغطية عجلات السيارات؟".

وكان هناك بضعة أفراد حولنا، فأومأوا برؤوسهم موافقين.

"إن الرجل يفقد عزته، عندما لا يكون لديه شيء. هذا هو الوقت الذى بدأ فيه جيمى يضرب ميلى. وبعد الطلاق، انضم إلى مجموعة سيئة، والذى يمكن أن تعرفه - فضلا عن ذلك - هو القبض عليه فى بعض السرقات". وهل تصدق!؟ ثم أشار إلى السيارة "إن هذه السيارة الشيفروليه كانت موضع فخره وزهوه قبل الطلاق؟ لقد قام بإعادة بناء، كل جزء فيها، بنفسه".

وعندما عدنا إلى سيارتنا قلت لسميث: "أفكر في تسوية الأمر. إن نقص المال هو الذى أدى إلى إنهاء زواج ميلى وإلى الحزن الذى لا نهاية له لدى الآخرين. هل مازلت تنكر أن النقود يمكن أن تشترى راحة البال؟".

الفصل العاشر

السَّيدة تغنى

وضع سميث تلك الابتسامة الغامضة على شفتيه: "إن هذا الأخ جيمى كان يحصل على ما يكفيه من الغذاء والمأوى. ألم تسمع جيدا؟ إن موضع فخره هو أنه قد جرح، وكان تعلقه العاطفى بذلك يفوق نواحى حرمانه المادى؟ وبعيدا عنه، فإن ذلك المكان كان مملوءًا بأناس على درجة معقولة من السعادة – هناك سقف فوق رؤوسهم، ومعداتهم ملأى، ويحيط بهم أصدقاؤهم، ماذا يريدون أكثر من هذا؟".

أجبت: "كثيرًا جدًا. إن علينا أن نفترض أن أولئك الأشخاص الأغنياء الجالسون فى المقصورات الزجاجية المرتفعة يجب أن يكونوا أكثر رضاءً؛ نظرًا لأنهم كان لديهم أيضا خيار الذهاب إلى بار الرياضة، إلا أنهم قرروا بدلا من ذلك أن يذهبوا إلى الاستاد. واختيارهم لا يمكن أن يكون غير سليم".

قال سميث ضاحكًا فى خفوت: "إن الناس يخدعون أنفسهم طوال الوقت، ولكن دعنا ننسى ذلك". ولم يكمل تثاؤبه قائلا: "أحس بالنعاس".

توقفنا عند الموتيل من أجل ركس. ثم عدنا إلى قيادة السيارة على الطريق رقم ٤٠ فوق نهر أوهايو. ونام سميث نوما عميقا فى كل هذا الضجيج الذى تحدثه حركة المرور. وعندما توقفنا للعشاء، دعوت زميلى السابق فى الكلية الذى كان يتقاسم معى الغرفة فى شيكاغو، والذى كان يتوقع زيارتى، ولكنه لم يكن يتوقع ضيفا إضافيا.

"حسنا". قالها سميث وهو ينظر إلى أعلى من المنضدة. ولم يكن قد أكل سوى القليل، وبدا وجهه شاحبا.

قلت: "نحن على ما يرام، إن لديه غرفة لكلينا. وهو الآن يعمل محاميا لشركة، أى من المشاهير فى المجتمعات العليا. إننا سننتظر لنسمع، ونقرر ما نريد عمله عندما نصل إلى هناك وقطب سميث وجهه قائلا: "أليس من الحكمة أن نخطط مقدما؟".

* * *

قدنا السيارة فى أثناء الليل، وتوقفنا مرة واحدة فقط كى نأخذ سِنَةً من النوم، ولإعادة ملء خزان الوقود. وأخيرا، بدا أمامنا خط الأفق لمدينة شيكاغو يلوح فى السماء ولكن فى وسط ضجيج الأصوات المختلطة المتنافرة والاندفاع البشرى الذى لا يهدأ ضد الحديد الصلب والخرسانة المسلحة. وأخذنا نتقدم برفق وهدوء لنحو ساعة ونصف قبل أن نصل إلى مخرج الطريق إلى وسط المدينة، وبعدها بعشرين دقيقة، كنا ندخل إلى مكان الانتظار فى المبنى الذى توجد فيه شقة جيد هويلر فى شارع متشيجان. وحملنا حقائبنا وركبنا المصعد إلى ارتفاع يدير الرأس.

"ريتش".

كان جيد قد فتح الباب قبل أن ندق الجرس. وقادنا إلى غرفة معيشة فسيحة، تزينها أريكة وكراسى مكسوة بالجلد الأبيض، وسجادة بيضاء، وإضاءة بيضاء. وكانت الصورة من النافذة هى إطلالة على بحيرة متيشجان من ارتفاع خمسة وعشرين طابقًا، وقدمت سميث باعتباره "سمايث الأستاذ المتقاعد".

ونظر سميث من النافذة إلى العبّارات الناقلة الصغيرة تذرع المياه جيئة وذهابًا. وابتسم.

"ليس هذا سيئًا بالنسبة لولد من جنوب جورجيا. أليس كذلك؟". وضحك جيد: "هل تذكر ياريتش كم كنت فقيرا قذرًا عندما كنت فى الكلية؟ تغيير كبير! وسأنتقل أنا وسالى إلى الضواحى عندما تصبح لدينا عائلة، أما الآن فليس هناك داع لمواجهة الانتقال إلى ومن المدينة صباحا ومساءً". وانحنى إلى أسفل فاتحا ذراعيه: "تعال هنا يا ركس، دعنى أحتضنك".

كان نيل ركس يقوم بحركته فى تقليد عصا المايسترو محافظًا على إيقاع مقطوعة سكريتزو حية.

وسألته: "هل أنت متأكد من ترحيبك به؟".

"إنك تمزح بلا شك، فلم يكن لدينا أبدًا أقل من أربعة أو خمسة كلاب عندما كنت صبيا. وكنا نحتاج إلى مثل هذا العدد للصيد على الأقل".

ونهض جيد، معطيا ركس ربتة أخيرة على ظهره. "أخبرني عن رحلتكم"، وقاسمته أهم أحداثها، دون ذكر موضوع اتصال آدم سميث.

وسأل جيد: "ماذا تريد أن تفعل في شيكاغو؟".

وقلت "أود أن أرى شيئا ثقافيا. شيئًا ينوّر ويهذب. وكما تعلم، الاختلاط بالمجتمع العالي في مدينة الرياح".

ضحك جيد: "هذا بأكمله اختصاص زوجتي. وسالي ستقوم بترتيب شيء ما". والتقط التليفون وضغط على رقم سالي "لقد وصل ريتش وصديقه على التو. وهما يحتاجان إلى اقتراحات بشأن الأحداث الثقافية". وأنصت جيد لمدة دقيقة ثم قال: "لقد أتيت بها"، ووضع سماعة التليفون ثم قال: "ليلة السبت، هناك حفل لأداء الأوبرا الغنائية".

قال سميث: "رائع! رائع!".

"إن لدينا تذاكر للموسم بأكمله، ولكن سالي تعلم أنني أفضل البقاء في البيت. وهي أيضا غارقة تمامًا".

ووكزني سميث وهمس: "اسأله كم يكلفنا ذلك؟، فنحن نعيش على ميزانية متزمتة". كانت ميزانيتنا أحد همومنا. فقد كان سميث مفلسًا تماما، كما أنني كنت أعيش على مرتب آخر فصل دراسي.

ولوح جيد بيده قائلا: "انسوا ذلك. فنحن ربما لم نستعمل التذاكر حتى الآن. وأنا عليّ أن أمكث بالبيت لأراقب فريق "الشجعان" على شاشة التلفزيون".

ونظرت إلى حقيبة سميث المصنوعة من قماش الخيام وكنت متأكدا أنها لا تحتوي على أي شيء يمكن أن يرتديه لحضور الأوبرا. وقرأ جيد ما كان يدور بخاطري: "إن لدي حلة رسمية ربما تناسبه"، وأشار إلى سميث، و"إذا كانت لديك أنت حلة، يكون هذا عظيما".

* * *

أمضينا بقية الأسبوع ونحن نستريح، أو على الأقل هذا ما فعله سميث. ولم أر أبدا أي شخص يمكنه أن ينام هذا الوقت الطويل ومع ذلك، بشكل متقطع. إن عملية الاتصال

مجهدة، كما قالت جوليا. وقد يستيقظ مترنحاً، كل بضع ساعات، ليأخذ ركس فى نزهة. "إن هذه وظيفتى طوال وجودنا هنا". كان مصرًا ويقول: "إن لديك أشياء أكثر أهمية لتقوم بها".

كنت تَواقًا إلى الاتصال بجوليا؛ كى أتقاسم معها مغامراتنا: أحاديثنا وحادثتنا المخيفة. وكثيرا ما أدرت رقمها وتركته يرسل الرنين، ولكن أحدًا لم يلتقط سماعة التليفون على الجانب الآخر. لماذا يكره الفنانون الوسائل الآلية البسيطة مثل آلات تلقى المكالمات التليفونية وتسجيلها؟ لقد أمضينا الوقت فى أول فترة فراغ بعد الظهر فى إعادة ترتيب متاعنا فى السيارة. وكان انحرافنا تحت الجسر قد ترك خليطا يشبه السلطة من الكتب والملابس وعدة المخيم. وكانت الأشرطة التى سجلتها لمحادثات سميث مبعثرة فى المؤخرة. وقمت بجمعها ولصقت عليها بطاقات تدل عليها ووضعتها معًا فى صندوق مغطى.

فى الصباح التالي، أحضرت ملفات رسالتى وجلست إلى منضدة مطبخ جيد. كانت الصفحات تبدو غريبة بالنسبة لى. هل كتبت أنا هذا؟ وإذا كنت قد فعلت، فربما كان هذا فى أثناء ضباب كثيف. وبعد خمس ساعات من التحديق فى شاشة الحاسب، ويداى موضوعتان على لوحة المفاتيح، حزمت أوراقى وتركت الشقة. وأغرقت نفسى فى زيارة المتاحف، واكتشفت طبعة من لوحة "جورجيا أوكيف" فى محل الهدايا بمعهد الفنون، قمت بإعدادها للشحن. كان هذا الرسم التجريدى الذى يدعى "الصليب الأسود" قد قام برسمه "أوكيف" فى أثناء إحدى زياراته المبكرة إلى نيومكسيكو. وكان الصليب الأسود مصنوعا من عمودين خشبيين سميكين، بحيث سيطر على المنظر الأمامى للصورة ولم يبق ظاهرًا منها سوى جزء صغير. وفى خلفية الصورة كانت هناك التلال العارية سابحة فى شمس الغروب. وقد حركتنى اللوحة بعمق، وأخرجت قلما وورقة.

وبدأت "عزيزتى جوليا، إن الصليب الوحيد يوحى بأن وجود البشرية يمكن الإحساس به حتى فى أكثر الصحارى الجرداء فقرًا وأمل لك...".

ومزقت هذه الورقة وبدأت مرة أخرى "عزيزتى جوليا، إن هذا يذكرنى بلوحاتك الجميلة، والأشكال المكبرة، والتفاصيل المبسطة، وهو يبرز جمالا أساسيا و....".

جلست لمدة دقيقة وطبقت الورقة وضغطت عليها حتى تغضنت وتجعدت. وأخيرا كتبت "جوليا... أفكر فيك، ريتش". وأدخلت الورقة في المظروف ووضعته مع الشحنة.

* * *

كانت ليلة السبت، وكنت أنا وسميث في حالة مزاجية منشرحة بشكل غريب. وفى أثناء عشاء مبكر، أمتع سميث كلا من جيد وسالى كما أمتعنى بخبراته فى أوبرا باريس.

"الحصول على تذاكر الموسم بالكامل، فعلت هذا! فى ربيع... حسنًا... متى.. ليس أمرًا ذا بال..". وأخذ يطرق بمفاصل أصابعه على المنضدة طرقات خفيفة "ليس هناك شيء – أنا أقول أن لا شيء – أكثر عمقا فى التأثير من الأوبرا الجادة. فالشعر والموسيقى والتمثيل – يأتون جميعًا معًا فى سرور بهيج شديد اللذة".

وأومأ كل من جيد وسالى برأسيهما، ولم أكن قادرًا على الاسترخاء، محافظا على انتباهى؛ نظرًا لاتجاه سميث نحو نسيان الفترة الزمنية التى كان فيها موجودًا. وكان كل هذا النوم قد جعله كثير الكلام، ومضى فى ثرثرته.

قال: "أوه، كما أن السياسة كانت مسلية بطريقة خطيرة. وكما ترون، فإن الملكة كانت تفضل الأوبرا الإيطالية وجلالة ملك فرنسا. وبهذا، أصبحت حرب الأوبرا، شجارًا ممتعا !!".

وتغضن حاجبا جيد: "قد يكون التاريخ لدىَّ قد علاه الصدأ شيئا ما، ولكن لم يكن هناك ملك وملكة فى فرنسا منذ...".

"أوه، هذا لا يهم". قال سميث ملوحا بيده فى الهواء، كما لو كان يطرد أى انحرافات تتسم بالتفاهة. "إننى شخصيا، وجدت دائما أن الكوميديات هى الأفضل. والتمثيل فيها أفضل". ودندن سميث وهو يرشف الشاى: "ليس من الأدب القول، بالطبع، ولكن أعضاء فرقة كاستراتى كانوا سخفاء تماما وتافهين كممثلين، ونادرًا ما يمكن التجاوز عن ذلك. على الرغم من أننى أتخيل أن الأدوار النسائية فى أوبرا الليلة سيقوم بغنائها نساء".

كان هناك ارتباك وحيرة بينما كان جيد وسالى ينظران إلى بعضهما بعضا. وتأوهنا ضجرين معًا. وقلت: "أهذه نكتة أخرى من نكاتك السخيفة فى محاولة منى لتغطية هذا التصرف الخاطئ؟".

"ماذا؟ ماذا قلت؟".

"تعال، ودعنا نستعد".

قام جيد معى بإلباس سميث تلك الحلة الرسمية المقترضة، وذهبنا لحضور ليلتنا الثقافية. كان مدخل دار أوبرا البلدية مزدحما بالسيارات وعربات الليموزين الطويلة. وبعد الدوران حول المنطقة دون جدوى، أسلمت نفسى إلى أحد موظفى الانتظار، مما كان يكلفنى خمسة عشر دولارًا بالإضافة إلى ثلاثة دولارات مقابل التأمين ضد الخدوش والكسور الصغيرة.

وبدا سميث مشدوهًا من الأسعار: "هذا ليس من الحكمة فى شىء.. أبدا وعلى الإطلاق".

كانت قاعة الفنون الأدائية بنيانًا رائعًا من الطراز المعمارى آرت ديكو المموه بالذهب، بنيت فى أثناء الازدهار الذى ساد عشرينيات القرن العشرين، مزينة بتماثيل منحوته للملائكة مطلية برقائق الذهب على قالب التاج. ولوحات زيتية ضخمة عملاقة، وتماثيل برونزية وأعمدة رخامية وردية منتصبة فى المدخل. وصعدنا السلم العريض المؤدى إلى "البلكون الأول"، وبدا سميث كأنه جزء من مراهق نحيف ممشوق القوام فى حفل تخرج، كانت ذراعاه وقدماه أطول بمقدار بوصة بالنسبة للحلة السوداء التى اقترضها وكان يعرج قليلا بسبب الحذاء الضيق، وكانت ياقة القميص تخنق رقبته.

كانت الصالة مملوءة بالحاضرين، وأقلتنا تذاكر سالى فئة الدولارات الثمانية للفرد للجلوس فى الصف الثانى من الدور الأول للبلكون. واستدرت إلى الرجل الجالس على يسارى وكان يدرس البرنامج "هل رأيت إيوجين أونجين قبل اليوم؟". وانحنت زوجته إلى الأمام قائلة: "مرة واحدة، وأنت؟".

"لا، لقد خرجت إلى الحياة بعد قرن من الزمان من وجودى". قالها سميث وهو يجذب ياقة قميصه. كانت المرأة قد حولت رأسها بمقدار ربع بوصة إلى اليمين.

وقلت بسرعة: "لم أرها أنا أيضا قبل ذلك". محاولاً تحويل انتباهها إلى أوراق البرنامج "هل استمتعت بها؟".

"كانت أسطورية". هكذا أجابت المرأة، "إن موسيقى تشايكوفسكى تضم أعمال بوشكين الرائعة. أرجو أن تكون قد أحضرت منديلاً!".

ظهر قائد الفرقة الموسيقية وحيّاه الجمهور تلقائيا بالتصفيق، وخفضت الإضاءة. كانت عصاه تقطع الهواء ذهابا وإيابا، ولم أكن بحاجة إلى أوراق البرنامج كى تخبرنى أن هذه موسيقى تشايكوفسكى – فوّارة حماسية، مفرطة فى النفخ، ومنذرة. وظهر ايوجين أونجين الزعيم التافه المغرور فى الحديقة، متحضرا واثقا بذاته وفخورا. وواجهته تاتيانا بنت الريف النقية الساذجة والتى أحبته بعمق وإخلاص. إلا أنه احتقرها. وفى لحظة ملل وبدون خجل أو عار، كان يغازل خطيبة أفضل أصدقائه. وبطريقة روسية معتادة، كان لا يمكن تسوية هذه الإهانة المتعمدة إلا بإلقاء صديقه لقفازه، وكان صوت المبارزة بالبنادق وفرقعة الطلقات هو نهاية الفصل الثانى، وحمل أونجين صديقه مسجى ميتا بين ذراعيه. وقامت المرأة الجالسة إلى جوارنا للنظر عليه.

"هل كنت على حق؟".

وأومأت برأسى موافقا: "أنا سأحتاج إلى منديل".

"ذكّرنى كيف أخبرك بشيء عندما تنتهى". كان هذا ما قالته المرأة الثرثارة وهى تتحرك نحو الممر.

وانتقلنا من خلال الجمهور إلى منطقة الاستقبال، كانت همهمة الأصوات تصاحب تخيلاتى لمشاهد الفصل الأول. لقد وجدت أونجين فى نفسي، فى ازدراء حب امرأة طيبة. هل كان هذا هو ما فعلته بجوليا؟ كم مرة لم أفلح فيها فى أن أحب، أو أن أتبادل أقدمَ العواطف الإنسانية وأعمقها أساسا؟

وفى أثناء وقوفنا فى صف الانتظار أمام البار، انحرف سميث برأسه نحو شابتين صغيرتين كانتا أمامنا.

"أليست رائعة؟". قالت أقصرهما مبتسمة: "لابد أن أحصل على الاسطوانة السى دى CD؟". هزت أطولهما كتفيها. "إنها ليست جيدة مثل بافاروتى فى المتروبوليتان، إنك إذا ما سمعت مرة إنتاجا عالمى المستوى، يكون صعبا عليك الإنصات إلى هذا".

استدار سميث إليَّ، وضحكة عريضة تنتشر على وجهه وهمس: "لا شيء يمكن أن يسر هذه المرأة". "إنها أعلى من كل شيء تمتلكه. فهي مثل ذلك البندقي المتعب، سيناتور بوكوكورانتي الذى يصفه فولتير بشكل مُسَلٍّ فى روايته كانديد. أنت تعرف كانديد؟". وهززت رأسي قائلا: "لا". وقَطَّب سميث وجهه.. "كان لديَّ اعتقاد بأن إنساناً في عبقرية فولتير لابد أن يكون ضمن المطالعات المقررة".

وقريبا منا، كان هناك رجلان وامرأتان فى ملابس أنيقة أرسل كل منهم تحيات بصوت مرتفع إلى الآخر. وكانوا يتحدثون حديثا مفعما بالحيوية، حتى أننى لم أتمالك إلا أن أستمع. وسألت إحدى المرأتين الأخرى: "ماذا ستفعلون فى عيد الشكر؟ هل ستأتون معنا إلى آسبين؟ سيكون ذلك متعة كبيرة". أما الرجل الذى بدا وكأنه زوجها فقال: "إن عائلة مارجورى ستكون معنا أيضا. هل تتذكرين روجر وسيليا؟".

وردت المرأة الأخرى بسرعة: "هذا عرض ممتع، ولكننى أخشى أننا لا يمكن حتى أن نفكر فيه. فرانسيس لا يعلم متى سيعود من آندوفر، أما أندرو فقد تلقى دعوة ليلحق بصديقه ويليام فى رحلة سفارى بجنوب أفريقيا، وفرانك لديه رحلة إلى أوروبا تقريبا فى هذا الوقت، ومن ثم فإننا نظن أننا قد نتقابل جميعا. إن الأمر شديد التعقيد".

نعم أنا أفهم جيدا. قالت المرأة الأولى مستعيدة خيط الحديث ملوِّحة بيدها: "إننا بالكاد تَمكنَّا من الحضور الليلة. إذ إن مارشا كان لديها درس الفروسية فى الساعة السادسة صباح اليوم، وقد أسرعت بعد ذلك لأذهب مع فيليب إلى مباراة فى سانت استيفن. وفوق كل هذا كان عليَّ أن أترك إلزا تتصرف فى الأسبوع الماضي".

كان سميث ينصت باهتمام وشغف. ووجهه يلمع، وغمز لى بعينه كما لو كان عليَّ أن أستنتج بعض المعانى الهامة من هذا المزاح.

كنا قد وصلنا إلى بداية الصف، وطلبت زجاجة من البيرة.

"نحن لا نقدم بيرة". كان هذا ما قاله ساقى البار "نبيذ، شمبانيا أو كوكتيل، هذا ما لدينا". ونظر إلى من بعدى "العميل التالى".

"حسنا، أعطنى نبيذا إذن": قلت، وقد اعترانى الشحوب عندما رأيت السعر.

وسمعت صوت سميث خلفى يقول:

"وى درام، من فضلك".

وسأله الساقى: "ماذا؟".

"سكوتش ويسكى – صافى، بدون ماء".

واستدرت، وسكبت بعض النبيذ على كمى. "أنت لن...!!".

واكتأب سميث: "إر. ما أسخفك. لقد نسيت.. ماء فقط".

وناوله الساقى زجاجة مياه بريبه. ووضعت عشرة دولارات على سطح الطاولة لكلينا، وأنا أتأوه داخليا. وانسللنا نجد طريقنا بين الجموع، وسمعنا طرفا من المحادثات.

"... ستكون البداية فى الساعة السادسة والنصف. فى أى وقت آخر، ولكن الطريق سيكون مزدحما".

"السوق يتحرك، ولكن أين ؟ هونج كونج هبطت ٥%".

"سنرسو فى جزر فيرجين البريطانية ليوم واحد، وبعدئذ نبحر إلى برموده".

"جيرى تم عصره فى عملية الطلاق. أما من ناحية النفقة فقد خلقت له مشاكل".

"إن جيمسون شديد الغضب ومهتاج بسبب عملية الاندماج. ومظلة هبوطه لا تساوى شيئا بجانب مظلة فليتشر".

كان سميث يقبض بيد متراخية على ذراعى. ويضغط عليه كما لو كان قد ربح رهانا، على حسابى. وانحنى إلى الأمام، كما لو كان على وشك أن يقول شيئا ما، إلا أن رنين الأجراس ارتفع وخفت الإضاءة ومضينا عائدين إلى مقاعدنا.

كان الفصل الأخير مأساويا منمق الأسلوب مثل الفصل الأول. عاد أونجين إلى الظهور، متجهما، نكد المزاج، حزينا، بعد أن ظل يجول فى الأرض أربع سنوات حزنا على موت صديقه. وعند عودته إلى سانت بطرسبرج، شهر حفلا كان مضيفه هو ابن عمه الطاعن فى السن، الأمير جيريمن، ليكتشف أن تاتيانا، قد أصبحت الآن امرأة عاقلة هادئة ومهذبة، وأنها فى الحفل؛ لأنها زوجة جيريمن كما أنها أميرة! وفى صوت باريتون

عميق، يتعهد الأمير بإخلاصه لتاتيانا، بعد أن جعلته يحس بالسعادة بنقائها وحبها للخير، وجودة طبيعتها. ومع كآبته وضعف عزيمته، كان أونجين يشتهي الحب الذي رفسه وازدراه يوما ما. وكان يتتبع خطى تاتيانا بتفاهته المعهودة، ويظن أنه سيستعيدها بالتأكيد. إنها مازالت تحبه، ولكنها تظل صادقة وأمينة لزوجها. وفي النهاية، تندفع خارجة من المسرح، تاركة أونجين محطما وكسيرا، بينما يُسدل الستار.

وقف الحاضرون، يصفقون ويحيون الممثلين في أثناء إقفال الستار وفتحه مرتين أخريين. بينما جلست ساكنا دون حراك.

قرأ سميث ما كان يدور بداخلي من أفكار: "هذا معروف جيدًا".

كان يجأر بصوت عال عميق يعلو على التصفيق ويقول: "إن سوء حظ الجزء الأعظم من الرجال ينشأ ببساطة من عدم معرفتهم عندما كانوا في حال حسنة. عندما كان الأسلم بالنسبة لهم أن يجلسوا في سكون وأن يحسوا بالرضا". وهز سميث رأسه بحزن: "هل تعلم ماذا قال ميلتون؟... إن العقل في مكانه وفي حد ذاته يمكن أن يحول الجنة إلى جهنم، وجهنم إلى جنة".

واستدار جيراننا ليغادروا المكان.

وسألت: "اسمحي لي، لقد كنت على وشك أن تقولي لنا شيئا ما؟".

استدارت المرأة قائلة: "إن تشايكوفسكي تأثر كثيرا بمصير أونجين - وكان خائفا من التشاؤم الناتج عن الخرافات - وأن يكون قد تزوج امرأة لم يحبها وإنما ببساطة لتجنب إهانتها وازدرائها!".

وقلت: "يا الله، إن الحياة تقلد الفن! ولكنها نجحت وانتصر الحب؟".

وضحكت قائلة:، "يا الله لا! لقد كان بائسًا".

* * *

مضينا نشق طريقنا بين الجمهور إلى الهواء الخارجي. كانت هناك موجات حرارة ترتفع من الممشى الخرساني. وكان الجو رطبا وحارًا. كان الطريق مختنقا بالمجموعات التي تثرثر فيما بينها عندما كنا نسير متمهلين إلى المكان الذي سنتسلم فيه سيارتنا من موظف الانتظار.

كنا نقف فـ [illegible] من أجل سيارتنا عندما سمعنا صوت الطلقة الأولى -وصوت شرخ مرتفع فى أذنى اليمنى، يبدو كما لو كان صوت سيارة كبيرة تنزلق على الأسمنت الرطب. وتراجعت أنا وسميث بعيدا عن المكان مع صوت الرصاصة التى حطمت زجاج شباك سيارة كانت تقف بعدنا. وكان زجاج الأمان يقرقع على الممشى الجانبى.

وصاح أحدهم: "احذروا!!".

ودوّى صوت انفجار ثانٍ بعد عمود الإضاءة الثانى فى الشارع بجوارنا. وتناثر الناس، مشكّلين موجة مرتدة. ودفعت سميث إلى خلف جذع شجرة. على بعد خمسة عشر قدما من مؤخرة جماعة حراسة أمنية كانت تصارع من أجل الإمساك بمسدس يقبض عليه رجل صغير الحجم أسود الشعر. كانت قبعة الحارس ملقاة على الأرض، وكان المهاجم أكثر خفة من الحارس، ولكنه قاتل بشدة وبتدريب أفضل. وكان الجمهور مسلوب اللب قد كوّن دائرة مغلقة على بعد عشرين قدماً، ولكنه كان يتراجع فى كل مرة يوجه المسدس نحوهم. وتراجعت أنا وسميث رويدًا رويدًا.

كان المهاجم يرفس الحارس أعلى الفخذ، وينحنى عليه، ثم رفع مؤخرة المسدس وضرب بها رأس الحارس الذى ارتمى على الأرض. ودار المهاجم حول نفسه وتراجع الجمهور، واختفى تماما فى أحد الممرات، وكان شعره الأسود يهتز إلى أعلى وأسفل فى أثناء الجرى. وفى دقيقة واحدة امتلأ الشارع برجال الشرطة، وتم رفع الحارس الجريح إلى سيارة إسعاف.

"كان هذا قريبا جدًا منا". قلت لسميث ونحن نقود السيارة عائدين: "إن هذا المكان شديد الخطورة. ثورة فى الشارع يوما، وسرقة فى يوم آخر".

إلا أن حجم هروبنا القريب، لم يفتر إلا بعد وقت طويل، وتحول عقلى نحو مسار أكثر ظلاما إلى الحقيقة. أما بالنسبة لتلك الليلة فقد استغرقت فى نوم عميق.

الفصل الحادى عشر

الثروة والسعادة

غادرنا شيكاغو فى الصباح التالى، وعدنا مرة أخرى فى طريقنا إلى الغرب. ونظرًا لحرارة الصيف، فقد اخترت أن نسير فى طريق شمالى، يمر فوق البرارى فى ولايتى أيوا وساوث داكوتا، ويخترق جبال روكى فى ولايتى مونتانا وأيداهو. وبعد ذلك، نمضى إلى الساحل ونواصل طريقنا عليه حتى سان فرانسسكو، حيث نترك هارولد فى منزل شقيقته عبر الخليج فى أوكلاند. لم يكن هذا هو أقصر طريق مباشر، ولكننى لم أكن بحاجة إلى تحديد أى مواعيد نهائية. وكان كوخ يوسميت لن يصبح لى قبل مضى أسبوعين آخرين.

كانت السماء صافية فى إلينوى، وكان هناك ضباب خفيف جدا مازال معلقا فى أفق المدينة التى كانت تختفى وراءنا. وفى هذا الوقت من النهار عادة ما تكون حركة التجارة متجهة نحو المدينة، لا إلى خارجها، وبعد ساعة من الحركة الكثيفة من الضواحى، انفتح الطريق فى أراضى المزارع. وبسطت ظهري، وحركت لوحى كتفىّ دائريا، وخففت من قبضتى على عجلة القيادة.

كان الوقت يبدو مناسبا لتفهّم ما مر بنا من أحداث فى بار الرياضة وفى الأوبرا. وضغطت على زر جهاز التسجيل ونظرت إلى سميث بطرف عين. واستبقنى قائلا: "من المؤكد أنك تدرّس لطلبتك قانون تناقص الغلة؟".

أومأت قائلا: "بالطبع، فإذا ما كان الجو حارًا بعد الظهر، يكون لأول كوب أشربه من الماء المثلج، أثر أكبر على إطفاء ظمأى عن الكوب الثانى، والثانى يكون أثره أكبر من الثالث، أما الكوب الرابع فلن يعطينى سوى قليل جدا من الفائدة الإضافية، بل قد يكون له أثر سلبى إذا أحسست بانتفاخ. هذا هو قانون تناقص المنفعة الحدية".

قال: "حسنًا. إذن هذا ينطبق على الثروة أيضا، وهذا هو السبب فى أن المصدر الكبير للبؤس وانعدام النظام فى الحياة البشرية، يبدو نابعا من المبالغة فى تقدير الاختلاف

بين الفقر والثروات. إنه أمر علمي بحت: هل أرضتك ملاحظاتنا؟ أليس كذلك؟ إن المبالغ الضخمة من النقود ليست مطلوبة لإنتاج أقوى شعور بالزمالة. والآن أخبرني، كم تكلفت هذه الأبحاث والتجارب؟".

قلت: "بلغت تكلفة بار الرياضة ٢٠ دولارا، أما تكلفة الأوبرا بما فيها قيمة التذاكر ومصروفات الانتظار والمشروبات فكانت نحو ٢٠٠ دولار".

قال سميث: "في رأيي أن التكلفة في الأوبرا كانت عشرة أمثال التكلفة في البار. ولكن هل كان العائد أعلى بعشر مرات؟ وإذا لم يكن ذلك، فإن هناك تناقصا في العائد على الثروة، وفكرتي هي أن ذلك العائد يتناقص دائما بسرعة".

وهززت كتفيّ قائلا: "هذا معقول".

"بالطبع، لا تظن أن من الممكن في الأوضاع العادية للحياة أن العقل المرتب والمنظم – إذا أخذنا مثال أولئك الناس من أنصار القراصنة الذين قابلناهم في بار الرياضة – يمكنه أن يكون على نفس درجة الهدوء، والانشراح والسرور التي كان عليها أي فرد من مجموعة الكعوب العالية والذين كانوا في الأوبرا".

"ليس هناك أساس علمي لقولك هذا. ومن المؤكد أنك تفضل الثروة على الفقر".

"إن الثروة تستحق التفضيل. ولكنها لا تستحق المتابعة والجري وراءها بهذه المشاعر الحماسية الجياشة التي تدفعنا إلى انتهاك قواعد الحكمة أو العدالة، أو إلى إفساد الهدوء المستقبلي لعقولنا. وإذا ما أصبحت الثروة وحدها هي الهدف، فدائما ما سيكون هناك آخر يملك أكثر، وامتلاك الثروة لا يعني شيئا إذا لم يكن الأكثر. إن مَسَّرات الغنى وما تتضمنه من زَهْوٍ وتَفَوُّق، نادرًا ما تتَّسِق مع الهدوء".

وتركت هذه القيم والأفكار تستقر في نفسي، فقد كان بها شيء من المنطق، ومع ذلك، كانت لديّ سلسلة من الشكوك.

وقال سميث: "والنقطة الثانية هي أن ازدياد الثروة لا ينتج سوى ارتفاع مؤقت في المشاعر الطيبة؛ نظرًا لأننا عاجلاً أم آجلاً نكيف أنفسنا عليه. والسعادة تستعيد ما كانت عليه من مستوى سابق – دعنا نسميه المستوى "الطبيعي" – تمامًا كما يجد بندول الساعة

توازنه". وهز سميث رأسه ثم قال: "إن السلطة والثروات يمكن أن تبعد أمطار الصيف، وليس عواصف الشتاء، ودائما ما يتركونك - بل أحيانا بدرجة أكبر مما سبق - معرضًا للقلق والخوف والأسف والخطر والموت.

• • •

كانت المستطيلات المسطحة لحقول مزارع أيوا تمضى متسارعة إلى جانبنا فى مسارنا المستقيم. وكانت الشمس مرتفعة عالية فوق رؤوسنا. واستأنفنا حديثنا.

قلت: "إنك لا يمكن أن تقارن بين سعادة الأغنياء والفقراء بأى معنى مجرد، هذا إلى جانب أن الأعمال تتحدث بصوت أعلى من أى كلمات. وعندما يمتلك الفقراء الثروة فإنهم يتوقفون عن الذهاب إلى بارات الرياضة، ويبدءون فى شراء تذاكر المقصورات الزجاجية المرتفعة وتذاكر الأوبرا. ويهجرون اتحاد البولينج، ويلعبون الجولف. ويصبح تفضيلهم ظاهرًا للأشياء التى يقوم بها الأغنياء".

وأومأ سميث برأسه موافقا: "نعم. هذا هو ما أطلق عليه "الخداع" العظيم للعقل البشرى، وهو تسابق الفقراء نحو كماليات ومظاهر ترف الأغنياء، والميل إلى الإعجاب بالأغنياء والأقوياء إلى حد يقترب من العبادة...". وسكت برهة للتأكيد.. "وهذا هو السبب الأكبر والأشمل لفساد مشاعرنا الأخلاقية!!".

وتحركت حول نفسى فى مقعدى، وفوق رؤوسنا كان هناك زوج من النسور يطيران فى دوائر بطيئة كسولة. وعبرنا إحدى اللوحات التى كانت تعلن عن بيت الكعك.

قلت: "حسنًا. سأتناول لقمة، كيف يفسد هذا أخلاق أى شخص؟".

ورد سميث كما لو كنا نلعب الشطرنج: "إن المرشحين للثروة كثيرا ما يهجرون دروب الفضيلة. ولتعاستهم، فإن هذا الطريق هو الذى يؤدى إليها، والذى يؤدى إلى الآخر وفيما بينهما قد يكمن أحيانا فى الطرق العكسية تماما".

توقفنا عند بيت الكعك ووجدنا بقعة ظليلة لركس مع الماء الذى يشربه، ودلفنا إلى الداخل. ذهب سميث يستخدم بيت الراحة لقضاء حاجته، بينما اشتريت صحيفة ووجدت مكانا لجلوسنا. وكان عنوان الجزء الخاص بأماكن التسلية واللهو يقول ببساطة: "إطلاق

الرصاص يفسد الأوبرا." كان خبرًا مختصرًا. يبدو وكأنه أضيف إلى الطبعات الأخيرة. ولم تقدم الشرطة أى دافع أو مبرر للهجوم، كما لم يتم التعرف على وجود ضحايا مقصودين بالهجوم. وقد تم خروج حارس الأمن من المستشفى بعد إصابته بجروح بسيطة. وقد وجد شعر مستعار أسود فى صندوق القمامة الموجود بالممر، ولكن المحققين لم يرغبوا فى الإفصاح عن أية دلائل أخرى.

احتسيت قهوتى. كان هناك شىء لا يبدو معقولا - إن اللص - وقد افترضت أنها كانت محاولة سرقة - قد اختار مكانا شاذا لممارسة مهنته. ألم يكن موقع مهجور أفضل مكان دون حراس أمن يدورون حوله؟ عندئذ تذكرت أن كل الأثرياء كانوا فى الأوبرا. وربما كان الاقتصاد هو المنطق، فإن المخاطرة القصوى التى قام بها كانت تتناسب مع الغنيمة القصوى المحتملة. كان هذا منطقا ثقافيا إلا أن شيئا ما بداخلى كان يخبرنى أن هناك شيئا آخر لم أهتدِ إليه.

بعد الغداء، عدنا متجهين إلى الطريق السريع، وقلت لسميث: "هذا.. هذا هو "خداع" العقل الذى تحدثت عنه قبل ذلك - من أن الناس يُفسدون أنفسهم دون قصد - وأى خداع مثل هذا سيتحدى أساس قدر كبير من الاقتصاد الحديث".

وسكنت هنيهة: "إن معظم الاقتصاديين يرجعون إلى نموذج لرجل اقتصادى يكون رشيدًا".

لم يبدُ على سميث أى اضطراب، وقررت أن أثيره بلطف: "هل عندك شجاعة لافتراض أنك أكثر حكمة من الجماهير؟ أليس ذلك نوعا من التعالى والغرور؟".

تمدد سميث وقال: "هل أفسدت خططك؟ إن الفلسفة الأخلاقية - كما أمارسها أنا على الأقل - تفحص الدوافع. ولكن ما السبب فى الجشع والطموح؟ إنه حب الزهو والتعالي، وليس الراحة أو المسرات التى تجعل البشر يهتمون بامتلاك الأشياء إن الرجل الغنى يفخر بثرواته؛ لأنها تجذب إليه انتباه العالم".

"ولماذا يشكل أى من تلك خداعاً؟". كان هذا سؤالى له.

"بالنسبة لما يشكل السعادة الحقيقية للحياة البشرية، فإن الفقراء ليسوا أقل حظٍ بأى شكل. إن الشحاذ، الذى يجلس يلتمس دفء الشمس لنفسه على جانب الطريق السريع،

يمتلك ذاك الأمان الذى يناضل الملوك من أجله". واستدار سميث ناحيتى ليتأكد من أنه قد أثار اهتمامى. "وإذا ما كان الجزء الرئيسى من السعادة البشرية ينبع من الشعور والوعى بأنك محبوب – كما أظن أنه يحدث – فإن التغيرات الفجائية فى الثروة نادرًا ما تسهم كثيرا فى السعادة".

كنا قد اقتربنا من منطقة آهلة بالإعلانات الضخمة عن كل شىء ابتداءً من السيارات الفارهة إلى الجوارب النسائية. وكشر وجه سميث: "لكى تؤسس إمبراطورية عظيمة لمجرد غرض وحيد، ألا وهو زيادة تعداد الزبائن والعملاء، فإن ذلك المشروع لا يتلاءم إلا مع أمة من أصحاب المتاجر!!".

"قد يحدث هذا بالفعل ولكن على الأقل سيساعدنا هذا لإيجاد مكان ننام فيه". كان هذا ما قلته، وكانت الساعة قد بلغت الرابعة وهو الوقت الذى يعطى فيه ركس شيئا من الركض، ويمكننى أن أقول إن الرحلات الطويلة بالسيارة كانت تتعب سميث. ووقفت عند المخرج، وكان حظنا حسنا، فقد كان الموتيل يقبل الحيوانات الأليفة.

وبعد العشاء والحمام، استرخيت أنا وسميث فى البيجامات، وكان ركس يجلس عند قدم سريرى. وبحكم العادة، كنت أقلب فيما بين القنوات التلفزيونية، وهاجمتنا القنوات من كل صوب وحدب، كل منها أعلى صوتا وأكثر صريرًا عما قبلها، وكان سميث يراقب ذلك وأصبح وجهه داكناً. فى قناة التسوق، كانت هناك بائعة تنادى بنشاط لبيع أساور الماس المصنّع. وقال سميث عابسًا: "كم من الأشخاص يدمرون أنفسهم بدفع النقود على هذه التفاهات؟ إيه؟".

خفضت الصوت واستمر سميث يقول: "فكرّ كيف أن وسائل الرفاهية التافهة تمتص معظم اهتمامنا القلق، وهى على استعداد للانفجار إلى شظايا، وأن تحطم فى أطلالها ملاكها غير المحظوظين؟!".

ضحكت قائلا: "هذا أسلوب درامى بعض الشىء فى النظر إلى الأشياء".

"بشكل مباشر أكثر، أين هى الحكمة فى كل هذا؟". أين هو ضبط النفس الذى يؤخر الإشباع؟ بدون الادخار من أجل المستقبل، فإن هذه البلاد نادرًا ما يمكنها أن تأمل فى الرخاء فى المستقبل".

كان يبدو أن سميث، ساحر فن الخطابة، على استعداد دائم للتنبؤ بالخطوة التالية، وإضافة تعبير لظلال من الاختلاف، أو فارق دقيق كظل شعرة. واستمر يقول متثائبًا: "ولكن هناك جانب تعويضى عن كل هذا البحث غير المثمر عن السعادة الماديّة، وهو ذلك الخداع الذى يثور ويستمر فى الحركة الدائبة لصناعة الجنس البشرى".

"إننا نحاول جاهدين يا بروفيسور سميث؟".

لم تكن هناك إجابة، وكان سميث قد سقط فى سبات عميق.

وضغطت على زر بجهاز التحكم عن بعد، بحثًا عن محطة تلفزيون شيكاغو. كانت نشرة أخبار المساء توشك على النهاية، بناءً على المزاح المتبادل بين مقدمى الأخبار. كانت جرعة ويسكى الدرامبوى قد جعلتنى تملأ بعض الشىء. وأغفيت؛ لعدم رغبتى فى بذل مجهود للزحف تحت الملاءات.

وظهر على شاشة التلفزيون مقدم للأخبار يواجه مضيفته المشتركة سائلا إياها: "بريندا، ما أحدث الأخبار عن حادث إطلاق الرصاص بالأوبرا؟".

وفتحت نصف عينى.

"مارك، خصم عمدة المدينة، والذى كان بين الجمهور عند إطلاق الرصاص، بدأ يحوّل الحادث إلى موضوعات الحملة الانتخابية. وقد أطلق بيانا اليوم يدعى فيه: "أنه حتى أكثر المناطق العامة فى المدينة قد أصبحت غير آمنة". وقد استنكر مكتب عمدة المدينة ونفى هذا الادعاء. وقال فيه: "إن شوارع المدينة – حسب بيانه – كثر أمنا من أى وقت مضى".

وبينما كانت تتحدث، تحوّل المنظر إلى شريط أمنى أبيض وأسود مبقع تم التقاطه من خارج دار الأوبرا. ويظهر رجلا قصيرا يلبس باروكة من شعر مستعار أسود كثيف. يخطو بعزم وبقصد، ويده فى داخل سترته القصيرة. وكان وجهه يبدو مألوفا بشكل مزعج. وكانت عيناه تتحركان يمينا ويسارًا، كما كان الأنف نحيفا محددًا وقاسيا. وأعاد الفيديو عرض المشهد.

رفعت صوت التلفزيون، وتقلب سميث فى الفراش، مغطيًا أذنيه.

"بريندا، ما سبب اهتمام كافة وسائل الإعلام بهذه القصة؟ التى يفترض أنها عملية سرقة فاشلة، لم يُصب فيها أحد إصابة خطيرة. ومن المؤكد أنه ليس من ذوى الشأن فى هذه المدينة؟".

"مارك، إن ما بدأ كحادث صغير أدى إلى تدفق الرسميين. ولم يكن هناك أحد فى قاعة المدينة راغبًا فى الحديث مع تسجيل حديثه، ولكن قناة WCYX أكدت أن إدارة المباحث الفيدرالية FBI قد تم إدخالها فى القضية. وهناك دليل واحد لم تفصح عنه الشرطة، وهو عبارة عن منشور أو إعلان تم العثور عليه والتقاطه من مكان الحادث".

ضحك المعلق بسرور واضح: "أخبرتنا مصادر سرية بأن المنشور يحوى إشارات عن جماعة إرهابية اسمها "الناس فوق الأرباح"، وكانت هذه الجماعة قد أعلنت مسئوليتها فى وقت مبكر هذا العام عن إلقاء قنابل على القنصل الروسى. كما أنهم قد وعدوا أيضا بإفشال قمة التجارة فى سان فرانسيسكو التى ستعقد فى الشهر القادم".

ورفع مذيع الأخبار حاجبيه قائلاً: "هل هناك دلائل على أى متهم؟".

"مارك، يحاول المحققون تحديد المكان الذى اشتريت منه "باروكة" الشعر المستعار. وهناك شىء آخر، فقد قامت الشركة باستجواب عديد من الشهود الذين يدعون رؤيتهم للمتهم وهو يهرب من مسرح الحادث فى سيارة ركوب زرقاء من طراز قديم".

الجزء الثانى

التَّحَـــوُّلَ

(إن الاهتمام الجاد والصادق بخصائص سلوكنا يكوّن

الجوهر الحقيقى للفضيلة).

آدم سميث

(من كتاب نظرية المشاعر الأخلاقية صـــ٢٤٤)

الفصل الثانى عشر

البَحثُ عَنِ الرِّبح

دى موان، أيوا

عزيزتى جوليا:

كما ترين فى هذه البطاقة البريدية البانورامية، فإن هذه الأراضى المنبسطة تهيئ الفرصة لسهولة القيادة. ومن السهل على العقل أن يتجول ويتعجب. هناك كثير مما أود سؤالك عنه. سميث ينام معظم الوقت. وشكرا لقيامك بتحويل بريدى إلى سيوكس فولز. سنكون هناك فى وقت متأخر اليوم.

ريتش

ومضينا نقود سيارتنا، متجهين شمالاً إلى ساوث داكوتا، وتوقفت عند مكتب البريد فى سيوكس فولز، لأحصل على البريد المرسل إلىَّ بنظام التوصيل العام. كان هناك خطابان، أحدهما فى حجم بطاقة صغيرة. وكان الظرف مكتوبا بخط يد خطاط متمرس، وفتحته على الفور.

عزيزى ريتش:

الجو هادئ بدون وجودكما، أنت وهارولد. أتوق إلى معرفة كيف تمضى رحلتكما أخبرنى جارى بأن تليفونى كان يدق كثيرا دون رد. وكان بودّى أن أضرب نفسى عقابا على عدم وجود آلة للرد على المكالمات (تم إصلاح هذا الأمر الآن). كنت أنقل حمولات من اللوحات إلى المعرض. الافتتاح سيكون فى يوم الجمعة. ادُع لى بالتوفيق وحسن الحظ.

هناك كثير مما أود قوله، وأمل أن تتاح لى هذه الفرصة عندما تعود. القس يرسل إليك تحياته.

مع كل الحنان والدفء.

جوليا.

أما الخطاب الثانى فكان بداخل مظروف يدل على أنه ذو صبغة رسمية، وموضح عليه عنوان الإعادة وهو: كرسى آدم سميث للاقتصاد، كامبردج، ماساتشوستس. وتهيأت، وكان الخطاب - طبقا للصياغة - دون تحيات.

بيرنز:

بالله ماذا تفعل؟ قد يبدو الأمر هيّنا بالنسبة إليك، ولكن شركة وورلدكيم كانت تتوقع تقريرًا منذ أسبوع مضى. ولا يخفى عليك أننى يجب أن أرى الفصل الأخير فى الرسالة،هل سمعت عن البريد الالكتروني؟ أو التليفون؟ كلمنى...

بوب لاتيمر.

ملحوظة: أفترض أننى لابد أن أذكر، أن شركة وورلدكيم قد تسلمت تهديدات بالقتل من مجموعة بلشفية غبية. ويبدو أنهم يعارضون عملية شراء روسيا لشركة وورلدكيم. وأحد الأسباب التى تزعجنى. هو وجود أفراد الأمن حولى طوال الوقت فى كل دقيقة من اليوم. ولكننى أظن أن هذا هو السبب الذى من أجله يدفعون أتعابى.

***

كانت سيوكس فولز قد أصبحت على بعد مائة ميل خلفنا، والبرارى مسطحة أمامنا تمتد حتى الأفق وتقوّس الأرض. ولم أتحدث أنا وسميث إلا قليلا. كان متعبا، وخفض ظهر مقعده إلى الخلف، فى غفوة معظم الوقت. وقلّد ركس ما عليه سميث من إجهاد، واستراح ضاغطا بأنفه على المقعد الخلفى. وكما شغل سميث نفسه بهذه الطريقة، فإننى لم أشعر بالرغبة فى الحديث، كما لم أود أن أتقاسم مخاوفى مع أحد.

كنت أفكر مليًا فى غرابة الصورة المألوفة للمهاجم التى رأيتها على التلفزيون فى الليلة الماضية على شريط الفيديو المبقع ذى الصورة البيضاء والسوداء، لرجل يقبض على مسدس داخل سترته القصيرة. أين سبقت لى رؤيته؟ وكانت الإشارة إلى "الناس فوق الأرباح" قد هزت ذاكرتى وأعادتنى إلى الغداء فى مطعم الكلية مع وين وكارول. وإذا كان لاتيمر هو هدف جماعة "الناس فوق الأرباح"، فماذا عنى أنا؟ كان يبدو أمرًا شديد الغرابة أن تكون الصدفة وحدها هى التى أدت إلى تزامن تلقى لاتيمر للتهديد بالموت، فى نفس الوقت الذى أُخرجت فيه من على الطريق السريع فى ميريلاند، ثم أُطلق علىّ

الرصاص فى شيكاغو مرة أخرى. وماذا عن مسوّدة رسالتى المسروقة؟ كيف يمكن أن تتوافق هذه القطع مع بعضها بعضًا؟

لماذا يريد أى شخص أن أموت؟ لم أصبح شخصية شهيرة بعد، مثل لاتيمر، كما أن عملى على معادلة شركة وورلدكيم يمكن أن يكون سببًا كافيًا لاختطافى، وليس قتلى. وإذا لم أكن الهدف، فماذا عن هارولد؟ من ذا الذى يود قتل ميكانيكى سيارات نقل عاطل عن العمل وليس لديه أصدقاء بالقرب منه؟ هل كان له أعداء قدامى؟ هل عليه ديون لأحد المرابين؟ هذا أمر بعيد الاحتمال.

توصلت إلى النتيجة التى لا مفر منها، وهى أن معادلة وورلدكيم كانت مفتاح اللغز. وكنت محتاجا لمعرفة لماذا يريد أىُّ شخص أن يقتلنى بدلاً من سرقة المعادلة بمجرد انتهائى منها؟ أولا، أنا أريد أن أظل حيًا.

كذلك كان هارولد فى حالته الحاضرة معرضا للخطر، فقد أصبح عاجزا بسبب الاتصال الذى يتم عن طريقه. كانت رأس سميث ملقاة إلى الخلف بجوارى، وعيناه مغلقتين بشدة، وشخير خفيف يصدر منه مع كل تنفس عميق. ونظرت غريزيا إلى المرآة العاكسة للمنظر الخلفي، لأطمئن أنه ليست هناك سيارات تهددنا. ورجعت بعنقى إلى الأمام، متعجبا كيف ستكون الضربة التالية لجماعة "الناس فوق الأرباح". وتزايدت التباديل بسرعة. وهززت رأسى محبطاً. ربما أكون مصابا بنوع من جنون الخوف، رغم كل شيء.

***

توقفنا للمبيت فى أحد الموتيلات، الذى كان يبعد عدة أميال عن الطريق السريع. وفى الصباح التالى، قدنا السيارة لبضع ساعات. وعلى شاطئ نهر ميسورى، وجدنا منطقة استراحة حيث بسطت طعام الإفطار المتأخر المكون من شطائر زبد الفول السودانى، وقطع الجزر، والفواكه الطازجة. كان سميث أكثر حيوية، ويأكل بشهية، وعندما كاد الطعام ينتهي، بدأت تشغيل المسجّل.

قلت: "أعذرنى إذا ما بدا هذا نقدًا بعض الشيء، ولكن يبدو أن اللوم يقع عليك جزئيا إذا لم يتمكن الناس من فهمك. وإذا كانت الثروة لا تمهد الطريق إلى السعادة، فلماذا

لم تذكر هذا فى كتابك "ثروة الأمم؟ ولماذا تتحدث عن المصلحة الذاتية كمبدأ إرشادى، والتى لا يمكن للناس تفسيرها اليوم إلا بأنها أنانية؟".

"ريتشارد، هدّئ منْ روعك". قال سميث وهو يمضغ ثمرة خوخ، يحلىّ بها فمه: أربعمائة صفحة! - كان هذا هو الجهد الذى قمت به لشرح دوافع السلوك الإنسانى فى نظرية المشاعر الأخلاقية. ولم يكن هناك أحد فى زمانى مخبولاً كى يتصور أن الثروة وحدها أو المصلحة الذاتية وحدها تهمني. إذا ما كان الناس لا يقرءون ما كتبت، فهل يكون هذا خطأ منى؟". وسحب قطعة الخوخ من فمه وألقاها برفق إلى جانبه. وجرى ركس خلفها وسرعان ما كان يأكلها فى شغف، وقلت: "لا يبدو أن كتاب المشاعر الأخلاقية قد ترك انطباعا كبيرا".

"على النقيض، فقد كان عملا ممتازًا فى ذاته. وتمت ترجمته إلى اللغات الفرنسية والألمانية، بل والروسية أخيرا. وقد أثنى عليه كل الفلاسفة العظام - وبصفة خاصة دافيد هيوم الذى أثنى عليه ثناءً مستطابا". وخفت صوت سميث، وضاع هو فى تفكير عميق للحظة. ثم استدار ناحيتى وقال: "هل تعلم، أننى أظن أنك ستستمتع بمقابلة صديقى دافيد. وكل من قابله تمتع بالمقابلة. ويجب على فعلا أن أجمع بينكما".

قلت: "هذا لطيف جدًا". كنت قد أصبحت الآن مغرمًا بهذا السيد سريع الغضب. ولم تعد غضباته العلمية تزعجني. وكان ركس يراقب الأسرة، التى كانت تأكل على منضدة الرحلات المجاورة لنا باهتمام، ولاشك أنه كان يأمل فى وقوع شطيرة على الأرض.

تنهد سميث، وهو يستلقى على العشب ورأسه مستند بين يديه، كان يجرى عملية مسح للسماوات، حالمًا "إن كتابى عن المشاعر الأخلاقية هو سبب شهرتى... وقد سمح لى بالتقاعد من العمل الأكاديمى، وكنت لم أكد أتجاوز الأربعين ! نعم، لقد تنازلت عن عملى الدائم فى جامعة جلاسجو؛ لأقبل عرضا برحلة حول أوروبا كمعلم خصوصى لشاب غنى. نوع من شعائر تأهيل الولد، كما أننى أيضا لم أكن ذهبت إلى هناك".

ومن نغمة صوته، كان يبدو الكتاب كما لو كان تجربة بارزة. وقال: "نعم، ذلك الكتاب، وصداقتى مع هيوم، كان هو ما فتح أمامى الطريق فى باريس، وما سمح لى قضاء أمسيات مع دكتور كويزنى وغيره من المصلحين مثل جاك تورجوت. وأنا أتذكرهم

جيدا. والدكتور كويزني كان طبيبا لخليلة الملك - مدام دى بومبادور - وهو مؤسس جماعة الفيزيوقراط. وكان هؤلاء الفيزيوقراطيون عباقرة فى وضع نماذج اقتصادية، بل كانوا أول من فعل ذلك، فى الواقع.

لمعت عينا سميث وقال: "كان ذلك في منتصف عام ١٧٦٠، وكانت مجموعة صغيرة منا تعلن مبادئ ثورية عن حرية السوق ونحن قابعون فى أمان فى داخل الصالونات، على الرغم من الرقابة الرسمية فى فرنسا. ثم جاءت الفرصة أمام رجال شجعان مثل تورجوت كي يضعوا بعضا من هذه المثاليات فى الممارسة، بحكم وضعه كوزير للمالية لفترة قصيرة، وعلى أية حال، فقد حطم قيود التجارة التى فرضها اللوردات الإقطاعيون، وقام بإلغاء احتكارات الطوائف !! ولو كان الملك قد وافق على السماح لتورجوت بالاستمرار.. حسنا من ذا الذى كان سيعرف ما قد حدث؟ لقد مضى وقت طويل للتساؤل عما إذا كانت الإصلاحات ستدرأ الثورة الفرنسية؟ وربما كانت قد أنقذت رقبة لويس السادس عشر - بالتحديد؟

لم أكن أعرف شيئا فى التاريخ الفرنسي، وأقسمت أن أقرأ كلما كان لدى وقت. متى سيكون ذلك؟ كان سميث يبتسم، وهو مطأطئ، بزاوية واحدة من فمه. "لقد كنت سعيدًا عند العودة إلى بلادي، على الرغم أن ذلك كان بعد سنتين من وجودى فى القارة. وفقدت أمى، وأمضيت السنوات العشر التالية أنفق من معاشى، وأكتب ثروة الأمم".

لقد قرأت شيئا عن هذا، فى بداية بحثى كى أفنِّد الاتصال الروحى لسميث. وقلت: "إن هذا هو السبب فى أن بعض الناس يقولون إن كتاب المشاعر الأخلاقية كان مجرد خربشة لشاب ساذج". وأضفت: "إنهم يقولون إنك بعد ذلك أصبحت أكثر حكمة نتيجة لإقامتك فى أوروبا، حتى أن تركيزك أو تأكيدك على المصلحة الذاتية فى كتاب ثروة الأمم يعكس هذا النضج".

"كلام فارغ". رد سميث بحدة: "إن الطبعة السادسة من كتاب المشاعر الأخلاقية صدرت بعد أربعة عشر عاما من صدور ثروة الأمم"، واعتدل جالسا. "هل تظن أننى مهمل لدرجة أننى أدع عملى العظيم يذهب إلى المطبعة إذا كان قد أخطأ فى حق الطبيعة البشرية، أو كان يعارض النص التطبيقى الذى كتبته عن التجارة؟".

ونظر نحونا عضوان من الأسرة الجالسة قريبًا منا.

قلت: "إنك تزعجهم".

قال هامسا: "حسنًا، إذن إن هذا الموضوع لم تَجر إثارته إلا بعد ثمانين عامًا من وفاتي، عندما لم يكن بإمكاني أن أدافع عن نفسي".

وابتسمت، "لقد كتب كينز ذات مرة عن أن من يطلق عليهم "الأشخاص العمليون كان يحكمهم شيء أكثر من آراء الاقتصاديين الراحلين. فهل تقول أنت أيضا إن الأشخاص تحكمهم فعلا الرسوم الساخرة عن آراء الاقتصاديين الراحلين؟".

نظر إليّ سميث قائلا: "تمامًا". وكانت ابتسامة ناعمة تضيء وجهه. "لقد مضى وقت طويل، ولكنني أظن أنك تتعلم شيئا في نهاية الأمر... ها".

***

في وقت متأخر بعد الظهر، أعطت البرارى طريقا للرياح كي تكتسح الهضاب المنحدرة في بادلاندز. ولاحت التلال السوداء الشهيرة على بعد كأشباح رمادية. وفي اليوم التالي، كان علينا أن نقوم بما يجب على السياح، من زيارة التماثيل الحجرية للرؤساء على جبل مونت روشمور، وفي اليوم الذي يليه نزور مكان وقوف كستر الأخير عند ليتل بيج هورن في مونتانا. وآخذًا لذلك في الحسبان، عثرت على مكان لمعسكر خارج رابيد سيتي، بعيدًا عن الطريق السريع. وبهذا سيكون تحديد مكاني أكثر صعوبة عما لو كنت في موتيل على جانب الطريق. هذا إلى جانب، استمتاعي بالإقامة في المعسكرات، كما وجدت أن العمل في هذا المعسكر سيكون منعشا.

كانت الواحة الصغيرة شديدة الجفاف، وملأت وعاءً كبيرا بالماء لركس ثم بدأت في إنشاء المعسكر، وكانت إقامة الخيمة سهلة ويسيرة. وكان سميث يراقبني في عزلة مضللة.

وسألني: "أخبرني مرة أخرى، لماذا نحن هنا ولم نذهب إلى موتيل؟".

وأجبت: "إن ذلك يبني الشخصية".

ولم أكن قد أسررت إليه بنظريتى عن أننى كنت الهدف لمحاولتى الاغتيال. هذا إلى جانب عدم وجود أى دليل لدىّ، ولم أرغب فى إضافة توتر إليه نتيجة لقلقه علىّ. وكانت مناقشاتنا فى ذلك الصباح عن الوقت الذى قضاه سميث فى فرنسا يكافح الإقطاع، وحمام الدم الذى بزغ من الثورة الفرنسية، وهو ما ذكرنى بأنه ليس غريبًا عن الجدل. وسواءً أكنت قد عكرت صفوه أم لا، فقد كان علىّ أن أكون صريحًا معه بشأن محاولات القضاء على حياتى، حتى يمكنه أن يقرر ما إذا كان يريد البقاء معى فى الرحلة.

بعد أن وضع سميث أشياءه فى الخيمة، قلت: "ربما ستفهم ما أوشك على قوله. اجلس هنا، هذا كرسى".

جلس، وهو ينظر إلىّ بعينين مستديرتين. إن الأمر لن يكون سهلاً. "لقد اكتشفت شيئا"، هكذا بدأت حديثى، "إنه بشأن إطلاق الرصاص". ضاق جفناه، وقال بنغمة هادئة لا تنبئ عن الاهتمام: "إنك تقصد بالطبع، من ذا الذى يحاول قتلى؟".

قلت متلهفًا: "يقتلك؟".

قال: "نعم، لقد لاحظت. ليس من الصعب وضع الأجزاء المتفرقة معا، حقيقة. هذا الشخص الذى كان فى السيارة الزرقاء لا يمكن نسيان عينيه. كان يبدو وكأنه يخترقك تماما". وقطب وجهه، لقد رأيتهم مرة أخرى فيما حدث مصادفة بالأوبرا".

وأصررت قائلا: "إنك مجرد صوت من الماضى - بحق الله - إنهم يسعون ورائى، فهم يظنون أننى قد وصلت إلى المعادلة".

لمعت عينا سميث وهو يقول: "با... هذا جزء تافه فى لغز أكبر كثيرا. أنا هو الشخص الذين يريدون إسكاته".

أدت نظرتى غير المصدقة إليه أن يقول وعينيه نصف مغلقتين: "من ذا الذى سيستفيد إذا ما اختفيت وغمرنى النسيان؟ من ذا الذى سيبتهج لفنائى واندثارى؟". وضرب الأرض بقبضة يده "كافة الجماعات ذاتها، كما كان عليه الحال فى زمانى! الشركات الكبرى، الحكومة الكبيرة، والكنيسة الكبيرة، وأى شخص ممن اغتصبوا القوة أو الثروة - فلدى كل منهم ما يكفى من الدوافع - أى منشأة أعمال، مثل شركة وورلدكيم، تريد أن

تتلاعب بالأسعار أو تبحث عن الحماية من المنافسة، وأى بيروقراطى يستمتع بالسلطة، وكثيرون من غيرهم مثل جماعة "الناس فوق الأرباح فوق الناس".

حرك سميث رأسه إلى الأمام قائلا: "إن هؤلاء الناس لن يختفوا أبداً. إنهم كلهم من المركانتليين، فى أزياء مختلفة – يحاولون أن يحققوا مكاسبهم الذاتية على حساب شخص آخر – أى البحث عن الربح!! وأنا هو الشخص الذى يقف فى طريقهم". ووضع يده على كتفى كما قد يفعل الأب مع ابنه "ريتش، إن الأفكار هى التى تغير العالم، وهى التى تؤدى إلى الثورات – وأفكارى قد فعلتها قبل ذلك. وعودتى قد حركت القدر. وسكن قليلا ثم قال": بالطبع، إن أفكارى تُعد رسومًا ساخرةً بالنسبة للجيل الحالى، وحتى "الربح" قد أصبح كلمة قذرة".

كان انفجار سميث موضع دهشتى، ومشيت مسترخيًا إلى كرسى الخيمة وتوقفت عنده، وملامحى عابسة. وتراجع سميث، مسليًا نفسه بإلقاء كرة إلى ركس. كان إطلاقه لفظ "التافهة" على معادلتى مؤلما لى، ولكن ما كان أسوأ تصريحه الواثق من نفسه بأنه "هو" كان هدف الهجمات. يا لهذا الغرور! لقد كان الأمر يبدو سخيفًا تمامًا.. ومع ذلك......

هرشت رأسى، وكنت أريد كأسا جيدا من ويسكى الدرامبوى، ولكنى تحكمت فى نفسي. كان تعليق سميث الأخير على الربح "بأنه أصبح كلمة قذرة"، جعلنى أطرق ساكنا. لقد كان حقاً، وهنا تذكرت أن الجماعة الإرهابية تناصر مبدأ "الناس فوق الأرباح".

"الأرباح"، جلست كما لو كنت قد استيقظت من حلم "سميث والأرباح"! كان عقلى يكتشف الاحتمالات. وبنفس درجة صفاء نظريات سميث، فإنها يمكن أيضا أن تحير وتربك عديم الخبرة. هل يمكن أن يكون رأى سميث الشهير عن الربح هو سبب متاعبنا؟ كانت التناقضات موضع استمتاع لسميث، وكان أحد التناقضات الرئيسية هى فكرة أن ارتفاع أرباح منشآت الأعمال فى الأجل القصير يمكن أن تكون بالفعل أمرا جيدًا للمستهلكين.

فى الأسواق التى تسودها المنافسة الصحية، يؤدى ارتفاع الطلب على منتج ما – وليكن البترول – إلى ارتفاع السعر. والأسعار الأعلى تشير إلى أن جمهور المشترين

يفضل أن يحصل على كميات أكبر من هذا المنتج، وهو ما يسمح للمنتجين الحاليين أن يحصدوا أرباحا ضخمة "أكثر من العادية". لفترة ما إلا أنه بدون عوائق للدخول، فإن منافسين جدد ستجتذبهم هذه النواحى مرتفعة العائد إليها. آتين إليها بموارد إضافية من الأرض والعمل ورأس المال. وبمرور الوقت، تؤدى الزيادة الناتجة عن ذلك إلى زيادة عرض البترول التى تؤدى إلى انخفاض الأسعار إلى سابق عهدها ومستواها "الطبيعى" المنخفض. وفى الأجل الطويل يستفيد المستهلكون من زيادة استهلاكهم للبترول بأدنى سعر ممكن.

ومع كل ذلك، فإن هذا النظام "الطبيعى"، يمكن بسهولة أن يفشل. إذ إنه بالنسبة لشخص خارجي، يعتبر هذا السوق المضطرب غير مترابط، بل إنه يشكل خطرًا وتهديدًا، إذ إن الأسعار تبلغ عنان السماء فى أحد الأيام بسبب انفجار مفاجئ فى الطلب، وتنخفض بسرعة في اليوم التالى بسبب اكتشافات جديدة للبترول، أو تغيرات تكنولوجية فى عمليات الاستخراج. وهذه الفوضى الظاهرة تستدعى تدخل الحكومة لتحديد نظام يبدو مختلا – "التحديد" يتم عن طريق قيام الحكومة والذى يقوم مثل "اليد الخفية" بتوجيه الموارد إلى النواحى مرتفعة الأرباح، بدون الحاجة إلى سيطرة مركزية أو تخطيط. وعادة ما أدت محاولات التدخل فى الأسعار الطبيعية والأجور أو الأرباح إلى أن تصبح الأمور أكثر سوءًا. وتعتمد هذه النتيجة على افتراضين أساسين، أولهما أن تكون الأسواق تنافسية، وثانيهما ألا تكون هناك عوامل خارجية، مثل التلوث، تسبب الضرر للآخرين.

ونظام سميث "الطبيعى" إنما هو بمثابة الأخبار المرعبة لمنتجى البترول، مثل شركة altماموث للبترول؛ نظرًا لأن المنافسة فى الأجل الطويل ستحدّ من أرباح الشركة. ويصبح السبيل الوحيد أمام شركة الماموث بعد ذلك لاستعادة تحقيق أرباح مرتفعة هو تحسين نوعية وجودة منتجاتها (تقديم إضافات بترولية أفضل) أو إيجاد وسائل أرخص لعمليات تكرير وتسويق البترول. وهذا هو أحد آراء سميث المتبصرة والعظيمة إن البحث الدائم عن الربح يؤدى إلى ابتكارات دون نهاية وإلى تحول نشاط منشآت الأعمال.

إلا أن تكلفة الابتكار مرتفعة. وقد يكون من الأسهل لشركة الماموث محاولة إعادة إحياء أرباحها العالية عن طريق القيام بمناورة خداعة مثل محاولة تقييد المنافسة!! وإذا ما نجح ذلك، فإنه سيؤدى إلى تخفيض تدفق البترول وزيادة الأسعار على المستهلكين

ويملأ خزائن املاموث بالأموال، وهذا هو الاتهام الذى قيل إن جون د. روكفللر قد قام به فى عصر "البارون اللص"، قبل أن تحطم المحاكم احتكار شركته ستاندارد أويل إلى شظايا فى عام ١٩١١. وهو ذاته ما تستمر فى عمله منظمة أوبك (منظمة الدول المنتجة والمصدرة للبترول" إلى الآن. وتآمر أو تواطؤ المنتجين المنتظر هو ما جعل سميث شديد الانتقاد والسخرية من دوافع أصحاب الأعمال عندما قال: "إن هذه الطبقة لديها مصلحة مستمرة ودائمة فى معارضة المنافسة".

نتيجة لذلك، هى أن بعض الدول لديها رأسمالية دون أى منافسة حقيقية! مجرد تحالف بين أولئك الموجودين فى السلطة وأصدقائهم فى مجال الأعمال يخلق نظام "رأسمالية المحاباة". وينتهى الأمر إلى أن يصبح أولئك المستفيدون أكثر قوة سياسياً، مما يجعل إصلاح هذا الفساد أكثر صعوبة. ومن الطبيعى أن ينظر الفقراء والمضطهدون إلى الرأسمالية على أنها مصاحبة للتواطؤ، والاستغلال، والأرباح القذرة والاضطهاد السياسى العنيف الذى تحتاج إليه للمحافظة على كل ذلك. ومما يثير العجب أن إنسانا غير متمرس فى الاقتصاد، ولا يرى إلا قطعة صغيرة من اللغز، يمكن أن يفشل فى فهم الدور الاجتماعى المفيد للأرباح فى السوق التنافسى الحقيقي. وهذه المجموعة المتطرفة التى تدعى "الناس فوق الأرباح" ربما قد ركزت اهتمامها على الأرباح فى نظام فاسد، ومن ثم أخطأت فى تصوير سميث باعتباره رمزا لكل تلك الشرور الكامنة فيه، وهو ما يبرر قتله.

وفوق ذلك كله كيف تمكنت جماعة "الناس فوق الأرباح" معرفة موضوع الاتصال الروحى لسميث؟ وما الخطر الذى يمثله سميث بالنسبة لها؟ كان عقلى يغلى. إن قصة سميث كانت معقولة بعض الشيء. ومن ناحية أخرى، فإن المعادلة الخاصة بشركة وورلدكيم كانت تساوى تلاً من المال فى الأيدى السليمة، ولا يمكن أن أمحو فكرة أن هذا كان هو السبب فعلاً. وربما كانت حياة كل منا فى خطر.

جلس سميث إلى جوارى. "هل تصورت ما قلته لك؟".

أومأت برأسى موافقا.

"أو لست غاضبا منى؟".

وسألته: "لماذا لم تخبرني عن ذلك من قبل؟".

وتنهد قائلا: "هل كنت ستصدقني؟ ماذا أفعل – هل أرحل؟ هل أدع هارولد يسترد عقله؟ وحتى إذا فعلت ذلك، فإن الشخص الذى يتتبعنا لن يعلم برحيلي، وقد يلحق الضرر بهارولد في كل الأحوال. ربما كان من الأفضل أن أنتهى من مهمتى التى جئت من أجلها".

***

أغفى سميث، بينما ذهبت إلى مكتب المعسكر، وألقيت حفنة من عملات ربع الدولار فى التليفون العام. كان الوقت هو بعد ظهر يوم الثلاثاء، وهو الوقت الوحيد فى الأسبوع. الذى خصصه لاتيمر لمقابلة طلبته بمكتبه فى كامبردج، إحدى ضواحى بوسطون. وردّ التليفون بعد أول رنين، وكان صوت أيدا.

قلت: "هذا ريتش".

"ريتش!!" كانت هناك لحظة تردد وخفضت صوتها، "يا ربّاه، لقد كنت شديدة القلق. إنك لن تصدق ما يجرى هنا". وأخبرتنى إيدًا عن التهديدات بالموت التى تلقوها من جماعة "الناس فوق الأرباح"، وعن كثافة الحراسة الأمنية حول كل شخص فى المكتب، وبحثهم المسعور عنى. ثم حولتنى بعد ذلك إلى لاتيمر. وبعد ذلك بلحظة، سمعت الصوت الخشن لجندى المارينز السابق.

"اللعنة... يا بيرنز، كان يجب عليّ أن أربطك بحبل من أظافر قدميك. وقد تعلمت فى كوريا أيضا... انتظر قليلا".

كنت أسمع أصواتا فى خلفية المكان وصوت لاتيمر يخبر شخصًا أن يعود مرة أخرى بعد قليل. وفجأة شعرت بأهميتى، ولكننى لم أكن سعيدًا بها. وفى لحظة، عاد لاتيمر إلى التليفون" من أين تحدثنى؟".

"من تليفون عام فى الغرب الأوسط".

"هذا يساعد كثيرًا، انظر، إن المباحث الفيدرالية تراقب هذا الخط، ومن ثم فإنهم سيعرفون مكانك. ولذلك فعليك أن تخبرنى أيضا".

وأخبرته بمكانى.

"انظر يا بيرنز...".

قاطعته قائلا: "أنا أعلم من الذى يقتفى أثرك، إنه ذلك الشخص الذى قابلناه فى واشنطن دى. سى. تلميذك السابق.. ما اسمه؟ ماكس هيس؟".

"لقد تأخرت يوما". قال لاتيمر: "كان رجال المباحث الفيدرالية FBI هنا أمس وحددت لهم شخصية هيس فى الفيديو الذى التقط فى شيكاغو. كيف تبينت هذا؟".

قصصت عليه مغامرتنا مع إطلاق الرصاص الذى حدث على الطريق السريع، وكيف كنا فى الأوبرا. "لقد تعرفت على هيس من شريط الفيديو حين كان يرتدى الشعر الأسود المستعار" هكذا قلت. ولم أذكر أى شىء عن مسودات رسالتى المسروقة.

لم يُعر لاتيمر أى اهتمام لتعليقاتى، قائلا: "إنها طريقة مروّعة لمحاولة قتل أى شخص، تحت هذه الأضواء وآلات التصوير، كما لو كان يريد اجتذاب الانتباه، كان يمكن أن نراه وهو يطاردك، إذا ما كان يريد اجتذاب الانتباه، كان يمكن أن نراه وهو يطاردك، إذا ما كنا نعرف ما الذى كان يبحث عنه. وقد قامت المباحث الفيدرالية بعملية بحث عنك بعد أن تعرفت على صورتك فى ذلك الفيديو. ماذا كنت تفعل هناك؟".

قلت: "كنت أفكر فى أشياء".

سعل وقال: "انظر يا بيرنز، إن المباحث الفيدرالية تعلم قدرًا كبيرًا أكثر مما قالوه علناً، إن جماعة "الناس فوق الأرباح" تعنى أمرًا خطيرًا بالنسبة لهم. وعليك أن تحضر إلى هنا، على الفور".

"إلى بوسطون؟".

"إن حياتك فى خطر يا غبى، وقد وافقت شركة وورلدكيم أن تضعك فى مكان آمن. ويمكنك أن تنهى الفصل الأخير من رسالتك فى هدوء. وسيقوم رجال وفتيات أمنهم بإحضار كافة ما تريد من المكتبة. باللعنة، إن لدى كثير جدا يتوقف على هذا يا بيرنز".

إن لاتيمر لم يتغير قط. إن اهتمامه بحياتى قد ترجمه هو إلى اهتمام بمعادلتى الغالية عن الخصخصة.

قلت: "أنصت جيدًا"، إننى أعلم تماما من الذى تقتفى أثره "جماعة الناس فوق الأرباح" فعلاً.

"إنهم يتتبعونى أنا وأنت.. يا أخ". قال لاتيمر مقاطعا: "لم أكن أعبث عندما قلت إن هيس يعرف حتى عن عطاء وورلدكيم".

"لا". قلت بسرعة: "تذكر إننى كنت أحاول أن أخبرك عن الرجل العجوز الذى جاء إلى باب دارى فى أثناء هطول المطر الشديد؟ إنه هو. هو الشخص الذى يتتبعونه". وكنت على وشك أن أقول إنه آدم سميث، عندما قاطعنى.

"انظر يا بيرنز، تعال إلى هنا، ويمكنك أن تخبرنى بكافة نظرياتك بعد ذلك".

"ألا يمكنك أن تنصت ولو مرة واحدة؟". وسكت منتظرًا.

"تحرك يا بنى". قال لاتيمر: "واطلبنى بمجرد أن تعرف رقم رحلتك على الطائرة. وسأجعل بعض فتيان وورلدكيم الأقوياء يقابلون الطائرة".

***

اكتشفت كل ما كنت أحتاج إليه، ولم يكن هناك ما أثار دهشتي، أو يسرني. وكان يمكننى أن أذهب إلى كامبردج وإلى تروس آلة لاتيمر مباشرة، أو أن آخذ فرصتى مع سميث على الطريق. لم يكن الاختيار صعباً، وسأجد طريقى إلى يوسميت بشكل أو آخر، ولكنه لن يكون بالطريقة التى يتوقعها أى شخص.

فى خلال عشرين دقيقة، كنت قد وضعت الحمولة على السيارة، وكان ركس مربوطا فى المقعد الخلفى. وكان سميث يراقبنى باستغراب، ولكنه دخل إلى السيارة دون شكوى أو سؤال. وتوجهت إلى الطريق السريع. وفى أثناء ذلك، وقفنا قليلا فى أحد محلات المأكولات؛ لأملأ الصهريج، وأسحب الحد المسموح من النقود من ماكينة الصرف.

ثم ذهبنا إلى طريق ريفى، متجها إلى الجنوب. وبعد مائة ميل، وجدنا طريقًا آخر تَحُفُ به المزارع متجها إلى الغرب. ولما كان سميث هو الذى يقوم بالتوجيه، فقد اخترقنا أراضى فارغة جنوبًا وغربًا. ولم نر سوى بضعة أشخاص.

وعندما أسدل الليل ستاره، فتحت النوافذ تاركا للرياح أن تضرب وجهي وذراعي حتى أظل متيقظا. وكانت هناك أراضي شاسعة علينا أن نقطعها سواءً من ناحية المسافة أم من ناحية ما تم اكتشافه اليوم. وبذل سميث كل جهده محاولاً أن يظل يقظًا أيضاً، والبقاء في صحبتي. وكانت عيناه غائرتين ولكنه كان متنبهًا.

وسألته: "كيف يمكن لشخص أن يصبح قاتلا قاسيا، أو وحشا شريرًا مثل ماكس هيس؟".

وأجاب سميث: "قبل أن يمكننا الشعور بشكل أكبر بغيرنا، فإننا يجب إلى حد ما أن نكون مطمئنين مع أنفسنا. وإذا كان البؤس يقرضنا بقسوة، فلن تكون لدينا القدرة على التفكير في الآخرين".

وكانت نظرات عيني هيس السوداء وسلوكه العصبي قد خلق لديّ شعورًا بتعاسة داخلية. وأخبرت سميث بالقصة التي أخبرني بها لاتيمر، وكيف كان هيس يعاني من الحرمان والفقر في بوليفيا طوال الصيف، وعاد بعده رجلاً آخر، في بعثة ضد الرأسمالية. وقد أدى هذا إلى خلافه مع لاتيمر، وفصل هيس من الدراسات العليا.

"إنها مأساة". قال سميث: "إن أستاذك لاتيمر لم يجد وسيلة أخرى لمشاركة هيس آلام قلبه، لأنه إذا لم يكن لديك الشعور بالزمالة تجاه ما لقيته من سوء حظ، أو لم يكن هناك من يشاركني في نسبة من أحزاني، فإننا لا يمكن أن نتسامح مع بعضنا. فأنت ستكون في حيرة بسبب عنفي وعصبيتي، وأنا سيسطر عليّ الغضب بسبب برودك وعدم إحساسك والرغبة في الشعور. وهذا الغضب على عدم اكتراث لاتيمر هو ما يحرك هيس ضده". واستدار سميث إليّ وربت على كتفي برقة ولطف؛ "هذا هو الوقت الذي بدأت فيه تفكر في المشاعر، والمشاركة في الأحاسيس".

ومع هذا الخط الملغز، أغلق سميث عينيه، وتركني لأفكر وأتأمل في أحوالي. لم أكن أدري شيئًا عن الأحاسيس، ولكنني كنت بحاجة إلى كل ما لديّ من منطق لكشف الكيفية التي ولجنا بها إلى هذا الخليط المضطرب. وإذا ما كان سميث هو هدف هجمات هيس، فكيف تسنى لهيس أن يعرف شيئًا عنه؟ من ذا الذي كان يعرف أي شيء عن الاتصال الروحي عبر هارولد، غيري أنا وجوليا؟ كانت لديّ أسئلة جيدة، ولكن لم تكن لديّ سوى بضع إجابات.

الفصل الثالث عشر

الأحاسيس حقيقية

عندما أشرقت الشمس فى صباح اليوم التالى، كان عداد سيارتى قد تجاوز تسعمائة ميل. وكان الغرب الأوسط قد ابتعد كثيرا إلى الخلف، وكنت على وعى ومنتبهًا، وما لم يكن ماكس هيس قد أجاد فن القيادة فى الظلام الداكن، فإننا نكون قد قمنا بهذه الرحلة فى الليلة غير القمرية فى وحدة تامة. وكانت جبال كولورادو قد أصبحت منظرًا خلفيا فى مرآة السيارة، عندما هبطنا إلى الهضبة الجنوبية فى ولاية يوتاه. كانت أرضنا مليئة بالنصب التذكارية المصنوعة من الحجر الرملى، والممرات العميقة، والصخور الجرانيتية العالية التى تمر بنا، بينما كانت شمس الصباح تعكس ألوانا تتراوح من الأحمر إلى البرتقالى إلى البنفسجى فى تشكيلات الصخور. ووقفنا فى بلدة مواب لنتزود بالوقود والطعام، ثم اتجهنا غربا، ولكن السياح كانوا قد خرجوا فى هذا الوقت بأعداد كبيرة، هائمين محملقين فى المناظر.

طرقت على عجلة القيادة قائلا: "إننى مشغول جداً، وفقا لما أحب". وأومأ سميث برأسه موافقا.

كانت عيناى كما لو كانتا مشدودتين بأسلاك ومفتوحتين بفعل الكافيين، ولكن جسدى كان واهنا. وبعد ساعة أخرى، رأيت لافتة باهتة عن ساحة متنزه للولاية. وكان الطريق غير الممهد الموصل إليها يتعرج فى خلال غابة من أشجار الفصيلة الصنوبرية، ثم مسافة طويلة من الأرض اليابطة وصلت بنا إلى قطعة أرض صغيرة لإقامة المعسكرات، حوض كوداكروم. وذكرت إحدى العلامات أن أحد مصورى مجلة ناشيونال جيوجرافيك هو الذى أطلق هذا الاسم الساخر على المكان؛ بسبب ألوانه وأشكاله المثيرة التى تصرخ من أجل التعبير عنها فنيا.

قلت لسميث: "إن هذا مجتمع كسب كل شيء، فإن كل تلك الساحات الوطنية الأكبر فى برايس وزيون، تجتذب كل السياح إليها، بينما هذه المداخل الصخرية وأقواس أو بانكات الحجر الجيرى تتمتع بجمال لا يقل عنها، وهى مهجورة تقريباً. وهذا ليس كافياً، إذا ما فكرت فيه، ولكن أصلح ما يكون بالنسبة لنا".

كانت المجموعات المكونة من خليط السياح المقيمين بالمعسكرات تستمتع بالعزلة والجفاف وتتجاهلنا، وتمددت وتثاءبت بعمق.

وقلت لنفسي: "هذه ليست بقعة سيئة للاختباء بها".

***

نمنا طوال اليوم ونصف اليوم التالي، مجهدين ومستنفذى القوى نتيجة لرحلتنا الطويلة من الغرب. كان سميث مستغرقا فى تفكير عميق، ويكاد ألا يكون قد لمس عشاءه. وقد فقد شيئًا من وزنه، وشد حزامه بإحكام. وحاولت إغراءه بقطعة حلوى أخذ منها قضمة، ووضع الباقى جانبا.

سألنى: "أيمكن أن نتحدث؟".

أقمنا الخيمة، ونام سميث على الحشية الهوائية التى أحضرتها معى من أجله، وجلست أمامه ورجلاى متقاطعتين، واضعا المسجّل إلى جانبى. وكان ركس يحرس فتحة الخيمة الأمامية، لاهثًا بسرعة.

أخبرته: "أنا على استعداد".

لقد أعطتنى رحلة السيارة الطويلة فرصة للتأمل والتفكير المتعمق فى الأشياء. وسألت نفسى ما الذى يجعل هذا الشخص المدعو هيس يغضب؟ وما الذى يمكن أن يكون قد أدى به إلى القيام بشىء بغيض؟ وقد جعلنى هذا أتذكر أنه قبل زمانى، كان هناك زميل يدعى توماس هوبز. كان هوبز لامع الذكاء، إلا أنه فى إحدى النواحي، هبط إلى مسار... قضيت طوال حياتى وأنا أنكره وأدحضه.

وأخذ صوته يدوى ثم ارتفع مرة أخرى، "كان هوبز هو الذى نشر بين الناس ما يمكنك أن تطلق عليه عقلية "الأنا". وهى وجهة نظر ترى أن الحكم الأخلاقى يمكن أن يقوم على أساس الحب الذاتى لنفسى فقط. وبالنسبة لي، فإن هذا الرأى كريه ومتناقض".

قلت: "أظن أن هذا الرأى منتشر بشكل كبير، وأشك فى أن كثيرا من الناس مع ذلك، قد قرءوا ما كتبه هوبز".

وأومأ سميث قائلا: "من يقرأ في هذه الأيام؟ حسناً، طبقا لهوبز، فإن الحياة فى الطبيعة هي حالة حرب دائمة: الإنسان فى معارضة ومنافسة ضد كل إنسان آخر، وهذا هو السبب فى أن الحياة منعزلة وفقيرة، ومقززة ووحشية وقصيرة. كانت هذه هى الكيفية التى يفسر بها هوبز ظهور الدولة". وتنهد سميث: "وهكذا ترى، أن هوبز فى كتابه "الليڤياثان Leviathan(*)" يفترض أن الإنسان يلجأ إلى المجتمع ليس بسبب أى صلة طبيعية يحملها نوعه الذاتي، ولكن ببساطة لأنه بدونها لا يقدر على الحياة بأمان".

قلت: "هذه فكرة قوية".

"ولكنها تغفل نقطة رئيسية: إن نبضات القلب فى جسد كل شخص هى الرغبة فى أن يكون محبوبا ليحقق سرور شخص آخر. هذه هى الطريقة التى خلقنا بها. استخدم فطرتك السليمة، انظر – ونفخ سميث الهواء من صدره باشمئزاز. "ماذا يحدث إذا ما أعطى الفرد طعاما وأمانا ولكنه حرم من أى اتصال آخر؟ إنه سيذوى ويضعف ويموت. وإذا كان هذا يصدق على الشمبانزى، يمكنك أن تضربه فى عشرة بالنسبة للكائنات البشرية التى تعبر عن نفسها باللغة والفن والموسيقي. وتعلم وتفهم – وتمارس الإحساس بالزمالة والصحبة كل مع الآخر –وهو أمر أساسى للحياة، وبدونه هل كنا سنكون على ما نحن عليه؟".

كان لا يمكن أن أطرد ما لدى من شك مزعج. قلت: "من ناحية أفضلية علم النفس التطوري، فإن استمرار الحياة هو كل ما يهم، والسلوك الاجتماعى قد يكون ببساطة "متشددا" إذا ما ساعدنا على تشكيل تحالفات للتكاثر بنجاح. بل حتى الإيثار يمكن تأويله".

قال سميث: "يمكنك أن تتبع هذا الخط، إذا ما أردت، ولكن ألا يعنى ذلك أنه ليس هناك "خطأ" أو "صواب" إلا فيما يتعلق بحبك الشخصى لذاتك واستمرار حياتك؟".

فكرت قائلا: "كيف يمكن أن تحب، إذا لم يكن الحب سوى عمليات مجردة؟". "بالضبط". تدحرج سميث على بطنه ثم قام على ركبتيه: "إن الجدل ينبغى أن ينظر فيما إذا كان يمكن للأحاسيس أن تكون أصيلة وصادقة بالنسبة للآخرين". وأنا أقول: "نعم، إنها يمكن أن تكون كذلك. أين كتابى عن "المشاعر الأخلاقية"؟.

(*) الليفياثان: حيوان بحرى ضخم، يشبه الحوت ويرمز إلى الشر (المترجم).

ناولته إياه.

"إن هذا على قدر كاف من الأهمية حتى إننى بدأت كتابى به. أنصت إلى الفقرة الافتتاحية التى كتبتها"، وتلا:

مهما كانت درجة الأنانية المفترضة فى أى إنسان، فمن الواضح أن لديه بعض المبادئ فى طبيعته تجعله يهتم بأقدار الآخرين، وتجعل سعادتهم أمرًا ضروريًا له، على الرغم من أنه لا يأخذ شيئا منها، فيما عدا سروره برؤيته.

وضع الكتاب جانباً، وقال: "هذا هو لب الموضوع، أنا أقول إننا نرغب فى سعادة الآخرين، وعلى هذا الأساس يتم بناء الأخلاقيات. أنا لا أقول إن الناس لا يستخدمون الآخرين، وإنهم لا يتآمرون، وإنهم ليسوا مخلصين. ومن المؤكد أن هذا يحدث، ولكن حتى أكبر المجرمين السفاحين، وأكثرهم قسوة وانتهاكا لقوانين المجتمع مثل المدعو ماكس هيس، لا يمكن أن يكون دون هذه الأحاسيس".

وعلى البعد، سمعت نباحًا غير أكيد لحيوان الكويوت، وافتتاحية لأغنية طويلة. كانت فى كل جزء منها مليئة بالروحانيات والخيالات، كأنها أصوات ذلك البط الغواص فى أول الغسق. كنت أعلم أننى ندمت على جوليا، ولكن لماذا كان عواء ذلك الكويوت؟

واصل سميث حديثه المنفرد، وإن كان قد فاتنى بعضه. كان يقول: "الآن، لا تسئ فهمى. إننا يمكن أن نحس بنفس الود لكل شخص، ومشاعر التعاطف أو المودة تتناقص كلما ازدادت المسافة بعدًا. ومع ذلك، فإن المشاعر الصادقة والأصيلة ممكنة".

وبدا سميث غارقا فى التفكير، ثم قال: "أنت مثلا، لا يبدو أنك يمكن أن تعتقد أن المودة فى حياتك حقيقية. أليس ذلك هو السبب فى أنك بائس جدا؟".

نهضت. ومرة أخرى ها هو سميث يضعنى تحت المجهر.

وانقضضت قائلا: "إنك إنسان تجيد الكلام، وأنت لم تتزوج أبدا". كان هناك شيء من الغضب على وجهه، وأسفت على كلماتى فى الحال. قلت: "إنى آسف"، منهيًا ذلك الاستفسار بالخروج من الخيمة.

مشيت هائما دون هدف حتى أطراف المعسكر. وكان ضوء المواقد القليلة يهتز، إلا أن نجوم ليل يوتاه كانت واضحة تماما فى سواد الليل. كان بطن الوادى يبدو كمنظار طويل عملاق، يركز مجرات النجوم فى مجموعات ساطعة متألقة كانت تبدو وكأنها فى متناول اليد.

لم أنظر حولى ولكننى قلت: "لقد ظننت أننى أحببت، ولكنى عندما اختبرت ذلك.."، وخفت صوتى حتى دوى.

قال سميث: "هل تعنى عندما دحضته بدلا من أن تعيشه؟".

"نعم، لقد ناقشت أحاسيسى، لأرى ما إذا كانت حقيقية".

حدقنا بأبصارنا فى مجرات النجوم لبضع دقائق، ثم مشيت ببطء عائدا إلى الخيمة. وأضأت مصباحا غازيا، وصببت لنفسى كأسا صغيرا من ويسكى درامبوى، وجلسنا مرة أخرى على الوسائد. وكان ركس منطويا على نفسه بجانبى. سألت: "ماذا لو خدعنا أنفسنا؟". "إن معظم الناس يظنون أن كلبهم يحبهم. إلا أن التبعية وهز الذيل سلوك غريزى لاستمرار الحياة". ومسحت على رأس ركس.

ضحك سميث: "إنك لا تختلف عن الكلب.. إيه؟ ولكن دعنا نحاول شيئا". وبحث منقبا فى جنبات الخيمة، والتقط الصحيفة المحلية التى اشتريتها قبل ذلك. وناولها إلىّ قائلا: "هل رأيت هذا؟".

كان العنوان الرئيسى للصحيفة الذى شغل ثلث الصفحة الأولى يقول: "نيران دورانجو تقتل اثنين، تيتم ولد وبنت". وقطبت وجهى. وقرأت بصوت مرتفع: "نيران كهربية فى منزل متنقل، كان العامل الذى قام بإعادة لف أسلاكه متهما بالقتل". وكانت هناك صورة رهيبة تظهر أطفالاً عرايا على نقالات طبية بينما كانت النيران تملأ خلفية الصورة. كان الولد قد فقد أحد ذراعيه، وكانت رجل أخته تعانى من جرح خطير قلت: "إن الأمر مأساوى".

سألنى سميث: "هل أثار بعض المشاعر لديك؟".

"بالطبع، إننى أحس بالاشمئزاز والرفض تجاه هذا العنف الذى يعانى منه هؤلاء الأطفال الأبرياء. وهو ما يجعلنى أريد أن أفعل شيئا لأساعدهم".

"ولكن لماذا ينبغى أن تعنى بهؤلاء الأطفال غير المعروفين؟ فليست لديك مصلحة مالية تربطك بهم أو رغبة فى بقائهم على قيد الحياة". كان هذا ما قاله سميث. "لقد قلت إن لديك رد فعل صادق وأصيل تجاههم؛ لأن جزءًا من خيالك يحدث رنينًا مع ما يعانون منه. إننا لا نحتاج إلى تشريح أصول النشوء لمعرفة أنها موجودة".

كان من الصعب أن أترك دور مساعد الشيطان. فهززت رأسى قائلا: "ربما يكون ذلك رد فعل منى تجاه الصورة كما لو أنهم كانوا أطفالى. وفى ضوء هذا، يمكن للمرء أن يفسر اهتمامى على أساس أن جينات الأنانية بدأت تعمل مرة أخرى.

قال سميث: "هذا تبرير لا يمكن تصديقه لما بعد الواقع، فقد دخلت فى انحياز متعاطف فورى، وقد حدث بسرعة شديدة جدًا لا تسمح بتبريره، كان مجرد استجابة معززة للذات. ويواجه كتابى "نظرية المشاعر الأخلاقية" هذه النقطة مباشرة". ومرَّ بإبهامه مقلبا صفحات الكتاب، واقتبس:

أولئك المغرمون باستنباط كافة مشاعرنا من بعض التحسينات والتدقيقات لحب الذات، يظنون أنهم لا يتعرضون للمساءلة، طبقا لمبادئهم الخاصة، سواءً عن هذا السرور وهذا الألم. ويقولون إن المرء على وعى بنواحى ضعفه الذاتى، وبالحاجة التى يحس بها لمساعدة الآخرين، وهو يبتهج كلما لاحظ أنهم يتبعون عواطفه الخاصة؛ لأنه عندئذ يصبح متأكدا من تلك المساعدة، ويحزن عندما يلاحظ العكس؛ لأنه حينئذ يكون متأكدا من معارضتهم.

وسكن برهة: "الآن أنصت جيدا".

إلا أن كلا من السرور والألم دائما ما يكون الإحساس بهما فورياً، وغالبا فى مناسبات عابثة أو تافهة، بحيث يبدو واضحا أن كليهما لا يمكن استخراجهما من التقدير المهتم بالذات.

قلت: "بالتأكيد، لا يوجد شخص يقرأ كتبك يمكن أن يسىء الفهم، كما أنك قد رفضت أى نظرية تعزو كافة الدوافع إلى حب الذات".

أومأ سميث برأسه قائلا: "بالضبط. إن التعاطف الطبيعى مع الآخرين يبث الحيوية فى بهجتى، ويخفف من أحزانى. إن الود الذى نحس به نحو الآخرين هو فى الحقيقة ليس سوى مجرد هذا التعاطف المعتاد".

غمرتنى موجة غير مألوفة من الأحاسيس والانفعالات. وتوقفت برهة عن إعطاء مدلول عقلانى للأشياء وقلت: "ولذا... ولذا فإن الحب حقيقى!؟".

جفل سميث، ثم ضحك: "يا الله... أنا أرى الآن إلى أين يتجه هذا الكلام.. يا عزيزى هل أنت "فى حالة حب" مع جوليا؟".

أومأت موافقا: "إننى أحس مثل هارولد الذى ينقل هذا "الصوت" ولم يكن بإمكانه أن يفعل أى شيء حياله. وكل ما يمكننى التفكير فيه مؤخرا هو جوليا – عيناها، ابتسامتها، رائحة جسدها، ضحكتها، حركة شعرها. كل هذا يدفعنى إلى الجنون".

أومأ سميث، وهو يضع يده على كتفى كما يفعل الأب مع ابنه: "أن تكون فى حالة حب، فهذه عاطفة من الخيال الذى هو طبيعى تماما، بل وقابل للغفران، ولكنى أخشى أيضا من شيء قليل من السخرية، على الأقل من ملاحظة الغرباء".

"دعنا ننساه إذن". قلت ذلك، وأنا أحس بحماقتى.

"ليس حبك هو الذى يشكل لدىَّ أى فضيلة كبرى". قال سميث: "فكر فى كل الشرور التى يمكن عادة أن تصاحبه. فكر فى المناسبات التى يؤدى بك فيها إلى اكتئاب من كل نوع، إلى التدمير وسوء السمعة – إن آثاره أحيانا ما تكون قاتلة للشبان فى هذه الأيام وفى هذا العمر". ومسح على خده مفكرا.

واستمر يقول: "لا، ومع المخاطرة بالتدخل فى شئونك، ينبغى أن أقول إنك يجب أن تتجاوز هذا الإحساس. يجب عليك أن تأخذ هذه العاطفة المتعلقة بوجودك "فى حالة حب" كأساس تبنى عليه عواطف أخرى، من تلك التى تصاحب الحب وتكون موضع اهتمامنا: الإنسانية، الكرم، العطف، الصداقة والتقدير". ونظر سميث إلى السماء من فتحة المطر فى الخيمة، وقال برقة: "وبهذا المعيار، وحسبما تجد الشجاعة لتقاسمه، يا بنى، فهذا هو الحب الحقيقى".

***

غرقت فى أفكارى بينما كان سميث قد تأهب للنوم. ومرة أخرى، اجتذبت قصة حريق دورانجو بصر سميث بينما كان يطوى الصحيفة. وقرأها للمرة الثانية، وبدأت تقطيبة تتكون على جبينه. ونقر على الصحيفة بيده، ليجذب انتباهي.

"هذه بربرية". كان يتمتم: "لقد انتفضت المدينة بأسرها ضد هذا العامل المتهم فى حادث الحريق". ثم قال: "إن هذا يذكرنى بحادثة وقت فى تولوز".

كانت نظرتى التى تدل على عدم إدراك ما يقول قد أنتجت لديه رد فعل معروف: اتخذ فمه شكل تقطيب ساخر، كما لو كان يحثنى على أن أدرس أكثر. ومع ذلك، كانت عيناه تحترقان. "رجل برىء". قال سميث: "بروتستانتى تم اتهامه بقتل ابنه وحكم عليه. كان الحكم نتيجة خالصة للهستريا العامة والانحياز الدينى فى هذه المدينة الكاثوليكية الفرنسية. وقد سبب ذلك هياجا وصخبا فى جميع أرجاء أوروبا. ونهض فولتير للدفاع عن الرجل – ولكن للأسف كان الوقت قد فات لإنقاذ حياته".

وضع سميث يده على صلعته، يحك رأسه، "ربما لا يكون الوقت قد مضى هذه المرة" قال هذا لنفسه، وعيناه تنظران بحدة، "لو كان فولتير هنا.. فإن الوقت لن يكون قد فات بالنسبة لهذا العامل".

كثيرا ما كان سميث يتمتم وهو غائب عن الوجدان، ولم أكن ألاحظ أنه فى هذه المرة، يختلف كثيرا عن غيرها. ربما كان ينبغى أن أهتم إيجابيا أكثر، ولكننى لم أفعل، وهذا ما أدى إلى الإمساك بى بعد بضعة أيام.

الفصل الرَّابع عشر

خطاب إلى جُوليا

نام سميث حتى وقت متأخر فى صباح اليوم التالي، بينما قمت بواجبات غسيل الأوانى ونقل القمامة. وكانت الرحلة المرهقة بالسيارة فى الأيام السابقة، من التلال السوداء فى ساوث داكوتا وفوق جبال روكى فى كولورادو. وفى ولاية يوتاه، قد أصابتنى بالقلق على صحة سميث. وكان هذا بالإضافة إلى جلستنا الطويلة فى الليلة الماضية، سببين كافيين للراحة يومًا آخر. كان لدىّ كثير من الأمور التى يجب التفكير فيها. وأولها هو تقدير مخاطر الذهاب إلى يوسميت.

ما مدى جدية تهديدات جماعة "الناس فوق الأرباح"؟ لقد نجح الهجومان علينا تقريبا. ولكن المحاولات كانت أيضا تبدو طائشة بل وغير متقنة أو من أفعال الهواة. وربما كانت من فعل جماعة منشقة، أو حتى من فعل متشرد مثل ماكس هيس بمفرده. ومن ناحية أخرى، فإن جماعة "الناس فوق الأرباح" قد ألقت قنابل على المبعوث الروسى، وهو ما أشار إلى أن بإمكانهم الوصول إلى الجيوب الأعمق لأولئك الذين يودون مرض أمريكا. وإذا كان الأمر كذلك، فقد تكون لديهم معرفة متقدمة. ومن ثم فإن من المنطقى افتراض الأسوأ، وهو أن هؤلاء الإرهابيين لديهم تكنولوجيا للعثور علينا - سميث وأنا - فى كافة الأماكن المنطقية. كما أنه كان يعنى أن الطريق الشمالى فى داخل مونتانا وأيداهو الذى بدأنا فيه، تاركين خلفنا مجموعة من إيصالات بطاقات الائتمان خلفنا، ربما قد أصبح الآن طريقا موضوعا تحت المراقبة. كما كان يعنى أيضا أن منزل شقيقة هارولد فى أوكلاند قد يكون مراقبًا أيضا، وكان يعنى أن بريدى على عنوان المنزل وعنوانى بالكلية يمكن اعتراضه، إلى جانب مراقبة محادثاتى التليفونية مع جوليا.

مررت بأصابعى فى خلال فراء ركس، جاذبا بعض بقايا ورق الشجر. هل كنت أعانى من جنون الارتياب والشك؟ لقد اشتريت كل صحيفة عثرت عليها فى خلال الأيام العديدة الماضية، إلا أن تغطية حادث إطلاق الرصاص فى الأوبرا كانت قد اختفت. ولم

يكن هناك سطر واحد مطبوع عنها فى أى مكان. ربما كانت القصة قد ماتت موتًا طبيعيًا مع نجاح ماكس هيس فى الهروب.

رتبت الأطباق فى مكانها، وجلست إلى منضدة مصطحبا الورق والقلم. كان هناك كثير مما كنت أود إخبار جوليا به وبما مررت به، وكيف أن الأشياء التى تملصت منى طوال حياتي، أصبحت مركز اهتمامى، وأهم من ذلك كله، كيف كان إحساسى نحوها. ولكننى وجدت أن من المستحيل أن أضع ذلك فى كلمات. وبعد نضال مع نفسى لنحو عشر دقائق كتبت:

إلى أعز الناس: جوليا

أحس بالاستغراب وأنا أكتب جملة كاملة أوجهها إليك. هناك كثير جدًا مما أود أن أقوله، ومع ذلك فلست أعرف تمامًا كيف أقوله. على فكرة، لقد كان سميث عونا كبيرا لى – فاق كل توقعاتي. وأود أن أعبر عن شكرى لك، لبديهتك عندما أحضرته إلىَّ.

أرسل إليك هذه الوريقة على عنوان معرض الفنون لسبب ما. ولا أريد أن أحذرك أو أنذرك دون ما داع، إلا أننى وسميث – وربما أنت أيضا – قد نكون فى خطر. وأنا لا أثق فى التليفون وإلا كنت قد تركت لك رسالة على آلتك الجديدة ! هل رأيت أحدًا يحوم حولك عندما ذهبت لتأخذى بريدى؟ أو قريبا من منزل هارولد؟ أرجو أن تكونى على حذر.

مشتاق إليك.

ريتش

وضعت طابع البريد على المظروف، وذهبت به إلى موقع معسكر مجاور، حيث كان شاغلوه يضعون أحمالهم فوق شاحنة نقل صغيرة. وكانوا سيتجهون شمالا – كما اكتشفت – وسألتهم إذا ما كان يمكنهم إرسال خطابى عندما يصلون إلى ولاية أيداهو فى مساء نفس اليوم.

"إن هناك صندوق بريد بجوار مخزن المعسكر". هكذا قال أحدهم متطوعا "ولا حاجة لنقل الخطاب كل هذه المسافة حتى بويز".

"إن صديقتى تحب جمع أختام البريد، وهى تود أن يكون لديها ختم من هناك".

فى وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم، جلست أنا وسميث على كرسيين من تلك الكراسى المنطبقة المطلة على الوادى الضيق ذى الطين متدرج الألوان. وكانت حمولة سيارة تتحرك إلى الكراسى المجاورة لنا، ثلاث نساء فى باكورة الثلاثينيات من العمر، وبدا سميث مهتما بصفة خاصة بإحداهن وكانت ذات شعر أحمر، ونهض ليقدم مساعدته لها. كان أمرًا محيرًا عند التفكير فى كيف أن سميث العزيز غير البارع أو القادر والمتلعثم كان لديه ما يقدمه عمليا. ولكن ذات الرأس الحمراء رفضت بأدب مع كلمة شكر، وفى خلال بضع دقائق، كان النساء الثلاث قد أقمن معسكرهن بكفاءة. ثم لوحن بأيديهن، وبدأن رحلة على درجات جبلية إلى طريق الوادى الضيق. وركض ركس وراءهن حتى ناديته ليعود.

عندما استعدت انتباه سميث قلت له: "ها هو ما تعلمته حتى الآن: إن هوبز يقول إنه لا يوجد حق أو خطأ مطلق، وإن كل الأعمال تستمد سلطتها الأخلاقية من الاهتمام بحبنا لذاتنا. وفى النظرة الحديثة لعلم النفس التطورى، لا تكون العواطف سوى أدوات للبقاء على قيد الحياة والتناسل"، واستمررت فى كلامى: "وأنت من ناحية أخرى، تجادل بأن الاهتمام بالآخرين يتسم بالصدق والأصالة، وأن الحكم الأخلاقى يمكن استنباطه من دراسة ردود الفعل العاطفية لدينا، واستخدام تعاطفنا. هل هذا حقيقي؟".

"نعم، هذا هو الأساس". ثم قال: "إننى أتصور مجتمعا ليست به حاجة إلا إلى أقل حجم من رقابة الحكومة، ولكى يحدث هذا، فإن البشر يجب أن تكون لديهم وفى داخلهم قدرة التمييز بين الحق والخطأ، والرغبة فى تنظيم وضبط حبهم الشخصى أيضا تبعا لذلك. ومن المؤكد أنه يجب تغذية هذه الرغبة؛ لأن إظهار الضمير يحدث فقط فى خلال فترة الحياة".

سألت: "كيف كان رد فعل الناس تجاه هوبز؟".

قال سميث: "مختلطًا، فقد لعنته الكنيسة لقيامه باستبعاد الله من المعادلة الأخلاقية، وإنكاره وجود القوانين الإلهية، وهاجمه العقلانيون؛ لأنهم اعتقدوا أن المنطق يمكنه أن يكشف القوانين الطبيعية والمطلقة للأخلاقيات، مثل قوانين الهندسة وحسابات التفاضل والتكامل".

وسألته: "هل توافق على هذا؟".

"بالنسبة للقوانين الطبيعية للأخلاقيات؟ نعم بالطبع، ومع كل ذلك، فمن أين تظن أن توماس جيفرسون قد حصل على هذه الفكرة لإعلان الاستقلال لبلادكم؟ لقد كتب – إننا نلتزم بأن تكون هذه الحقائق واضحة بذاتها، وأن كل الناس قد خلقوا متساوين، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقا معينة غير قابلة للتحويل أو التصرف فيها، ولكن من أين أتت هذه الحقوق ؟ لقد أتت من القانون الطبيعي – المبدأ بأن الكائنات البشرية مرتبطة بمجموعة مشتركة من القوانين الأخلاقية لا تقل قوة عن القوانين الطبيعية الخاصة بالجاذبية والكهرباء".

هنا ظهر جهلي بالتاريخ مرة أخرى. وربت سميث على كتفي، "بخلاف العلمانيين، فإنني أرى أن العاطفة والخبرة هي لب الأحكام الأخلاقية المطلقة المتبصرة. لا تسئ الفهم، إن المنطق أداة لها قيمتها، ولكن التحليل وحده لا يمكن أن يحدد الصواب والخطأ، وقد هدم دافيد هيوم هذه الفكرة في أثناء حياتي".

"هل هذا هو السبب في أننا اليوم نفصل الاقتصاد الإيجابي – أي ذلك الجزء الذي يتعامل مع الحقائق والنظريات – عن الاقتصاد المعياري أي ذلك الجزء الذي يتناول القيم؟".

"بالضبط، هذا كل ما يفعله دافيد". ثم قال: "هذا ما يذكرني، في الواقع إنه يجب عليّ أن أجمع كليكما معًا".

لم يكن من المعتاد كثيرا أن يكرر نفسه، وظننت أنني سمعت هذا السطر قبل ذلك، فأجبت "اتصال روح واحدة يكفي. شكرا".

"لا، أحقًا؟". ومر سميث بيده على خده مفكراً. "هناك بضعة من أصدقائي أرى أنك تحتاج إلى مقابلتهم. وربما كان الآن هو الوقت، قبل أن يفوت الأوان، أنا مازلت لا أصدق أن أحدًا لا يقرأ ما كتب فولتير. يا للعار!".

أصبح مجنونا، ولو كنت قد انتبهت أكثر، وأخذت كلماته الأخيرة على أنها تنبؤ، لكنت قد أنقذت نفسي من قدر كبير من المتاعب. ربما كنت قد حاولت إقناع سميث أن يرحل وحيدًا، وأن يترك العدالة للسلطات المختصة في هذه الأيام وفي هذا العصر. كان يمكن أن أخرج الجحيم منها، ولكن ما حدث، هو أنني نظرت إلى ملاحظة سميث على أنها هراء لا معنى له.

تشكلت غضون على جبهة سميث وأخذ يقول: "وعود! وعود! أوه جوبيتر". وانصرف بعيدا، منغمسا على ما يبدو في الذكريات. ولم أكن قد رأيته في مثل هذه الحالة قط.

بصعوبة، ترك أفكاره الخاصة. وأشار إلى الكتاب الراقد في حجري. وقال: "هذا مهم... انظر – انظر إلى عنوان كتابي نظرية المشاعر الأخلاقية". وأصبحت لغته مصطبغة بلهجة الأستاذية. "لنفحص كل كلمة بحثا عن معناها. أولا، ما النظرية؟ إن النظرية تعميم عن السبب والنتيجة. وباقي العنوان يخبرك عما هو تعليمات بشأن "المشاعر الأخلاقية"، والمشاعر الأخلاقية هي عواطف أو أحاسيس عن الصواب والخطأ".

قلت: "بدأت أفكر".

"لقد أطلقت عليها نظرية المشاعر الأخلاقية لكي تكون شاملة، ولبيان أنني اعتمدت كثيرا على أساتذتي وزملائي في حركة التنوير الاسكتلندية".

هززت رأسي قائلا: "يبدو هذا بعيدا عن اليد الخفية والمصلحة الذاتية، للجزار والخباز".

قال سميث: "ربما بالنسبة لأذن غير مدربة، ولكن لا تنس أبدا أن الاقتصاد قد بدأ كفلسفة أخلاقية، إن الأخلاقيات يجب أن تستكشف قبل البحث في تطبيقها على مملكة التجارة".

وطأطأ رأسه قائلا: "لا يمكن أن أستمر". ونهض راحلا: "أنا لدي أفكاري الخاصة التي يجب أن أهتم بها الآن".

***

كان اليوم التالي صافيا وجميلا، وكانت هناك نسمة لطيفة أنعشت الهواء. وقررت أن أبقى في معسكرنا الخفي يوما آخر. وفي الصباح، رتبت أشرطة الأحاديث مع سميث. وفي منتصف وقت ما بعد الظهر، كان سميث مستيقظا ومرحا مبتهجا، ومهما كان ما أدى إلى اضطرابه أمس، فيبدو أنه قد سقط في هوة النسيان.

قال: "أخرج من هنا، فأنا يمكنني أن أنظف المعسكر مثلك تماما".

نظرت إليه بارتياب.

"شو".. لوح بيديه كما لو كان يرعى مجموعة من الدجاج، "لقد حبست هنا طويلا بسببى. اذهب ومتع نفسك".

أحسست بالارتياح. ولبست لأقوم بجولة فى الوادى الضيق. وتزودت بحقيبتى الصغيرة وضعت بها ربع لتر من الماء وشيئا من الجبن والمقرمشات. واعدا سميث بالعودة مع غروب الشمس، ومضيت بسرعة على ممر ضيق، تاركا ركس يتقدمنى فى الطريق.

كانت الأراضى الريفية القاحلة فى ولاية يوتاه، تقدم مناظر رائعة للممرات العميقة الضيقة وجنبات التلال المكسوة بقشور الأشجار والنبات، وهنا وهناك تبرز الصخور المرتفعة كالمداخن نحو السماء. وتصورت كيف سترسم جوليا هذه المناظر الطبيعية الغريبة. كان كل شيء أكبر من الحياة وأكثر لمعانا عندما تقاسمته فى عقلى مع جوليا. واندمجت معها فى محادثة فصامية لمدة ساعة حتى تحققت أن هذا هو السبب فى حبسهم للناس المصابين بهذا الداء بعيدا عن الاختلاط بالآخرين. وحوالى وقت الغرب، وجدت أحد حيوانات الكويوت يركض على أحد الممرات على جانب التل. وتوقعت أن أسمع نداءه السحرى بعد قليل فى ذلك المساء. وحافظت على مقبضى برقبة ركس حتى اختفى بعيدا عن النظر.

كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف، عندما اعتليت قمة التل المطل على المعسكر. كانت أرض المعسكر الهادئة عادة تبدو مضاءة بشكل رهيب وبها نشاط زائد. وعندئذ، تحققت أن ذلك بسبب عربة نجدة كانت هناك، وكانت أضواء الطوارئ تدور فى المكان. وبدأت أجرى قبل أن أعرف تماما من صاحب الموقع الذى كانوا عنده. واستغرق الأمر عشرين دقيقة للجرى أسفل مواجهة الوادى الضيق، وسقطت على الأرض فى أثناء ذلك عدة مرات.

كان هناك طبيب يعيد المعدات إلى سيارة النقل التى جاء بها، عندما وصلت هناك كان سميث منهارًا على سرير نقال.

"ماذا حدث؟". سألت وأنفاسى متقطعة.

أمسك الطبيب بزجاجة ويسكي الدرامبوي فارغة: "يبدو أن الجدّ كان يرتشف منها طوال بعد الظهر".

وجاءت إلينا السيدة ذات الرأس الأحمر من موقع المعسكر المجاور، متطوعة لتقول: "لقد ظل يناديني مس كامبل، حبيبة قلبه، ويبدو أنني تسببت في حزنه الشديد عندما قلت له أنني لست هي". وهزت رأسها قائلة: "اسمي كومبتون وليس كامبل".

واستدرت إلى الطبيب سائلا: "كيف هو؟".

"إنه سينام طويلا. ولكنني وجدت حبوب الكبد هذه في الخيمة. وسيحتاج إلى بعض المساعدة لمدة أسبوع أو نحو ذلك".

"أنا لست صديقته". كانت المرأة مصرة "اسمي كومبتون".

قلت لها: "أنا آسف جدا، من الواضح أنه قد أخطأ"، واستدرت مرة أخرى إلى الطبيب. "ربما يحتاج للذهاب إلى مستشفى".

لقد رفض قائلا: "إن ليس لديه تأمين. على أية حال، إن أقرب مستشفى على بعد ثلاثمائة ميل".

كنت مدركا، أن رعاية سميث ستكون صعبة، عندما تذكرت انهياره السابق في نادي الكلية. هذا أمر لا يمكنني القيام به بمفردي. واتخذت قرارا سريعا، ومضيت ركضا لأطلب جوليا هاتفيا.

عندما استيقظ الجسد النائم في الصباح التالي، كانت أذنا ركس إلى الخلف، وبدأ طقوسه الكلبية الغريبة من الهدير، والدوران قريبا من الأرض حول هذا الجسد الغائب عن الوعي على السرير النقال. وضعت ركس في سلسلته وقدته إلى السيارة. وعندما عدت.. كان سميث قد فتح عينيه.

"هكذا مرة أخرى تحاولان قتلي، أنت وهذا المدعو سميث". كان الصوت ضعيفاً، وكان هناك قليل من اللعاب يخرج من جانب فمه. إنه كان هارولد!! ساعدته على الجلوس معتدلاً. وأعطيته حبة من الدواء مع الماء. وبعد أن بلعها، جعلت الابتسام يرتسم على وجهه بقولي له إنني قد تحدثت مع جوليا في الليلة الماضية في معرض الفنون.

ثم قلت: "إنها ستكون هنا باكر".

قال: "يبدو - يبدو أن هناك بسمة على وجهك أيضا".

الفصل الخامس عشر

قصة أخرى عَن الغَجَر

في الأمسية التالية، وقف هارولد مترنحًا على قدميه وأصرَّ على أن يذهب ليأتي بجوليا من المطار. ولو لم أكن قلقًا بشأن تركه وحده مرة أخرى، لكنت قد رفضت ذلك. وساعدته على ركوب السيارة، وقطعنا المسافة حتى سيدار سيتي في نحو ساعة. كما أن رحلة جوليا من فيرجينيا إلينا لم تكن أمرا سهلا، فقد استغرقت معظم اليوم في طريق ملتف من خلال أطلانطا وسولت ليك سيتي.

ظهرت جوليا خارجة من باب الطائرة المكيفة الهواء، وكانت تبدو منزعجة بعض الشيء، ولكنها كانت مازالت جميلة، على الرغم من الرحلة الشاقة. وأعطت هارولد حضنا دافئًا، وكنت أراقبها كذلك مع وخزة غيرة وهي تطبع قبلة على أنف ركس لكي توقف نباحه. ثم أتت اللحظة المربكة عندما لم تكن جوليا تدرى ولا أنا ماذا نفعل، هل يحضن بعضنا بعضا، أم هل نكتفي بالمصافحة يدًا بيد، أم بقبلة. ووجدت حلاً سريعا للأمر عندما حملت عنها الحقيبة التي كانت تصطحبها في الطائرة مبتسمًا، وقلت: "شكرًا على مجيئك".

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساءً قبل أن نصل إلى المعسكر، ورفضت جوليا عرضي بمساعدتها بضحكة قائلة: "حتى نحن الإنجليز نعرف قليلا عن الخوشنة". وفي خلال عشر دقائق، كانت قد أخرجت خيمتها من بين حاجاتها، ونصبتها في الظلام. وفككت اللبادة الأرضية وكيس النوم، وخزنت ملابسها وعدتها.

ذهب هارولد إلى الفراش، بينما انتظرت بجوار منضدة الرحلات حتى تنتهي جوليا مما كانت تعمل. وعلى الرغم من مظهرها الرائع قبل ذلك، كان بإمكاني ملاحظة أنها بدأت تذوي. وعندما نظرت إليها وهي شديدة التعب، أدركت مدى عمق مشاعرها والتزامها، على الأقل بالنسبة إلى هارولد. وتحققت مرة أخرى، إنني كنت أرغب بشدة في أن تحس بي بنفس الطريقة. وعلى الرغم من جهودي التي بذلتها، أصبحت أعتمد عاطفيا على جوليا بدرجة أكبر مما كان يمكنني السماح به. هل ستكون لدي الشجاعة لأخبرها بذلك؟

أخرجت زجاجة الويسكي درامبوى الجديدة - التي كنت على سبيل الحذر- أصبحت أحتفظ بها في صندوق القفازات بالسيارة، وصببت كأسين. "لقد أحضرت الشيء الذي تحتاجين إلى حلّه" هكذا قلت برقة، وأنا أمسك بكأس في اتجاهها.

وارتسمت نصف ابتسامة على وجهها المتعب والذي أصبح كورقة سقطت من شجرة. وبعد ذلك، لوّحت بيدها واختفت في داخل خيمتها. شربت أحد الكأسين، وأنا أحدق في السماء المظلمة دون القمر، والتي يبدو أنها كانت بدورها تحدق فيَّ. وبعد هنيهة، وعلى الرغم من أنني نادرًا ما أسمح لنفسي بأكثر من كأس واحد، تنهدت وشربت الكأس الأخرى أيضا.

***

نامت جوليا حتى وقت متأخر في صباح اليوم التالي. وكنت قد جهزت بيضا مع قطع من لحم الخنزير، والذي ظل في مكانه حتى برد. وعندما ظهرت، وضعت يدها على ذراعي قائلة: "إنني آسفة بالنسبة لليلة الماضية. لقد كنت مجهدة، مما لم يمكنني أن أكون اجتماعية". وابتسمت لي، وأخذت طبقا، كانت شديدة الجوع، حتى أكلت البيض الذي أعدت تسخينه وكان يكفي اثنين.

وبعد فورة النشاط الأولى عند رؤية جوليا في المساء السابق، استيقظ هارولد في ذلك المزاج السيء الذي كان قد غمره منذ عودته. كانت هناك حلقات سوداء حول عينيه، وكان جلده شاحبا.

ومع وجود جوليا، أحسست بأنني أكثر قوة في إصراري، "هارولد، دعنا نذهب لنرى طبيبًا".

"لا... ليس هناك شيء يمكن للطبيب أن يفعله حيال هذا الصوت بداخلي". قالت جوليا وهي تغمز بعينها: "إنك لن تساعد أحدا إذا ما مت بيننا". وفي نهاية الأمر، بدأنا نحن الثلاثة نهلل ونضحك، مما دعا الآخرين في المعسكر إلى النظر نحونا، ولابد أن المرح والخفة كانا أمرين جيدين بالنسبة لهارولد، الذي تناول أخيرا شيئا من البيض.

سألت هارولد: "أخبرنا عن عائلتك، أليس لك سوى أخت واحدة؟". أومأ برأسه قائلا: "هناك أكثر، ولكنني لا أعرف سوى واحدة فقط، تيموشوارا هي المدينة التي ولدت

بها، وتقع في رومانيا الغربية. كنا ستة أطفال وكنت أنا أصغرهم. وكان والدى يعمل بائعا متجولا، يتنقل على الطريق. واضطررنا للهرب فى خلال السنة الأخيرة للحرب". وابتلع قطعة من الخبز، وسكت للحظة: "انفصلت أنا وأمي وأختى عن العائلة فى أثناء عملية إجلاء. كان هناك كثير من الصراخ والتدافع، كان النازيون فى كل مكان فى محطة القطار. وانتهى بنا الأمر فى أحد معسكرات اللاجئين. كان عمرى عشر سنوات عندما أحضرونا إلى إليس أيلاند. وقد سألتنى ضابطة الهجرة عن اسم أمي، ولكنها لم تكن تتكلم الإنجليزية فأعطت لأمى اسم مدينتنا". وجزّ أسنانه فوق بعضها بعضا ونطق باسمها "تى - ميش - وارا".

واستمر قائلا: "كانت الضابطة مشغولة ولم تكن تعرف كيف تتهجى ذلك، ولذا لم تكتب سوى "تيمز" وكانت أمى لا تقرأ، وبعد ما كانت قد مرت به — من فقد للوالد، وأخواتى الأخرين، الذين ربما قد ماتوا جميعا — ما الفارق الذى يمكن أن تحدثه قطعة من الورق؟".

"ألم يكن بإمكانك أن تفعل شيئا؟". كان هذا سؤال جوليا، بينما كانت تضع قبضتى يديها تحت ذقنها. كانت هناك لجان للمساعدة فى العثور على أعضاء الأسر بعد الحرب.

ضحك هارولد نادما وهز رأسه: "إن الغجر لا يذهبون إلى السلطات بحثا عن المساعدة، إننا دائما نتهم بالسرقة والعراك. لا، ولكننا نحتفظ بهذا لأنفسنا". ثم تنهد: "كانت لدى زوجة، والآن ليس لدى أحد بخلاف شقيقتى فى أوكلاند". وأخذ قليلا من الملح ونثره فوق كتفه قائلا: "مثل هذا — نُثرنا جميعا فى الهواء".

بعد الأكل، بدا هارولد فى حالة أطيب. "إننى متألم من الكذب باستمرار". هكذا قال. "هل تظن أننى سأذهب إلى مركز الطبيعة؟ إنكم تحبون أن تتمتعوا يا عصافير الحب بلحظة هادئة دون وجودى، سأعود بعد قليل".

وخرج وهو يمشى متمهلا، وكان يبدو ملائما بشكل ممتاز للقيام بدور سقط منهارًا قبل ذلك ببضعة أيام.

وقد أعطانى غيابه - كما أتاح لجوليا - عذرًا فى أن نلجأ إلى داخل خيمتى، تاركين شق الخيمة مفتوحا حتى نحظى بما يكون هناك من نسمات فى فترة ما بعد الظهر.

وقد بدا لى أن كلينا لم نكن وحيدين معًا منذ آخر عشاء فى فريدريكسبورج. ومع ذلك، فقد قبلنا اليوم لقب "عصافير الحب" بلمحة حمرة خفيفة على الخدين.

استلقينا على البُسُط الهوائية، وبون شاسع يفصل بيننا. ظللنا ساكتين لبضع لحظات، بدأنا نتكلم فى نفس الوقت كما لو كان الستار قد رفع على المسرح. ودفعنا هذا المزيج المختلط الناشىء إلى الضحك.

"أنت أولا". قالت بإصرار.

ولم أعد أتردد، فقد كنت أريد - أولا وقبل كل شىء - أن أعتذر عن إثارة ارتيابها، كما كنت أرغب فى شكرها للجمع بينى وبين سميث. وكان هناك كثير مما كنت أريد قوله عن رحلتنا إلى الغرب، ومحاولتيْ قتلنا، وجولات سميث الغريبة، ومعادلة شركة وورلدكيم. والآن، اختفاؤنا من لاتيمر، والمباحث الفيدرالية، وجماعة "الناس فوق الأرباح". وكنت ألاحظ فى عينيها تنامى الدفء الذى كنت أفتقده فى عشائنا الأخير.

وبعد نصف ساعة، قالت جوليا: "هل تدرى إن أستاذك لاتيمر... يبدو فى حديثه كثير الشبه بوالدك؟".

"لقد دار فى عقلى، أننى أقفز من خلال أطواق من أجل شخص أريد موافقة منه، إلا أنه غير قادر تماما على مشاطرتى فى أى عاطفة قد أرغب فيها. نعم كل هذا حدث لي"، وزفرت زفرة ثقيلة: "هذا هو السبب الذى من أجله تركت كامبردج، وكلية هيرست لا توازيها، ولكنها تمثل فترة راحة، أو استقلالاً يجب علىَّ أن أثبته".

كانت عينا جوليا تفحص عينىّ. "هناك شىء لا أفهمه، هذه المعادلة التى تقوم بالعمل عليها من أجل لاتيمر. لماذا تعطيها إلى وورلدكيم؟ وإذا ما كانت تساوى ما تقول، لماذا لا تبيعها؟".

قلت: "لا أدرى". وارتبكت للحظة: "إن هذه هى الطريقة التى نعلم بها فى العلوم – وهى تَقاسُم نتائجنا فى اجتماعات ثم نشر ما نكتشفه، وبهذا تتركز وتتجمع المعرفة، وهذا هو السبب فى الاستفادة من الخارجيات الهائلة لأعمالنا ونشاطنا الأكاديمى. وهذا أيضا السر فى دعم المجتمع لنا". ومضيت فى حديثى، مفكرًا فى كلماتى وأنا أتكلم. "أظن فى هذه الأيام، أن هناك كثير من الأكاديميين الذين يبدءون شركاتهم الخاصة بهم، للاستفادة داخليا من بحوثهم. وأظن أننى تقليدى بدرجة أكبر".

سألت: "هـــ..هـــ..هم.... وماذا عن آدم سميث – ماذا تعلمت منه؟".

نظرت إليها قائلاً: "إننى دائماً كنت أفترض أن عقلى يمكن أن يرشدنى، وأن زيادة الرشد ستساعدنى فى اتخاذ كافة القرارات السليمة. ومن بين الأشياء التى علمنى إياها، أوضح لى سميث أن الجزء الوحيد من الحكمة هو أن المشاعر أيضا حقيقية ولها أيضا أهميتها. وأخيرا، فهمت أحد الاقتباسات من هيوم، الذى كان يعلقه أحد المدرسين فى المدرسة الثانوية "إن العقل هو عبد العواطف". هكذا أدركتها فى النهاية.

قلت: "وهناك كثير"، وأخبرتها عن المناظر الطبيعية التى كنت سأرسمها فى عقلى بينما كنت أفكر فيها. وعندما انتهيت، قبلتنى وشعرت أكثر استرخاء وسعادة عن أى وقت يمكن أن أتذكره، لمجرد سماعي تردد أنفاسها بجانبى.

عندما استيقظنا من غفوة قصيرة، تذكرت إشارة هارولد التهكمية إلى الغجر. وتذكرت فجأة أن سميث قد اختطفه الغجر – "المتجولون" – عندما كان طفلا. والآن، فهو يستخدم غجريا من تيموشوارا كقناة اتصال مجرد مصادفة. واستدرت إلى جوليا، التى كانت عيناها مثبتتين علىَّ "هل تصورت..".

قالت: "تيموشوارا".. هذا هو المفتاح أليس كذلك؟ حيث بدأت الثورة الرومانية فى عام ١٩٨٩. إننى أتذكر أخبار التلفزيون عن محاولة شاوشيسكو إخماد هذه المظاهرات الباسلة. وقد أدت وحشيته إلى ثورة الجيش، وانضمامه إلى الشعب. كان هذا بداية الحرية فى أوروبا الشرقية.

وانحرفنا لكى ننام. وتم حل أحد الألغاز.

استيقظت جوليا وإياى لنجد المعسكر فارغا.

سألتنى: "أنت لا تظن؟".

"أنا أظن".

كان هارولد قد خرج منذ الساعة الواحدة بعد الظهر. وكانت الساعة قد جاوزت السادسة ولم يكن هناك ما يدل عليه. لقد اختفى، وتخيلنا أسوأ ما يمكن أن يحدث ونظرت غاضبا إلى ركس، الذى كان يرقد بجوار الخيمة، كما لو كنت أتوقع أنه سيجعل هارولد فى عهدته.

"انهض أيها الكلب الكسلان، وهيا لتعمل!".

كان أول شيء راجعت عليه، هو زجاجة الويسكى الجديدة، ووجدتها كما هى لم تمس، وصندوق السيارة مغلق، وبحثنا فى أرجاء أرض المعسكر. ولم يكن هارولد فى أى مكان. وكان المرشد فى مركز الطبيعة قلقا، وعرض أن يراقب ركس في المساء، وهو ما جعل الحياة أسهل. وتركت ورقة صغيرة شبكتها بدبوس فى الخيمة، ودلفت جوليا معى إلى السيارة. ومرت بضعة الأميال حتى المدينة فى ومضة عين؛ لأننى كنت أقود السيارة بسرعة زائدة.

كان مقر الشريف مبنيًا من الطوب الأحمر، ملحقًا بمبنى أكثر قدما تشغله المحكمة. وكان الشخص الوحيد بالمبنى فى تلك الساعة شابًا نضرًا يرتدى نظارة ذات إطار أسود سميك. ولم يكن يرتدى بزّة رسمية، والتى ربما كانت ستبين أنه الساعي. ونظر إلينا من فوق مكتب كان عليه جهاز راديو، وشاشة حاسوب، وأشياء أخرى، وأخرج يده من كيس كبير من البطاطس المقلية، ونظر إلى جوليا أولا ثم إلىّ.

قلت: "أود أن أخطر عن شخص غائب".

لم يسع إلى العثور على نموذج أو أى عمل مهم. وقال: "غائب منذ متى؟".

"منذ بعد الظهر".

قال: "عليك أن تنتظر أربعا وعشرين ساعة"، ونظر بعيدا عنا إلى ساعة حائط، ثم إلى شاشة الحاسوب، ثم قبض حفنة من البطاطس المقلية.

سألته جوليا: "أين يمكن أن أجد الشريف؟". كانت لهجتها تحمل صلابة البريطانى الذى يحافظ على صلابة شفته العليا بما يدل على الاحتقار. ولكن ذلك لم يُجدِ شيئا مع ذلك الساعى، الذى ربما رأت عيناه حالات أكثر قسوة وأشد أهمية عن حالتنا.

قال: "فى الشارع عند "لوتا ماماز". وراقبنا ونحن نخرج، وكل اهتمامه موجه إلى الآلات المحيطة به".

كانت سيارة الشريف واقفة فعلا أمام المطعم. كان الشريف يجلس على مائدة بين مقعدين مرتفعى الظهر، حيث كان يمكنه أن ينظر إلى الشارع. وعلى الرغم من رؤيته لنا

ونحن ندخل إلى المطعم متجهين مباشرة إليه، لم ينهض. وكان زيه الرسمى البنى يلائم جسده النحيل، وهو ما يوحى أنه كان يدرك أن الموظف المنتخب لابد أن يحافظ على صورته. كان شعره الأبيض قصيرا، كما أن الخطوط الداكنة على وجهه تنبئ عن أنه يبلغ الستين. ولم يكن يبدو شخصا يُستخف به.

كان أمامه طبق به بقايا لحم، دفعه جانبا ولوح لنا لنجلس. قدمنا أنفسنا، وفى جمل سريعة، أوضحنا مشكلة شرب هارولد للخمر، واختفاءه المفاجئ. وكانت عينا الشريف متنبهة دون أن تبدو بهما أية عاطفة.

عندما انتهينا، تكلم بهدوء وهو يداعب كوب القهوة المصنوع من البورسلين الأبيض بين يديه ثم سأل: "أنتما من فيرجينيا؟".

وأومأنا بالموافقة.

"حسنا، يمكننى أن أرى سبب قلقكما، ولكن ليس هناك كثير مما يمكن أن أعمله. القانون يقول: "إذا كان هناك رجل كبير يريد أن يخرج ليشرب عدة أكواب من البيرة، فليس لدى ما يمكننى من منعه".

"ولكن ذلك سيقتله".

أومأ برأسه: "قد يحدث، ولكنه لن يكون الأول. انظرا، أنا أريد مساعدتكما، ولكن ما لم يكن غائبا لمدة يوم، فإن يداى تظلان مقيدتين".

وهكذا لم يعد الرجاء مجديا: "أين أقرب حانة؟".

"ليست قريبة فى الواقع، فهنا بلاد جافة لا تباع فيها الخمور". ورشف قهوته ثم وضع الكوب جانبًا، ثم أخرج مفكرة وقلما واقترب ناحيتى، ثم قال: "يمكنك أن تكتب هذا. اذهب إلى سهول روكى. هناك ستجد بيت الطيور، وهو على بعد عشرين ميلاً من هنا. وعلى الجانب الأيمن، ستجد مقهى لونسوم دوف، بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً. فإذا اتجهت غربا ستجد بار سيلفرماين... على بعد نحو خمسة وثلاثين ميلاً.

ضاقت عيناه وهو يقول: "بالطبع، كثير من الناس يحبون صالون أولد دورانجو، وهو على بعد ثلاثين ميلاً بعد سيلفرماين.. ولا يوجد شيء إلى الغرب ولكن البنات هناك أكثر وُدًا". وارتعشت عينه اليسرى بحيث كادت أن تكون غمزة.

قلت: "دورانجو، حيث أصبح هذان الطفلان يتامى في الحريق؟".

"هذا هو المكان".

فصلت الورقة عن المفكرة وأعدتها إليه شاكرًا. وعندما كدنا نصل إلى الباب، ناداني قائلا: "أظن أنك قلت إنه يمشي على قدميه؟".

استدرت إليه وأومأت.

"حسنا، أعتقد أن بإمكانه أن يوقف سيارة ويذهب بها إلى أي مكان يريده".

***

تحول بعد الظهر إلى وقت ما قبل الغروب عندما كنا نخرج من حانة سيلفر ماين. كانت جوليا تستند بظهرها على جانب السيارة رافعة ذراعيها إلى السقف، كانت تئن. لقد أنفقنا الساعات الثلاث الماضية ونحن نذرع المنطقة ذهابا وإيابًا، فاحصين أقرب الحانات أولا، كان عداد المسافات في السيارة يُظهر أننا قطعنا مائة وثلاثين ميلا دون أن نعثر على أي أثر لهارولد. كان الجو حارًا، وشفتاي قد تشققتا من الظمأ وكنت أحس بجسدي وكأنه زكيبة من الرمل المبلل.

أخرجت جوليا صورة ثلاثة في خمسة بوصات كانت قد التقطتها لسميث في اليوم الذي غادرنا فيه فيرجينيا. ولكن لم يتعرف عليها أي من سقاة الحانة. فأعادتها إلى محفظتها ثم سألت: "هل يستحق الأمر أن نذهب إلى دورانجو؟".

لوحت بذراعي في الطريق قائلا: "ألسنا نبحث عن إبرة في كومة من القش؟ إنه يمكن أن يكون في أي مكان. ويمكن أن يكون قد ركب مع أي من هؤلاء الذين يقودون عربات النقل. وعندئذ، يمكن أن يكون في لوس أنجلوس قبل صباح غد. ويمكن أن يكون في منتصف الطريق إلى أوكلاند، ويمكن أن يكون قد عاد إلى المعسكر ويعد العشاء".

كنت أمقت التعبير عن أسوأ مخاوفي. ولكنني فعلت - على أى حال - وقلت: "ربما يكون ماكس هيس اختطفه، وأخذه إلى جانب أحد تلك الطرق الخلفية وتم دفنه هناك دون أى أثر".

جلسنا في صمت وجمود... كانت الشمس تتجه إلى الأفق، وأخذت أصوات المساء تتصاعد من الصحراء.

سألت جوليا: "ماذا كان يعني الشريف بقوله: "إن الفتيات أكثر وُدًا في دورانجو؟". جذبت أطلس الخرائط من المقعد الأمامي وفتحته على غطاء مقدمة السيارة. دورانجو، إنه عبر حدود الولاية بالكاد".

"نيفادا!". قلت متعجبًا وصارخًا.

"يا لله! القمار والبغاء!!" واتسعت عينا جوليا. "لقد أخبرتني أن تلك المرأة في المعسكر كانت تقول إنها ذكَّرت سميث بصديقته القديمة. وفي نيفادا ستكون هناك امرأة تناسب أى وَهْم يريده".

وفي لحظة، كنا نسرع نحو الغرب مرة أخرى. ضربت رأسي بيدي. "لقد كنت غافلاً. أظن أنك على حق في أن سميث قد سيطر على عقل هارولد مرة أخرى، ولكني لا أظن أنه يسعى وراء النساء".

أشرت إلى الصحيفة التي كان قد تركها في مقعد السيارة الأمامي، والتي أزحتها جانبا في أثناء اندفاعي للذهاب إلى المدينة. قلت: "إن سميث قد ترك هذه الصحيفة ظنًا منه أنني سأراها. إنها قصة الحريق الذي شبَّ في دورانجو. لقد قتل شخصان في الحادث واتهم عامل بالتسبب في موتهما. وهذا ما كان يقلق سميث ويزعجه، ولابد أنه كان يعتزم أن يعمل شيئا حياله". وتذكرت تلك الهمهمات الغريبة التي كان ينطق بها عندما كان يرغب مني أن أقابل معاصريه، "إذا لم يكن الوقت متأخراً"، وكنت قلقا بشأن ما يمكنه عمله. ونادرًا ما كانت الهواجس تَعِدُنَا لعمل شيء.

وصلنا إلى اللافتة التي ترحب بنا في ولاية نيفادا. وفي خلال بضع دقائق، كنا نتوقف في مكان الانتظار المخصص لصالون أولد دورانجو، مرسلين سحابة عارمة من الغبار في الهواء. واستقر الغبار فوق الشاحنات الصغيرة، وتشكيلة أصغر من السيارات،

والعربات الرياضية. وكان بإمكاننا أن نسمع عويل إحدى فرق الموسيقى الريفية. ونظرت إلى ساعتى وكانت تشير إلى الساعة التاسعة.

كان الصالون يبدو كما لو كان قد أخذ من أحد أفلام السينما عن الغرب الأمريكى. وكانت هناك حديقة من الصبار ذى الأشواك الحادة تحيط بمدخل المبنى. بينما كانت هناك ممرات جانبية من الخشب المعالج تمتد من مكان انتظار السيارات إلى واجهة بنيان أبيض من طابقين، يمتد منه ملحق خشبى ضخم. وقفنا على العشب نفحص القرون الكبيرة والصغيرة التى تزين المدخل، وكان صوت الموسيقى عالياً، بينما كانت هناك ظلال لأشكال ترقص بالداخل. وأحسست بأننى لا أدرك ما يجرى فى المكان، ولكننى دفعت الباب ودخلت مع جوليا التى كانت خلفى مباشرة.

كان هناك بار هائل يمتد بطول الغرفة. وكانت المضيفات يتحركن تبعا لمحطة يديرها حاسب إلكترونى، ويملأن الصوانى بالمشروبات قبل أن يختفين بين زحام الجمهور. وفى النهاية الأخرى، كانت هناك فرقة موسيقية. وكانت القاعة مليئة برجال أشداء يرتدون سراويل الجينز الزرقاء وقمصان ذات أكمام قصيرة، وكانت نساؤهن يرتدين تنورات قصيرة وصديريات ضيقة. وكانت على اليسار بوابة مقوسة تؤدى إلى مناضد القمار وإلى آلات اللعب فى البهو الرئيسى.

ضغطت جوليا على يدى: "أنا سأذهب إلى الحمام. أتطلب لى شيئًا أشربه؟".

"طبعا".

اقتربت إلى البار وأنا أتدافع فى وسط الزحام، وأخذ الصف يقل حجما وعددا، وطلبت ما أريد، وكانت إحدى الشقراوات ذات ساقين طويلتين، ترتدى قبعة رعاة البقرة، تجلس على أحد الكراسى المرتفعة قريبا منى. وكانت شفتاها المنفرجتان فى لون سيارة الإطفاء.

قالت: "مرحبا" وهى تمتع عينيها الكحيلتين بالنظر إلىَّ.

فأومأت برأسى فى أدب، وأحسست بوجهى يتوهج.

وضعت ساقيها متقاطعتين، مما جعلها تعرض جزءًا من فخذها تحت تنورتها القصيرة جداً. وكانت تريح عضلة ساقها على رجلى.

"هل أنت وحدك الليلة؟".

"ليس فى الواقع، معى زوجتى". سقطت الكلمات من بين شفتى، وأثارت الاستغراب حتى بالنسبة لى شخصيا، ولكن يبدو أنها حققت الهدف. وتحركت المرأة بعيداً. وحملت الشراب لكلينا واقتربت مرة أخرى من حافة البار، وجدت جوليا قريبا من المدخل وأعدت لها قصة راعية البقر معى. هل يمكن لسميث أن يقاوم ضغط هذه الفتاة بائعة الهوى؟ وماذا عن الخمر التى تتدفق أنهارًا مثل المياه؟

"لقد فحصت القاعة الكبرى". قالت جوليا، "بل أدخلت حتى رأسى فى دورات مياه الرجال ولكن لا أثر لسميث فى أى مكان".

وجدنا منضدة خالية كان يمكننا منها عمل مسح للغرفة بأكملها، بينما نرشف شرابنا من مزيج الروم والكوكاكولا فى يأس مؤقت. كنا نحس بالحذر وفقدان الحس - ونحن ننصت إلى الموسيقى الحزينة، وكنا مجهدين تماما بحيث كان لا يمكننا مواجهة الخطوة التالية. لقد قطعنا كل هذا الطريق، ونحن متأكدان تمامًا من العثور عليه. فماذا الآن؟ كان من الممكن - ولكن أيضا من غير المحتمل بدرجة كبيرة - أن يكون سميث قد عاد ببساطة إلى المعسكر. وما لم يكن موجودًا بالدور الأعلى مع إحدى راعيات البقر - وهو ما يبدو غريبًا تماما بالنسبة لشخصيته - فإن الخيارات التى ستكون لدينا - عندئذ - توشك على النفاد.

عندما وصلت المضيفة لتأخذ طلباتنا بالنسبة للعشاء، أخرجت جوليا صورة سميث. ورمقته المضيفة وهزت رأسها سلبًا. وتوقفت لتأخذ كأسا من على المنضدة التالية، وسألت: "تامى، هل رأيت هذا الفتى؟".

كانت المرأة "تامى" ذات شعر أبيض يعلو رأسها فى شكل كعكة ترتفع ست بوصات. ومن خلف نظاراتها المموجة، كانت عيناها تبدوان بارزتين كما لو كانتا كوبين زجاجيين أكبر من حجمهما. كانت هناك صفوف من زجاجات ربع الجالون على

منضدتها، تقوم بوضعها بأصابعها فى لفافات ورقية. وأخذت الصورة بيد واحدة وبدأت تدرسها.

"بالتأكيد لقد كان هنا الليلة". وكان صوتها الخشن يدل على أن التدخين وكذلك آلات اللعب تعتبر ماضيا بالنسبة إليها. "كان جالسا إلى البار، لا أدرى أين ذهب". ونظرت حولها في الغرفة، لا يوجد سميث.

وأمطرنا تامى بالأسئلة إلا أنه لم يكن لديها ما تقدمه. وقالت: "من السهل أن تفقد أى شخص هنا إذا ما كنت تلعب أو تشرب".

وقلت "يبدو أن الشرب لا يتوقف أبدا" وكنت أمسح بعينى هذه الغرفة المزدحمة.

وأومأت تامى: "إن هذا من أجل أولئك الأشخاص الذين احترقوا فى ذلك الحريق فى الأسبوع الماضي. راندى وسو تاكودا"، وانحنت إلى الأمام ناحيتنا: "إن أخويه يجلسان على المائدة هناك".

ونظرت باهتمام إلى منضدة طويلة قريبة من الخلف، حيث كان ثمانية أو عشرة رجال قد انحنوا على زجاجات البيرة. وكان الرجلان الجالسان فى الوسط ذوى شفاه رقيقة وشعر أشقر غير مصفف. وكانت هناك أماكن شاغرة كثيرة على المنضدة، ولكن الأخوين لم يكونا يبتسمان.

"إن الرجل الذى أشعل الحريق محبوس فى السجن". قالت تامى. "وهذا هو السبب فى أن المكان مكتظ بالزبائن وكامل العدد. وفى الغد، سيأتى قاضى الدائرة من أجل رد المتهم على الاتهامات الموجهة إليه. وبعد ذلك ستكون هناك جلسة استماع من أجل الطفلين، وأضافت: "إنه بحكم الواقع، هل رأيتما ماذا يفعل رعاة البقر السكارى بالخارج على القانون؟".

فى هذه اللحظة، كانت الفرقة الموسيقية قد أنهت مقطوعاتها، وتفرق الجمهور من حلبة الرقص. وكانت هناك إحدى المضيفات تمشى خلف منصة الفرقة الموسيقية ووقفت أمام إطار خشبى حائطى فى النهاية البعيدة للقاعة. وكما لو كان الأمر سحرا، انشق الحائط ودخلت إلى حجرة مظلمة. وأغلقت الباب خلفها.

وقلت: "انظرى إلى هذا، إنها غرفة خاصة، تعالى نفتشها".

وقف أحد الرجال من ذوى الوجوه المتجهمة الجامدة، ذى رقبة سميكة وضع جسده أمام الباب. وكان يرتدى سروالاً رماديا وقميصا أبيض مزينا برسم لصالون أولد درانجو، وقال: "لا يمكنكم الدخول إلى هناك".

قلت: "إننا نبحث عن شخص فقط، ولن يستغرق الأمر ثانية واحدة".

ولم يتزحزح من مكانه قائلا: "يمكنكم مراقبة المناضد الخالية إذا ما كنتم تريدون مشاهدة بعض ما يجرى".

وقطبت جوليا وجهها قائلة: "ألا يمكن حتى أن ننظر نظرة خاطفة خلسة؟".

لم يجب، وكانت عيناه الجامدتان توحيان بأن من الأفضل أن نبتعد. خلف الباب المغلق المؤدى إلى الغرفة الخاصة، سمعنا همهمات أصوات وضحك، وعادت المضيفة إلى الظهور معها صينية ملأى بالزجاجات والكؤوس الفارغة، وبينما كانت تخرج، كانت الأصوات تعلو وتهدأ، ونظرتُ إلى جوليا التى نظرت إلىّ.

لقد سمعنا صوت سميث!.

الفَصْل السَّادِسُ عَشَر

كـامل العَـدَد

كانت عينا المسئول عن طرد المشاغبين تتبعاننا حتى عدنا إلى منضدتنا. كما كانت تامى تلاحظنا، وبعد أن جلسنا انحنت إلى الأمام قائلة:

"إن قواعد المكان لا تسمح بالمتفرجين فى تلك الألعاب ذات الرهانات المرتفعة يا عزيزى".

"إن لدينا نقوذا، فكيف ندخل؟". سألت جوليا.

"انفجرت شفتا المرأة، كما لو كانت قد سمعت شيئًا غريبا. "إن هذا اللعب هو البوكر العادى لليلة الخميس، والمحافظ يهتم كثيرا بمن سيلعب معه".

سألت: "ما الوقت الذى يستغرقه ذلك؟".

"استرخ قليلاً وتناول شرابا آخر". واستراحت إلى الخلف. "إن الإعدام لن يبدأ قبل الساعة الواحدة أو الثانية".

كان لا يمكن أن نتحمل الدخان والضجيج مدة أكثر مما احتملناه بالفعل، وخرجنا لنجلس على السطح، ولفَّت جوليا ذراعيها حول ركبتيها. أخيرًا وجدنا سميث، ولكن لماذا جاء بنا إلى هنا؟ إننى أعرف سميث جيدًا بما يكفى للشك فى أن هناك سببا ما، وربما كان يتعلق بالطفلين اليتيمين وذلك العامل العجيب، ولكن ما هو؟ كان عقل جوليا يعمل أيضا تجاه نفس النتيجة: "إن سميث يؤكد ذاته، ومن المهم جدًا بالنسبة إلينا أن نكون معه وفيها".

قالت جوليا: "حسنا، دعنا نذهب".

فى الظلام، اخترنا طريقنا فوق أكوام من صناديق الكرتون، وعلب القمامة التى تنساب منها السوائل، ومجموعة متراكمة من العربات المهجورة تسد أحد ممرات الخدمة. للحظ، لم نصادف أية أسلاك شائكة على السطح. كانت الأنوار تسطع من نوافذ البناء الخلفية المفتوحة، وكان يمكن سماع أصوات فى النسمات التى كانت تمر بنا.

همست لجوليا قائلا: "أنا لا أعرف ما عقوبة تخطى حدود الملكية؟".

"إنها كبيرة ولكنها أقل من الوزن الجاثم على ضميرك، إذا ما حدث أى شيء لهارولد، كانت جوليا تقود الطريق بعينيها اللتين تشبهان عينى قطة، وتبعتها ممسكا يدها. كنا ننسج طريقا يمينا وشمالا، وتوقعت أن نكون قد ثملنا بعد ساعة من شرب الروم فى الداخل.

"آه! آه..." وسقطت جوليا على الأرض وسقطت فوقها. لقد تعثرنا فى إطار لإحدى الشاحنات.

همست جوليا بخشونة: "لقد التوت ساقى".

كان وجهها بالقرب من وجهى. ومن خلال ثوبها القطنى الخفيف أحسست بالنعومة والدفء، كان شعرها وبشرتها مضيئين، وينشران عبيرا كعبير الزهور، وكان نبضها سريعا، ولم أفكر وانحنيت برقة لأطبع قبلة على شفتيها، وبعد ثانية من دهشتى بادلتنى القبلة. وكنت أود أن أستمتع بالمذاق والعبير الذى غمرنى فى تلك اللحظة ونسيت تماما أين كنا ولماذا؟

"إنك تنتقى هذه الأماكن العاطفية". هكذا قالت عندما وقفنا لنحصل على قليل من الهواء. قهقهنا ضاحكين فى هذا العناق والاحتضان المتشابك وأحسسنا فجأة بالخفة والسعادة.

كانت جوليا تنظر إلى السماء ورائى وعيناها تضيقان ثم قالت: "هناك!". وأشارت إلى شرفة ملتفة حول المبنى عند الدور الثانى. "إننا يمكن أن نتسلق سلم النجاة من الحريق".

"دعينى أساعدك".

وضعت ذراعها حول عنقى، وتسلقت جوليا وإياى السلم. كانت تجفل مع كل درجة. وكان حاجز السلم، مسلحا بسقف مدلى، يقدم بعض الغطاء. وكانت هناك نافذتان ناتئتان من السقف تطلان على غرفة اللعب الخاصة السفلى، ومشينا على أطراف أصابعنا إلى حافة أقرب نافذة ونظرنا إلى الداخل.

كانت هناك منضدة مستديرة للعب الورق تشغل مركز الغرفة، وكانت تنتشر على اللباد الأخضر أكوام من فيشات البوكر الزرقاء والحمراء. وفوق ذلك تتدلى ثريا الحديد المزخرف، وقرون الغزلان ينبعث منها وميض ضعيف من الضوء. وكان هناك خمسة رجال وامرأتان يمسكون بأوراق اللعب بين أصابعهم ورجل آخر ضخم ذو رأس مستدير ربما كان همبتى - دمبتى. كانت جبهة سميث تلمع من العرق، وشعرت بالراحة وأنا أرى زجاجات الماء، ولا شيء غيرها أمامه. كانت يده اليسرى تقبض على مجموعة من الأوراق، بينما تستريح يده الأخرى على كتف امرأة ذات شعر أحمر، كان يحدق فى اتجاهها مسرورًا.

كان الرهان فى طريقه حول المنضدة، وقال الرجل ذو الرأس المستدير: "لقد كسبت الرهان يا فولتير".

كان الرجل المعنى يجلس أمام سميث. وكان خداه أحمرين داكنين، وشعره حسن التمشيط فوق جبهته العريضة. وبرز أنفه الحاد من وجه نحيف، مما أعطاه منظرًا دراسيا لمعلم العلوم فى مدرسة ثانوية. وضم الرجل أوراق لعب فى مجموعة مرتبة ووضعها على المنضدة. ولمس بإصبعه أولا قطعة حمراء، ثم قطعة زرقاء، ثم استقر على القطعة الحمراء وقذفها إلى وسط المنضدة وكان يمكننا أن نسمع صوت سقوط قطعة الفيش على القطع الأخرى عندما اقتربنا أكثر إلى جوار النافذة المفتوحة.

وانتقل الرهان من فولتير إلى رجل له وجه طفل يرتدى قميصًا ذا لون خاكى، مفتوح حتى الزر الثالث. وكان شعره غير المرتب يتدفق على كتفيه اللذين يحملان فوقهما أربعين سنة من العمر، وكانت عيناه الداكنتان تلقى بنظرات سريعة هنا وهناك من وجه أحرقته الشمس بشدة، وكان كل شيء فيه، حتى ذلك السوار النحاسى حول رسغه، والخاتم الفضى ذو الحجر الفيروزى حول إصبعه السبابة، يعطى انطباعًا عن شخص لا يهتم كثيرا بالتدرج الهرمى، فيما عدا تدرج الوقت، وكانت أظافره تبدو مقضومة حتى اللحم، بينما كان جيب قميصه يضم عددًا من الأقلام ومفكرة صغيرة، كما لو كان صاحبها معتادًا على كتابة أشياء موجزة بسرعة". ثم قال مشيرًا إلى نفسه بصيغة الغائب: "روسو يزيد الرّهان". وأخذ آخر قطعتين معه وقذفهما فى مكان الرهان.

قالت ذات الشعر الأحمر الجالسة إلى جوار سميث: "إنه يخرجنى من اللعب". وبعد فترة سكون، قام الرجل ذو الرأس الكبير وهو يدفع سميث بمرفقه قائلا: "هلمَّ بنا يا سميث، ولا تظل هكذا هائمًا فى أفكارك، إن هذا دورك".

قال سميث: "آه. يمكنك أن تعتمد علىَّ"، وفى الحال بسط يده. وقام كل شخص فى دوره بإلقاء أوراق اللعب على المنضدة ووجهها إلى أسفل حتى جاء الدور على فولتير، وظهرت غمازة فى ذقنه عندما ابتسم، كما فعل الآن وهو يلقى بقطعة أخرى من الفيش على الكومة.

قال روسو: "هل فولتير يعادل الرهان؟".

لقد دفعت مقابله. أرنا ما فى يدك يا روسو".

وقذف روسو بأوراق اللعب التى لديه إلى وسط المنضدة "هذان ولدان". وابتسم فولتير مرة أخرى. وبأصابعه المقصوصة بعناية شديدة وضع أوراق اللعب التى فى حوزته برفق، مظهرًا (ملكتين) بنتين "لقد حصلت السيدات على الدور".

"يا للعنة !!".

وقف روسو كما لو كان سيذهب إلى المنضدة ليقلبها رأسا على عقب: "هل أنا الوحيد الذى يرى هذا التآمر؟ هذه هى المرة الثانية التى يعرف فيها فولتير يدى". وبدأ فى تفتيش الغرفة بعناية، ناظرًا بدقة تحت المنضدة، ثم مستديرًا برأسه نحو السقف. واختفيت أنا وجوليا عن الأنظار فى الوقت المناسب. ومن مكاننا المستتر سمعنا شخصا يلقى بنكتة على روسو وانفجرت الغرفة ضاحكة.

واتسعت عينا جوليا حتى أصبحت كأطباق واسعة. وقالت هامسة: "هؤلاء الناس، إنهم أسماء من التاريخ، لقد كان روسو فيلسوفًا، وكان فولتير كاتبًا شهيرا".

وهمست بالرد على الفور: "لقد قام آدم سميث بتمجيد فولتير، فما هذا الذى يجرى الآن؟".

"يا إلهي، هل تظن..". وأخذ صوت جوليا يخفت حتى سكتت. ثم قرصتني وهي تقول مبتسمة: "إنني لا يمكن أن أصدق. لقد قرأت فقط عن الاتصالات الروحية الجماعية".

وبدأت القاعة تدور بي بينما كنت أواجه هذا المنظر السريالي الماثل أمامي. وأحسست كأني قد سقطت في جحر الأرنب الموجود في قصة أليس في بلاد العجائب.

"اجلس يا روسو": هكذا كان يقول ذلك الرجل الضخم الجالس بجوار سميث "إن اللعب الليلة هو لعب بين أصدقاء على شرف زيارة سميث. انظر، لقد أعطيت سميث بعض قطع الفيش، وسأعطيك بعضا منها أيضا".

وقطبّ سميث جبينه قائلا: "دافيد، إنك بشق النفس يمكنك تحمل هذا".

وهمست لجوليا: "إنني أراهن أن هذا الشخص الجالس بجوار سميث هو دافيد هيوم، أفضل أصدقائه".

وقبض هيوم بملء يده مجموعة من قطع الفيش في كفه الخشنة ووضعها أمام روسو وخفض روسو رأسه، وكان يبدو أن التوتر قد تبخَّر. "إنك تفسدني بحنانك".

"إنها حية سامة". هكذا كانت إشارة فولتير الذي قال: "وهذه الحية ستعض".

"لقد عاني روسو من حب العظمة"، هكذا همست لجوليا، وأنا لا أذكر سوى سؤال واحد فقط من الأسئلة العشرة التي كنت سأوجهها إلى سميث كاختبار لمدى الواقعية والصدق. قال هيوم: "لنأخذ راحة"، وانتصب قائما على قدميه "دعونا نشرب نخب صديقنا" – ورفع كأسه "كم سنة مرت منذ آخر اجتماع لنا؟ – حسنًا .. لا يهم. في صحة سميث". وكأنما كانت هناك جوقة يعلو صوتها وتردد التمنيات إلى جانب أصوات قرع الكؤوس.

وعندما هدأت الضجة، نهض سميث واقفا: "إنني شديد الامتنان لكم للحضور إليّ، لبضع ساعات على الأقل، لقد كانت لعبة البوكر هذه فرصة مناسبة، مع حضور كل كبار المواطنين في المدينة، العمدة، وناظر المدرسة ورئيس تحرير الجريدة وحتى طبيب القرية". وأومأ مشيرا باحترام تجاه هيوم وفولتير وروسو والطبيب الذي كان سيدًا كهلاً يرتدي نظارة على عينيه.

قال سميث: "إنكم ستتحدثون من خلال عقول وحياة هؤلاء الأفراد من لاعبى البوكر يا سادة، وسيكون كل شيء يعرفونه تحت تصرفكم". وعلى أية حال - "أليس الناس الآن، وهم يفتحون أفواههم يثرثرون ويرددون كالببغاوات أفكار عصرنا، مقتبسين ما كنت تقول يا فولتير، أو أنت يا روسو؟ فكيف يمكن لأى شخص إذا كان ما يقال هو كلامنا المنقول عن طريق الاتصال الروحى من خلال الشخص أم لا؟".

قال فولتير: "اسمع ! اسمع!".

كانت رأسى فعلا قد بدأت تؤلمنى الآن. ولم أكن أرغب فى إثارة جدل مع جوليا عما إذا كان الاتصال الروحى الجماعى موجوداً. ولكنى كنت آمل ألا أضطر إلى إقناع أى شخص آخر به.

وقال سميث: "إن الجدل الحالى الذى يجرى فى هذه المدينة ليس شيئا جديداً، ومن الممكن أن يلقى شيئا من الضوء".

ووافق روسو قائلا: "لماذا نعيد اختراع العجلة؟".

ومضى سميث يقول: "بالطبع، ليس هناك شىء تفعلونه الليلة يمكن أن يناقض إرادة الشخص الذى تستخدمون عقله. ولكنكم هنا لتروا ما إذا كان يمكننا أن نحدث شيئا مختلفا في هذه المدينة – لأولئك الأطفال اليتامى وذلك الرجل العجيب".

أما المرأتان، اللتان اختلط عليهما الأمر تماماً، فكانتا تنظران إلى سميث وعلامات استفهام بعيونهما. لم يكن لديهما أى دليل عما يحدث. ولاحظ هيوم ذلك وقال: "لا تلقيا بالاً إلى مستر سميث أيها السيدتين، فأنا مازلت العمدة هنا وهذه لعبة صغيرة لتمثيلية هزيلة نمثلها هنا الليلة. إنها لعبة ادعاء وتظاهر، وهؤلاء الأولاد وأنا سنعود وسنرجع طريقاً طويلاً... طريقا طويلاً".

وقف هيوم خلف المرأة التى كانت تجلس على يساره. وكانت ترتدى رداءً طويلا وتتحلى باللآلئ، بينما كان شعرها الأسود الطويل ملفوفا فى شكل كعكة عالية فوق رأسها. ومن طريقتها فى معابثة هيوم، كان يمكن الظن بأنها قد أتت إلى هنا ضمن المبلغ الذى دفع لاستئجار الغرفة. وقالت المرأة: "أيها الأولاد، استمروا فيما أنتم فيه، ومتعوا أنفسكم". ومدت يدها لتمسك بيد هيوم. "هذا هو ما أنت هنا من أجله، خذ حظك من المتعة! لقد رأينا

ما هو أكثر غرابة وأكثر وحشية من هذا، أليس كذلك يا بيل؟". وضحكت، ناظرة إلى المرأة ذات الشعر الأحمر التى أومأت برأسها على الفور.

قال هيوم: "هذه هى أميرتى"، وهو يعطى المرأة الأولى قبلة سريعة على عنقها، وذهب إلى جانب المنضدة حيث كانت هناك مجموعة من المشروبات تم إعدادها، والتقط كأسا من الويسكى، "إن غدًا سيكون يومًا حارًا". قالها وهو يأخذ رشفة من كأسه "وأمام قاضى الدائرة بعض القرارات الثقيلة التى عليه أن يتخذها".

قال سميث: "هذا صحيح. هذا صحيح". والآن، إذا كنت قد انتهيت من البوكر الآن، يكون الوقت قد حان لنقوم ببعض الأعمال. والتفت إلى يمينه قائلا: "دكتور كويزنى، هل نبدأ بك؟ هل يمكنك أن تخبرنا عن تقدم الأطفال؟".

نهض الرجل المهيب ذو الشعر الأبيض المتموج والعينين اللتين يُظللهما حاجبين كثيفين، وهو يضع نظارة بيضاوية صغيرة ترتكز على أنف قصير أفطس.

همست جوليا: "من هذا الرجل؟".

وهمست لها مجيبا: "أظن أنه أحد أصدقاء سميث من فرنسا، وقد أخبرنى سميث أن الدكتور كويزنى كان قائدًا لأحد المذاهب، مذهب الحكومة الطبيعية على ما أظن(*)".

بسط الدكتور ظهره كما لو كان يحمل ثقل العالم كله عليه، وزفر طاردًا الهواء من صدره "حسنا، إميلى وباكو يتحسنان بصفة مستمرة مما أصابهما من حروق. وسيكونان فى حالة تسمح لهما بمغادرة المستشفى فى الشهر القادم. والسؤال هو: أين سيذهبان؟ هناك خياران أمام القاضى: جدة الأطفال التى تعيش على بعد أربعين ميلاً من هنا - قريبا ... قريبا من - كما تعلم - مجتمع روسو..." ثم قال وهو يسعل: "إذا ما كان لا يزال موجودًا".

(*) الحكومة الطبيعية Physocracy طبقا لما كان ينادى به فرانسوا كويزنى (١٦٩٤ - ١٧٧٤) وأنصاره Physiocrats، هى الحكومة الكامنة طبقا لنظام طبيعى فى المجتمع. والأرض وما تنتجه هى المصدر الحقيقى للثروة، والضرائب المباشرة على الأراضى هى المصدر السليم الوحيد للإيرادات. (المترجم)

ونظر روسو حوله، مقطبا جبينه.

واستمر الدكتور فى حديثه: "الجَّدة تريد الأطفال، ولكنها شديدة الفقر. والأطفال سيقتسمون معها غرفة نومها. ولعلكم تعلمون أن بإمكان بعضنا - ونحن قادة المدينة - أن يساعدها فى بناء إضافة صغيرة إلى منزلها". وسادت القاعة همهمات وأصوات غير مفهومة. وتنحنح الدكتور كويزنى مخلِّصًا حلقه: "وهناك خالة للأولاد تعيش فى لوس أنجلوس. وهى تريد الأطفال أيضا، كما أنها ميسورة الحال وتمتلك منزلاً فى إحدى الضواحى، ولديها مكان متسع جدًا".

وأومأ هيوم برأسه. وأخرج سيجارًا من جيبه واضعا إياه فى فمه دون أن يشعله. "إن ما قمت به عمل تستحق عليه شكرًا جزيلاً".

هبَّ روسو واقفا حتى كاد أن يقلب كرسيه. وانسحب بعيدًا عن المنضدة وبدأ يمشى بخطوات متئدة، بينما كعبا حذائه يحدثان صوتا مرتفعًا عندما يلامسان أرض القاعة الخشبية. ثم تحدث قائلا: "ربما أكون الوحيد فى إحساسي بهذه الطريقة، ولكنى لا أقول هذا معتذرًا عن إصرارى - ودون أن أفرض رأيى عليكم - أن يُعطَى الطفلان الحق فى أن يترعرعا ويكبرا فى بلدهما. فإن منزل جدتهما، حتى وإن كان صغيرًا، يقع تمامًا بجوار الأرض الشاسعة لدينا، ذات الأشجار والنهير الصغير، وكل شيء يحتاج الطفلان إليه".

"روسو، كن معقولاً". قالها فولتير وهى ينظر إليه بعينين فاحصتين. "إن الكوميون الذى أسسته مقفر فعلاً، وهذان العقلان الصغيران سينشآن ولم يتلقيا سوى نصف ما يستحقان من تطور فى هذا المكان الموحش. إن أقرب مدرسة تبعد عنا بمسافة لا تقل عن خمسين ميلاً".

"إن إميلى وباكو يحتاجان إلى تعلم من خبرتيهما فى الطبيعة". قال روسو متعجبا: "ألا يمكنك أن ترى الطيبة والجمال الطبيعيين بداخلهما؟ وإذا ما ترك هذا النُبل وشأنه، فإنه سيزدهر. وهما يحتاجان إلى هذه الخبرة قبل أن يتعلما من الكتب والنظريات".

والتفتت جوليا إليَّ وعيناها متسعتين.

وتساءل فولتير: "وماذا عن عقليهما، وتفكيرهما؟".

وسأل هيوم: "أين سيتعلمان مهنة؟ وكيف سيكسبان قوتهما؟".

وأجاب روسو: "إنهما سيكونان ممن يعرفون جميع المهن ولا يجيدان أى واحدة منها. إنهما سيصطادان السمك من الجدول، ويزرعان القمح، ويطليان جسديهما بالألوان".

وتساءل سميث: "هل تعنى أن يكونا مثل روبنسون كروزو؟ أنا وحدى تماما ضد العالم، يا له من خيال جميل. إلا أن المؤكد هو أننا نحتاج إلى الآخرين. ألا يمكن للطرفين أن يربحا من التبادل الاختيارى؟".

رد روسو بسرعة وذكاء: "إن الإنسان بمجرد احتياجه إلى مساعدة الآخرين سرعان ما يبدأ فى التملك، وتختفى المساواة، ولا تكون العبودية بعيدة إلا قليلاً".

وضم سميث شفتيه بشدة قائلا: "ألست ترى أنك نسيت أننا نحتاج إلى الآخرين؟ ليس فقط لمجرد تقسيم العمل، ولكن أيضا لتقاسم مشاعرنا؟ انظر فى أرجاء القاعة، إن المجتمع أكثر من مجرد هيكل عملى، إنه شيء جميل".

صفق فولتير بكفيه ثلاث مرات. "برافو، مستر سميث – عليك أن تخبرنا الآن يا روسو، أين سيتعلم هؤلاء الأطفال فنون التحضر والموسيقى، ونواحى التراحم الاجتماعى".

"إن التحضر مفسدة".

"آه!! يا للعار عليك وعلى وحشياتك النبيلة!!".

قال روسو: "أنا لم أقل ذلك بتاتًا !!" ... وكانت عيناه تشتعلان غضبا.

وهمس سميث إلى هيوم: "إن قدرته على الإحساس القوى أكبر من قدرته على التحليل الدقيق".

وأومأ هيوم برأسه مبتسمًا، وعائدا إلى المنضدة التى كانت عليها كروت اللعب. ووقف مرة أخرى خلف الكونتيسة، ملامسًا عنقها الطويل برفق ورقة. ثم قال: "من المؤكد، يا كونتيسة، أنك لن تمضى معى الليالى نرقص فيها سويا فى المدينة كى تعيشى فى الريف".

"بالطبع لا، إلا إذا ما ضبطنا صديقى معًا!".

"عندئذ، يمكنك أن تخبريه فقط أن مستر سميث هو الذى كان معك. وفى هذه الحالة سيعتقد أن كل ما كان بينكما هو مجرد تبادل الحديث": والتفت سميث إلى المرأة الجالسة على يمينه قائلا: "هل أنا حقا لست صديقا إلا لكتبى؟".

وفيما عدا اللون الأحمر المشتعل فى شعرها وشفتيها، لم تكن هناك صفات أو شخصية مميزة للمرأة التى كانت تجلس إلى جوار سميث والتى كانت ترتدى ثوبا قطنيا طويلا بلون اللافندر البنفسجي الخفيف. "لا، إنك لطيف". قالت ذات الشعر الأحمر. ومسحت بيدها على رأس سميث الأصلع: "إنك مضحك أيضا، عندما تناديني بلقب آنسة، إن اسمى هو بيل وليس كامبل".

واحمر وجه سميث خجلاً، "ميس كامبل... إننى... إننى... يجب أن أقول لك..".

قال هيوم: "لا تقل لها، ولكن بيِّن لها". وهنا جذب الكونتيسة إلى صدره وطبع على خدها قبلة محدثة صوتا عاليا. وانفجر كل من حول المنضدة ضاحكا! فيما عدا سميث.

وقهقهت الكونتيسة ضاحكة قائلة. "إن كلماتى طاهرة عفيفة". وأحاطت ظهر هيوم بذراعها اليمنى، "ولكن أفعالى ليست كذلك تماما". وقرصت عجز هيوم بأصابعها.

وابتلع سميث لعابه قائلا: "مس كامبل.. لك شديد اعتذارى عن هذا... هذا..".

عندئذ، بدأ الحاضرون يضحكون ضحكا عاليا فى تلك اللحظة، وكذلك جوليا وأنا أيضا، حيث سقطنا على الحائط بعيدًا عن النافذة، محاولين أن نتحكم فى أنفسنا. ووضعت جوليا راحة يدها فوق فمها. يا لضيعة سميث!! ضيف الشرف، الذى يتحمل عبء كل هذه النكات. إن هذه الليلة الغريبة، مع أنها كانت أساسا لتبرير تمرد عقلي، إلا أنها قد أعطتنى صورة مشجعة عن سميث وأصدقائه. ومع ذلك فقد انتظرت حتى تتكشف خفة اليد فى هذا الاستعراض السحرى. كنت أريد التأكد مرة أخرى من أن لا أحد ممن رأيتهم أو استمعت إليهم قد انتهك القوانين العلمية.

وعندما تمكنت من استعادة الثقة فى نفسي، وانجذبت تجاه جوليا وهمست: "ما الذى حدث للاعبى البوكر العاديين؟".

"إنهم هناك فى مكانهم، وربما كانوا يلعبون بشكل أفضل كثيرا عما اعتادوه". وتناست جوليا جرحها فى لحظة، ومدت مفصل قدمها وحركت قدمها حركة دائرية، وهى تجفل من وخزة ألم. "لا يمكننى تفسير هذا يا ريتش، إنه يبدو كالحلم. ربما سيستمرون فى تقمص هذه الشخصيات لبضع ساعات، ويستيقظون غدا بشعور من رأى هذا قبل ذلك. أنا لا أدرى".

وانحسرت الضحكات، وعدنا مرة أخرى إلى النافذة.

وسأل سميث: "دكتور كويزنى، كنت تريد أن تضيف شيئا؟".

وخلع الدكتور العجوز نظارته من على وجهه وأخذ يلمعها بقطعة من قماش بدقة بالغة. "نعم، فيما يتعلق بالطفلين، يجب علىَّ أن أتفق مع روسو. إن إرسالهما إلى خالتهما فى لوس أنجلوس يقضى عليهما بحياة تعسة فى أجواء الصناعة والتجارة. وهاتان ناحيتان عميقتان لا تضيفان مثقال ذرة إلى الأمة. ومن ناحية أخرى فإن الزراعة....".

"والآن دقيقة واحدة من فضلك!!".

"أف...".

كان هيوم وسميث يقاطعان المتحدث فى نفس الوقت. إلا أن الدكتور كويزنى استمر فى حديثه متغلبا على مقاطعتهما "إن الجدة لديها خمسون فدانا!! خمسون فدانا من الأرض ذات التربة الجيدة المروية. ودعونا الآن نحسب ما الذى يمكن أن تنتجه هذه الأرض". وذهب إلى ركن القاعة، وسحب من حقيبته الطبية ورقة كبيرة، بسطها على المائدة. وكانت الورقة بها ثلاثة أعمدة وذات خطوط متقاطعة.

وسألت جوليا: "ما هذا بحق السماء؟".

كانت ساقى تتشنجان وتتوتران، وعَدلت من وضعى ونظرت بشكل أكثر قربا. وهمست: "خريطة تدفقات دائرية، تبين تدفق المدفوعات فى المجتمع، مثل تدفقات الدم فى الجسم. كان كويزنى من رجال الطب، وابتكر هذا النموذج، أول نموذج للاقتصاد الكلى".

استمر دكتور كويزنى فى حساباته بصوت مرتفع، بينما كان الآخرون يراقبون ما يعمل. "لنفترض فترة سبع سنوات علوية من المحاصيل الجيدة. ولنر – كم من القمح،

والبقر وكم تتكلف العمالة المستأجرة، وكم يتم دفعه إلى المالك، وكم يتم دفعه إلى القائمين بالصناعات... ولنر الآن". وهز الدكتور كويزنى رأسه: "ألا ترون؟ إن التوازن الطبيعى يختل نتيجة لأى تدخل. إن ارتفاع ونهضة الصناعة لا يمكن أن يحدث سوى المصائب على القطاع الإنتاجى، الذى هو الزراعة وحدها".

وخفض هيوم من صوته موجها حديثة إلى سميث: "هل رجعنا إلى عقيدة الزراعة مرة أخرى !! إن الغيبيات تتخفى فى ثياب العلم". هذا ما يطلق على ذلك.

واقتحمت بيل الحديث قائلة: "ما صلة هذا كله بموضوع الطفلين إميلى وباكو؟".

رد الدكتور: "إنه مستقبلهما الذى يكمن فى الزراعة".

"آه يا عزيزى الدكتور...". قال سميث متدخلا ومقاطعا: "إنك أكثر العباقرة الأحياء وربما تكون الأكثر عظمة من بين الأحياء، ونظامك ربما كان الأكثر قربا من الحقيقة المعروفة حتى اليوم. ولكن من المؤكد أن هذين الطفلين لو وجدا مهنا فى الصناعة، فإنهما سيضيفان إلى ثروتهما وإلى ثروة الأمة؟ إن المؤكد هو أن العمل هو مصدر ثروة الأمة. وليست الطبيعة".

ونظر كويزنى إلى أعلى قائلا: "من المؤكد لا شىء. إن الأرض هى كل شىء!! ولو حتى تبين ذلك تماماً. ولا يمكن إلا فى نظام كامل، نظام مثالى لحرية العمل، أن يتم تجانس النظام الطبيعى.."، وأخذ صوته يخفت ويصبح أقل وضوحا بينما كان مستمرا فى حساباته.

وعادت إلى ذاكرتى تعليقات سميث فى نادى هيئة التدريس. فقد قال سميث: "إنه كان عمليا جدا بحيث لم يتمسك بأية آراء عقائدية أو جامدة. مثل تلك التى ينادى بها مذهب الحكومة الطبيعية". لهذا لم أستغرب عندما همس ممثل سميث فى أذن فولتير، "إن الدكتور الطيب يتصور وجود نظام يتسم بالكمال مع أننى لم أر مثل هذا النظام مطلقا! وكثير من النظم التى لا تتسم بهذا الكمال تعمل بشكل جيد مع شىء من التسامح".

أومأ فولتير برأسه موافقا: "لقد قلت أنا هذا أيضا. إن الأفضل هو عدو الجيد".

وتوقف كويزنى عن حساباته ونظر إلى أعلى قائلا: "بماذا تتهامسون وتتمتمون؟".

قال سميث: "أيها الدكتور الطيب، إن الخبرة تبين لنا أن الجسد الإنسانى، يبقى على حاله، فى جميع مظاهره الخارجية على الأقل، وفى حالة صحية تامة فى ظل أنواع متباينة من الوجبات الغذائية ونظم تدريبات محددة". وربت سميث على معدته، "والآن، ألا ينطبق ذلك علي هذين الطفلين - على سبيل القياس أيضا - على عالم التجارة الأكثر اتساعا؟".

ازدادت الضوضاء، وارتفع ضجيج زبائن الحانة، وسمعنا صراخا مزعجًا. وانتهز فولتير هذه اللحظة ليهب واقفا على قدميه.

وقال: "دعونا نوقف هذا الشجار التافه، فهناك أشياء أكثر أهمية ينبغى أن نلتفت إليها. ماذا عن هذا الرجل الغريب آموس جونسون؟ إنه يقبع فى السجن، وعصابة الإعدام من الغوغاء تنتظر اللحظة الملائمة فى الصالون. ما الذى يحميه من الظلم فى هذه المدينة؟".

الفصل السابع عشر

العدالة

تراجعت بيل عن منضدة اللعب، وعيناها تبرقان "الظلم؟ إنها عدالة الشعب، وإن لم يقم القانون بدوره، فإننا سنفعل".

قال هيوم: "والآن يا بيل، احتفظى بقبعتك، فإن قاضى الدائرة سيكون هنا غداً، ولتأخذ العملية القضائية مجراها".

كنت أنا وجوليا مازلنا مُسْمَرين بالنافذة الموجودة فى شرفة الدور الثانى لصالون أولد دورانجو، ننصت إلى هذه المواجهة الغريبة. كانت ركبتاى وعضلات ظهرى قد تجمدت من الاستمرار فى هذا الوضع الجامد دون أن أُصدر صوتًا، كانت بيل، ذات الشعر الأحمر، الجالسة إلى جوار سميث قد احتلت وسط القاعة. بينما كان سميث ينظر إليها الآن محدقا بعيون غائبة عن الوعي.

واستمرت بيل فى حديثها قائلة: "من السهل عليكم جميعًا أن تقولوا ما تشاءون، لقد ذهبت إلى المدرسة الثانوية مع سو تاكودا، ولم أبك كثيرًا أبدًا فى حياتى مثلما بكيت، لقد قام أموس جونسون بإعادة تجهيز ذلك المنزل بالأسلاك منذ شهر واحد فقط. وقد أجاد عمله فى قتل سو وراندى بيديه المجردتين.

"ليس لديك أى دليل". قالها فولتير وصوته يرتفع.

إن الفطرة السليمة تقول: "إن تجهيز الأسلاك كان بصورة خاطئة! ربما كان هناك كثير من التفكير الذى يجرى هنا". ووضعت بيل ذراعيها متقاطعين أمام جسدها، وألقت نظرة خاطفة على سميث.

وصلت الكونتيسة إلى يد هيوم وجذبته نحو كرسيها. "تعال هنا أيها الرجل الأنيق. لقد ظننت أننا هنا لنلعب البوكر. كيف نتوقع أن يحقق هذا المكان أى إيراد؟ أنت أيضا يا بيل؟ دعينا نعمل".

وتحرك فولتير أمام بيل، وتحدث بنبرة ناعمة لم تستطع أن تحجب أى قدر من توتره: "إن الفطرة السليمة ليست سليمة تماما؟"، واستمر يقول: "هل يمكن أن تتهمى شخصا دون محاكمة؟ أليس للإنسان حقوق طبيعية؟".

ردت بيل بقوة على الفور: "هل يترك الإنسان المذنب حرًا طليقًا ليكرر جريمته؟".

"من الأفضل أن نخاطر بإنقاذ إنسان مذنب بدلاً من إعدام إنسان برىء".

ارتخت العضلات الدقيقة حول عينى سميث قليلا، ثم قال: "ومن يعلم ذلك أفضل منك يا صديقي؟".

وعادت كل العيون تتجه إلى فولتير، الذى قطب جبينه وهو ينظر إلى أسفل، إلى بيل. "آه نعم، لقد قضيت فترتى فى سجن الباستيل. ما أجمله من زنزانة حصينة – وما أجمل ذلك التعليم العالى الذى قدمه لى. لقد كان البرد والرطوبة ملائمين تمامًا لصحتي، والجرى مع الجرذان المبهجة إذا ما كانت لديك القدرة للإمساك بها، كم كان الحظ حليفا لأولئك المسجونين من بيننا الذين تبين أن جرائمهم كانت ملفقة تماما، وإلا لكنا لم ندرك هذه السنوات البهيجة!". واستدار ببطء، وليمشى الهوينى عائدًا ليقف بجوار كرسيه.

كانت عينا بيل تتبعانه وهو يعود إلى مكانه. وانحنت الكونتيسة إلى الأمام قائلة بإصرار: "هذا ليس هو الموضوع، ففى هذه المدينة. يعلم كل فرد أن الرجل الغريب آموس جونسون مذنب. أليس ما هو حق، هو أعظم شىء لأكبر عدد منا؟ ونحن نقول إن هذا الرجل مذنب".

"لا، لا ولا!" – صاح فولتير متعجبا: "هذا هو الاستبداد الظالم للأغلبية –الحكم على الإنسان دون دليل – وبشكل مطلق بناءً على رأى مسبق أو بناءً على اعتقاد غير منطقى. دعونا ننظر إلى الحقائق".

وقف هيوم قائلا: "ما الحقائق؟ أنا أسألك ما وقائع هذه القضية؟ إن مثل هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بدرجة من الاحتمال. ومن ثم، فإن السبب والأثر لا يمكن إثباتهما أبدًا، ولا يمكن سوى افتراضهما".

طرق سميث على كوب الماء أمامه ليلفت الانتباه إليه: "هل يمكننا أن نتيقن من الحالة العقلية لهذا الرجل جونسون أو تفكيره؟".

وفى هذه اللحظة، كان هناك طرق على الباب. كان ذلك الحارس المسئول عن طرد المشاغبين الواقف فى الخارج، قد اقتحم الحاجز وهو يومئ ويشير إلى هيوم، الذى غادر مقعده ودلف إلى البار، بينما أخذ أفراد المجموعة الجالسة حول المنضدة يرمقون بعضهم بعضًا فى قلق وحذر. وكان هناك سكون عصبى لمدة دقيقتين أو ثلاث. وعندما عاد هيوم، كانت الغضون على جبهته قد ازدادت ارتفاعًا.

"إنك قد تحصل على أمنيتك يا سميث". قال ذلك وهو يقضم سيجاره الذى لم يكن قد أشعله بعد. "يبدو أن هناك حديثًا يجرى فى ذلك الجمع بشأن الانتهاء من التصرف فى عدالتهم الليلة. إذ إن الشريف مسافر فى رينو، ليدلى بشهادته فى إحدى القضايا. ونائبه فى السجن ليس متأكدا من قدرته على التحكم فى هذه الجماهير بمفرده. فأخبرته بأنه يمكن أن يأتى بالسجين إلى هنا، كى يكون فى أمان".

صاح روسو: "إلى هنا فى الداخل؟".

نظر إليه هيوم محدقًا: "أين آخر مكان يمكن أن يفتشه أى شخص؟ ليس هناك شخص يبلغ به الحمق إلى درجة أن يقتحم مكان لعبى الخاص".

ومضت ثلاثون دقيقة، بينما كانوا يقومون بتهريب أموس جونسون من الباب الخلفى للسجن، ثم أحضروه فى سكون من مؤخرة صالون دورانجو القديم. وابتعدت أنا وجوليا على أطراف أصابعنا إلى الخلف بعيدًا عن النافذة، لنمد أرجلنا ونختفى بعيدًا عن الأنظار. لم أكن أعرف ما عقوبة انتهاك الخصوصية، وكانت معرفتى أقل أيضا عن التجسس على لعبة بوكر ذات رهانات مرتفعة. ولم تكن لدى أى رغبة شديدة فى معرفة ذلك. ومع ذلك، فلم أكن أتحمل مغادرة المكان. كنت متأكدا أن سميث قد جمع أصدقاءه معًا كى يستحضروا طريقة ما لإنقاذ حياة هذا الرجل.

دخل رجل عجوز منحنى الظهر إلى الأمام يجرجر ساقيه إلى القاعة، واستأنفت مع جوليا انحناءنا المؤلم بجوار النافذة. وكانت كل خطوة يخطوها الرجل تنتهى بأخرى تظهر عرجًا خفيفا. وعندما جلس تحت الضوء، كان بمقدورنا أن نرى أنه كان يرتدى سراويل

نظيفة مكوية بعناية، وقميصًا أبيضًا نظيفاً، وحذاءً بنيًا ذا رقبة طويلة.وكان شاربه الأبيض الرفيع هو كل ما لديه من شعر.

وجذبه هيوم إلى أحد المقاعد قائلا: "إنك هنا من أجل أمنك يا مستر جونسون". وأضاف فولتير: "ربما كان بإمكاننا مساعدتك".

أومأ الرجل برأسه موافقًا وجلس على حافة المقعد الذى سبق تقديمه إليه، كان هناك جو من السكون المشحون. وكان من الواضح أن اللاعبين والمقامرين كانوا أقل اهتماما بلعبة البوكر عن ذلك الهيكل المنحنى الجالس أمامهم.

وسأله هيوم بأدب: "لقد كنت الرجل العجيب الذى يقوم بكل شيء في مكان الانتظار الخاص بالمساكن المتنقلة فى بستان شادى".

"نعم يا سيدي، لقد أمضيت هناك ثلاث سنوات". وأعقب ذلك سكون طويل آخر، وكنت أتصور أن الوحدة فى السجن فى خلال الأسبوع الماضى قد جعلت الرجل ينشط؛ لأنه مضى فى حديثه ليقول: "وقبل ذلك، أمضيت اثنتين وأربعين سنة فى منجم النيكل فى جاسبر. وتقاعدت منذ خمس سنوات مضت عندما طلبوا مني ذلك. ولكننى أحب أن أظل مشغولاً، وهكذا فإننى كنت أعمل طوال حياتى".

"أليس صحيحًا أنك قد قمت بإعادة تجهيز مقطورة راندى تاكودا بالأسلاك فى الشهر الماضى؟". كان هذا هو السؤال الذى وجهته إليه الكونتيسة.

ارتعش شارب مستر جونسون: "هذا صحيح، ولكنه أيضا ليس صحيحًا".

ورفع هيوم أحد حاجبيه: "آه هل أنت فيلسوف؟".

وبدا أن مستر جونسون قد اختلط عليه الأمر: "لا، إن ما أعنيه هو أن ما قمت به لا يمكن أن تطلق عليه إعادة تجهيز بالأسلاك! على الأقل ليس ما قمت به. وهذا الولد راندى تاكودا، سألنى ما إذا كان يمكننى أن أساعده. فقد كان يتسبب فى تدمير المقاومات، ولم يكن لديه حتى أى قاطع للتيار. ولكننى عندما ظهرت، كان كل ما لديه هو لفة كبيرة من أسلاك الألومنيوم. وقال إن أخاه قد وجدها خلف مخازن القاعدة الجوية".

ومد روسو يديه ليوقف الرجل عما يقول، "إنه لا ينبغى أن يخبرنا بأى من هذه الأشياء. هذه ليست محاكمة، وما يقوله يمكن أن يستخدم ضده بعد ذلك. وسيتم استدعاؤنا جميعًا كشهود". ونظر بسرعة وفى لمحة خاطفة حول الغرفة "إنكم لا ترون أبدًا من الذى يستمع إلى هذا الكلام".

"ما زال هناك ذلك العقل المتشكك مرة أخرى" - قالها هيوم همسا إلى سميث. وقال مستر جونسون: "لا. أنا لا أخبركم بأى شىء يختلف عما قلته فعلا للشريف خمسة عشر مرة.

وسأقوله مرة أخرى لكم".

وارتعش صوته: "لقد قلت لراندى إننى لا أريد أن أعمل شيئا بهذا الألومنيوم. يا رجل، لقد منع استخدام هذه المادة منذ عدة سنوات. وقلت إننى لن أقوم بالعمل إلا إذا أحضر لى سلكا نحاسيا".

وهنا حدث شىء من الإثارة حول المنضدة.

وسأله هيوم: "ما الذى غيرّ تفكيرك؟".

"حسنا، كنت قد بدأت الرحيل. وعندئذ أتت هذه البنت الصغيرة إميلى وأمسكت بيدى، وسألتنى إذا ما كنت أريد أن أرى عرائسها ولعبها. وكانت لديها مجموعة منها موضوعة فى الخارج. وكانت كل واحدة منها تبدو أقذر وأكثر بلى من التى تليها، ويبدو أن شخصا كان قد ألقاها بعيدا، وعندئذ نظرت فى أنحاء المكان. كان نظيفا ولكن الأثاث كان كله ممزقا، كما كانت هناك ثقوب فى الأريكة، وتشققات وتمزق فى الستائر مما تعرفون. وكان كلا الأبوين يعملان، وكنت أعلم ذلك. ولكنك لا يمكن أن تعيش على الحد الأدنى للأجر، ولا يمكن ذلك مع وجود طفلين. وربما لم يكن لديهما تأمين صحى".

قال دكتور كويزنى: "لا. لم يكن لديهما، ولكن لماذا لم تتركهما وشأنهما دون أذى؟".

قال آموس جونسون: "لقد كانت الأسلاك القديمة شديدة الخطورة، وكان لا يمكن أن أتركها بهذا الشكل. وقلت لراندى: "إننى يمكن أن أعيد التجهيز بالأسلاك إذا ما استبدلها

بالنحاس بمجرد أن تكون لديهم النقود ليقوموا بذلك". وقد طلبنى فى الأسبوع الماضى ليقول إن لديه تقريبا ما يكفى. ثم حدث هذا الحريق!! لقد تحطم قلبى عندما رأيت صورة الطفلين فى الصحيفة. وودت لو كنت قد مضيت واشتريت ذلك النحاس بنفسى، ثم استرجعت ثمنه من التأمين الاجتماعى الخاص بى".

وتنحنح هيوم قائلا: "نظرًا للنتائج المرعبة لهذا الحريق، فإن ما قمت به لا يبدو قابلا للدفاع".

وأومأت بيل قائلة: "هذا ما قلته تمامًا".

وولى مستر جونسون رأسه.

ووقف سميث قائلا: "إننا جميعا نعلم أن ما حدث فى أعقاب هذا الحادث كان أمرا محزنًا"، وبحركة تدل على شروده دحرج قطعة فيش بوكر زرقاء بين إصبعيه الإبهام والسبابة، "ولكننا لا يمكن أن نصدر حكما أخلاقيا على مجرد نفع أو عدم نفع نتيجة عمل. إننا نتعاطف مع دوافع هذا الرجل؛ لأنها كانت سليمة وتستحق الثناء. إنه لم يكن يقصد إلحاق الأذى بل كان يقصد الخير".

قالت بيل: "لقد أحرق المنزل ودمره، ألا يعنى ذلك شيئا؟".

"إن هذا أثر غير مقصود، وبسببه يعانى أسىً عميقًا ثم استمر سميث يقول: "إن معرفتنا لنواياه وللنتائج هى فقط التى تمكننا من الحكم على جدارة سلوكه".

كانت عظام أصابع فولتير تدق دقات سريعة وخفيفة على جانب المنضدة وهو يقول: "قول حسن، قول حسن".

ترنح سميث وسقط فى مقعده. ومسح العرق عن جبهته، "إننا لكى نعاقب مستر جونسون، فإننا لا يجب أن نجد الفعل المسبب للأذى والضرر فحسب، بل يجب أيضا أن نجد الدوافع إليه، وأنا لا يمكننى أن أتعاطف مع استياء الجماهير فى هذه الحالة".

قالت بيل: "إنك بهذا تتجاهل حقيقة أن هناك شخصين قد لقيا حتفهما، وأن هذين الطفلين قد فقدا أهلهما؟".

هز سميث رأسه: "لا. ولكن رجلا بريئا تم إحضاره إلى المشنقة من خلال إسناد مزيف يعانى أكبر درجة من العذاب الرهيب، يكون أسوأ حالاً من أولئك الذين يعانون من جرائم ارتكبوها فعلاً".

أطلقت بيل زفرة من صدرها وزحزحت الكرسى الذى تجلس عليه بعيدًا عن مقعد سميث. وانتهت فرقة الموسيقى الموجودة فى البار من عزف مجموعة أخرى، وفى هذا السكون الأعظم قال هيوم: "دعونا نتحرك أليس كذلك؟". إننا جميعًا منفعلون شيئا ما". والتقط مجموعة أوراق اللعب، "ربما كنت على حق يا كونتيسة، فربما ساعدت بضع لعبات فى إعطائنا قدرًا من الراحة. هل نبدأ لعبة "الكروت" السبعة؟". قال ذلك وهو يأخذ رشفة من الويسكى ويوجه غمزة إلى الكونتيسة. وردت عليه بابتسامة، واضعة يدها على ذراعه.

قام روسو بفحص أوراقه المقلوبة على وجهها. وتدلت شفتاه، وتحولت عيناه إلى كرتين من اللهب. وتردد، قابضا على أوراق اللعب، ثم قذف بقطعة فيش إلى الوسط. وسحب سميث أوراقه واضعا إياها مقلوبة على المنضدة، إلا أن اللاعبين الآخرين ألقوا بقطعة فيش كل منهم فى دوره. ووزع هيوم أوراق اللعب، بادئا بالكونتيسة، ثم الدكتور كويزنى، ثم فولتير. ثم كان يحاول الوصول إلى روسو عندما انحنى الأخير إلى الأمام وضرب براحته على يد هيوم مثبتا إياها على لباد المنضدة.

وقام روسو بعد ذلك بيده الطليقة بقذف كل أوراق لعبه المقلوبة قائلا: "أنا لا يمكننى أن ألعب هذه! لقد تجسس علىَّ هيوم وعرفها فعلاً. لقد ضبطته وهو متلبس". ووقف روسو هناك وهو ينتفض قائلا: "أنا أعلم أنكم جميعا ضدى!!".

خفض هيوم عينيه قائلا: "بالتأكيد لا يا صديقى. إننا نثنى عليك، ومعظمنا يفعل ذلك". وخلص يده محررًا إياها من على المنضدة.

لمعت عينا روسو، "إنك تسخر منى، إنك غشاش مخادع، وتافه، إنكم جميعًا فاسدون".

قال فولتير: "إن كبرياءك صعب كسنام الجمل!!".

والتقط روسو الملاحظة ورد عليها بسرعة: "أنت يا سيدى، لديك منطق دون حكمة".

وقال هيوم بلطف: "جان جاك، إن هذا غير لطيف".

واستدار روسو إلى الخلف ناحية هيوم، "وأنت يا سيدى شرف دون فضيلة".

وغمز فولتير إلى هيوم: "ألم أحذرك من الحية السامة؟".

ونظر روسو هائما إلى أعلى كما لو كان يبحث مرة أخرى عن مؤامرات خفية. كنت أنا وجوليا قد استرخينا وكل منا يضع مرفقيه مقابل حافة النافذة. وابتعدنا إلى الخلف، ولكننا تأخرنا كثيرا فقد التقت عيناى بعينى روسو.

وفى لحظة، انزلق الباب الخشبى مفتوحا، وبدا ظل المسئول عن طرد المشاغبين فى الممر، وخلفه مجموعة من زبائن البار يقودهم اثنان من إخوة تاكودا ناظرين إلى الداخل.

الفصل الثامن عشر

أطفال التنوير

جلست مع سميث في الصباح التالي على منضدة رحلات، بينما كانت جوليا تضع البانكيك في أطباقنا من الصاج الساخن. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. وكنا قد قضينا معظم الليلة الماضية مستيقظين في غرفة التحقيق في مكتب رئيس الشرطة. والشعور بالخطر يؤدي إلى تخفيض طاقة المرء، وبمجرد أن تنقشع الخطورة، كنا نستمتع بموجة الرياح الثانية. تناول سميث طعامه بشهية طيبة، وكان وجهه محمراً، وكان تصرفه أكثر سلامًا عما رأيته في أي وقت قبل ذلك.

واستمرت جوليا وسميث في تعليقات دون توقف.

قالت جوليا: "هل رأيت تلك النظرة التي ارتسمت على وجه روسو عندما رأى ريتش ورآني ونحن ننظر إليه؟ إن المرء ربما ظن أنه قد رأى الشيطان ذاته في تلك اللحظة!".

كان سميث يشعر بالحزن: "لقد كان يعاني بشدة من عدم الراحة، ولكنني أظن أنه هو الذي جلب ذلك لنفسه. إن نكران الجميل - وليس الجنون - هو الاسم الأوسط لذلك الشخص".

"إن الأشخاص الحكماء لا يقامرون في لعب البوكر".

"إنني لا أقول إن ما فعله كان مقامرة". كان هذا ما قالته جوليا ردًا عليه "إننا لم نره يفعل شيئا أكثر من دفع الرهان الذي يجب على كل لاعب أن يضعه".

قضم سميث قطعة كبيرة من البانكيك وبلعها محدقا في وجهي للحظة. "أظن أنني مدين لكما باعتذار؟". قالها سميث وهو يلوّح بالشوكة الموجودة في يده نحوي ونحو جوليا.

وأجبته: "هل هناك سبب يدعو لذلك؟".

إن احتكاكنا بالقانون كان مهيناً، فقد تم القبض عليّ وعلى جوليا، وتم تصويرنا، وأخذ بصمات أصابعنا، ولم يطلق سراحنا إلا بعد ساعات عندما تم إسقاط دعاوى انتهاك القانون بناءً على نصيحة العمدة. إن تجربتنا لا يمكن الدفاع عنها إلا بسبب ما أحدثناه من تحول في الانتباه في الشرفة، مما سمح لكل من سميث وفولتير أن يخرجا مستر جونسون – الرجل العجيب دورانجو من الباب الجانبي إلى الأمان.

"لقد كنت متأكدا أنكما ستعودان مرة أخرى إلى دوارنجو، ولكن لم تكن لديّ أية فكرة عن أن الموضوع سينقلب إلى مخالفة فيدرالية". قال سميث.

وقلت: "إن العمدة كان يمكن أن يقتل عندما أثارت الجماهير الشغب، الملعون المحظوظ إنه رجل ذو مركز رفيع".

وأومأ سميث، وهو يمسح على ذقنه: "إذا ما كنت ستمثل أي شيء، ستصبح معرضًا للهجوم عليك". واتسع فمه في ابتسامة عريضة بلهاء: "إنني أعترف، أنني كنت أحاول أن أجعلك تقابل من عاصروني، وكانت تلك مناسبة هامة لذلك. إن الحكمة والفضيلة تنبتان من العمل والنشاط فقط".

جلست جوليا مع صحنها من البانكيك وقالت: "حسنًا، أيها الرجال الحكماء والفضلاء، سيكون أمرًا حكيما، إذا ما قمتم بغسيل كل هذه الصحون".

في هذه اللحظة، ظهرت المحاضرة غير المتفرغة في مركز الطبيعة، وهي تقود الكلب ركس من سلسلته. الذي ظهر أيضا بسبب زيارته التي يقضي فيها ليلته مع السيدة اللطيفة. ولم يكن بإمكانه أن يتوقف عن هز مؤخرته، والعدو حول سميث وحول جوليا وحولي، كأنه متسابق في إحدى مسابقات الروديو(*). كانت المحاضرة – مسز كالاهان – تعيش في إحدى المقطورات خلف المتحف، وقالت إنها بالفعل قد استمتعت بصحبة ركس في الليلة الماضية. وكانت أرملة نشيطة ممتلئة بالحيوية هوايتها الرئيسية – كما أخبرتنا – هي معاملة الذين يقيمون في المعسكر معاملة الأقارب. "إن لديّ عائلة، موجودة الآن في

(*) الروديو Rodeo مسابقة أو عرض عام يتم فيه عرض المهارات في ركوب الخيل غير المروضة أو تطويق الماشية بالحبال، وعادة ما يقام الحفل في الولايات الزراعية أو الغربية في الولايات المتحدة (المترجم).

ست وأربعين ولاية وإحدى عشرة دولة أجنبية". وكانت تقول ذلك بسعادة بالغة. وشكرنا مسز كالاهان ووعدنا بأن نرسل إليها علبة من الشوكولاته الداكنة التى تفضلها، عندما نصل إلى كاليفورنيا.

أخيرا، سيطر التعب علينا، وتوجهنا إلى أسرتنا لننام حتى وقت متأخر بعد الظهر. ولما كانت الشمس قد مالت فى السماء نحو الغرب، فقد بدأ السير فى الوادى الضيق وكانت جوليا ما زالت تعرج بسبب اعوجاج مفصل قدمها. ولذا، استندت على ذراعى وشعرت كأننى فارس مع فتاته. وكان سميث يتبعنا مع ركس الذى كان يمارس طقوسه المعتادة من الرقص فى حلقات ودوائر، وشم كعبى سميث بأنفه، ومحاولته جذب اهتمامنا.

بعد عشرين دقيقة من السَّير المتمهل، وصلنا إلى حافة عميقة تطل على سهل. وكانت الأرض الجافة تبدو موحشة للعين التى لا تدقق فى الملاحظة، ومع ذلك كانت هناك علامات تدل على الحياة فى كل مكان: آثار خفيفة على التراب، وحفر منتشرة فى الصخور، وأغصان نباتات تخرج غضة من بين الشقوق فى الصخور. ووجدنا شيئا من الظل خلف جلمود صخر كبير فجلسنا، وتقاسمنا صندوقا من المياه.

قالت جوليا: "لقد بدا الأمر بينك وبين هيوم ليلة أمس كما لو كان اللقاء الأسبوعى فى البيت القديم".

أومأ سميث قائلاً: "هناك دائما خطأ يجب اكتشافه. وليس من المبالغة القول بإننى وهيوم قد عشنا أكثر الأوقات إثارة فى تاريخ البشرية – أو على الأقل منذ فجر الزراعة أى منذ نحو عشرة آلاف سنة مضت".

"هذا ليس أكثر إثارة مما يحدث فى الوقت الحاضر". هكذا قلت رافعا يدى فى اتجاه السماء. "إننا اليوم نطير إلى القمر والمريخ، والأقمار الصناعية والحواسب الآلية تقدم اتصالات فورية لأى مكان. بل إن عمليات نقل وزرع القلوب، والاستنساخ لم تعد تحتل عناوين الصحف".

"آه.. يا شباب، هذا هو قصر النظر". قال سميث هذا، وهو يحبس ضحكة. "إن الاختراعات تنبع من التخيل. يا ريتش. إن ما تقوله الآن عن القرن الثامن عشر بأنه "عصر التنوير"، قد حرر الناس من القيود العقلية. وإذا ما تحرر الخيال والتخيل، فإن الابتكار أمر لا مفر منه".

كانت لمحة من الجمال المطلق قد تكونت على وجهه. "إننا – أنا وهيوم – قد عشنا فى أثناء هذه الفترة الرمادية التى اجتاز فيها التفكير العالمى تحولاً عميقا وأساسياً". واستمر يقول: "هناك كثير من نواحى المجتمع التى مازالت محتجبة فى أستار العصور الوسطي، ومع ذلك فإن الآخرين أصبحوا أكثر تشددا تجاه نور الثورة العلمية. كما أن شعوب العصور الوسطى كانت متعلقة بالإيمان فيما بعد الحياة. ولما لا؟ إن المجتمع كان مكبلاً بالضوابط الجامدة – التى فرضتها الكنيسة، والإقطاعيون من أصحاب الأراضى والحكومات. ولما كانت المكافآت لا تأتى إلا من السماء، فمن ذا الذى سيهتم بمحاربة هذه التفاصيل الخاصة بموضوع عدم المساواة هنا على الأرض؟".

كان سميث يحب أن يعبث بالأشياء فى أثناء حديثه، وكان قد التقط عدة قطع صغيرة من الحجارة، وأخذ يحك بعضها ببعض. "إن التنوير قد كشف مبدأ وفكرة أن التقدم كان ممكناً ومرجوًا فى الوقت ذاته". ثم استمر يقول: "إن هذه النظرات المتعمقة أدت إلى ثورات سياسية فى أمريكا وفرنسا، وإلى ثورات اقتصادية فى الثورة الصناعية. وهذا هو السبب فى أنكم كنتم محتاجين إلى لقاء من عاصروني، ولتروا النطاق والإطار الذى جرى فيه عملي. إن العدالة والحرية ليستا مجرد كلمتين بالنسبة إلينا، ولكنها كانت أفكارًا للتقدم. وكان من الضرورى أن يموت كثيرون فى سبيل حياة هذه المثاليات".

كان يشير بإفراط إلى الوادى الموجود أسفلنا، "لقد دفعت أمريكا ثمنا غاليا جدا لقاء قوميتها الخاصة". ثم قال: "لقد حاولت إلى أقصى ما يمكننى أن أمنع تلك الحروب الطويلة، المكلفة والمخربة، وقتل كثير من الأبرياء!! وأمضيت ثلاث سنوات كالجحيم أناقش فيها البرلمان ضد جنون الحرب الحديثة. وكانت هذه نقطة رئيسية فى كتابى ثروة الأمم – والذى كان فوق كل شيء – رسالة عن الاستقلال الاقتصادي. فهل تظنون أنها كانت مجرد مصادفة أن ينشر كتابى ويصدر فى عام ١٧٧٦؟ أقصد بالمصادفة أن إعلان الاستقلال لبلادكم صدر بعد أربعة شهور من صدور كتابي؟ هل فكرتم فى هذا؟ هم...هم..؟".

كان صوت سميث يزداد عمقا بغضب: "إن حُكّام بريطانيا العظمى كانوا يضحكون الشعب بفكرة أنهم يملكون إمبراطورية فى الجانب الغربى من الأطلنطى. أوف..!! وهذه الإمبراطورية لم تكن موجودة إلا فى خيالهم فحسب. إنها لم تكن إمبراطورية بل مشروع

إمبراطورية، كما أنها لم تكن منجم ذهب، بل مجرد مشروع تطلب إنفاقًا ضخما لا ينتهي. وكانت آثار احتكار تجارة المستعمرات على معظم سكان بريطانيا مجرد خسارة بدلا من الربح. كان هذا بالتأكيد، هو الوقت الذي يجب فيه على حكامنا أن يستيقظوا من أحلامهم".

ورفع سميث ذراعيه في غيظ وإحباط وقال: "وبدلا من شن الحرب على أمريكا لكبتها، كنت أفضل قيام اتحاد دستوري. تصوروا هذا. لو كان قد حدث، لكنَّا في خمسين عاما، تمكنا من نقل عاصمتنا من لندن إلى فيلادلفيا". وعاد إلى الاكتئاب: "إن حججي لم تكن تجد سوى آذان صماء، وأدت الحرب الأهلية الأولى إلى فصل أمريكا عن دولتها الأم".

كانت جوليا تجلس مسترخية وسعيدة، وكان نظري إليها قد شغلني وملأني سرورًا للحظات القليلة التالية، كانت الشمس والنسيم ينشران شعورًا رائعاً. إلا أن انتباهي قد عاد على الرغم مني إلى سميث الذي كان يقول: "إن الآباء المؤسسين لأمريكا الذين أتوا من فرجينيا أحبوا أفكاري التي ناديت بها بشأن حرية التجارة. وبالطبع اعتنقوها! كي يتمكنوا من بيع الطباق الذي يزرعه العبيد إلى أوروبا مباشرة، ويتخطون الوسيط البريطاني المحتكر. كان هدفنا يستحق الاهتمام، ولكن ماذا كان ثمن هذا الرياء والنفاق الكاذب؟ إن الحرية كانت تعني قيامهم ببيع أشيائهم كما يشاءون، أما السماح للإنسان الأسود بنفس الميزة، فكان الموت أهون عليهم منه! فهل ترون كيف كان يمكن للشعوب أن تأخذ مجرد قطعة من فلسفتي وتلويها وتحرفها لتناسب أغراضها؟ إنني كنت أود فقط لو قام ملاك تلك المزارع بتوجيه نفس القدر من الاهتمام إلى هجماتي على العبودية والرق: لقد تطلب هذا حربا أهلية ثانية لاستئصال هذه الأسواق الكريهة للعمل القسري".

ورمى سميث إحدى الحصوات عبر الحافة منصتا، إلا أنه لم يسمع شيئاً. "ألا تدركون أهمية قيامكم بإصلاح صورتنا جميعا؟ إن التاريخ لن يكون نفس الشيء إذا ما تتم بهذا العمل، أليس كذلك؟". واستمر قائلا: "إن إسهامات هيوم في التنوير عديدة ولا تحصى، من الفلسفة إلى التاريخ وإلى الاقتصاد. وفولتير كما تعلمون، قد أثر فيَّ بشدة وعمق، فقد كان هو وروسو مصدر الإلهام للثورة الفرنسية - وهذا الأخير كان المحرك لروح المساواة والتمكين الذاتي. أما الدكتور كويزني - ذلك الطبيب صاحب الخريطة البيانية - فكان أحد الاقتصاديين المشهورين ذوي التأثير الكبير. والآن استمعا إلي، لقد

نأيت بنفسي عن أصحاب مذهب الحكومة الطبيعية على أسس عملية صرفة. تصوّروا مثلاً أن كويزني يقول: "إن التصنيع لم يسهم في المجتمع، أليس هذا على نفس درجة غباء روسو الذي عارض وانتقد تقدم الحضارة؟".

استمر سميث يقول: "ينبغي توضيح أن رموز التنوير لم يكونوا دائما على اتفاق، وكثيرا ما اختلفنا بشدة. لقد كنا نتقاسم وعد البحث عن الحقيقة، حيثما يقودنا. وقد أظهرت الثورة العلمية أنه كان بإمكاننا أن نفهم، ونتنبأ وإلى حد ما أن نتحكم في عالم الفيزياء الطبيعية. وقد قمت مع هيوم بتطبيق هذه الطرق العلمية على عالم الإنسان، لكشف قوانين التنظيم الاجتماعي – عن الأخلاق والأسواق – على غرار قوانين الجاذبية".

وهز سميث رأسه مع نظرة تعجب: "لقد كان الزمن الأكثر ثورية وتفاؤلاً، كما ينبغي أن أقول. إن هذه المخترعات الجديدة التي تتحدثون عنها بحماس شديد في هذه الأيام هي ببساطة ثمار تفكيرنا وأفكارنا المبتكرة. مجرد آثار ونتائج لأسبابنا وقضايانا!!".

كانت قطع هذا اللغز الفكري تتساقط في أماكنها، وعلى الرغم من أن الليلة الماضية في صالون أولدورانجو كانت حلما سيرياليا – أو أحد أفلام فيلليني التي لا يمكن أن تكون قد حدثت – فإنني وجدت نفسي أقبل كل ذلك بدون اعتراض. والغريب هو كيفية قبولي لسميث على أنه أصيل، أما بقية ذلك، فقد كان غير قابل للتصديق وغير محتمل على عِلاّته، فلم يعد يزعجني.

أما جوليا التي كانت تصغي بهدوء، فقد تكلمت أخيرا: "إنني أكره أن أفجّر فقاعاتكم يا سادة، ولكن ألا ينبغي ألا نركز كثيرا على الماضي، ونفكر أكثر في المستقبل؟".

وجه سميث عينيه كما وجهت عيني إلى أي مكان آخر عدا وجه جوليا، وواجهتنا جوليا صراحة وبشكل مباشر: "إنني أعترف أنني كنت المسئولة عن تشجيع هارولد على أن يكون قناة يمر منها سميث. ولكن لم تكن لديّ أي فكرة عن أنه سيسيطر تماما على عقله". وابتسمت ابتسامة خفيفة ناحية سميث. "لم يكن هناك أي قصد أو نية لعدوان، ولكنك أصبحت مثل الرجل الذي أتى للعشاء"، وأقام طوال الصيف حتى جاء الشتاء. ألم يحن بعد الوقت الذي ينتهي فيه هذا؟

تبادلت نظرات خاطفة مع سميث، بينما استمرت جوليا في حديثها ناظرة إليّ في هذه المرة: "لقد حان الوقت الذي نبعث فيه هارولد إلى أخته في أوكلاند، وليكن الليلة!".

كان سميث يفحص الأرض باهتمام شديد، بينما كنت أتظاهر بالاهتمام بتراكم مجموعة من السحب وتشكيلاتها ناحية الغرب. وأخيرا، وجهت عيني نحو عينيها، قائلا: "إنه يأتي بأشياء جديدة كل يوم. وكلها أشياء مهمة؟".

كانت إجابة جوليا حادة: "حسنا، إنه يمكن أن يقول ما يريده بنفس النمط في أوكلاند. إن وجوده مع أخته قد يساعد هارولد على العودة إلى الصحة العقلية والبدنية".

نظرت إلى سميث، الذي لم يقل شيئا، ولكن حاجبه كان قد غاص في جبهته، وبحركة من رأسه لا يمكن إدراكها بالحس أو العقل إلى الأمام والخلف كان يشير برفض فكرة جوليا.

قلت لجوليا: "حسنا، سنبدأ رحلتنا بعد العشاء".

رقّت جوليا وضمتني إليها، وهي تهز رأسها مقابل صدري قائلة: "شكرا لك". بينما عبس سميث وقطب وجهه كما لو كنت قد هجرته.

نهضت من مكاني وبدأت في العودة على امتداد حافة الوادي الضيق. ووقف سميث على قدميه متثاقلاً وبصعوبة، وتبعته جوليا ممسكة بذراعه، وفيما عدا ما كان من انفجار جوليا، فقد كنا جميعا نستمتع بمزاج رائق مرح وسلام نسبي عندما وصلنا إلى متجر المعسكر. واختطفتنا الصحيفة المحلية وأعادتنا إلى الواقع مرة أخرى. كانت صور جوليا وصوري تزين الصفحة الأولى !! كان المصور قد التقط صورة خاطفة لنا عندما حجزنا في السجن. كما نشرت الجريدة اسمينا واسم بلدتنا في فردريكسبورج.

"اللعنة!!". قلت غاضبا: "ألن يحب نائب رئيس الجامعة هذا؟ ألن تحبه أيضا لجنة صامويلسون؟".

وأشار سميث إلى الصحيفة قائلا: "رغم كل شيء، فإنكما تكونان معًا ثنائيا جميلا". "وماذا عن مبدأ الناس فوق الأرباح؟". شرد عقلي مفكرا: "إن ذلك يوفر عليهم كثيرا من المشي بحثا عنا".

كنت مقتنعا بأن احتكاكنا مُرتين بالموت لم يكن مجرد مصادفة. فقد كان ماكس هيس لا يزال طليقا هناك، ويمكنه إذلال سميث وإذلالي وأي شخص قريب منا. لقد كان الحظ حليفنا حتى الآن. ولكن احتكاكنا بالقانون قد أصبح من أخبار الصفحة الأولى في الصحف، وكان نوعا من نواحي الشهرة المحلية، التي تحب صحيفة فردريكسبورج المحلية أن تروج لها. إن العالم بأسره يمكن أن يعرف مكاننا بحلول صباح اليوم التالي. ألا يمكن أن ننتهز هذه الفرصة؟ هل يمكننا أن نخاطر بوجود جوليا معنا واحتمال إلحاق أذى بها إذا ما ظلت معنا؟ بعد نصف ساعة من هذا، كانت هناك خطة قد تشكلت في عقلي.

بعد العشاء، حزمنا متاعنا ووضعنا عدتنا. في السيارة وجلست في دورة المياه الخاصة بالرجال وأعددت خطابا. "عزيزتي جوليا – لا يمكننا الذهاب إلى أوكلاند لكافة الأسباب الواضحة التي تعرفينها. وذهابك معنا يضعنا جميعًا في خطر شديد. وأرجو أن تسامحيني إذ لم أدع الأمر كي تقرري ما ترين بشأنه، فإنك في بعض الأحيان تتسمين بقدر كبير من الجرأة والشجاعة، وإذا ما أصررت على مصاحبتنا، فإنني لم أكن واثقا في قدرتي على أن أقول لك: "لا". لقد رتبت كل شيء مع مسز كالاهان لتودعك بأمان على طائرة تعُود بك إلى مقرك. وأرجو أن تصدقيني عندما أقول إنني أحبك، وأن هارولد يحبك، وأظن أن سميث يحبك أيضا. ما أعجب هذا المزيج الثلاثي! وحتى يمكننا أن نعود إلى الاتصال ببعضنا، تحياتي".

وضعت الخطاب في مظروف وأدخلتهُ خلسة في حقيبة يد جوليا عندما كانت في دورة المياه. ومع تلويح اليد من المحاضرة الباسمة متمنية رحلة سعيدة لنا، قفزت مع سميث في سيارتنا الكبيرة متجهين بسرعة نحو الشمس الغاربة. وكان ركس ينظر من خلال زجاج السيارة الخلفي. وفي المرآة العاكسة للخلف رأيت جوليا تعود للظهور من دورة المياه وتنظر غير متيقنة من سحابة الغبار التي خلفتها سيارتنا وراءها. وكنت على وشك الضغط على المكابح لإيقاف السيارة.

ما كنت أفعله كان مرعبا وأبَويًا. ومع ذلك، فإنني كنت أعلم أننا لو كنا أخبرناها بخططنا، كانت ستصر على مرافقتنا، وعندئذ، لم يكن من الممكن أن أوقفها. ولذا فقد

استمريت فى السير، كما استمريت فى المراقبة حتى أصبحت جوليا مجرد نقطة على البعد.

قال سميث: "إنها ستغضب بشدة، ولكنك فعلت الصواب".

وسألته: "هل ستعلم دوافعى أم أنها ستحكم فقط على تصرفاتى؟".

الجزء الثالث

الفضيلة

"إن الحكمة الفائقة هي: وصل أفضل رأس بأفضل قلب".

آدم سميث

نظرية المشاعر الأخلاقية (١٧٥٩)

الفصل التاسع عشر

متفرج من الداخل

دى موان، أيوا

وصلت إلى ساحل كاليفورنيا بعد قضاء ليلة طويلة في قيادة السيارة. وكنا نفضل أن نكون مجهولين، ومع الموسم السياحى الحاشد، كانت المتنزهات النادية ذات الأشجار الواقعة تحت الكرمل، متنفسا رائعا من مغامرتنا التى خضناها في يوتاه. كما أنه مكان لا يحتمل فيه أن يبحث أى إرهابى عنا. وكنت بحاجة إلى وقت للتفكير والتخطيط. ومع الاقتراب السريع لاجتماع مجلس إدارة وورلدكيم في شهر سبتمبر، كنت مازلت لم أفعل شيئا لتقديمه إليهم. ومع ذلك كنت - وياللغرابة!! - أشعر بأمان وسلام. وشهر سبتمبر على وشك القدوم بسرعة.

كان معسكرنا في بيج سور قد أقيم في وسط الغابات الحمراء الساحلية القديمة التى كانت تظللنا، وهى من أطول النباتات والأشياء الحية على كوكب الأرض. وقد أدى السقف الذى صنعته الغصون وأوراق الأشجار إلى خلق صعوبة بالغة أمام أشعة الشمس لاختراقه، بينما قدم حماية من برد السماء والأمطار الخفيفة. وقد قضينا اليوم الأول نائمين نومًا متصلا، نحاول فيه استعادة الأحلام التى فقدناها فى أثناء الليلتين السابقتين. وفى الصباح التالى واصلنا تكاسلنا، حتى ينقشع الضباب الثقيل، وعندما وصلت الشمس إلى كبد السماء فى الظهر، بدأت بطوننا تثور. واستفسرنا من مكتب المعسكر، ثم قدنا السيارة إلى مطعم مريح وعامر بالعملاء فوق إحدى الصخور الكبيرة المطلة على المحيط.

ولما كان الساحل الشمالي لكاليفورنيا يظل باردًا باستمرار طوال العام، فقد سهل هذا لى أن أترك ركس دون حراسة في السيارة قانعا بوعاء من الحساء وبعض كريات الطعام الصغيرة. ودلفنا إلى الداخل، ولدىّ رؤيتى لتلك النوافذ الكبيرة الضخمة المطلة على مدينة بيج سور، سرعان ما عادت جوليا إلى ذهنى، وافتقدت كثيرا وجودها إلى جانبى فى هذه البقعة الساحرة، وبمجرد أن طلبنا الغداء ووصلت إلى مائدتنا طلباتنا من المشروبات، قلت مفاتحا سميث: "هل تحس برغبة فى الحديث؟".

"هيا ابدأ".

أخرجت جهاز التسجيل ووضعته على المنضدة بعد أن بدأت تشغيله. كان الأمر يبدو وكأن شهرا كاملا قد مضى منذ آخر مرة استخدمته فيها، ولكن فى الواقع أن ذلك لم يتعد بضعة أيام. وفى خلال هذا الوقت كان سميث قد سرق زجاجة الويسكى الخاصة بى، وتخيل أن المرأة ذات الشعر الأحمر، التى كانت فى المعسكر، كانت هى صديقته القديمة، ثم انهار واستفز هارولد للعودة، واختفى بعد ذلك لمدة نصف يوم. واكتشفنا وجوده - فى نهاية الأمر - فى إحدى صالونات المقامرة، كما أنه لم يلعب دورًا صغيرًا فى الشغب الذى حدث بالمدينة. وإذا أخذنا فى الاعتبار كل هذا، هل كان عجبا ألا أتذكر ماذا تحدثنا بشأنه؟

وبصوت خفيض، أعدت الاستماع إلى عدة دقائق من شريط التسجيل، حيث كان سميث يطرح موضوع عدم الحاجة إلى الرقابة الحكومية واسعة النطاق فى المجتمع؛ نظرًا لأن البشر يتجهون إلى موازنة دوافعهم الأنانية بدوافع أخرى. "إن الناس لديهم ضمير": هكذا قال.

وأومأ سميث " هذا هو!".

"حسنًا، إن الشيء التالى سيكون هو كيف نحصل على الضمير؟ هل نولد به؟ أم - كما يريد الإنسان الحديث أن يعرف - أنه قد يكون متاحا للبيع فى المحلات الكبرى؟".

قال: "لا تكن ساذجًا"، ولكنى رأيته يبتسم. "على الرغم من أننا لا نولد بالضمير، فإننا نولد بالدافع إلى أن يكون لدينا ضمير، ولدينا الأدوات لكى نعمل هذا. وإلى الحد الذى يتطور فيه الضمير فى أثناء فترة حياتك، عندئذ يقال إنك تتطور كإنسان فاضل فى مقابل الخنزير والفأر أو الصخرة. وعندما يتفتح الضمير: تتم متابعته، وتعهده بالعناية والتهذيب، وتغذيته وتعزيزه.

وفكرت مليًا فى هذا اللحظة، ثم قلت: "لماذا ينبغى علىَّ أن أُعنى بتطوير الضمير؟ ولماذا لا أعتمد على الغريزة والعقل؟".

أخذ سميث رشفة من مشروب خفيف ووضع الزجاجة على المنضدة ثم قال: "حسناً، إن ضميرك يتشكل باستخدام كليهما. وإحدى الغرائز التى بحثناها كانت غريزة

المحافظة على الذات أو حب الذات. وقد حاولت أن أبين في كتبي أن هذه الغريزة ليست شريرة. وفي نطاق حدودها، يمكن أن تكون فاضلة، كما كتبت في كتابي ثروة الأمم.

"ولكن افتراضي الثاني" - كما يقول سميث - "هو إن البشر أيضًا لديهم غريزة فطرية متأصلة هي السعي للحصول على موافقة. ونحن نفعل هذا من خلال تعاطفنا مع الآخرين. وأنا لا أعني بالتعاطف أي عاطفة خاصة، سواء أكانت جيدة أم لم تكن، ولكنني أعني تفهم عواطف الآخر. وهذا هو الشعور بالزمالة الذي نتقاسمه مع الآخرين. ولا يمكن لأي شخص أن يقول إن بعضا من هذا ينبع من الدوافع الأنانية".

وعبر الحجرة كانت هناك طفلة صغيرة ترفعها أمها لتجلسها على أحد الكراسي المرتفعة مع كثير من الجلبة من أمها. وتحركت نحو الطفلة قائلا: "نعم إن هذه الطفلة تنظر إلى أمها، باعتبارها أقرب الأشياء إلى الله. وهي تريد أن تستمع إلى نغمات وهدهدة الحب والود التي تنتج عن الاستحسان والموافقة. ويبدو أن الاستحسان الخارجي واستمرار الحياة مُتَرادِفَان".

أجاب سميث: "إن الموضوع أعمق من هذا. فإن رغبتك في الاستحسان الداخلي الخاص بك، يمكن أن تؤدي بك في نهاية الأمر إلى معارضة والديك ونظرائك، إن ضميرك يمكن أن يقودك حتى إلى حتفك، مثلما حدث لسقراط. إن غريزة حب البقاء لا يمكن وحدها أن تفسر كافة نواحي السلوك البشري، بل ربما لا يمكنها حتى أن تفسر أهم تصرفاته".

كان الشاطئ تحتنا مهجورًا إلا من أحد المتزلجين على الماء، الذي اقترب من حافة المياه يحمل لوح التزلج تحت ذراعه الأيسر. وكانت حلته السوداء المضادة للبلل تحتضن وسطه، بينما كان شعره الرمادي يتدلى فوق ظهره في شكل ذيل حصان. وكان يبدو غير واع بأي شيء فيما عدا الأمواج الطويلة القادمة. وألقى الرجل باللوح على الرمال.

وجلسنا نراقبه، بينما كان يدخل ذراعيه ببطء في أكمام حلته المضادة للبلل ويزمها بالزمّام المنزلق فوق ظهره، وتحرك إلى حيث كانت الرغاوى وفقاعات الزبد القادمة تدور وتلتف حول قدميه، ثم توقف. وعلى بعد نحو خمسين ياردة تقريبا، وعلى كل جانب من جانبي النطاق، برزت جزر صخرية ضخمة من البحر، وصخور مسننة تهدد بالخطر على الحواف.

"انظر إلى هذا الشخص"، قال سميث: "انظر كيف يتردد عند حافة الماء! إن هناك نزاع في داخل نفسه".

"إنها عملية حساب للمتعة والألم". وقلت موحيًا: "إن البحر شديد الاضطراب هناك. نعم، إن هناك حوارًا داخليا يجرى الأن في نفسه عما إذا كان سيدخل أم لا يدخل الآن في هذه الموجة المتكسرة. إنه قرار بشأن الإجراء الصّواب والخطأ. ويجب أن تلاحظ أنه لا يقيم قراره على أساس موافقتنا؛ نظرا لأنه لا يرانا. إن المشاهدين الذين يتخيلهم هم المشاهدون الموجودون داخل عقله. والمحادثة التي يقوم بها هي مع نفسه".

قلت: "نعم ، أظن أن هذا صحيح".

قال سميث: "حسناً، هذه المحادثة التي تجرى مع أنفسنا هي الكيفية التي يتطور بها الضمير". كان الرجل الواقف على الشاطئ قد اتخذ قراراً. ووصل إلى لوح التزلج، وثبت رباط الكاحل به، ومشى مهرولاً إلى داخل الأمواج. وفي لحظة، كان قد غطس تحت زبد من الفقاقيع البيضاء التي غطته بينما كان يتخذ طريقه إلى الموجات التي تتكسر بعيدًا عن الشاطئ.

واستدرت ملتفتًا إلى سميث، "كيف ننمي الشعور بالزمالة مع هذا المتزلج؟".

قال: "نضع أنفسنا مكانه. ونظرًا لأننا لا يمكن أن نفعل ذلك حرفيا، يجب أن نقوم بذلك من خلال التفكير والتخيل. وأسأل نفسي هذا السؤال: "ماذا سيكون شعوري لو كنت مكانه؟". هذا هو العمل الإيجابي للتخيل الذي يجعل التعاطف ممكناً. إن التعاطف هو المنحة التي يقدمها لنا الخالق كي نصبح بشراً".

وأخذ سميث ينظر فاحصا الأمواج تحته. وتحدث ببطء قائلاً: "إن ما سأقوله بعد ذلك، غامض ولكنه شديد الأهمية: إن تعاطف الآخرين هو موافقتهم بأنني أشعر بالأمور بالطريقة السليمة التي يجب أن أشعر بها".

وقلت: "وهذا يعني...؟".

"افترض أنك وقعت في حادث سيارة صغيرة من تلك الحوادث التي يغطيها التأمين بالكامل. فإذا ما كان رد فعلك هو أن حياتك كلها كانت ستنهار بسبب هذا الانحناء في

حاجز الاصطدام، سيكون من الصعب أن تجد من يتعاطف معك. إذ إن رد فعلك سيكون غير مناسب للظروف".

وقلت: "وإذا ماتت زوجتك فى حادث سيارة فهل سيكون ردّ فعلك سليمًا تمامًا؟".

أومأ سميث برأسه موافقا: "إنك يقظ ومتنبه بالنسبة إلى ما إذا كانت ردودك العاطفية ملائمة. فى الواقع إنك يمكن أن تغير رد فعلك طوال الوقت، عندما تصل إلى رؤية ما هو مقبول - أو ما يدخل فى نطاق الملاءمة وآداب المجتمع. إن الطفل الذى يبكى بكاء شديدًا بسبب خدش بسيط - يتعلم مجتمعيًا - أن يقلل هذه الدموع إلى الحد الأدنى وأن يدخرها للجرح الأكبر".

"وهل يعنى ذلك أن يصبحوا شياطين صغارًا مكبوتين؟".

ضحك سميث قائلاً: "إن البوذى يرى أن المتعة والألم مجرد اختيارين، فهل يكبت البوذى الألم أو لا يشعر به؟".

"لقد وضحت المسألة". هكذا قلت بعد لحظة تفكير.

"حسنا، نظرا لأننى اخترت أن تكون مشاعرى معتدلة، فإن هذا يعنى أننى على وعى بمشاعرى وأفعالى. وأنا أراقبها لأرى ما إذا كانت، فعلاً ملائمة. وأحاول أن أرى نفسى كما يرانى الآخرون. وهكذا أصبح متفرجًا غير متحيز، وكذلك كممثل فى هذه المسرحية.

سكت سميث، ثم قال: "إن هذا الرأى الخاص بالمتفرج غير المتحيز أحد الأمور شديدة الأهمية فى خلق الضمير. فإننى عندما أنظر إلى أعمالى المحتملة من وجهة نظر الآخر، أتعلم أنه بينما أكون أنا "الأول" بالنسبة لنفسى فأنا لست "الأول" بالنسبة للآخرين الذين لا يشاطروننى انحيازى الذاتى الأنوى لنفسى. وفضلا عن هذا - وهذا الجزء ذو أهمية مطلقة - فإننا لا نرغب فقط فى كسب الثناء الخارجى من الآخرين، بل نرغب أيضًا فى كسب الاحترام والثناء الداخلى من أنفسنا. نعم، فإن هناك ذلك العنصر النهائى، إلا أنه أيضًا أساسى- وهو الصخرة التى قد يتعثر عندها كثيرون - أنصت إلىّ، إننا فى نهاية الأمر نريد أن نكون جديرين بثنائنا على أنفسنا. إننا نرغب أن نكون جديرين بالثناء".

وفى هذه اللحظة بدأت تلك الطفلة الصغيرة فى الصراخ عبر الغرفة.

وقلت: "هذه الطفلة لم تتعلم بعد أى شيء مما نقول".

وضحكنا.

انتهينا من غدائنا. وقامت النادلة بجمع الأطباق. وتراخينا نحتسى القهوة والشاى، ونحن نمسح بأنظارنا ذلك الشريط الساحلى من موقعنا على قمة التل. كانت السماء غائمة وبها خطوط من السحب الداكنة تتسابق فيما بينها.

لوى سميث شفتيه ناظرًا بشزر، كما لو كان يركز على شيء بعيد. "ليس هناك شك بأنه فى كثير من الحالات، يخفق الضمير أمام ضعف الإنسان"، ثم استدار إلىّ قائلاً: "ومع ذلك فإن سلطة قاضينا الداخلى – ضميرنا وشريكنا العظيم الكامن فى صدورنا– عظيمة جداً، ولا يمكن إلا باستشارته أن نرى أبدا ما يتصل بنفوسنا فى أبعاده الصحيحة".

وانحنى إلى الأمام وربت على ذراعى قائلاً: "دعنى أعطيك تصويرًا. كلكم تعلمون عن الخداعات البصرية: عندما تظهر الأشياء أكبر أو أصغر ليس بحسب أبعادها الحقيقة ولكن تبعًا لقربها منا".

وأشار إلى النافذة الضخمة الرائعة المطلة على بيج سور وقال: "انظر إلى هذا الأفق – منظر رائع للأراضى والمحيط والغابات والجبال. ومع ذلك، فكل هذه البانوراما وهذا المنظر الشامل العريض فى كل اتجاه لا يشغل سوى بضعة أقسام من زجاج النافذة، وهذه الجبال الضخمة الهائلة تبدو، فى عيوننا، أصغر كثيرا من هذه الغرفة التى نجلس بداخلها. وهذا الرجل الواقف على لوح الانزلاق على الماء لا يزيد حجمه على ظهر إصبعى. إن أعيننا تخدعنا".

كان سميث يمتع نفسه ويقول: "نحن نصلح عيب عيوننا هذا بإضافة الرسم المنظورى. ولا يمكننا أن نعقد مقارنة سليمة بين تلك الجبال وهذه الغرفة الصغيرة بأية طريقة أخرى. إلا بنقل أنفسنا – فى خيالنا – إلى مكان آخر يمكن منه أن نجرى مسحًا لكل من تلك الأشياء من على مسافات متساوية تقريبًا. وبهذا يمكننا أن نكون حكما تقديريا عن نسبها وأبعادها الحقيقية. إن العادة والخبرة يعلماننا أن نقوم بهذا بسرعة وسهولة بحيث نادرًا ما ندرى به أو نفكر فيه".

نهض سميث وبدأ يخطو ويقول: "وبنفس الطريقة التى تعمل بها عيوننا، تخدعنا العواطف الأنانية والأصلية فى طبيعتنا، أيضاً. فالأكثر قربا إلينا يكون هو الأكثر أهمية بالنسبة إلينا مهما كان. ويتم إصلاح هذا التشوه من خلال منظور الملاءمة والعدالة. وهذه تصحح ما يوجد دونها من عدم المساواة الطبيعية فى مشاعرنا.

دار سميث على كعبيه ليواجهنى، وقد ارتسمت على وجهه نظرة جادة عميقة. "فكر فى هذا: لنفترض أن إمبراطورية الصين العظيمة، بكل ما فيها من أعداد السكان الضخمة قد ابتلعتها الأرض فجأة بسبب أحد الزلازل!".

لابد أننى أجفلت، لأن سميث وضع يده على كتفى، واستمر قائلاً: "كيف يمكن لشخص - ولنقل حتى بالتحديد - لشخص ذى إنسانية فى أوروبا، ليس له أى ارتباط بهذا الجزء من العالم، أن يتأثر عند تلقيه أنباء هذه الكارثة المروّعة؟ إيه؟".

ولمعرفتى بسميث عن كثب، فقد امتنعت عن الإجابة على سؤال كان من الواضح أنه مجرد سؤال بيانى للتأثير فى النفوس، واستمر سميث معتدا بنفسه" إن هذا الشخص ذا الإنسانية، كما أتخيل، سيبدأ قبل كل شيء بالتعبير بقوة عن أسفه لسوء الحظ الذى صادفه أولئك السكان البؤساء، وسيقدم كثيرا من الأفكار السوداء الكئيبة عن مدى الخطورة على الحياة الإنسانية، وتفاهة أعمال الفرد، والتى يمكن بهذا الشكل أن تمحق فى لحظة صدفةً، كما أنه أيضا، وربما - إذا كان ممن يؤمنون بالمضاربات، سيدخل فى كثير من التبريرات المتعلقة بالآثار التى يحدثها هذا الدمار على التجارة فى أوروبا، وعلى المهن والأعمال فى العالم بصفة عامة".

وابتسم سميث بطريقة خبيثة، وضاقت عيناه وقال: "وعندما انتهت كل هذه الفلسفة اللطيفة، وعندما تنتهى كل هذه المشاعر التى تم التعبير عنها بطريقة معقولة، فإن هذا الرجل سيستمر فى متابعة عمله أو متعته، ويأخذ استراحته أولهوه بنفس السهولة والهدوء، كما لو لم يكن هناك حادث قد وقع".

ونظرت إليه محملقا.

"أوه.. نعم! إن أكثر دمار تفاهة يصيب به هذا الرجل نفسه، قد يحدث له اضطرابا حقيقيا فى عقله ويكون أكبر أثرا عما يحدثه استئصال أرواح الملايين فى الصين، أوه،

نعم. فإذا ما كان مضطرًا إلى فقد إصبعه الصغير غدا، فإنه لن ينام الليلة. ولكن، إذا ما افترضنا أنه لم يكن قد رأى أهل الصين على الإطلاق – فإنه سيغط فى نومه آمنا رغم الدمار الذى لحق بمئات الملايين من إخوته. ومن الواضح أن الدمار بحجمه الضخم والهائل أقل أهمية عن سوء حظ تافه يخصه. هذه يا صديقى العزيز هى الحقيقة المؤلمة: إن مشاعرنا السلبية فى معظم الأحيان دائما ما تكون فورية ودنيئة وأنانية".

ورددت قائلاً: "إنك بهذا قد نزعت أحشاء أى فكرة عن الضمير الإنسانى".

قال سميث: "لا. أبدًا على الإطلاق، لنضع هذه المناقشة فى مملكة الواقع. إذا افترضنا هذا الرجل ذو الإنسانية، قد عمل فى السر، وكان يمكنه إنقاذ هؤلاء المئات من الملايين من إخوته، ولنفترض أنه كان يمكنه القيام بهذا إلا أنه كان سيكلفه فقد إصبعه الصغير مثلاً" وتحدانى سميث" هل تقوم بهذا أنت نفسك؟ إيه؟ هل ستقوم بهذا؟".

"هل تعنى أنه علىَّ أن أضحى بإصبعى الصغير من أجل إنقاذ مائة مليون صينى؟". كان رد فعلى غريزيا: "بالطبع سأفعل".

وابتسم سميث ابتسامة عريضة: "حسنا، لقد كنت من لحظة واحدة فقط أنانيا ودنيئا. أما الآن فأنت ترحب بمعاناة ألم جسدى وتشويه دائم. ما الذى أحدث هذا الفرق؟".

"إننا نتحدث عن إنقاذ مائة مليون من الناس".

"لقد أدركت الآن ما أعنيه. فقد أضفت البعد المنظورى. وقمت فى خيالك بزيارة بلاد بعيدة ، ومن هنا يمكنك أن تشعر ليس فقط بألمك الصغير، ولكن أيضًا بتقليد إخوتك الصينيين. ومن منظور هذا المتفرج غير المتحيز فإن الخيار أمامك كان سهلا: ما الخيار الجدير بالثناء فى عقلك؟ ما الخيار الذى قد يتوافق – بمعنى أو آخر، مع قوانين خالقك؟".

ورفع سميث إصبعه السبابة قائلاً: "إن الأمر الرئيسى بالنسبة للضمير هو ممارسة تصورك الأخلاقى. وبهذا، فإنه بينما تكون مشاعرنا السلبية دائما فى أغلب الأحيان دنيئة وأنانية، فإن مبادئنا الإيجابية غالبا ما تكون على النقيض كريمة ونبيلة".

وبدا كما لو أن عقل سميث كان قادرًا على تقشير طبقة واحدة من البصلة. وقلت: "هذا رائع يا سميث وعبقرى. إننى قد دهشت فعلاً!".

مسح ذقنه وفكر: "إننا لم نكد نخدش سوى السطح".

***

انضممنا إلى ركس، وركبنا السيارة من موقع المطعم وانحرفنا إلى الجنوب على الطريق رقم ١ لمسافة تقل عن ميل واحد. وقد كان من السهل أن نخطئ هذا الانحراف الحاد إلى اليمين إلى شاطئ فايفر. لم تكن هناك أى علامة تشير إلى هذا الطريق الضيق، وكان معظم زوار المنطقة يغفلون عنه، إلا أن النادلة في المطعم كانت قد نبهتنا إليه وإلى كيفية الوصول إليه. كان أهالى المنطقة المحليون دائما ما يمزقون العلامات، حتى يبعدوا السائحين. ودخلنا هذا الطريق ذى الحارة الواحدة، متبعين واديًا ضيقا يمر بين تلين، وأحيانا كان يقطعه طريق مفروش بالحصى، يقود إلى كابينة أو منزل يستتر فى الغابة الكثيفة.

للحظة، كان الطريق ممتدا مستقيما، ولمحت سيارة زرقاء تتبعنا على بعد لا يزيد عن بضع مئات من الأقدام. وازدادت ضربات قلبى. وعلى الرغم من الاتساع الهائل والحجم الضخم للأراضى الأمريكية، ورغم الهدوء الظاهر فى هذه البقعة، فإننى كنت أعرف أن ماكس هيس لا تزال لديه بندقية موجهة نحونا، وبعد نحو نصف ميل، اختفت السيارة فى أحد الطرق التى تكتنفها الأشجار. وكان شكلها الجانبى يدل على أنها سيارة كبيرة وليست سيارة ركوب صغيرة. وأطلقت تنهيدة ارتياح.

وبعد بضعة أميال، انتهى الطريق المرصوف، وأصبح الطريق مغطى بالحصى والطين. ودخلنا إلى متنزه ولاية فايفر. ووضعنا خمسة دولارات فى ظرف دفع ذاتى. وكان المكان خاليا تماما إلا من سيارة جيب على سطحها رف، ربما كانت مملوكة لذلك الشخص الذى رأيناه من نافذة المطعم يمارس الانزلاق على المياه. وقادتنا جولة قصيرة على أقدامنا من خلال غابة ذات سقف من فروع الأشجار إلى حيث أفسحت جوانب التلال مجالا لشاطئ بدائى يبلغ اتساعه نحو خمسين ياردة عند انحسار المد. وبجوار الشاطئ، كانت الأمواج تتكسر على صخور عملاقة كل منها فى حجم البيت. وكانت الأقواس الطبيعية فى الصخرة تمسك بالأمواج والرذاذ المتطاير منها فى الهواء فى أشكال رائعة تأخذ بالألباب.

تكثف الضباب وهبط في شكل رشات وقطرات مياه تحولت إلى أقواس قزح مضيئة. وكان المتزلج على المياه مشغولا فى ممارسته الوحيدة، يتصيد الأمواج الملتفة، قاطعًا القناة فى حلته السوداء المضادة للبلل، وكان فى هذا كثير الشبه بعجل البحر.

هرول ركس إلى الحافة التى يتكسر عندها الموج، وأخذ ينبح ويطارد الموج الذى كان يتراجع فى تلك اللحظة إلى المحيط الهادى الواسع. وعندما ارتفعت الأمواج فى حركتها الدائبة إلى الأمام، جرى ركس متراجعا بعيدًا عن طريق الضرر. كان منظرا مبهجًا مثيرا أن تكون جزءًا من حركات الجذب والشد لهذا المحيط البارد، وأن تكون على حافة الاجتياح، إلا أنك مع ذلك آمن. مشينا متمهلين فى هذا الشاطئ المهجور، متتبعين قمة موجة من الأعشاب الأرجوانية من ارتفاع المد السابق. وفى منتصف الطريق على الشاطئ، جلسنا على جذع شجرة ضخمة قذفها الموج إلى الشاطئ فى أثناء إحدى العواصف.

جلست ساكنا، متعجبا من سبب عدم ورود تلك الارتباطات البادية الوضوح، والتى ذكرها سميث منذ الغداء، فى أى مكان من كتب الاقتصاد الكلاسيكية. لماذا لم يتم تدريس علم الاختيار بالكامل وليس نصفه فحسب؟ "والدنيء والأنانى" جزء من السلوك الإنسانى، ونادرًا ما يذكر أو لا يذكر على الإطلاق الجزء الخاص "بالنبيل والكريم"، كل هذا كان يدور فى خلدى. إن سوق آدم سميث لم ينشأ فى أرض خيالية لأفراد مستقلين ذاتيا – غير أخلاقيين – ولكنه نشأ فى النسيج الاجتماعى الذى يعتمد على بعضه بعضا، والذى يمجد الفضيلة ويتولى فيه الضمير الأخلاقى تقييد التصرفات الفردية. وتجاهل هذه النواحى قد يؤدى بالاقتصاديين إلى نتائج غير صحيحة بل وربما خطيرة. وإننى أتعجب، ما آثار ذلك على الأمور العملية، وعلى القيام بالأعمال؟!

وكأنما كان يقرأ ما يدور بعقلى، قال سميث: "إننا يجب أن نكتشف يا صديقى، ما هذا الذى يدفع الكريم فى كل المناسبات، والأنانى فى كثير منها إلى التضحية بالمصالح الخاصة لكل منهما من أجل المصالح الأكبر للآخرين؟ فكّر فى هذا".

كان سميث مستغرقا فى التفكير. وانحنى يلتقط ملء يده من حبات الحصى من الرمال، وبدأ يزنها فى أصابعه. واشتدت الرياح وأظلمت السماء، وأصبحت مياه المحيط وكأنها تغلى تسبح فوقها طواقى بيضاء من زبد البحر، بينما الرجل المنزلق على الماء

يحاول المحافظة على أن يستمر واقفا. قفزت من فوق الكتلة الخشبية التى كنت جالسا عليها، وأخذت أتجول فى مسافات أبعد على الشاطئ. كانت هناك عصا حادة قريبة منى، استخدمتها لأكسر الجيب الهوائى الواقع فوق القمة الأرجوانية الضخمة. كان هناك صوت فرقعة عند اختراق الجلد. ورميت العصا بعيدا وغرقت فى الرمال.

وظهر سميث قائلا: "لقد أبعدت عنك الرياح؟".

قلت: "من المؤكد أنه لا يمكن لأى ديكتاتور أو إرهابى - من أتباع ستالين أو ماوتسى تونج أو جميع من هم على شاكلة ماكس هيس فى العالم يمكن أن يعملوا لمدة لحظة واحدة بهذا الشيء الذى تطلق عليه الضمير".

"تماماً". قالها سميث وهو يحدق البصر فى أسطول من البجع الكبير يكاد أن يكون من عصور ما قبل التاريخ يطفو فوق رؤوسنا على طول الشريط الساحلى.

قلت: "ليس هناك نقص فى الأمثلة"، انظر حولك فى كل مكان وستجد شروراً مرعبة"

التفت سميث مرة أخرى ناحيتى قائلا: "نعم". ثم استمر وهو يقيس كل كلمة ينطقها، "إن الرجل الذى يكون صاحب أتم فضيلة، والرجل الذى نحبه حبا طبيعيا ونحترمه ونجلّه إجلالاً عظيما هو الذى يلتزم بالتحكم التام فى مشاعره الأنانية، هو ذلك الشديد فى إحساسه بمشاعر التعاطف لدى الآخرين. خذ هذه الخاصية بالابتعاد عن الشعور وسيكون لديك حيوان شاذ ضخم، مثل أولئك الذين ذكرتهم. ماذا ستكون عليه حالة المجتمع، الذى يحكمه مثل هؤلاء الحكام من غير ذوى الضمائر؟".

لم أكن بحاجة إلى الإجابة، وقد ضم سميث يديه خلف ظهره، وأطلق تنهيدة "آه! الصعوبات، الأخطار ، الجروح والحظوظ السيئة - كلها وحسب تمثل معلمينا الذين نتعلم منهم فضائل ضبط النفس. إلا أنها جميعا تمثل المعلمين الذين لا يذهب إليهم المرء طواعية فى مدرسة".

وما إن انتهى من قوله هذا، حتى استدار ومشى إلى حافة الماء. كان لدىّ إحساس بأنه كان متعبا، تركته وحيدا. وفجأة أشار، فتتبعت إشارة إصبعه إلى حافة الشاطئ.

قال سميث: "لقد ذهب تحت الماء!".

وأتت موجة عملاقة فوصلت الشاطئ. وكان لوح الانزلاق على الماء يركب على الزبد، وأتى ليستقر على حافة الماء. ولم يكن الرجل الذى كان عليه فى أى مكان يمكن رؤيته فيه. هرول سميث على الشاطئ، وتبعته راكضا وسرعان ما تجاوزته. ووصلت قبله إلى لوح الانزلاق وجذبته على الشاطئ. وكان الجزء الذى يثبت القدم على اللوح مكسورًا.

وكنت على وشك النزول فى الماء عندما جذبنى سميث من ذراعى، قائلا: بسرعة، "لماذا لا ندعه يغرق ونسرق لوحه؟ ليس هناك أحد آخر حولنا وسيكون الأمر سهلاً".

وقفت ساكنا فى ذهول من الصدمة، غير قادر على أن أصدق ما سمعت.

الفصل العشرون

مفارقة

استدرت فى لمح البصر إلى سميث قائلا: "هذه همجية!! أنا لا أتخيل أن أفعل هذا!".

قال: "تماما". قالها وهو يصرخ ليعلو صوته على الرياح. "إنك لا يمكن أن تتخيل عمل هذا، لقد أنقذك تخيلك من شيء فظيع. انظر، إنه هناك".

كان هناك جسد يرتدى حلة سوداء مضادة للبلل يجلس على ركبتيه فى زبد البحر، على بعد ثلاثين ياردة من مكاننا. هرولنا على الشاطئ إليه، وركس يجرى أمامنا. وقف الرجل مترنحاً، يسعل. كان يتمايل متهاديا إلى الشاطئ. صاح سميث مبتهجا، فخوراً بالحيلة التى جرنى إليها: "إن رد فعلك كان طبقا لمعيار خارجى أصبح يسكن فى داخلك. هذا هو رد فعل المتفرج غير المتحيز".

وصحت أرد عليه: "ولكن إذا كان المتفرج مجرد تكيف أو تهيئة اجتماعية، فإن كل فرد منا سيصبح إنسانا آليا. وإذا ما كان المجتمع عنصريا. فإننى سأكون كذلك أيضاً. إن النسبية الأخلاقية ستكون هى السائدة".

كنا على وشك الوصول إلى مكان المتزلج، فقال سميث: "ليس لدينا وقت لمعالجة معتقداتك الخاطئة بشأن هذا الموضوع، الآن. دعنا نساعد هذا الزميل".

كان الرجل طويل القامة، قوى البنية، ووزنه لا يقل عن مائتى رطل. وقدرت أن يكون فى أوائل الأربعينيات من العمر. ووضع ذراعا مبتلا يقطر منه الماء حول كل منا وأخذ يتقدم ببطء معنا نحو مكان انتظار السيارات، وعدت لأحضر لوح الانزلاق الخاص به. واختفت الشمس، وعصفت الرياح حتى تخللت قميصى الذى أصبح مشبعا بالبلل من الرجل ودهمتنى رعشة. كان الرجل ما يزال يخرج ماءً مالحا من جوفه عندما عدت مرة أخرى إلى مكان الانتظار.

"أنا لا أصدق أننى خرجت فى هذا الجو العاصف". وأخذ يسعل، "لقد كدت أن أهلك. وربما كان شركائى سيقتلوننى"، واصطنع ضحكة.

عرفنا أن اسمه بيتر تشين، وأنه كان ممن يعسكرون فى بيج سور، وقد أتى الليلة الماضية بسيارته أمس من بالو ألتو، ليجرب الأمواج العالية للنينو. والآن، لم يعد فى قدرته أن يقود السيارة إلى أى مكان. واستند بظهره إلى سيارته الجيب، واضعا يديه على ركبتيه.

وبعد بضع دقائق، نهض بيتر مهتزا، واستعاد حقيبة ظهره من السيارة. "إننى بحاجة إلى دواء يخفف الألم عن كتفى وركبتى".

قلت: "دعنا نصطحبك معنا للعودة إلى المعسكر. ويمكننا أن نضع لوح الانزلاق على سطح سيارتك وأن نعود بعد ذلك لنأخذ سيارتنا".

وأومأ بيتر موافقا على مضض، وجلسنا نحن الثلاثة محشورين فى المقعد الأمامى لسيارة بيتر من طراز شيروكى، بينما وضعنا ركس فى المقعد الخلفي. واستخدمنا الطريق الضيق من الشاطئ إلى داخل معسكر بيج سور. وكان هذا الطريق القديم غير المجهز يتعرج كالحية لعدة أميال خلال غابة الخشب الأحمر. وقال بيتر: "هذا هو مكانى، إلى جوار هذا الخليج الصغير".

"إن المكان يكاد أن يكون خاليا هنا".

قال: "لقد حضرت إلى هنا من أجل السكون".

قال سميث: "ولكن أليس لهذا السبب لن يمكنك مشاركتنا العشاء ؟ إن لدينا وفرة".

"إننى أحب هذا".

وعدنا والسعادة تغمرنا إلى مكان إقامتنا فى المعسكر على بعد نصف ميل. وعند الغروب، أشعلنا النار فى الموقد، وقمنا بتحمير البطاطس فى أوراق القصدير، وجلس بيتر على دكة المعسكر. وإحدى يديه تدلك كتفه، بينما تحمل الأخرى كوب الجعة. ووقف سميث إلى جوار النار. كان ركس يقوم بالمراقبة.

"كيف تحب أن تكون شريحة اللحم، يابيتر؟".

قال: "أنا، في الواقع، لا آكل اللحوم. ويكفيني جدا أن آكل البطاطس".

كانت طريقة بيتر الناعمة للكلام تناقض هيئته وجسده الرياضي الضخم، والنظرة القوية، ووجهه الذي صبغته الشمس بشدة، كما كان حليق الذقن بعناية.

كانت يداه بارزة العضلات، وكانت أظافره تبدو عليها آثار العناية الشديدة. وكان هناك ذيل حصان طويل مختلط البياض يتدلى على ظهره.

قلت: "لابد أن أخذ العطلة في منتصف الأسبوع للانزلاق على المياه أمر طيب؟".

ضحك قائلاً: "هذه إحدى مزايا الرئاسة في العمل. في الواقع أننا نتبع نظام الوقت المرن".

وسأل سميث: "وعملك؟".

رد قائلا: "رقائق الحاسب. واللوحات الخاصة"، ومرة أخرى عاد للحديث الرقيق المتواضع. "مبيعاتنا تبلغ ستين مليونا، ونحن أربعون شريكا. ومنذ وقت قريب احتفلنا بمرور عشر سنوات لمنشأتنا".

وأومأت - وكذلك سميث - بما يعبر عن تقديرنا له: "ولكنك لا تبدو..." هكذا بدأت أقول.

"تعني كرئيس؟". وضحك قائلا: "أشكرك. هذه مجاملة، لابد أنك من أقصى الشرق؟".

"كيف تخمن؟".

"إطار التفكير - كم هو مختلف. ويجب أن يكون مختلفا كي تنجح هنا. ربما سمعتم عن كل تلك المنشآت التي أفلست وهي في مرحلة البداية؟ حسنا نحن لم نفعل ذلك. ففي هذه السوق تعد ملكة الابتكار أمرًا حيويا، وكذلك الكفاءة. ولا يقتصر هذا على تصميم وشكل المنتج، بل يمتد إلى الإنتاج والتسويق والتوزيع. والإخلاص والدافع أمران رئيسيان. ويقتضي هذا وجود نوع مختلف من أمكنة العمل لكي يتحقق كل هذا، إلى جانب نوع مختلف من الأشخاص لإدارته".

قلت: "لا يختلف الأمر كثيرا. فما تزال المنشأة تدار من أجل الربح، كما أظن".

قال بيتر: "لا، إن الأمر متناقض، فنحن لا نديرها من أجل الخط الأساسي، وهذه ليست الطريقة التى تؤدى إلى نجاحنا".

انتهى العشاء، وجلسنا فى سكون وارتفع دخان إلى أعلى من خلال بعض الفتحات فى سقف الغابة، وبدت النجوم لامعة. كانت بطوننا ممتلئة وعقولنا مشغولة بالتفكير.

قال سميث: "حدثنا عن نفسك".

مرة أخرى عاد صوت بيتر منخفضا وغير متكلف: "إن التجربة الرئيسية فى حياتى حدثت عندما كنت فى التاسعة عشر من عمرى أمضى خدمتى العسكرية فى فيتنام. وكنت أعمل على جهاز الرادار فى المراقبة الجوية. وذات يوم، كان رُوى - أعز أصدقائى فى مهمة طيران - ووقفت فى نهاية مهبط المطار لأرحب به لدى عودته. ثم عرفت بعد ذلك، أن صواريخ العدو كانت تنفجر فى جميع الأرجاء، وأصيبت طائرته العمودية وانقسمت إلى نصفين. وقد عاش فقط حتى وصلت إليه، ورأيته وهو يموت".

وأذكى بيتر النار بعصا كانت فى يده، وقال: "وعندما تشهد شخصا فى أثناء موته، لا يصبح هناك مجال للخداع. وليست هناك حيل أو ألعاب. لا محاولة لأن تكون شيئا لم تكنه، ولا محاولة للتظاهر بسرعة البديهة والذكاء. لا شيء من ذلك كله، لا يكون هناك سوى الوجود. هذه هى الهدية التى تركها لى رُوى".

كانت النار تخبو، وقذف بيتر قطعة صغيرة من الخشب. "إنك لكى تكون أصيلاً يعنى أن تكون مترابطاً، أى وحدة متكاملة. ويعنى أن تكون نفس الشخص فى العمل، وفى البيت وفى اللعب. إن الحياة كل متكامل... هيه!! وعندما أعود بذاكرتى إلى الوراء، أجد أننى حصلت على قدر كبير من الخبرة نتيجة لعملى لدى الآخرين، بعضها كانت شركات كبيرة، وأخرى صغيرة. وفى بعض الشركات كان التوتر ثقيلا وكثيفًا كالطين، لم يكونوا هم أنفسهم، كنت تشم الخوف فى كل مكان".

كان بيتر يتحدث بنعومة، وانزلقت لأكون أقرب إليه.

"إن الرؤساء الذين يحفزون باستخدام الخوف يتخذون قرارات لا تكون موضوع فخرهم". هذا ما قاله بيتر، ثم استمر: "وهم يبررونها بقولهم إنه مجرد قرار أعمال ذكى". ولكن إذا كان القرار ذكيا، لماذا يتحطم كل شخص ألمًا؟ لماذا يرتفع رقم الأعمال؟ وعندما

يعودون إلى بيوتهم وأسرهم، يخفون كل ذلك في داخلهم، لأنهم يودون أن ينظروا إلى أنفسهم كأشخاص طيبين، ولكنهم قد وقعوا في فخ تنظيم مريض، تنظيم لا يترك لهم فرصة لكي يكونوا كائنات بشرية تتخذ قرارات إنسانية".

قلت: "إن القيام بالأعمال يعني خيارات صعبة".

قال بيتر مؤكدا: "إن الناس يقبلون الخيارات الصعبة القائمة على أسباب صحيحة، وهنا يمكن أن تسأل ما تلك الأسباب الصحيحة؟ ما الذي يحفز الناس على الترحيب بالعمل بكل طاقتهم، وبتضحيات أحياناً؟".

قلت: "لقد سمعنا جميعا عن الخيارات الرائعة في أسهم وادي السيليكون".

"ليس هناك شك، في أن الناس يعملون بجد عندما تكون إسهاماتهم محل تقدير ومكافأة، وخيارات الأسهم لها أهميتها. ولكنك ستفقد شيئا هاما جدا إذا ما توقفت عند هذا الحد". وانحنى بيتر إلى الأمام مع اختيار كلماته بعناية، "إن السرّ في ذلك هو أن الناس يعملون بجد أكثر عندما يعجبون بأنفسهم لما قاموا بعمله. هذا، بينما يكون هدف المنشأة يستحق أعلى درجات طموحهم".

أومأ سميث برأسه ومال بجسده ناحيتي قائلاً: "عندما يوافق المتفرج غير المتحيز الموجود بداخلهم".

نظر بيتر إلى سميث متعجباً. واستمر في حديثه: "إن الناس يعملون بجد عندما تمس مكانا ما، عميقا في داخلهم من خلال حثهم على شراء حلم أكبر من ذاتهم. لأن هذا يطلق روحا خلاّقة، ويحقق التكامل بين القلب والعقل. وبذلك تصبح الشركة - بشكل ما - وسيلة لتطلعات العاملين باعتبارهم كائنات بشرية متكاملة".

قلت: "لقد كنت أظن أن الشركة وسيلة لتحقيق الأرباح"، وكنت في هذا الوقت أتذكر نصائح ميلتون فريدمان وآدم سميث ضد المثالية الساذجة للإصلاح البشري.

قال بيتر: "إن الشركة بها احتمالات تفوق ذلك كثيرا.وعندما يقبل الناس حلما أكبر، يكون هناك تحول ملحوظ، وتدب الحياة في مكان العمل ويصبح أكثر ديناميكية، ومشحونا بطاقة أكبر. والربح هو منتج فرعي لتحقيق هذه التطلعات الأعلى".

"وليست فقط النقود ، بل شيئًا أفضل؟".

ضحك بيتر: "هل رأيت في حياتك صياغة رسالة لشركة على أساس تحقيق جمع المال؟ إنك لن تجد أبدًا واحدة، والسبب بسيط: أن الرسالة لا تحقق ارتباط الناس بالشركة بالكفاءة التي تحققها التطلعات المرتفعة. إن عليك أن تلتمس إحساس الناس بالتطلع إلى أن تكون الأول والأفضل والأكبر والأحدث أو بذل أقصى الجهود، وتحقيق أقصى رعاية، من خلال ربط النجاح بهذا الهدف الاجتماعي الرفيع والفاضل. بل إن دونالد ترمب، بعد عودته لمركزه، قال: "إن المال لم يكن أبدًا هدفًا لنجاحه، ولكن لقياس هذا النجاح فقط".

أومأت موافقا:"من الطبيعي أن تعلن معظم الشركات عن أشياء أخرى كأهداف لها بخلاف النقود. ويقولون إنهم يودون "خدمة العملاء". إلا أن هذه إحدى الحيل التي تستخدم في العلاقات العامة، أليس كذلك؟".

هز بيتر رأسه قائلا: "الأفضل ألا تكون كذلك. فإن العاملين والعملاء لديهم أدوات دقيقة لاكتشاف النفاق والرياء. وإذا ما كانت ستتم إدارة الشركة على أساس الحد الأدنى فقط، فإن ذلك سيؤدي إلى تشاؤم العاملين وخيبة أملهم. أما النجاح فيتطلب أن تأتي التطلعات المرتفعة من القلب وبكل صدق وأمانة. وبيان الرسالة لا يعني أي شيء على الإطلاق دون الالتزام والقيام بالعمل".

قلت: "من الصعب تصور أن يكون رد فعل وول ستريت موافقا لذلك".

أومأ بيتر: "إن لدينا مشاكل تمويل، مثل كل المنشآت في مراحل البداية. إلا أن المفارقة هي أن الناس يتطلعون طويلا إلى المعنى في عملهم. وعندما تقدم وسيلة لذلك، فإنهم سيفعلون لك ولكل شخص آخر كل شيء للمحافظة على استمرار المنشأة في العمل. ولكن لماذا تتصتون إليّ؟ لماذا لا تأتون معي وتشاهدون بأنفسكم؟".

أومأ سميث برأسه مفكرا وموافقًا.

قال بيتر: "هكذا نكون قد أتفقنا على الترتيب ، على أن يكون ظهر بعد غد".

***

ومع انتهاء العشاء، قام بيتر بتوصيلي إلى سيارتي، وفي طريق العودة إلى المعسكر، دخلت إلى مكان انتظار السيارات في مكتب المعسكر. كنت محتاجا إلى بعض الوقت كي أفكر وأخطط. وبقدر ما كان العشاء مسليًا ولطيفا، بقدر ما كان عذابا خالصا بالنسبة لي، لوجودي في هذه الغابات الجميلة من الشجر الأحمر دون أن تقاسمني جوليا هذه اللحظات، كنت أفتقد رؤية عينيها الفاتنتين. وكان بإمكانها دائما أن تضحكني. بل حتى رائحة نظافتها كانت لا تزال باقية في ذاكرتي.

كان هناك تليفون عمومي خارج مكتب مكان الانتظار. كان الوقت متأخرا، ومع فارق التوقيت، كانت الساعة ستكون السابعة في فرجينيا. وفي المرة الأخيرة التي طلبتها كي تحضر إلى يوتاه، كنت محظوظا إذ أمكنني العثور عليها في معرض الرسم.

وقد طلبتها في نفس المكان اليوم، ولكن كان كل ما سمعته رنينا لا ينقطع.

خشيت أن أطلب جوليا في المنزل، في حالة التنصت على تليفونها من جانب "جماعة الناس فوق الأرباح"، أو مكتب المباحث الفيدرالية، أو من يعلم ربما آخرون أيضاً. وفكرت هنيهة، كان هناك زوجان شابان يسكنان على بعد منزلين من منزل جوليا، وكانا قد اشتريا إحدى لوحاتها منذ عام مضى.حملت اللوحة إليهما لتعليقها. ماذا كان اسمها؟ توماس؟ تومبكينز؟ حاولت أن أتذكر هل كانت أرقام الشارع تزداد أم تنقص عند السير غربا في الشارع. وملأت حصالة التليفون بعملات من فئة ربع الدولار وكنت محظوظا عندما وجدت إحدى العاملات التي تعاطفت معي، وأعطتني رقم تليفون روبرت وسارة تومبسون، اللذان يبعد بيتهما برقمين أقل من رقم بيت جوليا.

أجابت سارة تومبسون على التليفون بمرح وبهجة رئيس نادي الحديقة "ربما لن تتذكريني". هكذا بدأت، وإن كانت العبارة قد بدت حمقاء في أذني. وأخذت نفسا عميقا، ومضيت قدما أشرح بسرعة وبأداء فريق مشكلتي، وكيف أنني أحتاج بشدة إلى الاتصال بجوليا، ولكني ظننت أن تليفونها لا يعمل، كاذب حقير، هكذا شعرت بوضوح أنني مجرد مراهق متورط في مشكلة. ولكن لم يكن هناك داع في أن أدخل آخرين فيما يحيط بنا من خطر، وكلما قل ما يعرفونه كلما كان أفضل. وأنهيت حديثي برجاء في أن تأتي بجوليا لتحدثني.

"لا داعى لذلك". هكذا قالت بسرعة، وأتبعت قولها بضحكة خشنة. "إنها لن تتحدث إليك. لقد سافر زوجى فى رحلة إلى آسيا، ولذا دعوت جوليا للعشاء معى فى الليلة الماضية. يا الله... يا الله... إنك لست ممن يرحب باسمه هنا. أنا لا يمكننى أن ألومها بعد أن أعطتك فرصة ثانية".

خفضت رأسى." إن الأمر مختلف هذه المرة . إننى قمت بما قمت به من أجل شخص آخر".

"آه.. آه" هكذا كان ردها، مما جعلنى أعرف أنها لا تصدق حرفًا مما قلت.

" ألا يمكنك حتى أن تحاولى مرة أخرى؟".

قالت: "انظر، إننى سأترك الأمر لها، ولكنها ليست فى البيت الآن. وستكون هنا حوالى هذا الوقت غدا إذا ما كنت تريد أن تحاول مرة أخرى. وأنا لا أضمن أى شيء أيها الرحالة العالمى".

***

كانت الساعة قد بلغت الثامنة فى صباح اليوم التالى، قبل أن أنهض من الفراش وكان هناك ضباب كثيف يغطى خيمتنا، ومنضدة الرحلات، وأوراق الشجر. بل إن ركس بدا وقد زهد فى المشى والدوران حول الخيمة. شربنا قهوة ثقيلة وأنهينا ترتيب آخر شيء فى الخليط المضطرب الذى كان فى مقطورتنا. وعندما جففت الشمس ما كان على خيمتنا من ندى الصباح، طويناها ووضعنا عدتنا على السيارة وبدأنا سيرنا. ومرة أخرى كنا على الطريق رقم ١، المتعرج نحو الشمال، حول صخور عالية وشديدة الانحدار وكأنها تهوى نحو المحيط الهادى، وكثيرا ما كان علينا أن نستدير حول منعطف حاد؛ لأن فرقا من العمال كانت تقوم بإصلاح الطريق الأصلى وترميم الجوانب بالأحجار لمنع الانزلاق. كانت الأمواج العالية تحتنا تصطدم بالصخور فى المد المرتفع. وإلى جنوب الكرمل، توقفنا عند بوينت لوبوس، وهى منطقة كثيرة الصخور والأجراف البارزة فى المحيط، وتشتهر بمستعمرتها التى تضم عدة مئات من سباع البحر التى تعوى من منطقة بعيدة عن الشاطئ. وكانت العلامة الموضوعة على الطريق تبين أنها إحدى أضخم الملاجئ البحرية فى العالم. دفعنا رسم الدخول ودخلنا بالسيارة إلى مكان الانتظار الذى كان يطل على

المحيط، وتركت سميث ينعم بالشمس مع ركس على بطانية، ومضيت أستكشف قافلة كانت تحتضن الشاطئ.

على طول الشاطئ الصخرى، كانت فرقة من سباع البحر المنقطة ترقد متكاسلة تحت أشعة الشمس، ويبدو كل منها كسيجار هائل ملفوف باليد، يرتمى كل واحد متدليًا على الآخر، مخفضا رأسه. أحيانا كانت مجموعات جديدة تضرب أذيالها فى البحر معلنة عن قدومها، وتثب ببطونها على الكومة الموجودة من زملائها. كانت تبدو هادئة وسعيدة، وغير مهتمة بالسائحين الذين كانوا يقفون على مسافة آمنة بعيدًا عنها، خلف سور خشبى.

كان هناك خليج صغير يخضع للحماية، وشاطئ تفترشه صخور رمادية تآكلت بنعومة حتى صارت فى حجم كريَّات اللعب الصغيرة، كان المد ينحسر كاشفا أكثر فأكثر عن برك من الأحياء البحرية التى كانت تتلوّى بشدة. وكانت الشقائق والأصداف البحرية بألوانها الأرجوانية والخضراء والبرتقالية فى كل مكان، تغلق أصدافها حول أجسامها تدريجيا مع انحسار المياه.

وأخذت ألتقط من هنا وهناك أنواعا من الحيوانات البحرية والرخوية الملتصقة بالصخور متنقلا بعناية، ومتمتعا بأشعة الشمس وهواء البحر المنعش. وبينما كانت طيور الخراشن تتغذى على فريسة لا حول لها ولا قوة، كانت نوارس البحر ترفرف وتصفق بأجنحتها فوقنا بغرور وأبهة. وفى المياه الضحلة، كانت حيوانات سرطان البحر تبرز من قواقعها المسروقة وتزحف جنبا إلى جنب مع قواقع البحر وقناديل البحر النجمية التى تظهر أحيانا.

أدرت ظهرى إلى المحيط وانحنيت لأفتش عن بركة أخرى مملوءة بالزبد من بقايا المد. وفجأة، سمعت صوت "ووش" وقبل أن أتمكن من رفع رأسى دهمتنى موجة هائجة بزبدها ورغوتها. وبللنى الماء المالح حتى ركبتى. وجريت مندفعا نحو صخور أعلى، مندهشا من عنف المحيط، وشاكرًا ممتنًا على أننى لم أغامر بالذهاب إلى أبعد من ذلك. إن الطاقة الكامنة فى هذه المياه عظيمة جدًا.

واتجهت أفكارى إلى ما طرحه بيتر من آراء فى الليلة الماضية. هل يمكن أن تكون هناك فعلا طاقة مماثلة غير محكومة فى داخل كل منا؟ هل يمكن لمنشأة الأعمال أن

تصبح جادة وعملية من خلال سماحها للعاملين فيها بزيادة ونمو إنسانيتهم؟ لقد كانت تقديرات منشآت الأعمال – التي يبدو أنها تحكم العالم – معلنة وغير مخفاة. ومع ذلك، فقد كان التناقض يبدو واضحا في قلب الثورة العلمية. وكنت أحس تحت قدميّ بصخرة صلبة ثابتة لا تتحرك. ولكن علم الفيزياء الذرّية يؤكد أن ٩٩% من هذا الشيء يمثل مساحة خالية، أما ما بقي من مادة صغيرة هناك، فهو في حالة تحرك دائب. وبتحطيمنا الذرة إلى أجزاء فإننا نطلق فيضا لا يمكن التحكم فيه من الطاقة، ألم تكن هذه النقطة هي التي أثارها بيتر؟ أي الوصول إلى جوهر ولب الروح الإنسانية وإطلاق هذه القوة؟ وكان هذا يبدو رائعاً. وحتى إذا ما تم بدؤها، فهل يمكن السيطرة عليها؟

عدت إلى منطقة انتظار السيارات، ووجدت سميث يقضم تفاحة مع زبد الفول السوداني. وكان يبدو أنه يتمتع بصفة خاصة بزبد الفول السوداني الذي كنت قد أخبرته بسعره ذات مرة، كما اكتشف هو مدى ما يحققه له من إشباع.

بعد أسبوع من المعيشة في المعسكر، كنا نحتاج إلى التدليل. وجدت مكانا لنا في موتيل صغير بجوار كاناري رو في مونتيري، وكان أول شيء عملته هو أنني أخذت حماما ساخنا طويلا. وبعد ذلك، ظل سميث جالسا سعيدا مع ركس، أما أنا فقد ذهبت إلى معرض الأحياء المائية لأرى الحيوانات الضخمة. كانت الدرافيل في حوضها الكبير تبدو وكأن بعضها يراقب حركات بعضها الآخر.، وكان السمك يسبح في تزامن يجعله يبدو خبيرًا أيضا في التقاط الخيوط الرفيعة الخفية. وتذكرت ما قاله سميث بإننا نولد ونحن نحمل في داخلنا" مشاعر الزمالة" مع الآخرين . أليس ذلك أيضا شيئاً أحست به هذه الدرافيل؟

وكان هناك عرض آخر يقدم فصلا عن انهيار أعداد ثعالب المياه التي كان يتم صيدها حتى قاربت على الاختفاء تماما في أثناء القرنين الماضيين بسبب الطلب المرتفع على جلودها. وكانت هذه القصة تتبع النمط المعروف جيدا وهو نمط "مأساة الأشياء الشائعة"، وكانت ثعالب المياه موردا مملوكا ملكية شائعة – لا أحد يملكه – ولا تعود على أي شخص معين أية مكاسب نتيجة المحافظة عليه، ومع ذلك، فهناك كثيرون ممن يحققون مكاسب كبيرة من صيدها. ومع هبوط أعداد ثعالب الماء، كانت هناك نتائج غير مقصودة؛ نظرا لأن ثعالب المياه كانت تأكل قنفذ البحر. ودون وجود ما يفترسها، تتكاثر أعداد قنافذ

البحر، وتأكل في طريقها النباتات التي تنمو تحت الماء. ومع اختفاء غابات الأعشاب البحرية الغاطسة تحت الماء، تختفي أيضا مجموعات الأسماك الحيوية التي تعيش فيها وعليها، وبدورها أيضا المجموعات الكبيرة من الطيور التي تتغذى على هذه الأسماك. وقد أدت هذه المكاسب التي عادت على صائدي ثعالب المياه في الأجل القصير، إلى خسائر أكبر كثيرا عاني منها صائدو الأسماك وغيرهم في الأجل الطويل. وقد تم إيقاف هذه الكارثة البيئية المدمرة من خلال معاهدة دولية، تحظر قتل ثعالب المياه، في عام ١٩١١. وتتكاثر أعداد الحيوانات من ثعالب المياه ببطء تدريجيا.

حاولت أن أضع كل ذلك في إطار منهج الاقتصاد ١٠١ . وبينما كان سميث يجادل بأن الأسواق عادة ما تحقق استدامتها ذاتيا كما أنها أيضا تصحح ذاتها، وأن السوق مفتوح أمام الجميع للانطلاق في البحث عن الربح، وهو ما ثبت عدم صحته. ويرجع عدم استدامة السوق في هذه الحالة إلى عدم وجود حقوق ملكية محددة بوضوح. كما أن محاولة تخصيص حقوق وملكية في نظام بيئي معقد مثل المحيطات تتطلب ارتفاعا هائلا في تكاليف العمليات. ولذا، فإن السوق في هذه الحالة لا يتمكن من تحقيق الاستدامة الذاتية دون قواعد خارجية. ويوجد هنا درس مستفاد وهو أن النظر إلى ثعالب المياه على أنها مجرد سلع مربحة، وبشكل منعزل عن بيئتها المتكاملة، كان ممارسة خطيرة. وبالمثل، فإن الاقتصاديين عندما يساندون فكرة حرية الأسواق في الاقتصادات التي مازالت في مراحل التنمية الأولى، غالبا ما يكون ذلك نتيجة الجهل بالبيئة القانونية المعقدة وبالبيئة الاجتماعية التي تقوم بدورها هناك. هل يمكن أن يؤدي ذلك بالمثل أيضًا، إلى نتائج غير مقصودة، أو إلى آثار غير مستديمة؟ لابد عند القيام بالإصلاح من التأكد أن كل الأجزاء موجودة لديك. إن الرأسمالية نظام متشابك، ومعقد للأسواق، والهياكل المؤسسية والقيم الاجتماعية. ومن الصعب أن تتمكن النماذج الرياضية من الإحاطة بكل نواحيها التي تتناول الأسواق غير الشخصية في معزل. ومع ذلك، فقد كان هذا بالضبط ما قدمه لاتيمر وما قدمته معه باعتباري تلميذه إلى شركة وورلدكيم فيما يتعلق بمشروعهم عن الخصخصة في روسيا. وقد أثقلتني هذه الأفكار العسيرة، وجعلتني أقل سعادة مع نفسي.

واسيت نفسى، على أمل أن أتمكن من الوصول إلى جوليا هذا المساء، ولما كانت الساعة العاشرة بتوقيت الباسيفيك تقترب، فقد جلست فى مقصورة تليفون عام تبعد ثلاثة بيوت عن الموتيل الذى نقيم فيه، وكانت العملات من فئة ربع الدولار جاهزة.

وعندما سمعت رنين الجرس في منزل تومبسون على الجانب الآخر، أمسكت أنفاسى... وأجابت جوليا! لم تكن هناك كلمات كثيرة أبدأ بها فى هذه المكالمة الأولى، بينما كانت تؤنبنى فى لهجتها البريطانية اللينة. لم أكن فى الواقع بحاجة إلى الكلام ولكننى كنت أريد أن أسمع صوتها.

الفصل الحادى والعشرون

نموذج جديد

أطل علينا صباح اليوم التالى ونحن ندور حول خليج مونتيرى إلى سانتاكروز، ثم قطعنا طريقنا نحو الشمال من خلال الجبال. وانحرفنا من داخل مجموعة رائعة من أشجار الخشب الأحمر. وأخيرًا، اخترقنا صدع سان أندرياس. وبعد الدوران حول سان جوزيه، توجهنا عبر شبه الجزيرة إلى سان فرانسيسكو، متبعين ممرا إلى جبال سانتاكروز المغطاة بالسحب. وعلى جانبينا، كانت التلال السفحية المتدرجة، التى تتناثر عليها أشجار البلوط المنخفضة، وأحيانا المبانى الإدارية اللامعة من الصلب والزجاج، وكانت الأرض الفضاء اللامعة كالذهب تحمل جمالاً غامضا فى اتساعها وانتشارها. وبقرب خط الأفق، كانت هناك ظلال بنية من الدخان والضباب والرطوبة، فوق خليج سان فرانسسكو على قدر ما كان يصل إليه مدى البصر شمالاً وشرقًا.

فى الساعة الحادية عشرة، كنا قد وصلنا إلى ضواحى بالو آلتو.

"إن هذا من قبيل الأحلام". قلت وقد تملكتنى الإثارة وأنا فوق طريق بيدج ميل.

كنت أحس بالابتهاج والإثارة، بل كنت فى شبه نشوة؛ لوجودى فى قلب وادى السيليكون. كان أمامنا – وعلى امتداد طول الطريق – المقر الرئيسى لشركة هيوليت باكارد. كانت المبانى والمصانع الضخمة مصممة بحيث تخلق الإحساس بأنها مقر لكلية جامعية. وعبر الطريق، وفى شارع جانبى كان يوجد برج هوفر، العلامة المميزة لجامعة ستانفورد. كانت عشرات من مبانى بحوث التكنولوجيا العالية قد ارتفعت حول الحرم الجامعى كفطر عيش الغراب. وعلى بعد، كنا نرى ذلك الحشد من الصناعات الداعمة التى يتكون منها وادى السيلكيون، والممولين الرأسماليين، والاستشاريين، والمحامين وصحافة الأعمال. قمنا بجولة، ووجدنا عمالقة الصناعة فى عصر المعلومات مثل شركة إينتل، وصن مايكرو سيستمز، وسيسكو سيستمز، وموتورولا، ولوكهيد مارتن، كان هذا هو المكان الذى بدأت فيه مئات المنشآت التكنولوجية، مثل آبيل، وأدوب ونيتسكاب، فيما عدا ميكروسوفت التى اتخذت سياتل مقرًا لها.

قلت: "هذا هو قلب أمريكا الجديدة، على الأقل حتى ينهار السوق".

كان سميث ينظر حوله باهتمام.

ومضيت قائلاً: "هذا هو أسرع القطاعات فى نمو التصدير - مع ارتفاع استثنائى فى الإنتاجية- فهناك رقائق جديدة تدخل إلى السوق كل بضعة شهور".

كان مصنع بيترتشين للرقائق المتخصصة يشغل مبنى مستودع من دور واحد فى المدينة المجاورة التى تدعى ماونتين فيو. وكانت تحجبه عن الطريق مجموعة متنوعة من الأشجار والنباتات.

كانت هناك لافتة صغيرة كتب عليها "إعادة تجديد مواطن النظام البيئى". أوقفنا السيارة، ودخلنا، بعد أن ربطنا ركس إلى شجرة ظليلة وتركنا له وعاء مليئًا بالماء.

وجدنا بيتر يرحب بنا على الباب كان يرتدى سروالا جميلاً من الجينز، وقميصًا أبيض، وربطة عنق زرقاء، وحذاءً مكشوفًا رخيصًا. وكانت ترتسم على وجهه نفس الابتسامة اللطيفة مع عينيه اللتين تشعان دفئًا، ولكن اليوم كانت تبدو على وجهه تغضنات وعلى جبهته، لم تكن موجودة منذ يومين قبل ذلك. وأدخلنا عبر منطقة استقبال مفتوحة. كانت هناك امرأة فى منتصف الثلاثينيات تقف خلف منضدة طويلة، ذات عينين حمراوين. بينما كانت تقف إلى جوارها امرأة أخرى أكبر سنا واضعة يدها على كتفها.

"ماذا فى الأمر؟". كان سؤالى عندما دخلنا إلى مكتب بيتر. كان المكتب صغيراً، عبارة عن حجرة مساحتها اثنتا عشر قدما فى ثمانية أقدام بها نافذة زجاجية تواجه أرضية المصنع، وكان بالحجرة كرسيان للضيوف جلسنا فيهما بينما جلس بيتر خلف مكتب متواضع من الخشب المغطى بالقشرة.

قال بيتر: "إن لدينا أزمة صغيرة"، بينما كانت يداه تتخللان شعره "حسنا، لماذا الكذب؟ إنها أزمة كبيرة".

تبادلت النظر مع سميث، الذى قال: "ربما كان الأفضل أن نعود".

قال بيتر: "لا ، بل ربما كان يمكنكم أن تسمعوا هذا أيضاً: أنا لا أود أن أترك لديكم الانطباع بأن إدارة منشأة للأعمال هى مجرد مزاح ولهو. ووقف بيتر. ثم أخذ يهز رأسه

قائلا: " إن جيم ماكدونالد من شركة ماكدونالد لأشباه الموصلات، أكبر عملائنا، طلبنا منذ نصف ساعة. ووبخ مديرة الحسابات لدينا السيدة بربارا، بل أكاد أقول إنه قام بشيّها على الجنبين"، وأومأ برأسه ناحية المرأة التى كانت واقفة بجوار المكتب والتى كانت تبكى. "وهذه لم تكن المرة الأولى أيضاً. ففى كل مرة يطلبنا فيها ينتهى الأمر بالعاملين لدينا بالبكاء. والأمر ليس مقصورًا على بربارا بل أيضا مساعدها والفنيين وكل فرد. إنه يريد أن يلقى بثقله علينا، وكأنه إمبراطور أو طاغية، حتى يحس الناس بالارتباك ويدعهم يعلمون من هو الرئيس".

سأل سميث: "ماذا كان يريد؟".

"لقد طلب إعطاء أولوية لطلبه من الرقائق، ويريدها اليوم بعد الظهر، بدلا من غدًا حسب ما ينص عليه العقد بيننا".

وسألت: "هل هذا طلب غير معتاد؟".

"على الإطلاق، نحن على الدوام، نفعل كل ما هو ممكن لراحة عملائنا. ولكن اليوم لدينا عشرون طلبا سابقًا عليه، وبعض هذه الطلبات من مشروعات صغيرة مازالت فى بداياتها وتعمل على هوامش صغيرة جداً. وهم يحتاجون المنتجات المطلوبة بنفس الدرجة التى يحتاج إليها ماكدونالد".

قلت: "إنك يمكن أن تعيش دون تلك المشروعات التى مازالت بادئة، ولكن ماكدونالد هو السمكة الكبرى، كما أظن".

تنهد بيتر قائلا: "إنه يمثل ثلاثين بالمائة من حجم مبيعاتنا. هو ينظر إلىّ باعتبارى ندًا له، إلا أنه طاغية مع العاملين لدىّ، وقد طلبت منه أن يخفف من لهجته عدة مرات. إلا أنه لا ينصت".

"هل هناك من هو أعلى منه مركزًا فى شركته يمكنك أن تتحدث إليه؟". هز بيتر رأسه قائلا: "إنه هو المؤسس والتنفيذى الرئيسي، فهو يظن أن النقود هى الحكم والحاكم، وأن بإمكانه أن يفلت بما يقوم به من توبيخ. ولكن بربارا لا يمكنها تحمله أكثر من ذلك. وقد قالت إنها ستترك العمل".

قلت: "المستهلك هو الملك"، هذا هو القانون الأول للمنافسة. وأنت لا يمكنك أن تقطع أنفك من أجل هذا، وأظن أن عليك أن تعين مديرًا جديدًا للحسابات". مشى بيتر إلى خزانة الملفات واستند عليها. وأطلق زفرة من صدره ووضع راحة يده على المعدن. ونظرت أنا وسميث كل منا إلى الآخر، متسائلين عما إذا كان هذا هو الوقت المناسب للانصراف بلطف.

وانتصب بيتر واقفًا وعاد للجلوس إلى مكتبه. وبصوت ضعيف قال: "لا، لابد أن أواجهه". وجلس والتقط التليفون. وفى لحظة، كان جيم ماكدونالد على الخط.

"جيم؟ أنا بيتر. بخصوص طلبك. لا يمكننى أن أبكّر بالتسليم اليوم. لا لن أفعل؛ نظرًا لأن هذا يؤدى إلى الإخلال بالتزاماتنا تجاه الآخرين. وستكون منتجاتنا أول شيء جاهز لتسليمه إليك غدا وفقا لوعدنا".

أخذ بيتر نفسًا عميقًا، "شيء آخر يا جيم؟".

وفى بضع جمل، شرح بيتر المشكلة مع بربارا وانتهى بعبارة "إننى أعطيت تعليمات للعاملين لدىّ بعدم قبول أية طلبات جديدة منك".

ووجه بيتر ابتسامة غامضة، بينما جلست أنا وسميث متعجبين فى صمت.

كان بإمكاننا أن نسمع صوت صياح صادر من السماعة. وقطب بيتر وجهه وضغط بإصبعه على زر فى جهاز تلقى المكالمات، وسمعنا صوتا عاليًا يقول من خلال تليفون المتحدث: "هل تلغى أعمالى؟ لقد أعطيتكم عشرين مليونًا مقابل طلباتى فى العام الماضي. إنك لا يمكن أن تفصلنى، فأنا العميل.

جيم، لقد فكرنا فى هذا الموضوع طويلاً، وأعطيناك كثيرا من التحذيرات والتنبيه.

وأنا آسف لتطور الموضوع بهذا الشكل. وهذه هى كلمتنا النهائية".

أنهى بيتر المكالمة. كان شاحب الوجه. ونهض على قدميه، وحول وجهه نحو أرضيّة المصنع ووضع جبهته مقابل اللوح الزجاجى للنافذة، وكانت أنفاسه تنشر ضبابًا على الزجاج. وقال برقة: "ألا يأتى المستهلك أولاً؟ ليس فى الواقع. إن العاملين يأتون أولاً".

"أنا أحب التناقض". ابتسم سميث: "استمر من فضلك".

زفر سميث واستدار يواجهنا: "إن أحد من علموني - وهو بول هوكين - قال لى ذات مرة: إنه لا توجد طريقة لغرس أخلاقيات الخدمة الإيجابية للعميل، قبل أن نقوم بتجسيد أخلاقيات العامل: الاستجابة إلى الداخل، والاستجابة إلى الخارج".

قلت: "ماذا يعنى هذا فى نهاية الأمر؟".

قال بيتر: "إن شركتنا تحيا بإنتاجيتها. وليس لدينا بالفعل أى حالات غياب عن العمل، ولدينا انخفاض فى تغير العمالة، ولا سرقات، وعمالنا ينجحون وينمون فى هذه الفوضى المستمرة فى هذه الصناعة؛ نظرًا لأننا نواجه المشاكل معًا. إن الطريقة القديمة للقيام بالأعمال، من تعيين وفصل العاملين مثل تغيير أسنان الصلب القابلة للتبديل، تؤدى إلى أخلاقيات مرعبة. إذ إن الخوف يصبح هو الحافز، والناس يصبحون أكثر خوفًا من الإقدام على المخاطرة، ويصبحون أكثر جمودًا بالنسبة للابتكار أو التعاون. وتصبح الثقافة عقيمة مع المتملقين الأذلاء، والبيروقراطيين والطفيليين".

قلت: "ومع كل ذلك، فقد استلزمت عملية الاستغناء عن أكبر عملائك قدرًا من الشجاعة".

"إن بربارا هى أخت لنا جميعًا. وستظل معنا مدة طويلة بعد أن يترك العاملون لدى ماكدونالد عملهم لديه".

واستدار بيتر مرة أخرى ليشير إلى خارج النافذة، إلى أرضية المصنع. وقال: "إننى أعرف أننى أبدو غامضا، ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار كيف كان الوضع سيكون مختلفًا لو سمحنا لجيم ماكدونالد أن يستمر فى إرهابنا، وليس هو وحده، ولكن فكروا فى مئات المواجهات الصغيرة والكبيرة كل أسبوع، وكل واحدة منها تعطينا فرصة للإشارة إلى قيمنا؟ وإذا ما اخترنا الأرباح قبل كل شىء حتى قبل قيمنا الجوهرية، فإننا سنتخذ قرارات مختلفة: سنضع معدات السلامة والتلوث طبقا للحدود الدنيا التى ينص عليها القانون، وسنقيد العمال بجداول جامدة بغض النظر عن الحالات الطارئة الشخصية لديهم. وأنتم تعلمون ما يمكن أن يحدث؟ إن عمالنا سيدركون بسرعة أنهم مجرد قطع من اللحم، أو أدوات يمكن الاستغناء عنها فى نهاية الأمر. وسيقوم العاملون بادعاء المرض، من

التقيحات والتوتر العقلى. أو بسبب الخسة الواضحة. إن فريق الإنتاج لدينا سيبدأ فى ارتكاب الأخطاء، وعندما نطلب شيئا خاصا من فريق العمل، فلن يكون لديهم شيء خاص يقدمونه لنا. هل ما أعطيناه لهم كان شيئا خاصا؟ وسنبدأ من أسفل التل، شيئًا فشيئًا. ومن ثم، فهذا هو السبب فى وجود تناقض. إننا نتبع طموحاتنا الأعلى بالنسبة لنوع "الأسرة" التى نريدها فى العمل، وخدمة العميل والأرباح هى منتجات فرعية طبيعية لعمل ذلك بشكل جيد".

وكما قام واقفا فجأة، جلس بيتر فى الكرسى وغطى وجهه بيديه. وظل فى هذا الوضع نصف دقيقة قبل أن يسحب راحتى يديه ببطء عبر ملامح وجهه. وضاغطا على خديه وعينيه وأنفه. وبدا كما لو كان قد رأى شبحاً. قال: "ربما أكون قد ارتكبت أكبر خطأ فى عملى، إن من الأمور الجميلة جدا أن نتحدث عن تمكين العاملين، ولكن ذلك لا يعنى سوى القليل إذا ما كانت هذه الشركة معرضة للإفلاس. وهو لا يمثل أى رعاية للعاملين فى الأجل الطويل" .

عاد بيتر للوقوف مرة أخرى، "لا ترتكب أى خطأ، إننا لا يمكن أن نفعل ما نفعل إلا إذا حافظنا على تحقيق أرباح جيدة". وتحرك حول الغرفة وهو يقول: "إنك ترى كيف نقتصد فى الإنفاق. فليس لدينا مكاتب فخمة أو سيارات خاصة بالشركة، وليس لدينا كافتيريا للإدارة أو نادٍ صحى، ونركب بالدرجة الاقتصادية فى رحلات الطيران، فيما عدا بولا؛ لأنها حامل فى الشهر الخامس. ونحافظ على انخفاض التأمين الصحى عن طريق تخفيض السلبية والتوتر فى العمل. ونناضل مثل جميع الشركات، ولدينا حصتنا من المشاكل. وأدعو الله أن ننجح فيما نعمل".

اتجه بيتر نحو الباب. "أريد أن أخبر العاملين بما حدث. فسيكون علينا أن نجرى بعض التعديلات دون منشأة ماكدونالد".

وذهبنا معه إلى قاعة الاستقبال ورأينا بيتر يتكلم إلى بربارا، التى احتضنته. وتحرك بيتر إلى الخارج ودخلنا إلى المصنع. قال بيتر: "إن الأمر سيكون صعبا، ولكننى أعلم أننا سنتغلب عليه". وبدا أنه أكثر سعادة وأكثر ثقة عما كان عليه منذ عشرين دقيقة.

"إن القيام بعمل الشيء السليم له أثر عميق على كل الأشخاص المعنيين". قال بيتر هذا بينما كنا نسير فى ممر أبيض، "إن الطاقة الجيدة يتم إطلاقها فتتسع الحياة. إن بربارا الآن ليست الوحيدة المستعدة كى تمشى على النار من أجلنا، بل كل فرد آخر يسمع بذلك. أعنى، أن الناس يتعلمون بسرعة إننا لا ننجح ولا نخدع بدافع الغرور".

قلت: "إن نهجك يبدو مثاليا إلى حد كبير".

قال بيتر: "بيه... كان علينا أن نترك أولئك الناس الذين يحتاجون إلى الخوف كدافع يحركهم. ولقد أصابتهم جراح كثيرة حتى أصبح لا يمكنهم أن يفكروا لأنفسهم، كانوا يريدون أن يخبرهم شخص ما، بما يجب عليهم عمله فى كل لحظة، وأن يقوم شخص ما بمراقبة تنفيذهم لما هو مطلوب. ولا شك أن نموذجنا لا يصلح لكل شخص، ولكنه حقق لنا أرباحا حتى الآن".

دخلنا إلى منطقة واسعة للإنتاج بها أوعية ضخمة لأحماض التنظيف. وحذرنا بيتر من الاقتراب كثيرا منها.

قال بيتر: "إننا فى منافسة مع أكبر الشركات القائدة فى العالم. وهذا يدفعنا إلى أن نكون متميزين. ونحن نفعل ذلك بخلق اتصالات حقيقية وأصلية".

نظر إليه سميث محملقا وكأنه يحلم وقال: "إحساس الزمالة بالآخرين، أليس كذلك؟".

"نعم، ولكن هذا الإحساس يجب أن يكون حقيقيا. إنك لا يمكن أن تعرف الزيف فى ضربات القلب. أنا لا أحاضر فى ذلك، ولكنى أقوم بعمله فعلاً، وجمال الموضوع هو أنك بمجرد أن تقيم علاقات، يبدأ كل واحد فى البحث عن علاقات أخرى".

وتدخل سميث برقة، كما لو كان يتلو شيئا كان قد اختزنه فى ذاكرته، "إن هناك شيئا لا يضيع ، عندما يضع المرء الناس فى حالة تمكنهم من رؤية ما يتمتع به من ذكاء. وعلى العكس، فإن كل شيء يضيع عندما تعاملهم كأنهم قطيع من البقر، لأنهم عاجلا أم آجلا سيمزقونك بقرونهم".

التفت بيتر إلى سميث قائلا: "ما أجمل هذا!".

أومأ سميث: "إنه العظيم فولتير"

أضفت قائلا: "لندع الشعر جانبا، فإن منشآت الأعمال لا يمكن أن تدار عن طريق اللطف والرقة".

أجاب بيتر: "إن أحدا لم يقل شيئا عن اللطف والرقة. إن اللطف هو الأكذوبة التى تقتل الناس فى أثناء العمل نتيجة للإجراءات الصبيانية غير المتقنة. إنك لابد أن تكون صريحًا وواضحًا فى نفس الوقت".

وصلنا إلى منطقة التصميم، حيث كان يتم طبع وحفر رقائق الحاسب الآلى. نظر أربعة أو خمسة من العاملين وأومأوا برؤوسهم عندما دخل بيتر. وتقدم بيتر والتقط إحدى رقائق السيليكون. وكانت الخطوط المتشابكة عليها مزيجا جميلا متناقضا من اللون الزمردى الأخضر والذهبى.

ابتسم بيتر قائلا: "إذا كان من الممكن أن ننفذ ما قلته هنا، فما الذى يمنع الآخرين فى النواحى الأقل تنافسية من عمله؟ أنا لا يمكننى إلا أن أظن أننا نمثل بشيرا بما سيأتى فيما بعد".

وسأل سميث: "ألا تظن أن الظروف والأحوال هنا فريدة؟".

قال بيتر: "لم تعد كذلك. انظر، لقد درست الهندسة في جامعة ستانفورد. وتعلمنا هناك أن هنرى فورد قد أحدث ثورة في الصناعة من خلال الإنتاج الكبير. كانت لديه فكرة بسيطة هى: التحول من إنتاج السيارات واحدة تلو الأخرى، إلى إنتاجها فى خط متواصل، على سير متحرك. وقد أدت دورات الإنتاج الطويلة إلى مساعدة فورد فى تعيين عمال غير مهرة للقيام بنفس الحركات البسيطة المتكررة".

قلت: "أليست هذه الاقتصاديات الناشئة عن الحجم مازالت صالحة؟ كيف يمكنك منافسة تايوان مثلا؟"

ابتسم بيتر: "إننا لا نحاول. إنهم ينتجون رقائق الأحجام، سلع ذات قيمة مضافة منخفضة. أما نحن فنقوم بإنتاج رقائق متخصصة، ذات قيمة مضافة عالية. والسرعة والجودة أكثر أهمية بالنسبة لعملنا". وأنزل بيتر قطعة الرقيقة من يده. "إن ابتكار فورد قد

أدى مهمته، ومن السهل أن تدرى لماذا، إذا تذكرت ما قاله فورد: "إنك يمكن أن تحصل على أى لون تريده من طراز T، مادام اللون أسود".

ضحكنا.

وسأل بيتر: "هل يتحمل المستهلكون ذلك فى الوقت الحالى؟ إن كل شىء عبارة عن طلبات بمواصفات خاصة، ودورات إنتاج قصيرة، وإقامة تجهيزات ثم تحولات سريعة. وهو ما يعنى بالنسبة لوظائف المصنع أنك بحاجة إلى عمال يمكنهم التعامل مع التغير المستمر، والتفكير بأنفسهم، وتحمل المسئولية، والاستعداد مقدما لإيجاد الحلول. وإذا ما كان فى إمكانك أن تحفز العاملين، فإنك يمكن أن تخفض طبقة المديرين ذوى المرتبات المرتفعة، والمشرفين الذين يخبرون العمال عما يجب عمله فى كل خطوة. وفكر فى مقدار ما ستوفره من الوقت والمال، والإنتاجية. وإذا ما كان ذلك يصدق بالنسبة للصناعة، فإن ضعف ما قلت يصدق بالنسبة لوظائف الخدمات".

تمعنت مليًا فى هذه الأفكار بينما كنا نسير عائدين إلى المدخل، وسألت: "إن تقدمك المفاجئ يعنى ببساطة التحقق من أن إنتاجية كل عامل تعتمد بشكل حاسم على كيفية شعور العامل نحو الوظيفة؟".

نخسنى سميث قائلاً: "يا الله، لقد أشرت إلى هذا فى كتابى "ثروة الأمم". ويبدو أن الأمر لا يستحق كثيرا من الجدل عما إذا كان ينبغى على العامل أن يعمل بروح طيبة بدلا من أن يعمل وهو مثبط الهمة".

أومأ بيتر موافقا: "تماما. إلا أن إثارة اهتمام العامل واكتساب إخلاصه والتزامه قد تعنى العودة إلى وضع إدارة ذات طراز تقليدى على قمة الشركة. وأنت لا تتعلم هذا فى برنامج للحصول على الماجستير فى إدارة الأعمال، ولا يمكن أن تضعه فى مذكرة، ولكن عليك أن تعيشه".

أومأ سميث قائلاً: "إن الحكمة والنزعة إلى الخير، والعدالة هى خصائص الفضيلة. إن الشخص الراقى فعلا ينشر هذه السجايا والخصائص. والخاصيتان الأخيرتان هما اللتان تصلانه بالآخرين بطريقة أصيلة".

قلت: "إننا نظهر النزعة إلى الخير والعدالة لأصدقائنا. إن ذلك ليس من الأشياء التى يضعها الاقتصاديون عادة فى النماذج الاقتصادية لإدارة الأعمال".

أجاب بيتر: "هل تريد أن تعيش حياتك في صندوق منعزل؟ هل هذا هو الطريق إلى الحكمة؟".

***

بناءً على نصيحة بيتر، توقفنا لتناول الغداء فى محل للمخبوزات فى شارع الجامعة فى بالو آلتو. كانت البقعة ملاذًا للطلبة الذين كانوا ينحنون على الكتب والصحف فى أثناء مضغهم للشطائر وشرب القهوة باللبن. ومن ملابسهم وتصرفاتهم، كان يبدو أن هؤلاء الطلبة قد جاءوا من كافة أرجاء العالم، منجذبين كالمغناطيس إلى التعليم والصناعة فى وادى السيليكون. وقد أخبرنا بيتر أن نسبة حملة الدكتوراه إلى كل فرد من السكان هنا أعلى من أى مكان آخر فى العالم. وقد نظرنا إلى هذا الحشد نظرة عامة، وتعجبنا من ذلك الذى سيأتى بعد هيوليت أوباكارد أو جيتس أو جوبز.

ومع أكواب القهوة فى أيدينا، مشينا فى وسط المدينة. وبعد مسيرة قصيرة من شارع الجامعة، وجدنا أنفسنا أمام جراج أبيض صغير حيث بدأ بيل هيوليت ودافيد باكارد منتشأتهم الضخمة للإلكترونيات بعد انتهاء الكساد العظيم.

كانت هناك لوحة بينت لنا أن المكان قد أصبح مكتبة عامة. أومأ كل منا إلى الآخر، ونظرنا إلى بعضنا بعضا ودخلنا فى سكون.

قلت: "تصفح الجرائد، وسأحاول النظر فى الإنترنت".

وبعد نصف ساعة من البحث، كان لدينا جبل من المعلومات.

قال سميث وهو يمسك بإحدى المقالات فى صحيفة: "هنا شىء قد يهمك، ستكون هنا قمة للتجارة فى سان فرانسيسكو فى الشهر التالى، فى نفس الأسبوع الذى ينعقد فيه اجتماع شركة وورلدكيم وأنا متأكد أن الأمر ليس مجرد مصادفة وقد هددت جماعة الناس فوق الأرباح بنسفهما معًا".

ليست فقط "جماعة الناس فوق الأرباح"، وأشرت إلى مجموعة الأوراق التى طبعتها من الموقع "جماعات بينية، اتحادات عمال، وماركسيون، واليمين الأقصى من الجمهوريين، واليسار الأقصى من الديمقراطيين". إنه تحالف غريب من رفقاء أغراب متحدين معا ضد التجارة العالمية.

فكر سميث فى هذا، ثم قال: "أود أن أكون هناك".

"كنت أكثر تفاؤلا مما كان ينبغى أن أكون عليه فقلت: "بالطبع، ولكن كيف أحميك ضد الغوغاء؟ ألم يكن ما حدث من إطلاق الرصاص علينا من جانب ماكس هيس وجماعة الناس فوق الأرباح أمرا سيئا بما يكفى؟"، ثم سألت: "هل تظن أن متطرفا متعصبا مثل هيس سيتوقف عن ملاحقتنا؟ "وسواء أكانت هناك أم لم تكن "جماعة الناس فوق الأرباح"، فإن علىَّ أن أنتهى من رسالتى".

وسألنى سميث: "إلى أين إذن؟".

ابتسمت بندم: "إن أخت هارولد تعيش على مرمى حجر منا فى أوكلاند. ولكن ذلك معناه أننى سأضعك فى بيت العنكبوت، أليس كذلك؟ إننا لا يمكن أن نقوم بهذه المخاطرة".

الفصل الثانى والعشرون

مرة أخرى... اليد الخفية

عبرنا خليج سان فرانسيسكو عند طرفه الجنوبى، وتفادينا التكدس الضخم بالقرب من المدينة. وعلى النقيض من المسافة الجميلة الرائعة لجسر البوابة الذهبية، التى تنفتح على المحيط الباسفيكى العاصف المتجعد والبدائى الأصلى، فإن الخليج الجنوبى كان راكداً، قذرًا وصناعيًا. وكانت بضعة الأنهار التى تغذيه فى طور الاحتضار فى نهاية الصيف. وأخذنا الامتداد العمرانى لمدينة سان جوزيه حتى الثلث الجنوبى من الخليج، وكانت المجمعات الصناعية والطرق الحرة تأكل الأراضى الرطبة. وكان هناك ضباب مستمر مستقرا عند خط الأفق، محدثا أثرا يشبه أثر المياه البيضاء على عينى. وكان الجو حارًا ورطبا.

وكانت لحظة مرورنا بأوكلاند حزينة؛ لأننا كنا نعرف أن أخت هارولد تقيم غرب الطريق تماما. وبدلاً من إثارة المشاعر، انحرفنا شرقًا فى اتجاه جبال سييرا. وكانت الكابينة التى حجزتها لقضاء شهر أغسطس مازالت تنتظر قدومنا. إلا أنها لم تكن مكانا أتصور الذهاب إليه بصحبة رفيق. ولكنها كانت تعتبر ملاذًا لالتماس الوحدة، وملتجأ لمواجهة المتاعب فى رسالتى. قمت بتخطيط عدة جولات مجهدة سيرا على الأقدام، وعدد من محاولات التسلق فى أثناء الفترات المشمسة بعد الظهر. ومع ذلك، فإن الخشية من ملاحقتنا من جانب ماكس هيس وجماعة "الناس فوق الأرباح" هى التى أبقت سميث معى طوال الرحلة، أما بالنسبة إلىّ فلم يكن هذا – مطلقا– مبعثا لعدم سرورى.

كانت عدة أسابيع طويلة قد مرت منذ بدأنا رحلتنا من فرجينيا، وأخذت أستعرض فى ذاكرتى تلك المناطق والمناظر الجميلة التى مررنا بها، والأخطار التى نجونا منها، والتحديات الفكرية والعاطفية التى تغلبنا عليها. لقد تركت الساحل الشرقى مضطرباً، غاضبًا وقد سُدَّت السبل أمامى. والآن، فإننى يمكن أن أشعر أن ما كنت أهفو إليه من دعم قد حل محله قبول وهدوء مدهش. إن الحياة لا تعطى أية ضمانات، إلا أن ذلك الصوت أى صوت – سميث – قد بيَّن لى أن بإمكانى اختيار الكيفية التى أعيش بها. وأن

الإنصات إلى ما يدعو إليه الضمير، والنظر من خلال العين الداخلية للمشاعر الصادقة، واكتشاف أن السلام مع النفس وهدوء البال مصدره الوجود وليس الامتلاك - هى كل الخيارات. وتذكرت ما كتبه سميث: "إن الشحاذ الذى يقف فى الشمس على قارعة الطريق، لديه ذلك الأمان الذى يقاتل الملوك من أجل الحصول عليه. كنت أعلم أنه كان قولاً سديداً. ولكننى ناضلت للتوفيق بين هذه الآراء والسلوكيات التى نشأت وتربيت عليها، والتى كان يغذيها لسنوات عديدة الاهتمام بالثقافة الشعبية، والإعلان، ودراسة الاقتصاد".

وبينما كنا نمر بسفوح التلال بالقرب من خليج وولنت وندخل إلى المساحات الزراعية المنبسطة الشاسعة لوادى سان جواكين، وجهت أسئلتى التى كانت تجيش فى خاطرى إلى سميث: "كيف يتوافق ما قاله بيتر فى إطار فكرتك عن اليد الخفية؟". وسألته أيضًا: ماذا كنت تظن عن فكرة أن الربح ليس الهدف، ولكن الربح هو منتج فرعى لعملية إنتاج مَعنى للعاملين؟ هل ترى أن بيتر غريب الأطوار؟.

قال سميث: "إننى سأترك ذلك للسوق كى يقرر ما يراه وإذا ما كان يمكنه زيادة الإنتاجية بمناشدته للتطلعات الأعلى لدى العاملين لديه - وهو أمر ذو أهمية بالغة - بالطبع - وإذا ما تجاوزت مكاسبه فى الإنتاجية ما يتحمله من تكاليف فى سبيلها، عندئذ سترتفع أرباحه. وسيكون على الشركات الأخرى أن تحذو حذوه فورًا وإلا خرجت من السوق".

سكت سميث هنيهة ثم قال: "إنها تجربة مثيرة، والزمن وحده هو الذى سينبؤنا عما إذا كان على حق. إن ما قاله يضرب على وتر فى هذا الاتجاه. ويبدو - أن إدارته موجهة ومنظمة - إذا ما كنت توافق- من خلال الضمير الأخلاقى".

ضاق الطريق، وأخذ يصبح مكدسًا بسيارات النقل المحملة بالحاصلات الزراعية. وكان الدعم الكبير لمياه الرى قد أدى إلى سرعة تنمية الوادى الرئيسي. وهنا، كانت المياه هى الذهب السائل، التى احتلت مكانة البترول أو الماس فى تحديد الثروات. وكنا نعبر الحقول المربعة حقلا بعد آخر، وكلها مجهزة بأذرعة ميكانيكية ضخمة تنثر المياه على المحاصيل. وكانت هناك محطة عمليات تصدر ضجيجا عاليا، وتخرج ضبابا من الأبخرة

الضارة بالصحة، مما جعل سميث يغطي وجهه بمنديل. بينما كان ركس يعوى ببطء وقد استلقى على الأرض وهو يزفر بصوت مرتفع.

وعندما تعديناه وتركناه خلفنا، قال سميث: "أرجو أن تفكر فى المثال الذى ذكرته عن الجزار، وصانع البيرة، والخباز. كل منهم يسعى ويبحث عن مصلحته الذاتية. وإذا ما افترضنا أنه كان بمقدور الجزار أن يبيع قطعة من جزء أدنى من اللحوم بدون أن يتم اكتشافه. هل سيقوم بهذا إذا ما افترضنا أنه كان بإمكانه القيام به؟".

قلت: "ربما".

قال سميث: "نعم. ولكن ليس هناك خداع كامل، وقد يكتشف العملاء ما حدث من غش ويتعاملون مع مكان آخر، مما يؤدى إلى إخراجه من العمل. وهذا هو السبب فى أن المنافسة هى القوة المنظمة القادرة".

أطرق ساكنا، مستمتعًا بما يرويه من الحكايات، "ولكن هذه ليست نهاية الأمر. إذ إنه حتى لو تمكن من أن يغشك وأن يفلت بما عمل، فسيكون مازال أمامه الخيار فى ألا يستمر. وإذا كان سيختار هذا فقد يفقد شيئا يعتز به كثيرا، وبالتحديد هو صورته الذاتية".

"وأنت قد جادلت بأن الصورة الذاتية تستحق ما هو أكثر من المال".

"إنها أساسية للمحافظة على سلام النفس وهدوء البال، وهو كل ما تعنيه السعادة".

"رسالته: ماذا سيكون الأمر لو كان يهتم بالمال أكثر من هدوء البال؟".

"عندئذ يكون أحمق، ولابد أن تعلم أن هناك كثيرا من الحمقى فى هذا العالم". وقلت بإصرار: "وموضوع اليد الخفية؟".

"إن اليد الخفية للسوق لا تعمل بسبب الضغوط التنافسية فقط، ولكن أيضًا بسبب ضبط النفس الذى يمارسه كل منا على سلوكه، وترتفع الثقة عندما تتعامل مع أشخاص تعرف أنهم يحرصون على المحافظة على صورتهم الذاتية. إن السوق يعمل بكفاءة أكثر بسبب هذا. ودون الثقة، فإن الآلة الاقتصادية تجهد وتتحرك بعسر واحتكاك؛ لاحتياجها الشديد إلى الزيت، وتكاليف الرقابة والتنفيذ أصبحت ببساطة تكاليف مانعة".

توقفنا للعشاء عند إحدى سيارات النقل بالقرب من ستوكتون، كانت الشمس مازالت تتردد فى مكانها بالأفق. وبعد الانتهاء من الغداء، أخذت أبحث عن حافظ نقودى. قلت: "من الصعب علىّ أن أصدق أن كثيرًا من أصحاب العمال لا يغشون عملاءهم إذا ما كانوا يعلمون أنهم سيفلتون بما غنموه".

فحص سميث الفواتير التى وضعتها على المنضدة وقال: "إنك كتلة من المتناقضات، انظر لقد دفعت "بقشيشا" بالفعل".

"حقا؟ إن النادلة تستحقه فقد قامت بعملها على خير وجه". أجاب سميث: "مهما كان ما عملته، إننا لن نعود على هذا الطريق مرة أخرى، لماذا لم تحرمها من البقشيش وتعظم من مدخراتك؟ هـــ..هـــ..م...؟ إن ضميرك يقول لك إن ترك "البقشيش" هو الشىء الصواب. وأنت يجب أن تسعد نفسك بالإنصات إلى هذا الضمير. لماذا يبدو هذا الجزء من إنسانيتك شديد الوضوح، مع أنك تنكره على الجزار والخباز؟".

قلت: "إننى أعلم أن هناك بخلاء أشحاء، وأنا أعرف بعضهم".

"بالطبع. كنت أريد مجرد التأكيد على أن الناس لديهم متفرج داخلى يساعدهم فى توجيه سلوكهم، سواءً أكان ذلك فى السوق أم فى أى مكان آخر".

وصلنا إلى مكان توقف نقضى فيه الليل. استلقينا على أسرتنا فى الموتيل، وتركنا جهاز تكييف الهواء يرطب أبداننا.

سألت: "ألا زلت مستيقظا؟".

كانت هناك إجابة بكلمات وهمهمة.

استغرقت فى الذكريات قائلا: "بعد السنة الأولى التى قضيتها فى الدراسات العليا. كنا نجلس للامتحانات الشفهية فى مجموعات مكونة من ثلاثة فى كل مرة. وكان المحافظ العجوز الذى يقوم بهذه المهمة، طاغية مستبدًا. وأذكر أنه سألنا مرة بعد مرة. بلهجته ذات اللكنة الألمانية الثقيلة قائلاً: "ما رأس المال؟ ما رأس المال؟". وأذكر أننا أجبنا بكل تعريف يمكن التفكير فيه من ماركس إلى صامويلسون، ولم يعجبه أى شىء منها. ورسبنا جميعًا وكان علينا أن نمتحن فى العام التالى. وفى ذلك الوقت، كان هذا المستأسد قد تقاعد ونجحنا بدرجات فائقة.

اعتدل سميث جالسا وقال: "وما النقطة التي تود إبرازها؟".

"لقد فكرت كثيرا في رأس المال منذ ذلك الوقت. قلت هذا، مستمتعًا بدوري التعليمي. "لقد اعتاد الاقتصاديون أن يركزوا على رأس المال المادى - مثل الرافعة الشوكة الموجودة هناك، والطلمبة الموجودة بين معدات الرى، والمبانى والطرق، أى الأشياء التى يمكن لمسها. ولكن فى الستينيات، اكتشف الاقتصاديون أنهم كانوا يفتقدون كثيرا مما يمكن أن يفسر النمو الاقتصادى، وكانوا مضطرين إلى توسيع تلك النظرة الضيقة من خلال إضافة فكرة رأس المال "البشرى" أرصدة الأصول غير الملموسة التى يأتى بها العاملون إلى الإنتاج، أشياء مثل التعليم والتدريب، والصحة. واليوم، أصبح كل أصحاب الأعمال فعلا يقبلون أهمية الاستثمار فى هذه الأنواع من رأس المال".

بدا سميث ساخطا وقال: "إن هذا لا يؤثر فى جوهر نقطتى – القيم التى يتفاعل بها الأشخاص كل منهم مع الآخر".

"سأتناول هذا. فى الثمانينيات تم توسيع رأس المال البشرى ليتضمن رأس المال الاجتماعي، وأصبح من المعترف به أن النشاط الاقتصادى يتم فى نطاق القواعد والمؤسسات الاجتماعية، كما أن الثقة يمكن أن تخفض تكاليف العمليات إلى حد كبير. بل إن بعض الاقتصادين قالوا إن رأس المال الاجتماعي يتضمن الفضيلة أيضا".

رمقنى سميث بنظرة ذابلة: "إذا كنت تعرف هذا، لماذا تركتنى أحاربك على كل بوصة من الطريق؟ لقد كان الأمر مثل مصارعة حية ضخمة!!".

قلت: "إن الأمر بدأ يكون معقولا".

قال سميث مستنشقًا: "على أية حال، كنت ستتعلم كل ما تحتاج إليه عن الفضيلة والقواعد الاجتماعية من كتابى عن نظرية المشاعر الأخلاقية". وسألته: "كم قدر ما يوجد به أكثر من ذلك؟".

لم يرد . وبدلا من ذلك، أطلق تنهيدة عميقة ومضى.

الفصل الثالث والعشرون

نداء استغاثة إلى سلطة أعلى

وصلنا إلى الكابينة ذات الحجرتين جنوب يوسميث، فى الصباح التالى. كانت الكابينة تمثل مكانًا لمعسكر مرموق، عبارة عن مبنى صغير من الكتل الخشبية، كان الصيادون يستخدمونه كغطاء فى الأزمنة الماضية فى أثناء الظروف الجوية السيئة. ولما كان يشبه عشًا على منحدر التل، فقد كان بعيدًا عن أقرب جيرانه. كان الماء يستخرج بواسطة طلمبة يدوية، وكان طهى الطعام يجرى ببراعة فوق موقد بالغاز ذى شعلتين. لم تكن هناك أى كهرباء أو اتصال تليفونى كى ينفس هذا الهدوء النقى الأصيل.

اتخذت الأسابيع التالية نمط الاعتياد. كان سميث ينهض أولا من فراشه، ويقوم بتجهيز القهوة لى والشاى لنفسه. وكان يعود إلى الرواق فى مدخل المبنى، ويتأرجح فى كرسيه، ويراقب الشمس وهى تشرق من خلال القمم الجرانيتية. وكنت أحتل المنضدة الخشبية العريضة، لأنثر عليها أوراقى وكتبى. كما كنت أستخدم جهاز الكمبيوتر المحمول كل حين، توفيرًا للبطارية.

فى الثالثة بعد الظهر كنا نتوقف، ونتنزه بالسيارة فى سفوح التلال المحيطة بنا، حيث كان يمكننى أن أقوم مع ركس بنزهة طويلة على الأقدام، بينما يغفو سميث راقدًا على ربوة مُعْشبة. وبعد العشاء، كنا نقوم بإنارة الفانوس، وكان أكثر الوقت يمضى فى العمل الخاص بالرسالة بالنسبة إلىّ، بينما كان سميث يمضى الوقت فى القراءة. وفى نحو العاشرة مساء، كنا نختتم يومنا بالذهاب فى جولة نمضى فيها إلى أعلى التل المطل على الوادى. وربما أحتسى قليلا من ويسكى الدرامبوى، وينفخ سميث فى سيجارة غير مشتعلة. وفى هذه الجولات، أهدانى آراءً وأفكارًا عميقة متبصرة دقيقة - أو بتحوير ممتع للجمل - لا يمكن أن يفعله إلا آدم سميث الأصيل والحقيقى. وعندما أعود بذاكرتى إلى الوراء، فإننى كنت أحس بالندم على كل الوقت الذى أضعته من خلال وضع سميث موضع ذلك الاختبار الغبى ذى الأسئلة العشرة، وكان كل هذا لأننى رفضت قبوله. أصبح هذا العرض طبيعة ثانية لي الآن، ومع ذلك كنت أحس بأن بقاءنا معا يقترب من نهايته. كما أن سميث نفسه أخذ يصبح أكثر كآبة وحزنا وجنونا مع كل يوم يمر.

كنا نذهب إلى المدينة مرتين في الأسبوع لنشترى ما نحتاج إليه من سلع البقالة، ونعيد شحن بطارية الحاسب، ونذهب لغسل حمل من الملابس. ومع أن جواربنا كانت تتفتل، فإنني كنت أطلب جوليا من التليفون العام. وكان هذا يبعث السرور في نفس سميث بنفس قدر سروري. ومع حذرنا الدائم من جماعة "الناس فوق الأرباح"، وضعنا نظامًا خاصا للتحدث معها. كنت أقوم بطلب الرقم الخاص ببيت جارة جوليا في وقت محدد مسبقا، "يتصادف" فيه وجود جوليا عند آل تومبسون لاستعارة قليل من السكر أو لتعطيهم فطيرة. وقد تحدثنا ثلاث مرات منذ مونتيرى، وكانت جوليا قد سامحتنى تقريبا لهجرى إياها في يوتاه وكنت أشعر بأنني مشغول وسعيد، وكان لهذا المزيج أثر السحر على رسالتي.

لم يكن النموذج النظرى الجيد يتطلب مجلدات من النصوص المكتوبة، بل مجرد بذرة واحدة أساسية من الحقيقة التي غفل عنها كل فرد آخر- غفل عنها لأنها أحيانا تكون شديدة الوضوح بحيث لا يهتم أحد بذكرها- والشيء الذى لم تتم ملاحظته أو يجرى تجاهله يمكن أن يكون له أثر بالغ، وبصفة خاصة في سوق مائعة ونامية. وعلى سبيل المثال، فإن نظرية الفوضى قد أظهرت كيف أنه حتى الخفقة الرقيقة لأجنحة الفراشة يمكن أن تطلق قوى تصل إلى أبعاد تبلغ آلاف الأميال. كانت مثل هذه الشذرات من التعمق الفكرى هي التي أبحث عنها.

إن سمة "المعلم" المهنى، سواءً أكان نجارًا يقيس مرتين ولكن لا يقطع إلا مرة واحدة، أم رسامًا مثل جوليا، يقدم الطبيعة الأساسية للنحلة الطنانة من جديد، من خلال عملية تقطير دقيقة، هى القدرة على تحديد ما هو مهم. وهذه ليست مهمة سهلة، أن تكون واضحًا وعلى درجة كبيرة من المعرفة. بحيث تكون لديك الثقة في العمق والهبوط للوصول إلى العناصر الأساسية المؤثرة. وكان يمكننى أن أرى مدى تعثرى في المسوّدات المبكرة عندما كنت أناضل لتدقيق جوهر رسالتي وتحديده بحيث يصبح كحد الموس.

إن هناك فقط كثيرًا من الإيحاءات التي يمكن للمرء أن يجمعها من التفرس في مجموعة أوراق كراسة المذكرات، ولذا فإن جولاتي العارضة التي كانت تمتد إلى مسيرة يوم كامل أصبحت - دون وعى - امتدادًا لعملي. وفي نهاية الأسبوع الثانى، كادت أنفاسى تحبس وأنا أحاول الصعود إلى أحد المواقع السياحية غير المألوفة - نصف القبة،

وشلالات يوسميث وشلالات فيرنال. وكان كل منهما يفرض مجموعة مختلفة من الصعوبات فى الصعود إلى القمة، وكان تغلبى على تلك العقبات هو ما كنت آمل أن يهز جوهر رسالتي. وكانت محاولات التسلق هذه، متعبة ومبهجة فى نفس الوقت، من اعتلاء للقمم إلى البانوراما الرائعة التى تثير الإعجاب للوحات الثلجية المنحوتة التى ترتفع إلى نحو ميل كامل فى الجو. وكان الإجهاد يعكس نهرًا من الأفكار، وشلالات من الحياة التى تسرع نحو الاصطدام بأحد السدود.

والمدهش، أنه بعد ظهر أحد الأيام وعقب إحدى جولات التنزه المتواضعة وبعد أن كاد الصبر ينفد، برز فجأة أحد السدود. كنا قد قطعنا المسافة بالسيارة مارين بطريق ممر تيوجا إلى تولومن ميدوز. وكانت القمم الثلجية تغذى نهر تولومن الذى كان يتلوى متعرجا فى خلال الوادى بينما كانت الجبال المحيطة بالوادى تطوقها عند قاعدتها غابات من أشجار الصنوبر على شكل الأهلّة. كانت جوانب الجبال تظهر جوانب فضية بيضاء حيث كانت الثلوج لا تزال تغطى جوانب المنحدرات والوهاد الضيقةِ.

مضى سميث مع ركس يكتشفان النهر، بينما تجولت فى المروج. كانت الزهور البرية تفترش الحقول بالألوان والأشكال المختلفة. كنت قد سرت لمسافة ميل عندما أخذ حذائى يحدث صوتا فوق البراعم والنباتات اللينة ذات الألوان الحمراء والبرتقالية والأرجوانية. واختلطت أنفاسى متزامنة مع خطواتى. ونزل الهدوء رافعًا حواسى إلى أعلى ولكنه كان يأخذنى فى نفس الوقت إلى ما يتجاوزها، كان بالى هادئا وتفكيرى حرّا.

إنه الخيال – الرؤية مع الأبعاد وتغيير التركيز – هو ما كان المفتاح. ومن جديد مسحت عيناى ذلك البساط الذى صنعته الزهور البرية، والنهر المتدفق عبر مجراه المتعرج، والقمم الثلجية، والطريقة الطبيعية التى نسقت بها نفسها للتجانس محدثة تلك النتيجة الرائعة فى هذه المروج. وقد تقع أحداث عشوائية غير منتظرة مثل شتاء جاف أو فيضان مفاجئ، تغير خصائص وسمات هذا المنظر الرائع. ولكن كان هناك تزامن تتجمع وفقًا له الأشياء الحية والعناصر من جديد لتخلق توازنا طبيعيا: النهر ينحت شاطئا جديدا، وتموت الأشجار الأكثر عمرا، وتبرز شجيرات جديدة عندما تتحسن الأحوال.

ورأيت أن مشكلة تقييم الأسهم فى ظل عدم التيقن إنما هى امتداد للجدول الذى يتدفق بسرعة ورقة وآثاره على الوادى حيث يبحث المستثمرون من الزهور البرية عن

مياه رأس المال الدولي. وفيما يشبه الإلهام، ظهرت الفكرة المتعمقة التى كنت أبحث عنها. كان من الصعب أن تكون مجرد ضربة حظ أو صدفة؛ لأننى عملت بجد واجتهاد فى إعداد الأرضية الفكرية لهذه اللحظة. وكان الأمر يتطلب خيالا، لإطلاق الفكرة وتحريرها.

صرخت ووثبت فرحا: "ينى ها .. ينى ها".

وبسرعة جذبت القلم والورقة اللذين أحتفظ دائما بهما وبدأت أكتب المعادلات التى تعبر عن هذه الأفكار.

***

وقفت فى المدينة، أهمهم وأغنى، وكلى شوق لأتقاسم مع جوليا هذا الفهم والاستيعاب المفاجئ للواقع. ولكننى عدت إلى السيارة فى أقل من دقيقة.

قلت لسميث: "لا إجابة".

أجاب سميث: "مثل الأمس تماما".

لماذا تخفق جوليا فى المحافظة على موعدنا؟ بدأ تفاؤلى يختمر ويتحول إلى قلق. وعندما عدنا إلى الكابينة، كان القلق قد ازداد وأصبح ذعرا. إلا أننى من أجل سميث، لم أظهره، ماذا يمكن أن أفعل؟ مهما كان الأمر، فقد كان علىّ أن أنتظر حتى الصباح.

قضيت ساعة على جهاز الحاسب أدخل المعادلات التى وضعتها، ثم أغلقت الجهاز، ووضعته جانبا، كنت مع سميث قد قطعتنا مساحات فلسفية كبيرة فى خلال الأسابيع الماضية، حتى أصبحت الأولوية لمعرفة كنهها عمليا فى تلك الليلة. واسترجعت في ذكراتى ذلك اللقاء الأول الذى تحدثنا فيه معًا فى غرفة المعيشة لدى جوليا، وكيف قال سميث إن الفتيل والشمع الموجودان في الشمعة بحاجة إلى الأوكسجين كي يحترقا، تمامًا كما يحتاج الاقتصاد إلى التفاعل بين الكائنات البشرية لخلق مجتمع، و"شعور الزمالة" الذى يخلق أساسًا للسلوك الأخلاقى، في ذلك الوقت، لم يكن بمقدورى أن أفهم جيدا كيف يمكن أن يكون لذلك أى صلة بى، أو بالاقتصاد أو بالأعمال. والآن، رأيت أنها تقدم حبل النجاة نحو طريقة حياة أفضل وأكثر ثراء.

كان الاقتصاد نظاما مسيطرًا، قادرًا على إيضاح وتفسير دروس فعالة للعالم عن الندرة وخياراتنا للتعامل معها. إلا أن "الطريقة الاقتصادية للتفكير" بزغت من خلال الأفكار المسبقة غير المنطقية أحيانا والمشوشة غالبا للطلبة والسياسيين على السواء بالنسبة لعدد من الموضوعات. وليس لدىّ سوى قليل من الشك فى أن عالمنا كان أكثر ثراء، وأن الخيارات كانت أكثر وضوحًا بسبب ضغوط الأفكار التى قدمها الميدان المختار لدراستي. ومع ذلك، فقد تحدانى آدم سميث ألا أتعجب إذا لم يحقق النظام كل ما يمكنه. مع أن النظريات الاقتصادية الحديثة قد عرضت رونقا منطقياً، فهل تناولت الاتصال المتبادل بين شخص وآخر بطرق اجتماعية وأخلاقية؟ هل يمكن أن يكون هناك تفاهم صادق دون ذلك؟ وفضلا عن هذا، فإنه كان يبدو أن الاتجاه السائد فى الاقتصاد لا يتطلب شيئا من الفرد من ناحية التغير والتحول الشخصي، كما أنه لا يعترف أو يشجع أو يوحى لأى شخص بالعناية ولو بمقدار ذرة برفاهة أى فرد آخر.

وعلى النقيض، فقد قدمت الرؤية الكلاسيكية لسميث أفكارًا لتحقيق وسائل راحة مادية أكثر. ومع ذلك، ليس لديه سوى قليل من الإيمان بأن هذه سوف تحقق السعادة. وبالنسبة للأغلبية السائدة من البشر، فإن السعادة تنبع من النمو الداخلى والتحول، ومن الارتباط بالآخرين، واستخدام الخيال المعنوى الموجود بداخل كل منا. كان هذا هو الطريق إلى سلام العقل أو هدوء البال والسعادة. كانت الإجابة هى الوجود وليس الملكية. وكانت قوة انتقال هذه الرسالة استثنائية، إلا أن المسار كان صعب الاتباع. إذ إنه سيتطلب طريقة جديدة للتفكير والعمل والحياة.

ووضعت الأمر كله أمام سميث فى أثناء جولتنا المسائية. كان ركس يتقدمنا فى الطريق، وأنفه تشم الأرض متتبعة أثر سير الغزلان لمسافة ربع ميل من الكابينة. كان القمر يلقى بظلالنا أمامنا.

قلت لسميث: "لقد كنت أناضل لفهم كل ما تعنيه بحديثك عن الضمير الإنسانى".

أجاب بسرعة خاطفة، كما لو كان ما أسال عنه هو أعلى شيء يدور فى عقله: "إن الضمير هو القدرة الداخلية لدى الإنسان للحكم على سلوكه، ولتحقيق توافقه مع الشعور بالواجب طبقا لمعيار أخلاقى".

قلت: "لكننا لم ننته حتى الآن من مناقشتنا التى بدأناها فى بيج سور، كيف يختلف الضمير عن الرأى العام الذى قد يكون عنصريا أو جاهلا، أو قد يعكس ببساطة هستيريا غوغائية مثل ما حدث فى دورانجو؟".

قال سميث: "إن معيارك الأخلاقى هو - جزئيا - نتاج المشاركة المجتمعية. ولكن خيالك يتيح لك تجاوز الاهتمامات المحلية الضيقة".

وصلنا إلى حافة الجرف المنحدر التى اعتدنا الاستراحة عندها حيث تشرف على الوادى. كان الوادى الضيق هادئا فى ذلك الجو البارد. وجلسنا على كتلة من الخشب، وأدار سميث وجهه ناحيتى.

قال: "هاك تصوير حزين من أيامى. قبل قيام الثورة فى مستعمراتنا فى أمريكا الشمالية، كانت بريطانيا تحتكر تجارة الطباق فى ميريلاند وفرجينيا. كان الطباق يمثل تجارة عالمية ضخمة، فى كل نواحيها مثلما هو الحال بالنسبة للصناعات الدوائية فى الوقت الحالى. وكانت مدينة جلا سجو - حيث كنت أعلمّ الاقتصاد - ميناءً مزدهرا يتدفق من خلاله طباق المستعمرات، وقد حقق جيرانى ثروات من العمل والتجارة فيه. ولو كنت قلدت الرأى السائد لدى أصدقائى عن التجارة، لكنت قد تمتعت بهذه الثروات".

تنهد سميث بعمق وقال: "ولكن ذلك كان من ثمار عمل العبيد الأفارقة. والعبودية أحد أكثر النظم شراً، حيث يباع الرجال والنساء والأطفال مثلما تباع قطعان البقر لأعلى سعر. وعلى الرغم من أننى لم أستعبد أبدا، فإننى يمكن أن أتصور مدى شراسة وكآبة العبودية، وآثارها شديدة الظلم. وعلى الرغم من الثراء الضخم التى جلبته للبعض، فإننى شجبت النظام على أسس أخلاقية واقتصادية. وهكذا، فإنه بينما قد يكون الرأى العام جاهلا ومتميزا ومشوها، يكون المتفرج الداخلى متحرراً من هذه القيود".

توسع سميث فى حديثه قائلا: "وحتى هذا، ففى حرارة اللحظة وطغيان العاطفة، فإن المتفرج الداخلى للمرء قد ينقصه الانفصال المرغوب والبرود فى التقدير، وهذا هو السبب فى أن الخبرة تؤدى إلى نشأة قواعد عامة للأخلاق، ومن ثم لا يصبح من الضرورى الاعتماد على المتفرج غير المتحيز فى كل مناسبة وجميع المناسبات".

وواجهته قائلا: "والقواعد تقوم على أساس التقاليد، والتقاليد الإنسانية يمكن أن تعجّل بأخطاء فظيعة".

قال سميث: "هذا صحيح، فإن الحكيم خالق الطبيعة قد جعل من الإنسان محكمًا فوريا على البشرية، ولكن تذكر هذا – هناك محكمة أعلى من التقاليد، هي محكمة الواحد الآتي". ونهض واقفا وتجول حتى حافة الغابة، عاقدًا يديه خلف ظهره، ويبدو في كل حركاته كأستاذ عالم.

وسألته: "وهذا يعني؟".

ابتسم سميث قائلا: "لقد قابلت فولتير العظيم، ومن ثم فإنك ستقدّر ملاحظته لو لم يكن الله موجودًا، كان سيصبح من الضروري اختراعه، وهكذا فإن سعادتنا في هذه الحياة، تعتمد في كثير من الأحوال، على الأمل المتواضع، وتوقعات الحياة الآتية، حيث ستكون العدالة من نصيب كل إنسان، وهذا الأمل والتوقع متأصل ومغروس بعمق في الطبيعة البشرية".

واستمر سميث يقول: "ولكن حتى هنا على الأرض، فإننا إذا عملنا طبقًا لما تمليه علينا قدراتنا الأخلاقية، فإننا سنتبع بالضرورة أكثر الوسائل تأثيرا لترويج السعادة البشرية، ولهذا فإننا – بمعنى آخر – نتعاون مع الرب لتشجيع خطة العناية الإلهية".

قلت: "لم أسمعك تتحدث عن إيمانك وعقيدتك من قبل".

قال مواصلاً حديثه: "إنك لن تراني أرتدي الدين على أكمامي. وأتوقع من الآخرين أن ينادوني ربانيا – مثل أبطالكم واشنجتون، وجيفرسون، وفرانكلين – إنني مؤمن بأن الله قد خلق العالم وقوانينه، وأننا يجب أن نستخدم عقولنا لاكتشافها، ونحن نستخدم العقل لإدراك الآثار البعيدة الناتجة عن أفعالنا، وللتنبؤ بالمزايا أو الأضرار التي يحتمل أن تنشأ نتيجة لها. والعقل يساعدنا في استخدام ضبط النفس للامتناع عن المسرات الحالية أو معاناة الألم الحالي، حتى يمكننا أن نحصل على مسرات أكبر أو تجنب آلام أشد في المستقبل. وفي الجمع بين هاتين الخصلتين – العقل وضبط النفس – تتكون فضيلة الحكمة".

كنت قد بدأت في مقاطعته، ولكنه أسكتني.

"استمع إليَّ الآن: إن الحكمة عندما توجه إلى رعاية ثروة المرء أو سمعته لا يمكن أن تعتبر فضيلة للتحبب أو للتبجيل والتكريم. ومثل هذه الحكمة الضيقة ربما قد تجعلك ثرياً، ولكن الحقيقة والعدالة لا تبتهجان لمجرد أنك أصبحت غنيًا". والتقط بعض الحصوات من على الأرض وأخذ يهزها في يده وهو غائب من العقل، وهو ما أصبح الآن أمرًا معتادًا عندما يقوم بالبحث عن الكلمات الصحيحة.

على بعد نحو مائة قدم فى الغابة، سمعنا صوت طقطقة وضجة ناشئة عن غزال أو ربما كانت صادرة عن ذئب يجر قدميه على امتداد مسار الغزال على جانب التل.

ارتفعت أذُنا ركس إلى أعلى، وأصدر عواء منخفضًا. وظللنا ساكنين بلا حراك. وفى لحظة، عاد الليل ليصبح ملكا لنا بهدوئه. فيما عدا همسة خفيفة فى رؤوس الأشجار. وكان القمر ساطعًا فوقنا يبهر الأبصار فى هذا المكان الذى يتسم بالوحدة والروعة الصافية.

واستمر سميث فى افتراضاته: "لا إننى أقول، إن هناك حكمة عليا، حكمة تشمل السلوك الحكيم وحسن التمييز الموجه نحو أغراض أعظم وأنبل بدرجة أكبر من توجهه نحو احتياجاتنا الذاتية. والحكمة العليا هى الحكمة السابقة الضيقة مصحوبة بفضائل أعظم وأكثر فخامة، مع الشجاعة، ومع الحب الشديد للخير، ومع نظرة التقديس لقواعد وأحكام العدالة، ودرجة مناسبة من ضبط النفس".

"إنك تصف نفسك، أليس كذلك؟".

لم يسمعنى واستمر يقول: "إنها تتطلب أقصى درجات الكمال فى الفضائل الفكرية والأخلاقية وأنا أؤكد لك أن الحكمة العليا هى أفضل رأس موصولة بأفضل قلب!".

ابتلعت لعابى بصعوبة. إن هذا الأخ سميث ليس مجرد رمز فكرى محبوب يستحق بضعة رسوم كاريكاتيرية وأفكار مبتذلة، ولكنه كان مؤسسا لإطار أخلاقى للحياة. لم يكن مجرد "الأب" للاقتصاد الحديث بل كان أيضًا "الأم" التى تعهدته بالتغذية والرعاية – ومصدرًا للاجتهاد والذكاء العملى. وفوق كل ذلك، كان مصدرًا للحكمة، كيف ستكون درجة اختلاف ما أقوم بتدريسه فى الخريف القادم. استغرقت فى التفكير، مستخدمًا كل مجموعة آراء سميث، وليس فقط عضوًا مبتسرا – اليد الخفية.

قاطع أفكاري وتأملاتي صوت خفيف آخر، وكان هذه المرة من الأدغال الموجودة مباشرة خلف سميث. عوى ركس بصوت متذمر منخفض. ومع الحركة الخفيفة لأحد الأغصان كان هناك شبح لشكل يبرز من بين الأشجار. ولفترة لا تزيد عن الثانية تخيلته دبا، ثم برز في ضوء القمر ماكس هيس موجهًا مسدسا نحونا.

فتحت فمي، ولكن لم يخرج منه صوت. بينما استمر سميث في حديثه الذاتي، متناسيا أو غافلا عن ما حدث من ضجة: " إن الكفاح من أجل الحكمة التامة والفضيلة التامة...".

ضرب هيس سميث في ظهره، مرسلاً إياه منهارًا على الأرض.

"حكمة .. ها ها". قال هيس وهو يوجه سلاحه إليّ.

قفز ركس من بعد ستة أقدام إلى الخلف، واثبا نحو يد هيس الممتدة. إلا أن دوى المسدس ألقى ركس بين الأغصان مترنحاً، أخذ ينشج وينن، وأطلق هيس طلقة أخرى نحوه.

"وغد ... " صحت مندفعًا نحو جسد سميث المسجّى على الأرض. كان حيًا ويتنفس بصعوبة.

نبح هيس: "تحرك!".

جذبت سميث برفق، مستخدما إبطيه كحاملين، وكان كعباه ينسحبان على الأرض. كان هيس يتبعنا ومسدسه مصوب إلى بطني. بينما حمل هيس في يده الأخرى جهاز الحاسب المحمول الخاص بي، الذي لابد أنه قد أخذه من الكابينة قبل أن يتبعنا إلى هنا.

كنا نشق طريقنا بصعوبة ونحن نصعد جانب التل المنحدر بشدة إلى كهف على الجانب البعيد من المرتفع. كانت هناك علامات منتشرة لأحد المعسكرات مما أشار إلى أن هيس قد استخدمه كمأوى. وفي ضوء القمر، كان يمكنني أن أرى سيارة بيضاء كبيرة تقف مختفية في ظل أغصان مدلاة تحجبها عن الأنظار في أحد طرق قطع الأشجار. لقد غير وبدل عرباته، بالطبع. اللعنة – لقد أصبحت مهملاً، وظننت أنه لا توجد طريقة يمكن بها أن يعثر هيس علينا، بمجرد هروبنا من نيفادا.

"كيف عثرت علينا؟".

"اخرس". وضربني هيس في تجويف ظهرى دافعًا إياى إلى داخل الكهف. وتبعني وهو يجر سميث من قفا سترته. كان المكان باردًا، رطبا ومظلما حيث وقعت في الطين، وكنت أحس بقطرات من الماء تسقط على ظهرى المتوجع. وبجانبي كنت أسمع سميث وهو يجاهد للتنفس. كان هناك ما يكفيني من ضوء القمر لأتحقق من شكل هيس الجالس أمامنا وسلاحه مازال إلى جنبه. واستعدت ذكرى المشاجرة خارج دار الأوبرا في شيكاغو، وكنت أعلم مدى سرعته ووحشيته في العراك. لم تكن هناك سوى فرصة ضئيلة لتجريده من سلاحه في وضعي الحالي. ضغطت على مرفقيَّ لكي أنهض وكنت قد بدأت أتماثل للجلوس عندما وجدت حذاء ثقيلاً على صدرى يعيدني منبسطا على ظهرى على الأرض.

بعد أن أحكم سيطرته، ابتعد هيس عنا، مستندا إلى جدار الكهف.

كانت عيناه تلمعان، وبدا مستعدا للقفز. وبعد لحظة، اختطف جهاز الحساب المحمول الخاص بي. ضغط على زر الطاقة، منتظرًا إياه حتى يبدأ التحميل. كنت منذ سرقة أوراق رسالتي، قد احتفظت بكلمة السر الخاصة بي تحت الحماية. ولم تكن لهذا أى فائدة مع وجود هيس مصوبًا مسدسه نحوى. ودون صعوبة، كان يقلب في ملفاتي، حتى وجد الملف الذى استكملته اليوم مع المعادلات الجديدة. وأصدر صوتا كصوت الخنزير معبرًا عن رضائه، ثم أنهى البرنامج. وبدأ في إعادة تهيئة القرص الصلب!.

وحملقت فيه مندهشا. لم يكن يبدو عليه أنه سيسرق المعادلة. ولكنه كان سيمسح كل أثر لها. رأى هيس نظرتي. "نعم، إن معادلتك ستذهب حالا، وأنت أيضًا".

قلت: "سيكتشف الآخرون ذلك، تماما كما فعلت إنك لا يمكن أن توقف كل شخص".

"لا أحتاج إلى ذلك".

انتهى صوت الدوران السريع للحاسب المحمول، وألقاه هيس جانبا.

وأخذ يتحدث هامسا، كانت كلماته غير منظمة تزداد كثافة وحجما. كان يزعم أن هناك سلسلة من الأعمال الشريرة ارتكبها المجتمع الظالم. وأن الحضارة الغربية تصلى على مذبح الرأسمالية، ومعبودها المقدس هو "الدولار القادر". والناس لم يكونوا سوى

دمى، يترنحون إلى الأمام وإلى الخلف بيد بنيجامين فرانكلين الخفية على ورقة المائة دولار.

وكان إعطاء الورقة أو حجبها يتم لتعطيل الكلام والفكر، كما أن الدولارات جعلت كل شخص، يتوافق مع عالم تجارى ملىء بكلام أجوف ويزدرى ما هو مقدس، وبينما كان هيس يتحدث فى تبجح وصخب لمكث سميث، كان الدم يتسرب من جرح فى ظهره.

"لقد قلت لا لكل الحوار والجدل الذى كان يدور معى وهاجمنى صديقك دكتور لاتيمر العظيم لهذا السبب". قال هيس هذا، واستمر يقول: "عندما قلت الحقيقة عن شى جيفارا وأزمة الناس فى بوليفيا. فهل استمع الأستاذ العظيم؟ هل تعلم؟".

هل حاول مساعدة أولئك الذين لم يكن بإمكانهم مساعدة أنفسهم؟ لا – بل قام بدلا من ذلك بتدمير منحتى الدراسية. وقبل أن أعلم بذلك، كنت فى الشارع.

قلت: "إنك تجيد لعب دور الضحية". ووجدت نفسى فى وضع غير مريح بدفاعى عن لاتيمر. "هناك برامج أخرى فى الدراسات العليا، وأشياء أخرى كان يمكنك عملها من أجل حياتك".

"أسكت".

كان من الواضح أن هيس اعتزم قتلنا، ولكنه فى جنونه، بدا مصمما على الإعلان المقدس عن أسبابه ودوافعه. وأمضينا بقية الليلة ننصت إلى تشهير هيس اللاذع بالعولمة، وشرور الشركات متعددة الجنسيات، وخيانة منظمة التجارة العالمية. وكان سرب من الخفافيش يزفزف فى السقف، بينما كانت نقط الماء تتساقط بشكل منتظم من الينابيع الموجودة تحت الأرض لتكمل سيمفونية الضجة المزعجة الخلفية. وأخيرا، سكت هيس. وسألته: "إذا ما كنت ستقتلنا، ينبغى على الأقل أن تخبرنى كيف عرفت بأمر سميث؟". قال: "إن العثور عليكم كان ضربة حظ. فقد سقطتم علىَّ من السماء. كنت أبحث عن أعضاء لخلية جماعة "الناس فوق الأرباح" وكنت أستخدم قوائم جمعيات صديقة أخرى. وعلى الرغم من قيام الجامعات باتخاذ كافة الإجراءات الممكنة للتخلص من الماركسيين، كانت لا تزال هناك بعض مناجم الذهب... زميلك فى العلاقات الدولية. الدكتور وين براون؟".

لعنته بصوت خفيض.

واستمر يقول: "نعم ذهبت إلى كلية هيرست لأضمه إلى جماعة "الناس فوق الأرباح". ويمكنك أن تخمن من الذى كان على وشك أن يطرحنى أرضا فى طريقى إلى مكتبه؟ إنه أنت – فى أثناء سيرك مستغرقا فى التفكير، لم تدرك أو تلاحظ إلى أين تسير. تعرفت عليك على الفور لأنى كنت قد رأيتك مع لاتيمر فى مطعم إيبيت جريل فى واشنطن. يالها من فرصة رائعة! ولهذا تتبعتك إلى المكتبة. ونسيت أن تمحو ما كان على شبكة الحاسب، ورأيت عنوان كتاب سميث الذى كنت تبحث عنه".

وبدا لى أنه كان هو نفسه "الطالب السابق" الذى كان يسأل عنى فى المكتبة.

وقال: "كان مظهرى الشاب مفيدا. وبعد أسبوع، كان صديقك الدكتور براون يطلبنى تليفونيا ليخبرنى عن الغداء فى نادى الكلية معك وعن هذا الزميل غير اللطيف الدكتور سمايث. وكما كنت أقول، فقد سقط كلاكما علىَّ من السماء".

قلت: "الوغد!".

"أوه . لا تكن قاسيا بهذا الشكل. إننا لم نخبره أبدا عن خططنا بالنسبة لك ومستر سميث. وماذا عنك أنت الآن؟ لقد تركت أوراق رسالتك فى سلة إعادة الاستخدام حتى يمكننى أن أجدها. كانت هذه بلاهة منك".

كان على حق فى هذا الصدد. لقد كنت أحمل رأسا من حجر عندما تصورت أننى فى برج عاجى فى مدينة فريدريكسبورج الهادئة، معزولا عن العالم "الفعلى" لسياسات القوى وعضلات الشركات متعددة الجنسيات. كانت فرصتنا الوحيدة للنجاة هى المحافظة على إبقاء هيس يتحدث، عن أى شىء كى يتعب وينهك، ويعطينا مجرد لحظة للتغلب عليه.

قلت: "ولكن كيف عثرت علينا هنا؟".

وعلى عكس المرة الأولى التى وجهت فيها إليه هذا السؤال، لم يضربنى هيس بل جلس إلى الخلف، يلاحظ ما حوله بعينيه اللتين لا تكشفان عن شىء. وأخيرا قال: "لقد وجدت صورتك مع صديقتك على الصفحة الأولى فى إحدى الصحف فى نيفادا. ولكن هذا الخيط كان قديما فى الوقت الذى وصلت فيه هناك. ومع ذلك، فقد علمت أنك ستحضر اجتماع الجمعية العامة لشركة وورلدكيم فى سان فرانسيسكو لأنك قد كتبت ذلك فى إحدى الأوراق الأخرى التى حصلت عليها من سلة إعادة استخدام الأوراق الخاصة بك".

انكمشت خائفا مرة أخرى.

"ومع أننى لم أكن أعلم أهمية هذا، فإننى قد احتفظت أيضا بكتيبك عن الكبائن فى يوسميث الذى تخلصت منه. وذهبت إلى الساحل الغربى تمامًا كما يبدو أنك قد فعلت. وكان أتباعنا فى الساحل الشرقى على يقظة تامة وكانوا يراقبون وينتظرون. ثم.. وافانا الحظ". وسكت مبتسما. "وعندما بدأت صديقتك تقوم برحلات قصيرة إلى منزل جارتها ليلة بعد أخرى، تساءلنا، كيف ذلك؟ أليس هذا غريبا؟ إنها تخبز كثيرًا، وتفتقر دائمًا إلى الدقيق؟".

لعنته ولعنت نفسي. لقد كنت غبيًا، إذ عرضت حياة كل من هارولد وجوليا للأخطار، بينما كان يمكننى أن آخذهما إلى المنزل الآمن فى بوسطون الذى عرضه علىّ لاتيمر. لقد رفضت بسبب حاجتى الأنانية للحصول على استقلالى عنه.

جوليا – هل هى بخير؟

بدا هيس كما لو كان يخمن ما أفكر فيه "إن صديقتك جميلة جدا".

إن الغضب يطمس التقدير. لم يكن يهمنى كثيرا أن يقتلنى هيس إذا ما كان يمكننى أن ألحق به الضرر أولا. توترت، وكنت على استعداد للوثوب. نهض هيس واقفاً، موجهًا مسدسه. "على أية حال.. إنك ستموت حالاً".

تبدّد غضبي، وقال هيس: "بعد أحد لقاءاتك التليفونية مع صديقتك، دخل أحد أعضائنا المجتهدين إلى منزل جارة صديقتك وسرق شيئا واحدا فقط هو التليفون المحمول. وفى فناء البيت أدار الرقم "٩" ليعيد المكالمة . ويا للدهشة! فقد رد أحد الأشخاص على التليفون العمومى من يوسميث بارك".

كان يبدو سميث مستمتعا بذلك. وقال: "عندئذ – وللمرة الأولى – تذكرت هذا الكتيب عن كبائن يوسميث، والذى كنت أنت قد تخلصت منه وألقيته بعيدا.

كان ينبغي علىّ أن آخذ هذا المسار قبل ذلك، وكنت سأعثر عليك فى نصف الوقت. وهكذا حضرت إلى يوسميث وانتظرت فى المدينة، أراقب التليفون حتى أتيت، تماما فى الوقت المضبوط مثل القطار".

خفضت رأسى. وقال هيس: "دعنى أقدم لك نصيحة، ولن تفيدك فى كل الأحوال، ولكن فى هذا النوع من الأعمال فإن الاتساق يعنى موتك يجب عليك دائمًا أن تعمل شيئا غير متوقع، يجب أن تكون لديك قاعدة ثابتة هى ألا تكرر نفسك؟ وبهذه الطريقة، لا يمكن تحليلك أو التنبؤ بما ستفعل. هذا هو السبب فى أن وكالة المخابرات الأمريكية، ومكتب المباحث الفيدرالية، والبوليس الدولى لم يتمكنوا من الإمساك بى، ولم يكن ذلك أيضًا بسبب أن هؤلاء الأوغاد لم يحاولوا".

***

كنا نقترب من الصباح.

"لماذا ينبغى عليك حتى أن تعتقد أن هارولد هو آدم سميث الحقيقى؟". قلت هذا وأنا أشير إلى الشكل المستلقى ووجهه إلى أسفل، وعدت أقول: "إنه رجل كبير السن موهوم. اقتلنى، إذا ما كنت ترى أن ذلك واجب عليك، ولكن أطلق سراحه".

نظر إلىَّ هيس بضجر، كنت أفكر فى القيام بحركة مفاجئة آخذ فيها سلاحه، ولكنه كان يراقب بإمعان. ثم قال فى النهاية: "إنك تتناسى أننى تلقيت تدريبا فى الاقتصاد، وهو ما يجعلنى قادرًا على كشف خداعك. إذا لم يكن هذا هو سميث الحقيقى، لم تكن ستضيع وقتك معه، ولم تكن ستعرض علىَّ أن تموت فى سبيل أن أبقى على حياته. إن أعمالك تفصح عن قيمته".

كنت بحاجة إلى القيام بشىء ما – أى شىء – للمحافظة على حياة سميث. قلت: "إلا أن الناس أساءوا فهمه. إن سميث لم يمجد الأرباح على حساب المضطهدين والمسحوقين. اقرأ بنفسك ما كتبه سميث، وقد كتبه لدىَّ فى الكابينة".

تنهد هيس قائلا: "لقد قرأت كتب سميث، ومن الواضح أنه لم يؤيد الأرباح المرتفعة غير المستحقة".

كان فمى مفتوحا: "ولكن إذا كنت تعلم هذا ....".

نظرت مرة أخرى إلى وجه هيس الطفولى، ولكنه فجأة أصبح أكبر عشرين عاماً، لابد أن سؤالى قد فاجأه على حين غرَّة؛ لأنه تحول فى مكانه، ناظرًا إلى أسفل. وفى هذه الثانية، رأيت خلف ظهره ناحية مدخل الكهف، شبحًا ينحنى مطأطئا رأسه!

أخيرا سأل هيس: "ما الذى كان سيحدث لو كنت قرأت آدم سميث قبل ذلك بكثير؟ إن سميث رجل يفهم العالم، والناس الحقيقيين الذين يعيشون فيه. وفى كتبه تم تناول كافة اهتمامات جماعة "الناس فوق الأرباح".

"أتحب آدم سميث؟". هكذا قلت وقد اختلط الأمر تماما علىّ.

كان فم هيس ملتويا بشكل صارم. وقال: "نعم، إن سميث لم يطرح رأسمالية من أجل الشركات، ولكن من أجل تجارة تخدم البشر. إننى أعرف كل هذا الآن، ولكن بمحض الصدفة. وعندما ذهبت إلى الدراسات العليا لأبحث عن إجابات، طلب إلىّ أن أحفظ معادلات جافة عن الكفاءة التى لا تفعل شيئا لمساعدة الفقراء. ويبدو أن التكنوقراط هم الذين يتحكمون فى النظام فى هذه الأيام – وأن علماء الرياضيات دون ضمائر".

وقلت بغضب: "ورد فعلك ببساطة هو الكراهية والتحطيم والقتل؟ لماذا لا تعمل لبناء شىء أفضل؟".

أما سميث، الذى كان ملقى فاقد الوعى – فقد بدأ يتحرك. وكنت أراقب من طرف خفى ذلك الشبح المنحنى فى النفق، الذى كان يتحرك ببطء شديد، تغطيه الضجة الخلفية فى الكهف. توقف الشبح على بعد ياردة واحدة خلف سميث. لقد كانت جوليا.

قلت لهيس: "إذا كنت تحب سميث، فلماذا بحق الله تقتله؟".

أجاب: "لأن الوقت قد تأخر بى جداً، أنا لا يمكننى أن أبدأ عمرى مرة أخرى".

أتانى بصيص من الأمل، فقلت: "إن الوقت لا يتأخر أبداً. فإن الجماعات المماثلة لجماعة "الناس فوق الأرباح" عادة ما يبدؤها أناس ذوى دوافع طيبة، والمسألة هى مجرد تعليمهم".

خرجت من هيس ضحكة، كانت ضحكة شاذة. "يالعقلى الأمريكى البسيط الساذج!! إن جماعة "الناس فوق الأرباح"، قد أصبحت الآن جبهة، وشيئا مزيفًا وخدعة، إنك أنت وهذا الاسكتلندى ستكون لكما قيمة أكبر كثيرًا جدًا أمواتا بالنسبة للآخرين". ورفع هيس مسدسه تجاه رأس سميث.

حاولت أن أحافظ على هدوء صوتى إلا أنه خرج أجش نظرًا لشدة انفعالى: "جبهة لمن؟ من هم الآخرون؟".

قال هيس: "أداة للمافيا الروسية. إن خصخصة أصول شركة الألومنيوم الروسية سيجعل مجموعة صغيرة منهم أغنياء بغيضين، ولكن ذلك سيحدث فقط إذا ما تم استبعاد مقدمى العطاءات من خارج البلاد. وقد تم اختراق جماعة "الناس فوق الأرباح" لتعبئة الشعب ضد الشركات الأجنبية متعددة الجنسيات، وإضافة القادة حتى يفكروا فى الاضطراب السياسى المنتظر إذا ما تم فتح العطاءات المقدمة من الغرب. ولقد كنت منضبطًا تمامًا فى إدارة جماعة "الناس فوق الأرباح" بسبب علاقاتى الماوية. وقد ساعدنى هذا كثيرا فى إقناع وكالة المخابرات المركزية وآخرين بتهديدات جماعة "الناس فوق الأرباح".

"ولكنك من رجال شى جيفارا".

"كنت كذلك، ولكن حتى النمر قد تتكون على جسده خطوط جديدة"

قلت: "ولكن لماذا؟ هل تهتم بالفقراء؟".

تنهد قائلا: "لم أعد أهتم الآن. فقد تعبت من الفقر، وفى خلال بضعة شهور سأكون غنيا بدرجة تكفينى للاختفاء فى جزيرة بالى بقية حياتى.

ظللت أقوم بدورى فى المحافظة على حرية استغلال صناعة الألومنيوم الروسية. وأنا لا أختلف كثيرًا عنك، هل ترانى كذلك؟ إن الفرق الوحيد هو أنك تلعق حذاء لاتيمر".

كان سميث قد استيقظ وتكلم ببطء فى ألم واضح. "إن الحرية لا تعنى التنافسية". قال هيس: "هذا هو، ومع احتكار الألومنيوم لن تكون هناك حدود لثروات الموظفين اللصوص الذين يديرون أمور هذه الدولة. إنها نفس القصة القديمة أليست كذلك؟".

سحب الزناد استعدادا لإطلاق النار من مسدسه. ثم قال: "مع وجود الوجوه الصديقة فى الحكومة والاندماجات العالمية التى تعطى للشركات القوة السوقية التى فقدتها عند تحرير التجارة أول مرة، فلا يوجد شخص يود أن يرفع سميث صوته ضدهم".

شدّد هيس قبضته على المسدس. وحاولت أن أفكر فى شىء ما، أو أى شىء أقوله أو أفعله. ولكن كان الوقت متأخرًا جدا فقد ضغط على الزناد.

الفصل الرابع والعشرون

وَداعًا

أحدث صوت طلقة المسدس ترددات مدوية في الكهف. فقد انحنى سميث مائلا إلى هيس في نفس اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصة، واضعا إحدى يديه على البرميل، بينما وثبت على هيس واستدرت متعلقا برقبته. إلا أن هيس كان أكثر قوة وأكثر خفة، وفي ثانية واحدة، كان قد ألقى بكلينا على الأرض، وأحضر مسدسه وكان على وشك إطلاق النار علينا، مصوبا نحو سميث، عندما استدارت جوليا من خلفه إلى الأمام وقذفته بصخرة في جانب رأسه، وأحدث سقوط المسدس فرقعة شديدة في ظلمة الكهف، ووقع هيس منهارًا على الأرض.

كنت مازلت مندهشا ومنبهرًا، عندما أحسست بجوليا تحتضنني، ثم انحنت على هارولد.

"لقد أصابته طلقة في معدته". قالت جوليا، كان الدم يتسرب من الجرح.

حملناه إلى سطح التل إلى السيارة، وبرقة رفعنا جسده ممتدًا ووضعناه في الكرسي الخلفي. وانحنت جوليا نحوه حيث جلست إلى جواره. تدفع منديلا في الجرح لتوقف تسرب الدم. وللحظة، كنت أجادل في العودة إلى الكهف كي أقيد هيس. إلا أن هذه الدقائق كان يمكن أن تعني موت سميث. واستدرت مندفعا – بدلا من الحديث – إلى مقعد السائق، وبدأنا سيرنا في دوامة من الغبار والحصى.

وعلى الرغم من ضغط جوليا على الجرح كان دم سميث يتسرب من جرحه على المقعد الخلفي. كان متنبها، ولكنه يموت، وكانت الارتجاجات العنيفة للسيارة تجعله في وضع أسوأ.

وابتلع لعابه قائلا في همس أجش: "أنقذ الشرائط".

اندفعنا بقوة في الممر المنحدر بسرعة مميتة مخيفة. وكانت هناك معداتنا للمعسكر التي تزن مئات الأرطال تقبع في خليط مختلط كومة في ظهر السيارة.

قال وهو يغلق عينيه: "الشرائط".

صحت قائلا: "انسَ هذه الشرائط الملعونة!".

فى المرآة العاكسة للخلف رأيت سيارة كبيرة بيضاء تحدث دخانًا فى شفق الفجر الوردى على بعد ميل خلفنا. كنت ضاغطا على دواسة البنزين حتى أرضية السيارة، ولكن ذلك لم يكن يعنى سوى قليل فى هذه الجبال.

همس: "هناك أكثر".

ثم سقطت رأسه، وكان هذا آخر ما سمعته منه.

"اللعنة. اغرورقت عيناى بالدموع. وخبطت يدى على عجلة القيادة "ياالله".

ازدادت سرعة السيارة الكبيرة البيضاء. وفى خلال دقيقة، كانت خلفنا وانحرف هيس بسيارته، وبدأ يقترب منا، ولحسن الحظ ظهرت إحدى سيارات الشحن الصغيرة من حول المنعطف الذى كان لا يزال أمامنا، وأخذت تومض بأنوارها، ويزعق صوت نفيرها، تراجع هيس وتنفست الصعداء لفترة وجيزة.

ومرة أخرى، عادت عربة هيس لتتقدم على الخط الأصفر الجانبي، ولم تكن هناك حركة مرور فى الاتجاه المعاكس لتوقفها عن الاقتراب منا، وعندما كانت على بعد لا يتجاوز منتصف طول السيارة، انحرفت بعجلة القيادة بسرعة إلى اليسار لأمنعه، ولكنه ضغط على مكابح سيارته فى الوقت المضبوط لتجنب الاصطدام بإحدى الصخور. كانت المناظر الجميلة تدور بسرعة بينما كنت أتأرجح بالسيارة عبر الطريق، مانعا هيس من المرور. وأحيانا كنت أضغط بشدة على دواسة البنزين ثم على المكابح. وبعد ذلك، أشم رائحة الدخان الصادر عن وسائد المكابح. لم أكن أبدا سائقا فى سباق. ولكن ما كنت أفعله كان كافيا ليظل هيس خلفى.

وفجأة ودون تحذير، أصبح الطريق واسعا مستقيما. وكانت القمم الجرانيتية خلفنا ونحن نهبط بسرعة تقصف الرقاب إلى أرضية الوادى. كانت بجانبنى مسافة متسعة تمكنه من المناورة والسير إلى جانبى. رفع مسدسه مصوبا إياه تجاهى. وكأنما كانت هذه إعادة لمبارزتنا على الطريق العام فى ميريلاند مرة أخرى. ضغطت على المكابح إلا أنها كانت

قد احترقت تماما. وكان هناك انفجار حاد وخطير، وصوت تكسر زجاج، وتمزق معادن، ثم أصبح كل شيء مظلما.

•••

استيقظت وحولي ضباب كثيف. كان الضوء ساطعًا جدًا، وكان هناك من يمسح وجهي بقطعة قماش دافئة. أحسست بجسدي معلقًا في سحابة. تفتحت عيني اليمنى على ابتسامة جوليا. وطبعت قبلة على خدي. كان من الواضح أنني قد مت وذهبت إلى السماء، لأن شيئا لم يكن له مثل هذا الإحساس الرائع.

قال أحدهم: "لقد استيقظ ، يبدو أن المورفين يتناقص".

ناضلت لأجلس، ووجدت نفسي عاجزًا أو شبه مشلول في غرفة مستشفى يحمل لون طلائها ظلاً من اللون الأخضر العسكري. وكان الطبيب والممرضة كلاهما يرتديان بزة عسكرية، واقفين عند نهاية السرير.

نظرت إلى يميني لأجد سميث في السرير التالي لي، بينما قطرات من محلول وريدي تتدفق إلى ذراعه. قال: "لقد حان الوقت كي ترحل، وتوقف إهمال عملك هنا". لم يكن الصوت كما كان صوت سميث أولهجة حديثه، ولكنه كان صوت هارولد.

"نحن هنا منذ متى؟".

"ثلاثة أيام". قالتها جوليا وهي تعدل وضع الملاءات على الفراش. "لقد أصبت بارتجاج في المخ وكسر في الرجل في حادث التصادم. أما هارولد فهو يتعافى، وقد فقد كثيرا من دمه ولكن الرصاصة أخطات بالكاد إصابة كليته".

وتمكنت جوليا من قراءة ما كنت أشعر به من قلق .

قالت: "لقد مات ماكس هيس. فقد دهمته شاحنة، لم تتوقع أن تجد عربة مسرعة في الجانب الخطأ من الطريق. وقد مات هيس على الفور. أما سائق الشاحنة فلم يصب بسوء، ولكنني أظن أيضا أنك ستحتاج إلى شراء سيارة جديدة"، قالت جوليا هذا بنبرة اكتئاب خفيفة. "على فكرة، إنكما في هذه القاعدة العسكرية تحت أسماء مستعارة. إذ إن أعضاء الحزب الفيدرالي لا يريدون أن تصل أيدي جماعة "الناس قبل الأرباح" إليك مرة أخرى".

"ولكن كيف وجدتنا؟".

"هش – حاول أن تستريح ". قالتها جوليا بنعومة.

"لقد أنقذت حياتى". وبدأت رأسى تترنح مرة أخرى.

أمسكت جوليا بجانب وجهى: "كنت قد خططت للسفر عند انتهاء معرضى. ثم حدثت سرقة لمنزل جارتى سارة، وعلمت أن جماعة "الناس قبل الأرباح"، ستعثر عليك عاجلا أو آجلا. كانت سارة مرعوبة من البقاء بالمنزل، ولذا فقد انتقلت إلى موتيل، وهذا هو السبب فى عدم الرد على التليفون. ولم تكن هناك وسيلة أمامى للاتصال بك، ولهذا حضرت".

كانت جوليا قد طارت إلى فريسنو، واستأجرت سيارة، ووصلت إلى الكابينة بعد الساعة الحادية عشرة بوقت قليل فى تلك الليلة. ووجدت سيارتى هناك، ولكن الكابينة كان قد تم تفتيشها ونهبها، وخشيت أن يكون قد لحق بنا مكروه، فبدأت تبحث فى الغابات المجاورة دون جدوى. وكانت على استعداد لمحاولة البحث فى المدينة عندما سمعت أصوات نشيج وانتحاب آتية من جانب التل.

انقشع الضباب فجأة عن عقلى وتذكرت فجأة وقلت "ركس!".

أومأت برأسها: "إننى آسفة باريتش. لقد وجدته وهو يكاد أن يكون ميتا على الممر. وأمسكت به حتى رحل. كان قد تبعك على قدر ما أمكنه، وهو ما يعنى أنه أنقذ حياتك بنفس قدر ما فعلت. وبمجرد أن وجدته لم يكن من الصعب تتبع آثارك على جانب التل".

***

فى وقت متأخر بعد الظهر، وبعد أن استغرقت فى فترة نوم، استيقظت لأجد نفسى وحيدا مرة أخرى مع رفيقى فى المستشفى. وببطء، استدرت بجسدى بعيدًا عن السرير، ونصبت قوامى ممسكا بالقضبان الموجودة على جانبيه، مرتكزًا بوزنى على رجلى السليمة. وبألم قمص، تقافزت إلى السرير الآخر، مع العناية بعدم المساس بعمود المحلول الوريدى، وغيره من المعدات القريبة منه. وجلست فى أحد الكراسى وأسندت رجلى

اليسرى بما عليها من جبيرة على وسادة. ونظرت إلى شكل الشخص الراقد في السرير الآخر، والذي اعتدت الاعتماد عليه كثيرا.

قلت: "لقد أخبرتني بشيء في الليلة الماضية في تلك الكابينة، فقد قلت لي إن هناك محكمة أعلى من التقاليد، وهي محكمة الواحد الآتي، وأنا مازالت أفكر في هذا الشأن".

"لم يحدث أبدًا أن قلت هذا".

كان الصوت هو صوت هارولد، الذي نظر إليَّ وعيناه مفتوحتين وقال: "إذا ما كنت تتحدث إلى ذلك الشخص سميث، فإنه قد ذهب ورحل. ولم تعد تراودني أحلام أو أصوات منذ أن صحوت لأجد نفسي هنا منذ ثلاثة أيام مضت. وفيما عدا معدتي، التي تؤلمني كأن بها نيرانا، فأنا بخير تمامًا".

إنهم يقولون إن التوتر يفعل أشياء غريبة للشخص. وخفضت رأسي، بينما بدأت دموعي تتساقط واستمرت بعد ذلك. وبعد لحظة، جاءني هارولد ووضع يده على كتفي.

الفصل الخامس والعشرون

شركة وورلدكيم

يشغل المقر الرئيسي لشركة وورلدكيم مبنى كبيرًا يقع شمال مركز المؤتمرات في سان فرانسيسكو، على بعد ربع ميل فقط من المعمل القديم الذى بدأت فيه الشركة أعمالها كمورد للإمدادات فى الحرب العالمية الثانية. والآن، أصبح الموقع القديم متحفًا للشركة، يستخدم للمناسبات والاحتفالات الخاصة مثل اجتماع مجلس الإدارة الذى يعقد اليوم. لم يكن الأمر سهلا للوصول هناك، مع انعقاد اجتماع قمة التجارة الدولية بكامل هيئتها فى مركز المؤتمرات. والذى كان يحضره عدة ألوف من أعضاء الوفود الرسمية، يضمون بينهم أربعين من رؤساء الدول، وقيادات صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية، وعديدًا من رؤساء منشآت الأعمال الدولية.

وبالإضافة إلى هؤلاء، كان هناك نحو عشرين ألف من المتظاهرين المعارضين يحتلون المدينة، وينامون فى المتنزهات ويدورون فى الشوارع. وكانت اللافتات والأغانى الجماعية والأناشيد تفصل بين المعارضين المسالمين والمتطرفين الذين يشكلون جماعات صاخبة تواجه الشرطة بالسباب والشتائم التى تتدفق من خلال الميكروفونات ومكبرات الصوت. كانت لافتات الاحتجاج تنتشر فوق حواجز المرور البيضاء فى رذاذ المطر البطىء. وكان رجال الشرطة فى ملابسهم وتجهيزاتهم السوداء الخاصة بمقاومة الشغب، يدورون ويراقبون كل ركن، ولكن المعارضين المسالمين الذين كانوا يفوقون الشرطة عددًا يحاولون تكوين سلسلة بشرية تحول دون وصول الوفود.

وفى الجانب الآخر من المدينة، كان هناك تحالف للمنظمات غير الحكومية، يعقد قمة مضادة لإظهار تفاصيل التكاليف المستترة للعولمة - ضياع الثقافات القومية، واجتثاث الغابات المطرية، واستقطاب المجتمعات حول قطب للأكثر ثراء وقطب للأكثر فقرا. وعلى الرغم من أن الحرية الاختيارية للتجارة تؤدى إلى خلق أعداد أكبر من الرابحين تفوق أعداد الخاسرين، فإن هذه الحقيقة لا تقدم إلا قليلا من التخفيف والتسكين لجراح أولئك الموجودين عند الطرف الأسوأ من المعادلة، وهذه الجماعات قد خرجت لتوضيح هذه الأمور.

ومع إحساسى بأننى كنت أخالف خطأ اتحاديا، دلفت إلى داخل سيارة ليموزين مقدمة من شركة وورلدكيم. كان لا تيمر ينتظرنى فى المقعد الخلفى مع عدد من أعضاء مجلس الإدارة.

قال لاتيمر: "هيا يا بيرنز، لقد أنجزت مهمتك، ولكننى كنت أقل الناس قلقا بشأنها".

فى الواقع، كان وجهه يبدو كما لم يكن قد أغمض عينيه منذ أسبوع.

همس فى أذنى: "كان يمكنك أن تطلبنى تليفونيا قبل أمس". كانت هناك لمسة عتاب فى صوته. "كان هناك عدد كبير من الأشخاص يبحثون عنك".

ابتسمت، لكنى لم أقدم اعتذارًا.

بينما كان الأخرون ينظرون من خلال النوافذ ذات اللون الدخانى إلى حشود المتظاهرين المعارضين، همس لاتيمر فى أذنى مرة أخرى: "الأفضل أن يكون هذا جيداً. فإن سمعتى معرضة بالكامل لأننى أغطيك".

كانت الورقة الملصقة على زجاج السيارة تحدد أنها عربة "رسمية"، تسهيلا لمرورنا من خلال نقاط تفتيش الشرطة. إلا أن منظر سيارة الليموزين السوداء الطويلة كان منظرًا لا يمكن مقاومته من جانب جموع المتظاهرين، الذين قاموا فى لحظة بفتح حقائبهم الصغيرة وقذفونا بالطماطم والبيض. وبسرعة، جاء اثنان من رجال الشرطة على ظهر حصانين وفرقوهم.

تمتم لا تيمر قائلا: "أغبياء إن توجيه اللوم إلى صندوق النقد الدولى بسبب الفقر يماثل تماما لوم الصليب الأحمر بسبب الحر!!".

***

كانت غرفة مجلس إدارة وورلدكيم تضم أربعين مقعداً، ولم يكن بها سوى بضعة مقاعد خالية؛ نظرًا لاقتراب موعد الاجتماع. وكان بين الحاضرين عدد من أعضاء لجنة صامويلسون، بما فيهم سوزان ميتشيل. كنت أقبض على البحث الذى سأقدمه بيدى اليسرى. بينما كنت أمسك بعصبية عصًا مقابل جبيرة رجلى.

وقف النائب الأول لرئيس الشركة ميلتون جونز على المنصة ليفتتح الاجتماع، قائلاً: "إننى على يقين من أنكم تعلمون عما يقوم به الدكتور روبرت لاتيمر من عمل متميز فى دعم حرية الأسواق فى كافة أرجاء العالم. وسأطلب منه أن يتقدم إلى الأمام، ويقوم بتقديم محدثنا هذا الصباح".

نهض لاتيمر ومشى بخطوات واسعة إلى الميكروفون وسط تصفيق مرتفع كان من الواضح أن هؤلاء الأشخاص ذوى الشأن قد حضروا لرؤيته بنفس قدر اهتمامهم بالحضور لسماعي. كانت جاذبية الشهرة التى أحاطت بمن يشغل كرسى آدم سميث للاقتصاد تثير الحسد حتى لدى التنفيذيين من رجال الشركات الذين تعودوا على العمل فى أضواء أجهزة الإعلام.

قال لاتيمر وهو ينظر إلى أسفل من إطاره المرتفع بنحو ستة أقدام وبوصتين: "إن الأسواق المتحررة من القيود يمكنها أن تحدث تحولا فى العالم، ويمكنها أن تحرر مليارات الأشخاص من أغلالهم. وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل. وهناك كثير من الدول التى تنصت إلى ما نقول، وبالفعل فإن هذا زمن تاريخي وهام جدا. فقد سقط الستار الحديدى – وبدأت ألفية جديدة!".

كانت هناك دورة أخرى من التصفيق. وأشار لاتيمر إليَّ وأنا جالس بين الحاضرين قائلاً: "إن النموذج الذى أعده زميلي يقدم وسيلة لتحليل مخاطر أسواق الأصول فى أثناء هذه الفترة الانتقالية. وإننى على يقين من اهتمامكم غير القليل بالتطبيق الخاص على صناعة الألومنيوم الروسية. ودون إطالة، هذا هو ريتشارد بيرنز".

"سيداتي وسادتي". تحشرج صوتي. وبنفس قدر التحدى الذى أحسست به، كنت أحس أيضًا بسلام مع نفسي؛ لأن ما كان يبدو لى أنه أول مرة فى خلال سنوات يخرج من فمي، لم يكن مجرد بيان فكرى فقط، بل كان يمس أيضًا إحساسا فى قلبي.

"إن المساهمات التى قدمها البروفيسور لاتيمر لنظامنا إسهامات بارزة، ونحن ندين له بالكثير، لقد حارب معركة هائلة ضد الإسراف والضياع، وعدم الكفاءة، واضطهاد الحكومات التى تسيطر على كل ناحية من نواحي الحياة. إن الذين يساندون الحرية يمكنهم أن يفرحوا ويبتهجوا فعلا فى عالم جديد. وليس هناك سوى قليل من الشك فى أن العمل

على استقرار الاقتصاد الكلى وتحرير الأعمال من عبء الفساد الثقيل لدى البيروقراطيين، وخصخصة الصناعات التى تديرها الحكومات. أى النهج الشهير لتحقيق الاستقرار والتحرير، وخصخصة الأسواق - بالمفهوم الواسع يمكن الدفاع عنه".

كانت هناك ابتسامات متوقعة من الحاضرين.

"ومع ذلك.." اختفت الابتسامات... "ومع ذلك فإن هذا النهج قد يفتقد شيئًا هاماً. فهو يقدم الشروط الضرورية، ولكنها ربما لا تكون الشروط الكافية، للتنمية المستدامة. إن القفز من أحد الأطراف - أى من الطغيان الاقتصادى، كما رأينا فى الكتلة السوفيتية - إلى طرف آخر للفوضى ورأسمالية "رعاة البقر" - فإنه دون تجهيز الأرض وفلاحتها بالعدالة- لا يمكن إلاَّ مع التساؤل أن يؤدى ذلك إلى النجاح فى الأجل الطويل. إن الأسواق ليست سوى وسائل إلى غاية، وليست غاية فى حد ذاتها".

كانت هناك همهمات قلق بين الحاضرين. ورأيت سوزان ميتشيل وهى تكتب بسرعة فى كراسة ذات أوراق صفراء كان قلبى يدق بقوة، وانساب عرق غزير فى داخل قميصى.

وقلت: "إننى أفضل الأخذ والعطاء أو تبادل الآراء، فإذا كان لديكم أسئلة تفضلوا بإلقائها"، ورجعت خطوة إلى الخلف بعيدًا عن الميكروفون، للبحث عند منديل.

رفع رجل من الصف الثانى يده. كان ذا ذقن مقسومة فى منتصفها، وذا صوت رقيق: "هل يمكن أن نتناول الآثار العملية لما نقول؟".

عدت إلى الميكروفون "بالطبع، بالطبع، وقد تدهش إذا علمت أن الاقتصاد الأمريكى منذ مائة عام مضت كان أكثر تكاملا مع الاقتصاد العالمى عما هو عليه الآن. كانت لدينا تجارة أكثر حرية فى السلع، وقيود أقل على هجرة العمال، وكان رأس المال يبحث عن مكافأته دون قيود. فما الذى حدث؟ فى النصف الأول من عشرينيات القرن العشرين ورط كوكب الأرض نفسه فى حربين عالمتين، وكساد اقتصادى عظيم. واستغرق الأمر خمسين عاما من النضال السياسى لإعادة فتح الاقتصاد للعالمى إلى ما هو عليه الآن.

كانت هناك إيماءات بين رؤوس الحاضرين من تلك الوجوه القليلة التى قدرت أن أصحابها كانوا فى الخمسينيات أو الستينيات من العمر. أما معظم الجمهور الأصغر سنا فقد كان ينظر إلىّ بحب استطلاع.

وضغطت مستمرا فى حديثى: "إن الانعزالية يمكن أن تعود إلى الظهور - بل إنها فعلا - بدأت تطل برأسها من النافذة!".

وعلى الرغم من وجود الستائر الثقيلة على النوافذ، والتى كانت تخمد الأصوات خارج المبنى، فإنه كان يمكن سماع أغانى المتظاهرين والمعارضين فى الشارع، والأصوات العالية لمكبرات الصوت، وولولة صافرات التنبيه.

واصلت حديثى قائلاً: "وإذا ما كان الجيل القادم سيرى أن هذه الشركة - والرأسمالية العالمية بصفة عامة هى جزء من المشكلة الاقتصادية وليست جزءًا من الحل الاقتصادى، فإنهم سيسعون إلى البحث عن العلاج أو الإصلاح. وهذا هو السبب، فى أننا يجب - قبل أن يتأخر الوقت - أن نقوم بأنفسنا بالتركيز على الأساسيات التى تحافظ على استدامة الرأسمالية العالمية فى نطاق مجتمع متحضر". عندئذ تذكرت قول سميث عن الحكمة العليا. وأضفت: "كما أن أى إجابة نقدمها إلى الجيل التالى يجب أن تعمل على إرضاء قلوبهم بنفس القدر التى ترضى به عقولهم".

هنا قال نائب رئيس شركة وورلدلكيم معترضا: "ما علاقة هذا بتلك المعادلة التى وضعتها؟".

نظرت إليه قائلا: "مستر جونز، قبل أن تأتى الرأسمالية إلى انجلترا، كانت تلك البلاد قد دخلت فعلا فى حروب متعددة من أجل العدالة. كان من نتيجتها إعلان الماجنا كارتا (الميثاق الأعظم) والميثاق البريطانى لحقوق الإنسان. أين المؤسسات الموجودة الآن فى الأسواق النامية الجامحة ومطلقة العنان - وهى الأمكنة التى يمكنك أن تنمى أعمالك اليوم - والتى يمكن أن تحمى العدالة وتشجع الفضيلة؟ أرجو أن تفكروا فى هذه الاختلافات. فى أمريكا لدينا محاكم وقوانين تتمتع بأمانة معقولة، وأكثر ريادبى الأعمال الناجحين - آل كارنيجى، وآل روكفيللر، وآل ديوك - يقدمون هبات للمدارس والمكتبات، والمؤسسات التى تعيد العطاء إلى الأجيال القادمة. وعلاوة على كل هذا، لدينا آلاف من

الجماعات المدنية، والتى لا تهدف إلى الربح، مثل الفتيان والفتيات الكشافة، والكنائس، والجمعيات الخيرية، وجمعيات المجتمعات، وكلها تعمل من أجل زيادة اهتمام المجتمع بشيء أعظم ويسمو حتى عن أنفسنا – وكلها تعمل على تشجيع الفضيلة".

ونظرت فى أرجاء الغرفة لأرى وجوها متجمدة. كان لاتيمر يبدو كما لو أن جزءا من الجلد البارز عند ظفره قد اقتلع من جذره.

واصلت حديثى قائلا: "إننى أعتقد أن مجتمعنا الذى يتسم بالخير والكرم يدين كثيرا بذلك إلى ما لدينا من رصيد الفضيلة. إن ذلك هدية من الأجداد لا تقل عما تركوه لنا من المصانع والمدارس، هل سنبدد ذلك ونخفق فى زيادته؟".

وقف أحد الرجال فى آخر الحجرة: "إننى أمثل صغار المساهمين هنا، وبصراحة فأنا لست مهتما بالتفلسف، إننا هنا لنحقق ربحًا".

قلت: "هذا ما ينبغى عليك، إلا أن منشآت الأعمال فى أمريكا تقوم بذلك فى إطار قوى تنظيمية. وكثير من المجتمعات الأخرى ليس لديها سوى قليل من هياكل التوازن الاجتماعى والمؤسسى التى ننظر إليها على أنها أمر عادى".

"إن نموذج التنمية الأكثر كمالاً سيكون هو العدالة والاستقرار والتحرير وخصخصة الأسواق، على أن تكون العدالة هى المطلب المسبّق والأساسي، وحجر الزاوية فى كافة عمليات إصلاح الكفاءة الاقتصادية التالية – وبعدها يأتى الاستقرار والتحرير وخصخصة الأسواق".

اقترب نائب الرئيس جونز من المنصة قائلا: "أؤكد لك، يا مستر بيرنز، وكذلك السيدات والسادة الحاضرين أن شركة وورلدكيم ملتزمة بأعلى المعايير الأخلاقية للسلوك فى جميع أنحاء العالم. وفى الواقع، فإن الشركة قد اتهمت – فى الماضي – بوجود بعض الهفوات.. ولكن من منا لا يخطئ. ولكننا الآن، مثلا، ملتزمون تماما وخاضعون لإشراف اتحاد الحقوق العادلة لمكان العمل فى حقوق الإنسان والمعايير البيئية فى كافة أمكنة العمل لمنشأتنا فى جميع أرجاء العالم".

ومرت نظرة تعبر عن الإدراك والمعرفة بين نائب الرئيس جونز ولاتيمر، وتذكرت الرايات واللافتات التى رأيتها هذا الصباح عند دخولنا إلى المكان.

كانت لا تعنى شيئا عندما رأيتها فى ذلك الوقت، ولكن صلتها ظهرت الآن: كان مكتوبا عليها "جمعية حقوق مكان العمل العادلة مجرد ستار دخان للصناعة". "جمعية حقوق مكان العمل العادلة مزيفة".

استمر نائب الرئيس جونز: "على أية حال، فإن هذه الشركة لا يمكنها ولن يمكنها أن تصبح قوة شرطة عالمية. ونحن نعمل فى كثير جدا من الأسواق المتنوعة، كل منها لديه معايير وقوانين مختلفة ومتباينة لسلوك الأعمال المناسب".

أصبح الحاضرون يحسون بالقلق، فعدت إلى الميكروفون قائلاً: "كما يقول نائب الرئيس جونز، ليس هناك سوى قليل من الأسباب التى تدعو كل دولة للالتزام بنفس المعايير الخاصة بالبيئة أو الأعمال - والتفكير بهذا الشكل يتجاهل التفضيلات المحلية لوضع الطعام على المائدة قبل القيم الأخرى. وبالمثل، فليس هناك أساس لضرورة تماثل الأجور فى نيودلهى حتى تصبح مثلما هى عليه فى نيويورك، إلا إذا كان رأس المال البشرى، والبنية الأساسية المادية، وغير ذلك من المدخلات متماثلة".

كانت هناك إيماءات حول القاعة وهدأ الحاضرون. وسحبت بطاقة من جيبى وقلت: "إذا ما سمحتم لى، فسأقرأ شيئا كتب منذ مائتى عام مضت عن طبيعة المنافسة".

كتب آدم سميث:

"فى السباق نحو الثروة، والامتيازات... قد يجرى الإنسان بشدة وبأكثر ما تمكنه قدرته، ويتوتر كل عصب وعضلة لديه، حتى يتمكن من التفوق على كافة منافسيه، ولكن إذا كان ينبغى عليه أن يشق طريقه، أو يلقى بأى منهم"، - كان تسامح الحاضرين قد وصل إلى نهايته. "فإن هذا يصبح انتهاكا للقواعد العادلة للعب، والتى لا يمكنهم السماح بها.. ويصبح المنتهك موضعا للكراهية والازدراء".

نشطت ومضيت قائلا: "إن أى شركة متعددة الجنسيات تعمل فقط طبقا لأدنى المعايير المطبقة فى الخارج، قد تكتشف فى أقرب وقت أنها قد فقدت تسامح المشاهدين - المستهلكين والعاملين بل والمساهمين - وبهذا تثير كراهيتهم وازدراءهم. وهذه الشركة قد تخسر أرباحها بطريقتين".

مسحت وجهي، وكانت القاعة ساكنة تماما. "أولا: إن آدم سميث كان يروج لسوق يكون فيه المستهلكون - وليست الشركات - ملوكًا. ومع التحسينات في وسائل الاتصالات، تتزايد قدرة المستهلكين لممارسة تخيلاتهم المعنوية - والتعجب من العالم، والتساؤل عن مستويات البيئة والعمال التي يتم في ظلها عمل المنتجات – وممارسة قوتهم لتغيير العالم عن طريق ما يشترونه، وما يرفضون شراءه".

"هذا ابتزاز عن طريق التهديد". تمتم بهذا نائب الرئيس الجالس في الصف الأمامي. "إننا لا نفعل سوى حضور برامج الاعتماد التي تنظمها المنظمات غير الحكومية لكي نبعد جماعات المستهلكين عن ظهورنا والضغط علينا".

واصلت حديثي قائلا: "ثانيا: إن أي شركة تتدنى فيها مستويات العمالة قد تفقد فرصة الحصول على أرباح أكبر من خلال تشجيع ارتفاع الإنتاجية".

هنا تصورت سميث مبتسما لما قمت به من إعادة صياغة ثروة الأمم. لقد قال سميث: إن مكافأة تحرير العاملين تزيد صناعة الناس العاديين، الذين هم أكثر نشاطا وحرصًا، وسرعة عما يكونون عليه عندما تنخفض أجورهم".

وكان يمكنني أيضا أن أرى بعين عقلي شركة بيتر وعمالها المخلصين، المبتكرين، وأثر المكافآت غير النقدية-- حين يرون أنهم جديرون بالثناء لما يقومون به من نواحي نشاط في عملهم.ونظرت حول القاعة: كانت هناك وجوه مهتمة ومنتبهة، بل وبعضها كان يومئ بالموافقة.

قلت: "ليس في أي شيء مما قلت معلومات جديدة على أولئك الحاضرين من بينكم الذين يتعاملون مع شركة وورلدكيم في الخارج. وبينما تكون هناك بعض ثمار التفاح الفاسدة. فإن معظم الشركات الضخمة متعددة الجنسيات تدفع لعمالها في الخارج أجورًا أعلى مما تدفعه الشركات المحلية، وتدفع أجورًا أعلى مما قد تمليه ظروف السوق. والشركات متعددة الجنسيات تقدم الاحتمالات بتحسين حياة الملايين حول العالم".

كان هناك طنين بين الحاضرين، ورفعت صوتي قائلا: "ومع ذلك، فإن هذه الشركات لكي تقوم بتنفيذ رسالتها تعاني من القوانين واللوائح التنظيمية الخاصة بالعمالة والبيئة والتي غالبا ما تشعر أنها مرهقة وغير ضرورية. ونحن نعلم أن كثيرا من هذه

القواعد إنما توجد لمنفعة البيروقراطيين وحدهم أو لتوفير ميزة غير عادلة لقلة – وهؤلاء يستحقون أنْ يسقطوا من الحساب". واجتذب هذا تصفيقا متناثرا.

قلت: "ولكن ... الأمر ليس كذلك دائما. وأرجو أن تفكروا معى فيما سأقول: هل كانت أمريكا ستصبح ديناميكية اقتصاديا مثلما نرى إذا ما كنا لا نزال تعتمد على عمالة العبيد؟ ألم يكن هذا – فى الواقع – عبئًا لا يمكن إغفاله أو التجاوز عنه؟ ماذا لو علمتم أن الأطفال الصغار فى العاشرة من أعمارهم ما يزالون يعملون فى المناجم أو المطاحن بدلا من أن يعملوا فى كتبهم المدرسية؟ ماذا لو علمتم أن النساء ما يزلن ممنوعات من العمل فى وظائف معينة؟ أليست القوانين التى تحرم هذه الأحوال ستؤدى إلى تحسين رأس مالنا البشرى والمجتمع بأسره؟ إن كل جيل يجب أن يحارب معاركه الخاصة بشأن العدالة، وتقرير قواعد المنافسة – واتباع القواعد العادلة".

واستمر حديثى: "وهكذا فإن بعض القواعد تعمل لمصلحة ومنفعة المجتمع طويلة الأجل، وتعمل على استدامة الرأسمالية وجعلها أكثر حيوية للأجيال القادمة". وكان بإمكانى فى هذه اللحظة أن أرى ثعالب البحر الموجودة فى الأحواض فى مونترى والتى تم إنقاذها من الإبادة بسبب الخطر الدولى على صيدها، وكيف أن بقاءها على قيد الحياة كان أمرًا حيويًا للمحافظة على أسماك المحيط. وأعلنت: "أن الأمر يتطلب تخيلاً معنويًا وأخلاقيًا كى يحدث التغيير، وغالبًا ما تجرى معارضة التغيير بشدة من جانب منشآت العمال ومصالحها. ومع ذلك، فإن التغيير مطلوب إذا ما كان علينا أن نسلم شعلة الرأسمالية والحرية إلى الجيل القادم – أن ننقلها إلى أولئك المتظاهرين خارج هذا المبنى الآن، وإلى آخرين حول العالم. إن كل جيل لديه تحدياته، ويجب علينا أن نفكر ونعمل من جديد".

ومن آخر القائمة، نهض الشخص الذى نصّب نفسه متحدثا باسم صغار المساهمين بمقاطعتى مرة أخرى: "إننى مازلت أريد أن أعرف – ورفع صوته بالسؤال – كم ستكون قيمة صناعة الألومنيوم الروسية فى خلال سنتين؟".

"حسنا". تنهدت ووصلت إلى مفاتيح الحاسب: "سيداتى سادتى، هذه هى المعادلة".

خفضت الأنوار، وضغطت على الأزرار. وفى عشر لوحات قصيرة، قدمت لبُ رسالتى. "قد لا تفهمون الرياضيات، إلا أن الخلاصة واضحة". وكانت اللوحة الأخيرة تحتوى – بخط بارز – على ملخص معادلة النموذج. كان هناك سكون فى القاعة بينما كان الجمهور يدرسها.

"إنها مثيرة". هكذا قالت إحدى النساء فى الصف الأول، والتى كان قد تم تقديمها إلىّ كمحللة مالية. "إنها نظرية توبين، مع بعض التحوير".

قالت أخرى: "إنها جديدة ورائعة".

وقال شخص آخر صائحا: "إنها مدهشة".

كان هناك تصفيق متناثر. قلت: "أشكركم، إن هذه المعادلة هى تمرين عقلى ممتع، ربما تكون اجتهادا. ولكنها تتضمن قليلا من الحكمة. وسيكون من قبيل التهور والمجازفة وضع التنبؤات والتقديرات للأجل الطويل على هذه الحسابات وحدها.

كان هناك اضطراب أكبر فى القاعة.

قلت: "إن المعيار الحاسم ألفا" يشير إلى الإنتاجية فى مناجم البوكسيت (خام الألومنيوم) الذى تأملون فى الاستحواذ عليه. ولكن كيف يمكنكم معرفة الإنتاجية إلا إذا عرفتم كيف يشعر العمال من ناحية العمل معكم؟ سيداتى وسادتى، ما صورة روسيا التى تودون رؤيتها فى عشرين سنة؟ إنكم لن تقوموا بالاستثمار فى المصنع والآلات فحسب، بل فى البشر؟ ليس فقط فى تدريب الأشخاص، ولكن فى تعليمهم أيضا؟".

مالت المحللة المالية نحو نائب الرئيس جونز قائلة: "إن هذه المعادلة ستقلل مخاطرنا إلى حد كبير، وهو ما تتم ترجمته فى أى سوق إلى قيمة، وبدون هذه المعادلة سيضطر الآخرون إلى تخفيض قيمة عطاءاتهم لشراء الصناعة الروسية. وهو ما يعنى أننا سنحصل عليها بثمن رخيص. وفى خلال خمس سنوات، يمكننا أن نسترد استثمارنا، ونخرج منها بربح كبير".

كانت هناك إيماءات بالموافقة من أرجاء القاعة.

استدرت إلى نائب الرئيس جونز قائلا: "هل هذه هى خطتكم؟".

أجاب ببلاغة منمقة: "إن شركة وورلدكيم يجب أن تقدم الإدارة السليمة لأصول مساهميها. وخططنا الاستراتيجية طويلة الأجل معقدة، ولكن ما يمكن أن أؤكده لك، هو أنه لا توجد لدينا خطط للتخلص من شيء من أصولنا في الوقت الحاضر".

صاح "المستثمر الصغير" فى آخر القاعة: "اللعنة.!!، يجب علينا أن نغلق أفران الصهر الخاصة بهم، فقد كان الألمونيوم الروسى يغرق الأسواق. وإذا ما امتلكنا مصدر البوكسيت لديهم، وأغلقنا مصانعهم، فإننا بهذا سنسيطر على ستين فى المائة من إنتاج الألومنيوم. وباستخدام هذه المعادلة ستصبح أسعار أسهمنا ثلاثة أمثال ما هى عليه".

قفزت فكرة فى عقلى: إن آدم سميث فى عدة مناسبات قام بسبّ "الطمع الدنيء" للتجار والصناع، حتى مع إعلانه بأعلى صوته عن عدم إمكان الاستغناء عنهم وأهميتهم للنظام كله. وقد حذرنا من أنه نادرًا ما يجتمع القائمون على أمور صناعة واحدة مع بعضهم بعضا، "إلا أن حديثهم ينتهى بمؤامرة يحيكونها ضد الشعب أو فى تخطيط مكيدة لرفع الأسعار بشكل ما". ولهذا، فإن ما سمعته فى التو من المستثمر الصغير لم يكن على الإطلاق أمرًا غير عادى. فهو قد تحدث عن إحباط عام فى الأعمال – وبالتحديد عن أنه من الصعب تحقيق أرباح كبيرة عندما لا يمكن التحكم فى السوق وعندما يتم الضغط على الأسعار للهبوط، ومع تحسن جودة المنتجات بشكل ثابت من خلال إطلاق العنان للمنافسة. كان هذا التوتر هو جوهر نظام سميث.

كان الغضب ضد المستثمر الصغير أمرًا غير مقبول؛ لأننى لم أكن أشغل أى منصب مرتفع معنوياً. كما أن مهمة منشأة الأعمال هى السعى لتحقيق أعلى عائد على رأس مالها. وفى سبيل ذلك، ترسل مواردها إلى أكثر النواحى نفعًا للمجتمع. هذا هو الدور الذى تلعبه منشآت الأعمال فى نظام سميث، وسيكون من التضليل أن يطلب إليها لعب أى دور آخر. وفضلا عن هذا، فإن أصحاب الأعمال الذين يتغلبون على صعاب وعقبات لا تعد ولا تحصى ليحضروا منتجاتهم إلى السوق يستحقون منا كل احترام وتقدير – حتى لو كان المجتمع يمارس الحذر ضد التدمير المحتمل لنظام السوق من خلال اتحادات التسعير والاحتكارات.

"إن أسعار أسهمنا يمكن أن تصبح ثلاثة أمثال ما هى عليه". كررها الرجل باحثا فى القاعة عمن يؤيده.

قلت: "مع مشكلة واحدة صغيرة، ومع العلم بأن المعرفة تمثل قوة، فإن المعرفة غير المتماثلة، أو الموجودة فى جانب واحد – وهى الوسيلة التى نأمل بها كسب السيطرة على هذا السوق – يمكن أن تؤدى إلى تضخم فى عدم الكفاءة وإلى ظلم خطير للمستهلكين والعمال على السواء".

ابتسمت للمرة الأولى قائلا: "إننى لن أدع هذا يحدث، وهذا هو السبب فى وضع تلك المعادلات وإرسالها على نطاق واسع فى كافة أرجاء العالم من خلال شبكة الإنترنت فى الساعة الثامنة صباحًا".

كان هناك سكون شامل نتيجة الصدمة. واستندت إلى عصاى، وسرت وأنا أعرج هابطًا درج المنصة إلى خارج القاعة.

الفصل السادس والعشرون

تذييل

دخل هارولد تيمز إلى الردهة فى حلة زرقاء صنعت خصيصا له، كان وجهه يبدو أصغر بعدة سنوات. زال تماما احمرار عينيه، وانحناء ظهره، والتردد فى نطق الكلام. واحتضننا.

قلت: "إنك تبدو رائعاً!".

قال: "يا للعجب لما تفعله ليلة واحدة من النوم الجيد!". وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال: "حسنا، لقد كانت ثلاثة شهور من النوم الجيد. فضلا عن طهى شقيقتى".

سألته: "لم تعد هناك أى وساوس؟".

"لا، أبدا. ولكننى آسف لما سمعته عن جائزتك".

قلت: "أنا بخير. كان الأمر صعبا على لجنة صامويلسون لاختيارى بعدما فعلته. أنا لم أفقد نومى بسبب ذلك. وفضلاً عن ذلك فإننى سمعت همسا يدور، مؤداه "جنازة بعد جنازة تتحسن المهنة".

قال هارولد: "دعنى أعدل ياقة قميصك"، وأخذ يعدل وضع شريطة ربطة العنق تحت سترة الصباح التى كنت أرتديها.

وقفنا لحظة فى المدخل. ثم فتحنا الأبواب ودخلنا إلى قاعة الاستقبال. كان القس فى انتظارنا وأرشدنا إلى المكان الذى نقف فيه. حولنا كان عدد من الأصدقاء وأفراد الأسرة، كانت بينهم سكرتيرة لاتيمر، إيدا ما كورى، تتجاذب أطراف الحديث مع بيتر تشين وسارة تومبسون. وكانت هناك منضدة ضخمة تحتل وسط القاعة، فوقها صندوق مفتوح من الكرتون، كان يبدو أنه يهتز ويئن. كان هدية من ضيوفنا: جرو من فصيلة شيلتى عمره ثمانية أسابيع، وربطة عنق خضراء حول رقبته ذات الفرو الأبيض.

انضمت عيون الجميع إلى عينىّ فى توقعهما عندما نظرت إلى أعلى درج السلم. ومع قليل من عزف النفير، ظهر جسد نحيف يهبط فى الزى الأبيض. كانت ملاكى "جوليا".

وبينما كنا نتلو كلمات خطبتنا، سمعت كلمات أخرى تأتى فى سكون من داخل عقلي.

قد يقول البعض إنها كانت لغوًا أو هذيانًا، ولكن الصوت كان لا يتوقف فى رأسى – لم يزعجنى ذلك، إنه لم يكن سوى سميث، الذى كانت لديه كلمات حكيمة يود أن يقولها عن لعن كل شيء تقريبا.

الجزء الرابع

ملاحق

"نحن أطفال التنوير، ونادرًا ما يطلب أى منا بسرور أن يكون ميراثه مختلفا"

"شارل جريسوالد الصغير"

"آدم سميث وفضائل التنوير"

(أ)

تاريخ حياة آدم سميث

١٧٢٣	ولد في كيركالدى – اسكتلندا. وهى ميناء صغير يواجه إدنبره. تاريخ الميلاد غير معروف، ولكن تم تعميده يوم ٥ يونيه.
١٧٢٦	قام الغجر باختطاف سميث لفترة وجيزة، طبقا لسيرة ذاتية معاصرة كتبها دوجالد ستيورت.
١٧٣٧- ١٧٤٠	انتظم في جامعة جلاسجو، حيث كان تلميذًا للكاتب المحبوب فرانسيس هتشينسون. وحصل على درجة الماجستير في الآداب بامتياز.
١٧٤٠- ١٧٤٦	اتجه إلى الخدمة في كنيسة انجلترا، وكان منتظما في جامعة أوكسفورد، وهو ما كان يمثل فترة كئيبة في حياته. ويبدو أنه كان يعانى من انهيار عصبي مؤقت. كان يلقى لوما من معلميه الأورثوذكس لقراءته كتاب هيوم الذى تمت مصادرته وهو رسالة عن الطبيعة الإنسانية. وفى أثناء هذا الوقت، نشبت حرب أهلية في انجلترا (١٧٤٥) من خلال تمرد اليعاقبة، وهو ما كان محاولة لتنصيب الاسكتلندى المدعى ستيوارت "جيمس الثالث" على عرش انجلترا وإعادة صدارة البابا. وكان الاسكتلنديون منبوذين في انجلترا، ومما لا شك فيه أن سميث لقى قدرًا من المعاناة بسبب هذا التحيز. وقد رفض حياة الكنيسة.
١٧٤٦- ١٧٤٨	كان سميث خريجا جديدًا في الجامعة، ولكنه لم يكن يعمل. عاش سميث في كيركالدى مع أمه، واستمر في دراسته بشكل خاص.
١٧٤٨- ١٧٥١	أصبح سميث مقاول أعمال من نوع أو آخر، كما أصبح محاضرًا شعبيا حرًا في إدنبره، حيث دخل في صداقة عميقة امتدت طوال عمره مع أشهر فلاسفة عصره، دافيد هيوم.
١٧٥١-	تم انتخابه أستاذًا في جامعة جلاسجو، حيث تولى أولا كرسي المنطق

١٧٦٤	والبلاغة، وفى عام ١٧٥٢ تولى كرسي الفلسفة الأخلاقية. وهذا الموضوع الأخير يغطى الديانة الطبيعية، والأخلاقيات، وفلسفة التشريع ، والاقتصاد السياسى. ويقرر سميث أن تلك السنوات كانت "الأكثر فائدة والأكثر سعادة" فى حياته (Ross, p. xxi). وفى عام ١٧٥٩ أصدر كتابه، نظرية المشاعر الأخلاقية Theory of Moral Sentiments. وارتفع سميث فى سلم الإدارة الجامعية، وشغل منصب نائب مدير الجامعة فيما بين ١٧٦١ – ١٧٦٣.
١٧٦٤- ١٧٦٦	قام سميث بمصاحبة لورد تاونسند، ابن زوجة دوق بوكلويتش، فى رحلة خارجية كمعلم له. وكانت هذه فترة منتجة، من كلا الناحيتين المالية والفكرية. فقد أقاما في تولوز، وجنيف وباريس حيث التقى سميث مع نجوم التنوير الأوروبى والفيزيوقراط المنادين بحرية التجارة والصناعة وبأن الأرض هى مصدر الثروة كلها، ومن بين هؤلاء كان فولتير، وكويزنى، وتورجوت.
	فى خريف عام ١٧٥٦ غادر سميث وتلميذه مدينة تولوز للذهاب إلى جنيف، حيث قابل فولتير فى فيرنى.
	يناير ١٧٦٦ غادر هيوم وروسو باريس للذهاب إلى لندن، ويصل سميث إلى هناك بعد ذلك بقليل. يحضر سميث موسم الأوبرا، ويرى توم جونز، ويختلط مع أفضل صالونات باريس.
	أكتوبر ١٧٦٦ وقوع شقيق دوق بوكلويتش فريسة للحمى وعودة سميث فورًا إلى لندن.
١٧٦٦- ١٧٦٧	أقام سميث في لندن خلال فصل الشتاء، لرعاية مشروع البحث الخاص بلورد تاونسند عن الدين القومى الذى زاد زيادة ضخمة فى أثناء حرب السنوات السبع. كان تاونسند قد أصبح فى هذا الوقت وزير المالية الأعلى فى الحكومة البريطانية، وهو ما يعادل وزير الخزانة في الولايات المتحدة.
١٧٦٧- ١٧٧٣	قطع دخل سميث السنوى الذى كان يبلغ ٣٠٠ جنيه استرلينى سنويا الذى كان يدفعه تاونسند. عاد سميث إلى مسقط رأسه فى كيركالدى،

	وعاش فى شبه عزلة مع أمه وكتب كتابه ثروة الأمم.
١٧٧٣- ١٧٧٧	كان سميث يسافر ليقيم فترات طويلة فى لندن حتى يكون قريبا من ناشر كتبه. كان سميث يأمل، من خلال إصدار كتابه ثروة الأمم (الذى تأخر ظهوره كثيرا ثم صدر أخيرا فى ٩ مارس ١٧٧٦) أن يؤثر على البرلمان كى يتجنب سفك الدماء فى مستعمرات أمريكا الشمالية. وعلى الرغم من نفوذه مع أعضاء البرلمان من كلا الحزبين، فقد أخفق سميث فى محاولة كسبهم إلى جانب مزايا حرية التجارة. فى صيف ١٧٧٦ عاد سميث لفترة قصيرة فى اسكتلندا حيث كان صديقه العزيز هيوم يحتضر.
١٧٧٧- ١٧٧٨	عاد سميث إلى كيركالدى لفترة قصيرة، ودخل فى تقاعد مؤقت، وكان يسلى نفسه بكتاب عن الفنون.
١٧٧٨- ١٧٩٠	انتقل مع أمه إلى إدنبرة، حيث قبل تعيينه فى منصب المدير المسئول عن الجمارك فى اسكتلندا، وهى وظيفة كان يقوم بأعبائها بقدر معقول من الحماس. واستمر فى إصدار طبعات جديدة من كتبه حتى وفاته. بما فى ذلك مراجعة هامة لكتابه عن نظرية المشاعر الأخلاقية، وصدرت فى مايو ١٧٩٠. توفى سميث فى ١٧ يوليه من نفس السنة.

(ب)

ملاحظات على المصادر

كان آدم سميث أستاذا للملاحظات القصيرة. وليس هذا مستغربا منه، خاصة إذا علمنا أنه بدأ حياته العملية المرموقة بإلقاء محاضرات فى البلاغة. وسيستمتع القراء باستكشاف كتابات سميث المفعمة بالحيوية مباشرة من مصادرها الأساسية. ولأغراض حقوق الملكية الفكرية، فإن كافة الاقتباسات من أعمال آدم سميث (فيما عدا ما يذكر فى موضعه) هى من الطبعات المبكرة التى أصبحت الآن ملكية عامة وبالتحديد:

١- نظرية المشاعر الأخلاقية (لندن: هـ . ج. بون ١٨٥٣) TMS: The Theory of Moral Sentiments (London: H.G.Bohn, 1853).

٢- بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم (لندن: ستراهان وكاديل، ١٧٨٦) WN: An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations, (London: Strahan and Cadell, 1786).

ويختلف تنظيم هذين الكتابين عن بعضهما بعضا اختلافا كبيرا. ففى كتابه نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) تم تنظيم الكتاب على أساس أجزاء، وأقسام، وفصول وفقرات. أما فى كتاب ثروة الأمم (WN)، فقد تم التنظيم على أساس كتب وفصول (أجزاء) وفقرات. وقد تم وضع هذه السمات المرجعية فيما بعد، للتيسير على القراء للعثور على الفقرات لدى استخدامهم طبعات أخرى من أعمال آدم سميث. هذا بالإضافة إلى أن الأعداد الموجودة في داخل الأقواس [ ] تقدم مرجعية إضافية للصفحات كما وردت فى طبعات جلاسجو لهذه الأعمال. (انظر ملحق ج "الدليل المرشد لكتابات سميث"). وللمحافظة على استمرار تدفق الحوار، تم اختصار بعض فقرات كلام آدم سميث أو تم تحويرها.

وإذا ما تم استخدام أحد الاقتباسات المختصرة فيما بعد، فيمكن الرجوع إلى النص الكامل فى قائمة الدليل المرشد لكتابات سميث.

تقديم

ص١٦ "إن راوى القصص السخيفة وحده هو من يمكن..." مقتبسة من كتاب سميث "محاضرات عن البلاغة والأدب الرفيع".

Lectures on Rhetoric and Belles Letters, J J.C. Bryce ed (Oxford: Oxford University Press): p. 119.

تمت إعادة الطباعة بتصريح من مطبعة جامعة أوكسفورد.

الجزء الأول: الثروة

ص١٩ "إن كل عمل اقتصادى يقوم به الكائن البشرى من الضرورى أن يكون أيضا عملا أخلاقيا"، ويليام ليتوين William Letwin, The Origins of Scientific Economics, (Methuen and Co. 1964 p. 159). أعيدت طباعته بتصريح.

الفصل الأول:

ص٢١ ورد وصف الصوت "الأجش" والأسنان "الكبيرة" لآدم سميث فى السيرة الذاتية التى كتبها يان سيمبسون روس (The Life of Adam Smith (1995, p.210. وقد ذكر أن سميث كان مشهورًا بشرود ذهنه بشكل سيء، إلى حد أنه سقط ذات مرة فى حفرة من القار بينما كان يحاضر عن تقسيم العمل (Ross 1995, p. 226). وكان يحب أن يلعب بأشياء فى يديه، وكان أحيانا يفأفئ ويتأتئ فى كلامه. ومن الناحية الجسدية، كان طفلا مريضا، ومع ذلك كان ذا ذاكرة قوية. كان حبه الأول هو الكتب، أما حبه الثانى فكان فاكهة الفراولة، وإحدى السير الممتعة عن حياة سميث كتبها أحد معاصريه وهو دوجالد ستيوارت تحت عنوان "Account of the Life and Writings of Adam Smith, LL.DN (1793)" وهذه السيرة تصاحب سميث حتى كتابه الذى نشر بعد وفاته وهو "Essays on Philosophical Subjects (EPS)".

ص٢٢	عادة ما ينظر إلى آدم سميث على أنه "الأب" للاقتصاد الحديث، بسبب رسالته المعنونة "ثروة الأمم (1776) The Wealth of Nations". والتى أصبحت "المعتقد النظري الحديث الأول والرئيسي "Hutchinson 1989 , 3". أما دعوى "الأبوة" فمازالت من قبيل التوسع، لأن آدم سميث قد اعتمد، على أية حال، بشكل مكثف على أعمال من سبقوه من المفكرين حتى أرسطو.. ولذلك فإن "من الصعب قبول أن أى شخص واحد بمفرده يمكن أن يكون قد أسس الموضوع" (نفس المصدر السابق)، كما أن سميث نفسه لم يَّدع أنه قد فعل ذلك.

الفصل الثانى:

ص٢٩	صندوق النقد الدولي (IMF) مؤسسة دولية مقرها واشنطن دى.سى بالولايات المتحدة، وتم إنشاؤها فى عام ١٩٤٦ لمساعدة الدول فى المحافظة على استقرار عملاتها من أجل تشجيع التجارة العالمية. وبعد انهيار نظام سعر الصرف الثابت فى السبعينيات، أصبح صندوق النقد الدولي مقرضًا للدول التى تعانى من مشاكل وصعوبات فى ميزان المدفوعات. ومثله مثل جميع البنوك، يطلب الصندوق من الدول المتلقية لقروضه أن تقوم بتنفيذ إصلاحات فى سياساتها. عرفت فى هذا الكتاب S,L,P أى الاستقرار والتحرير وخصخصة الأسواق. ولمزيد من البحث عن المؤسسات الشقيقة للصندوق: البنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، انظر الملاحظات على ص ٢٤٦ فى الفصل الخامس والعشرين.
ص٢٩	"ليس هناك شيء اسمه الغداء مجانا". هو تعبير شهير فى الاقتصاد. وهو يعبِّر عن الطبيعة الكليَّة للندرة التى تفرض تكاليف الفرصة على كافة الخيارات. ويذكر القاموس الإليكتروني للرطانات (اللغة الاصطلاحية) أن منشيء هذا التعبير هو روبرت أ. هينلين Robert A. Heinlein فى كتابه الكلاسيكى للخيار العلمى بعنوان "القمر معشوقة قاسية" The Moon is a Harsh Mistress (1966).

ص٣٢	هناك منظمات عديدة تقدم جوائز صاموبلسون، تكريما لاسم بول. أ. صاموبلسون Paul A. Samuelson، أول أمريكي يحصل على جائزة نوبل في الاقتصاد (١٩٧٠). وجائزة صاموبلسون التي ورد ذكرها في هذا الكتاب مجرد أداة خيالية، ولا تنتمي إلى أي جائزة فعلية حالية أو ماضية.
ص٣٣	تصور العلاقة المهنية بين لاتيمر وريتش الفكرة الكلاسيكية للخطر المعنوي التي يتوافر فيها لأحد الطرفين في عملية ما كلا من الحافز والقدرة لفرض تكاليف على الطرف الآخر (الأساتذة بإمكانهم أن يوقفوا تقدم طلبة الدراسات العليا ذوي الخبرة حتى يحصلوا منهم على أكبر قدر من المساعدة في البحوث). وفي الأسواق الحالية نعتقد بوجود "الخطر المعنوي" لأن القائمين على أمور البنوك يعلمون أن الحكومات ستعوِّض المودعين إذا ما أخفقت مؤسساتهم، ومن ثم فإن هؤلاء المصرفيين يقومون بتمويل الاستثمار الأكثر مخاطرًا (ولكن التي يحتمل أن تكون أكثر عائدًا).
ص٣٥	كان المحافظ الملكي لولاية فرجينيا، اللورد دَنْمُور، قد تولى قيادة أسطول بريطاني في نهر بوتوماك في شهر يوليه ١٧٧٦، وعند وايد ووتر، وهي تحت مدينة كوانتيكو الحالية، ألقى الأسطول مراسيه، وقاموا بإحراق ريتشلاند، إحدى المزارع الشهيرة. وتمت إعادة البيت.
ص٣٦	"درامبوي Drambuie" هو اسم تجاري لأحد المشروبات الكحولية الاسكتلندية، ويدعي البعض أن الوصفة السرية للشراب قد جلبها إلى البلاد الأمير الجميل شارلز (شارلز إدوارد ستيوارت) في أثناء تمرد اليعاقبة عام ١٧٤٥ (انظر الملاحظة على ص٣٢، الفصل الثالث). ولم يصبح ويسكي درامبوي متاحا تجاريًا إلا بعد عام ١٩٠٩، ومن ثم فليس من المحتمل أن يكون سميث قد تذوقه إطلاقًا.

الفصل الثالث:

ص٣٧	للاطلاع على بحث ممتاز عن عملية الاتصال الروحي انظر كتاب آرثر هيستنجز Arthur Hastings, "With the Tongues of Men and Angels, A Study of Channeling (Fort Worth, TX: Holt, Reinhart, & Winston, 1991).
ص٣٨	كان آدم سميث رجلا متواضعًا لم يقم فى أثناء حياته بالتباهى بلقب الدكتوراه (Stewart , EPS, P. 350-In) وكانت تعليماته إلى ناشرى كتبه هى "ببساطة أدعونى سميث" [Correspondence of Adam Smith, No. 100, p. 122]. إن القول بإن آدم سميث كان يرغب فى أن يضع الأمر فى مساره الصحيح بالنسبة لأرائه ووجهات نظره ليست فيه مبالغة كبيرة. فإن حجم واتساع البحوث عن آدم سميث قد ازداد بشكل كبير فى خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين (Wight 2002). وتكشف المنح الدراسية الحديثة عن الوجوه المتعددة لآدم سميث خلافًا للفكرة السائدة عنه بشأن اتباعه لوجهة النظر ذات البعد الوحيد الواردة فى كتب الاقتصاد المدرسية. وقد ذكرت باتريشيا ويرهان (Patricia Werhane 1991,p.3) أن كثيرا من وجهات النظر فى أوائل القرن العشرين بشأن سميث تُعد كاريكاتيرية. "وأن أعمال سميث تعرض قدرا كبيرا من حدة الذهن واللباقة والتعقد تخالف كثيرا الصورة المعروفة عنه" وهو ما توافق عليه فيفيان براون (1997 p.281).
ص٤٣	"إن الاقتصاديين قد يكرموننى بشفاههم ولكن ليس بقلوبهم..." هو تحوير لما ورد فى إنجيل مرقس الآية (٧) الإصحاح السابع [إنجيل الملك جيمس] وهو "هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا". كان سميث قد درس فى البداية لخدمة الكنيسة، ويمكن أن يكون قد عرف هذه الآية.
ص٤٤	يمكن الاطلاع على لهجة سميث الإنجليزية، وعن مناهج البلاغة التى

يقوم بتدريسها فى إدنبره فى المقدمة التى كتبها جى. سى برايس لكتاب سميث Lectures on Rhetoric and Belles Lettres (LRBL) PP 7.8

ص٤٤ فى أثناء تمرد اليعاقبة عام ١٧٤٥ جرت محاولة تنصيب المدعى الاسكتلندى ستيورت "جميس الثالث" على عرش إنجلترا وإعادة صدارة البابا. ويبين روس (Ross, 1995 pp. 81 and 219) أن الاسكتلنديين كانوا مكروهين فى انجلترا فى أثناء هذا الوقت التى اشتعلت فيه الحرب الأهلية. انظر الملاحظات على ص٢٥ الفصل الثانى.

ص٤٥ القول بإن الإفراط فى تقسيم العمل قد يجعل المرء غبيًا، هو من النقاط التى وضعها وطوّرها سميث فى كتابة ثروة الأمم (WN, V.i.f. 50 [781-5]).

ص٤٦ قامت جمعية البحوث والتنوير (ARE) فى شاطئ فرجينيا (www.are-cayce.com) بتسجيل وإعداد سجل مفهرس بعناية لكافة حالات الشفاء النفسى التى قام بها "إدجار كايس؟".

ص٤٧ بذلت هيلين شومان الأستاذة المساعدة للطب النفسي بجامعة كولومبيا جهودًا كبيرة، لمحاولة كتابة ما يقوله صوت داخلى مستمر تمكنت بعد ذلك من تحديد أنه يسوع المسيح. وقد قدم لها زميلها فى جامعة كولومبيا، بيل ثيتفورد، دعمًا وتشجيعًا لتنظيم هذه الاتصالات الروحية فى كتاب، تم إصداره دون اسم تحت عنوان "منهج دراسى فى المعجزات" عام ١٩٧٦ (A Course in Miracles, 1976).

الفصل الرابع

ص٥٣ القول بإن آدم سميث قد أعطى قيمة أكبر لكتابه نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) Theory of Moral Sentiments عما أعطاه لكتابه ثروة الأمم (WN) wealth of Nations تم التعبير عنه فى رواية شخص ثالث فى وقت متزامن (Ross 1995, p. 408). وتبرهن

الظروف على تأييد هذا الموقف بسرد الهيكل المنتظم لأعمال آدم سميث حيث تقدم نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) الأساس الفلسفى، ويقوم كتاباه ثروة الأمم (WN) ومحاضرات فى فلسفة التشريع والقانون (LJ) Lectures on Jurisprudence بملء تفاصيل الموضوع.

• وقد قام سميث بشكل دقيق بالمراجعة والتوسع فيه، وإعادة طبع نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) من خلال ست طبعات، وهى حقيقة تتسق مع فكرة إعطائه تقديرًا مرتفعا لكتابه، بغض النظر عما إذا كان هو كتابه المفضل. ومع ذلك، فإن كثيرا من الدارسين المُحدثين مع تقييم سميث الذى يضع نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) قبل ثروة الأمم (WN).

ص٥٣ "إن كل إنسان يكون غنيا أو فقيرا حسب الدرجة..."(47) WN, I.V.I.

ص٥٤ قد يكون حقيقة أن كتب وأعمال آدم سميث لا تجرى قراءتها بشكل روتينى فى برامج الدراسات العليا للاقتصاد صدمة لبعض من لا يعملون فى المجال المهنى وقد لاحظ كليمر وكولاندر فى كتابهما صناعة الاقتصادى [Klamer & Colander: The Making of an Economist (Boulder, Co: Westview Press, 1990)] مع ملاحظة أن نحو نصف طلبة الدراسات العليا للاقتصاد الذين أجرى المسح عليهم ذكروا أن تاريخ الأدب الاقتصادى لم يكن ذا أهمية لدراساتهم، بل قال نحو الثلثين أن المعرفة الدقيقة بالاقتصاد ليست مهمة. ويرجع السبب فى هذا إلى الدور البارز للاستنباط البعيد عن المشاركة الفعلية فى خلق النماذج الرياضية المطلقة، والتى غالبا ما تكون خالية من أى محتوى عملي أو أى اختبار. وبينما قام سميث باستخدام كل من طرق الاستنباط والاستقراء، وكانت كلها تقوم على أساس عميق فى الفلسفة والتاريخ، والمؤسسات، والقانون، والعلوم الاجتماعية التى يمكن تصورها على نطاق واسع. انظر الملاحظات على ص٦٢ الفصل، وص٢٤٠ الفصل ٢٣، للاطلاع على تعليقات إضافية عن الدراسات العليا.

	عبارة "قبل التوجه إلى دراسة الاقتصاد..." مأخوذة من المقدمة التى كتبها ر.هـــ. كامبل وأ.س. سكينر R.H. Campbell and A.S. Skinner لطبعة جلاسجو من كتاب ثروة الأمم "An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (Oxford University Press, 1966 pp. 4-5) أعيدت الطباعة بتصريح من Oxford University Press.
ص٥٧	"كيف تتكون الفضيلة؟" نظرية المشاعر الأخلاقية TMS, VII. i.1 (265).
ص٦٠	"إن السعادة تكمن فى هدوء البال" (149) TMS, III. 3. 30.
ص٦٠	"ما الذى يمكن أن يضاف إلى سعادة الإنسان؟" (45) TMS, I.iii. 1.7.
ص٦٠	"هل يتخيلون أن معدتهم ستكون أفضل..." (50) TMS, Iiii. 2.1.
ص٦٤	تأتى كثير من تفاصيل حياة سميث من مسيرة الحياة التى كتبها روس Ross وعلى سبيل المثال، المناقشة الخاصة بمدام ريكوبونى الموجودة على صفحة ٢١٠.
ص٦٥	ظن سميث أن الفيلسوف جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) تصرف "كوغد"، كما ورد فى أحد الخطابات التى كتبها سميث إلى أعز أصدقائه دافيد هيوم، والمنشور فى مراسلات آدم سميث Correspondence of Adam Smith (CORR) الخطاب رقم ٩٣ ص١١٢. وفى ذلك الخطاب كتب سميث مازحًا إن هيوم أيضا وغد مثل روسو. هيوم David Hume (١٧١١-١٧٧٦) كان فيلسوفا، ومؤرخا، ودبلوماسيًا وأحد أعظم شخصيات التنوير. قصة اختطاف الغجر لسميث وردت فى كتاب ستيوارت. "مقالات عن موضوعات فلسفية Essays on Philosophical Subjects pp. 269-70 (EPS).
ص٦٦	لا يعرف التاريخ الحقيقي لميلاد آدم سميث، إلا أن تعميده كان يوم ٥ يونيه عام ١٧٢٣. ونظرًا لارتفاع معدل وفيات المواليد فى ذلك الوقت، يمكن للمرء أن يقدر بشكل معقول أن ميلاده كان فى تاريخ

	قريب سابق على يوم التعميد. وقد ذكر جورج ستيجلر و كلير فريدلاند فى كتابهما "كتاب يوميات ميلاد الاقتصاد" "Chronicles of Economics Birthday Book (Chicago: University of Chicago Press. 1989) أن ميلاد سميث هو يوم ٥ يونيه ١٧٢٣.
ص٦٦	جون مايناردكينز (١٨٨٣-١٩٤٦) John Maynard Keynes كان نظير آدم سميث في القرن العشرين، من ناحية مساندة كينز لوجود دور قوى للسياسة الحكومية لإحداث التوازن مع ما أحس كينز بأنه كان عدم استقرار متأصل لقوى السوق على مستوى الاقتصاد الكلى. وقد ضعفت قواعد كينز بدرجة كبيرة منذ السبعينيات في القرن العشرين، ومع ذلك فإن كافة الحكومات مازالت بالفعل تلتزم بالأحكام العملية لكينز من ناحية أنه ينبغى على السلطات الفيدرالية أن تحاول توسعة الاقتصاد فى خلال أوقات الركود.
ص٦٦	"إن الرجال العمليين الذين يعتقدون أنهم معفون من أى تأثير ثقافى وفكرى... مأخوذ من كتاب جون ماينارد كينز عن "النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقود". The General Theory of Empoloyment, Interest and Money (New York: Harcourt, Brace and World, 1964) p. 383.

الفصل الخامس

ص٧٣	يؤيد سميث الاستخدام المعتدل للمشروبات الكحولية (WN, V.ii.K.3 [870]) وقد لاحظ أن سوء استخدام الخمر ينتج من ندرتها، وليس نتيجة لوفرتها. ويقول سميث: "إن الناس نادرًا ما يذنبون بالإفراط فيما هو طعامهم وشرابهم اليومى"(WN, IV. iii. C. 8 [492]). ويذكر أن سميث فى بعض الأحيان كان يفرط فى شرب النبيذ (Ross 1995, p. 251).
ص٧٤	تذكر كل السير المكتوبة عن حياة آدم سميث فترة حياته كرئيس للجمارك. وفى أحد الخطابات، يصف سميث كيف حرق ملابسه

عندما اكتشف إنها مهربة (CORR, No. 2103, pp. 245-6). وكرئيس للجمارك كان دخل سميث ٥٠٠ جنيه استرليني سنويا، يضاف إليها ١٠٠ جنيه استرليني من رسوم الملح، كما كان يتلقى ٣٠٠ جنيه استرليني من دوق بوكلوتش (Ross 1995, p. 306).

ص٧٤ القول بأن سميث كان يهب معظم دخله لأعمال الخير، ذكره ستيوارت (EPS V.4 PP. 325-6). ووفقا لرواية ستيوارت، فإن سميث كان يعيش حياة متواضعة: وكان إنفاقه الاختياري يتركز في استضافة الأصدقاء على عشاء بسيط، وعلى المحافظة على مكتبته "الصغيرة الممتازة".

كثيرا ما ذكر اسم آدم سميث باعتباره مقدسا من جانب أتباع مبدأ حرية العمل Laissez - faire. إلا أن آراء سميث كانت أكثر تعقيدا عما قد توحي به هذه الجملة للقراء المحدثين. ويرتبط التعبير بالفيزيوقراطيين الفرنسيين تحت قيادة سميث كويزني (١٦٩٤-١٧٧٤). ولا نزاع في أن كويزني وأتباعه كانوا موضع إعجاب كبير من سميث، وفي إحدى المرات كان سميث يعتزم إهداء كتابه عن ثروة الأمم إليه. (Stewart, EPS III. 12. P.304). ولكن على الرغم من الإعجاب الكبير بالرجل ونظامه ([WN, IVix. 38 [678])، فإن سميث يبتعد بنفسه بشكل واضح عن آراء كويزني شديدة التطرف ([WN, IVix. 28 [674-4]). كان سميث يرغب في تعديل مثاليته لتحقيق الأهداف العملية. وقد كتب جاكوب فينر "Jacob Viner" إن آدم سميث لم يكن شخصا نظريا جامدا يتمسك بمبدأ حرية العمل Laissez - faire. وكان يرى وجود نطاق واسع ومرن لنواحي عمل الحكومة، كما كان مستعدا لتوسيعه أكثر، إذا ما قامت الحكومة من خلال تحسين معايير الكفاءة والأمانة والحرص على المصالح العامة بإظهار استحقاقها لتحمل مسئوليات أوسع (1928 pp 53-54). انظر أيضا الملاحظات على ص١٢٥، الفصل الثاني عشر، وعلى صفحات ١٧٠-١٧١ الفصل السادس عشر.

ص٧٥	"ليست هناك حكومة تروّج لسعادة البشر" (TMS, IV 2.1 [187]) آدم سميث لم يستخدم إطلاقا كلمة "رأسمالية Capitalism" لأن هذه الكلمة لم تكن موجودة في زمانه. ولكنه بدلا من ذلك ، أشار إلى عالم "المجتمع التجاري commercial society" [37] WN, I iv. 1". وكانت فكرة سميث عن التجارة تعنى المنشآت صغيرة الحجم لأصحاب المهن، والتى تتسق مع هيكل الأسواق التنافسية. وبصفة عامة فإنه لم يكن محبذا للشركات المساهمة الضخمة، قائلا: "إن هذه الشركات نادرًا ما تخفق فى إحداث الضرر أكثر من قيامها بعمل الخير" WN, V.i.e. 40 [758].
ص٧٧	العنف وظلم الحكام للبشرية..... WN, IV .iii. c.g [493] "إن المؤسسات تعكس ظروف المجتمع" هذا اقتباس من مونتسيكيو، ووضع هذه الكلمات فى فم سميث تبرره رخصة فنية، باعتبار أن سميث قلّد خطة مونتسيكيو فى محاضراته عن العدالة (Stewart, EPS I. 17, P 274 and II. 50, 294-295) وتم بحث آراء مونتسيكيو عن الفضيلة في كتاب (GAY (1966, P. 58.
ص٧٨	اعتقاد سميث بأن "المجتمع سينهار ويصبح عدمًا بدون احترام القواعد الأخلاقية مصدره هو نظرية المشاعر الأخلاقية TMS, iii. 5.2 [163].
ص٧٨	القول بأن الأسواق الحرة يمكن أن يحل محلها شيء آخر إذا ما أخفقت في تجميع التأييد الأساسى لها من المجتمع تم بحثه فى كتاب فينر" Viner (1960, p. 68 حيث ورد ما يلى "إن تدهور مبدأ الحرية Laissez faire فى انجلترا، ونمو تدخل الدولة هناك بشكل منتظم، ليس فقط فى الاقتصاد بأسره، ولكن أيضا فى السوق الحر، يأتى إلى حد كبير كنتيجة لعدم الرضا عن النمط السائد لتوزيع الدخل... ولن يكون هناك حماس شديد لدى الناس فى العصر الحديث لنظام السوق الحر إلا إذا كان السوق يعمل فى وضع تسوده "عدالة التوزيع" يمكنهم الرضاء بها. ويلقى فينر اللوم بشأن الانهيار الكامل للأسواق الحرة

في انجلترا على "العداء" المفرط للأنصار المثاليين لمبدأ حرية العمل Laissez – faire في القرن التاسع عشر لأى تدخل فى الأسواق. وكانت النتيجة المتناقضة هي الانهيار التام للأسواق الحرة وظهور مسئولية الدولة عن رفاهة المواطنين.

ص٧٩ يقال إن رونالد كوز Ronald Coase هو الذى سك مصطلح "اقتصاد السبورة" ليصف النماذج الرسمية التى لا تحمل سوى قليل من الصلة بالعالم الواقعي (Blaug 1998) انظر مراجع إضافية فى رونالد كوز فى الملاحظات على ص٢٠٩، الفصل العشرين.

ص٧٩ الإشارة إلى فرانسيس بيكون Francis Bacon والنحل مصدرها هو جاى (Gay (1966, p.16. من ناحية المنهجية، كان بيكون عالما استقرائيا، وعلى النقيض من ذلك، فإن الاقتصاديين المحدثين استنباطيون إلى حد كبير. وقد كان سميث بالتأكيد من المعزمين بالاستنباط والاستنتاج، وقد كتب "إنه مما يعطينا السرور أن نرى الظاهرة التى اعتقدنا بأنها الأكثر من ناحية عدم أخذها فى الحسبان، مستنبطة بأكملها من بعض المبادئ.." (LRBL, ii. 133-4, p. 146). ومع ذلك فإن سميث لم يكرس كل مجهوده للاستنباط؛ نظرًا لأن سميث كان يدرك فوائد الطرق التجريبية وفى كتابه ثروة الأمم – مثلا يستخدم سميث بصفة رئيسية – المواد التاريخية والمؤسسية والوصفيه فى تحاليله. ولذا فليس من قبيل المبالغة القول بإن سميث كان يتوخى الحذر والاحتياط فى قدر كبير مما ينسب إلى البحوث الحديثة فى الاقتصاد. وقد ذكرت أنه فى الاتصالات البلاغية لا يجد الناس "أى متعة فى هذه الاستنباطات العويصة والمبهمة". وأن "الناحية العلمية نادرًا ما يتم إظهارها فى الاستنتاجات الطويلة للحجج" (نفس المصدر). ومن ناحية عمله فى الفلسفة الأخلاقية كان سميث أكثر وضوحًا فى رفضه لطريقة الاستنتاج قائلا: إن البشر لا يمكنهم استنباط الفلسفة الأخلاقية، ولكنهم يحتاجون بدرجة أكبر لاكتشافها من خلال التجربة. ولمناقشة هذه الموضوعات انظر مقدمة طبعة جلاسجو من ثروة الأمم ص٣.

ص٨١	القول بأن التنبؤ بالنموذج أكثر أهمية من الافتراضات الأساسية التى يقوم عليها هو حجة نادى بها ميلتون فريدمان Milton Friedman (الحاصل على جائزة نوبل ١٩٧٦) فى كتابه "منهجية الاقتصاد الإيجابى": مقالات فى الاقتصاد الايجابي The Methodology of Positive Economics" Essays in Positive Economics (Chicago: University of Chicago Press) pp. 3-43. وللاطلاع على نقد قوى وقصير لهذا الرأى، انظر دانيل م. هاوسمان Daniel M. Hausman, "Why look under the Hood?" in the" Philosophy of Economics, An Anthology, second edition (Cambridge University press, 1994 pp. 17-21.
ص٨١	كل شيء لأنفسهم ولا شيء للآخرين ".. WN III. Iv. 10 [418] كارل ماركس، فى أربعينيات القرن التاسع عشر" يحصل على إلهامه من أفكار آدم سميث. (Ross 1995 p. 418).
ص٨١	هجوم سميث على أصحاب الأراضى بأنهم جهلة، وكسالى موجود فى كتاب ثروة الأمم [8] WN. I.xi، أما "الزهو الصبياني" الخاص بهم فيمكن العثور عليه في ثروة الأمم [422] WN. III. Iv. 17. للاطلاع على فقرات آدم سميث عن الأرباح انظر ثروة الأمم WN.I.xi, p10 [266] الفقرة الشهيرة لسميث والتى تقول "إن الأشخاص من نفس المهنة نادرًا ما يلتقون..." مأخوذة من كتاب ثروة الأمم WN, I.x.c 27 [145]. أما بالنسبة لما ذكره من أن أصحاب العمل يتآمرون لإغراق أجور العمال فقد تم بحثه فى [84] WN.I. viii. 13، أما بالنسبة للمراجع الخاصة باضطهاد العمال فانظر [96] WN. I viii.
ص٨٢	"لا يمكن لأى مجتمع أن يزدهر ويكون سعيدا..." WN, I. viii. 36.
ص٨٣	"إن كل الناس ينبغى أن يتقاسموا..." [96] WN, I. viii. 36.

ص٨٣	إن "رجل نظام" سميث يخلق واحدة من أطول وأقوى الهجمات على غطرسة وتكبر الديكتاتورية والرقابة المركزية، ويتنبأ بطريقة مؤلمة بظهور الشيوعية فى القرن العشرين انظر TMS, ii. 2.17 [233].
ص٨٥	"إننا لا نتوقع الحصول على عشائنا مما يتفضل به الجزار وصانع الجعة أو الخباز..." WN. Iii. 2 [26-27].
ص٨٦	"...... تحت قيادة يد خفية ...." WN, IVii.9 [456] . يستخدم آدم سميث مصطلح اليد الخفية فى هذه المرة فقط فى كتابه ثروة الأمم، وهو يستخدم المصطلح أيضا مرة واحدة فى نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS. (IV.I.10 [184]). ومرة واحدة أيضا فى كتابة مقال عن الفلك Essay on Astronomy (EPS. III. 2. P.49). ولسوء الحظ فإن المصطلح يكتسب معنى مختلفا فى كل مرة يستخدم فيها. ولهذا السبب، فإن كثيرًا من الدارسين يحاجون بأن "اليد الخفية" قد أصبحت ذات مكانة استعارية أكبر كثيرًا جدًا مما قصد إليه سميث على الإطلاق. وللاطلاع على بحث ممتع عن التفسيرات المختلفة انظر Gramp (2000).
ص٨٦	كان سميث يعتقد أن الطبيعة البشرية مليئة "بالأنانية والغباء والهوى" (Ross, 1995 p-399)، ولكن سميث لا يؤيد أو يساند الأنانية، حتى إذا كان سيأتى بعض الخير من ورائها (Ross, 1995 p. xxii). إن "الأنانى ضَّاع وكريه" (TMS III. 3.5 [137])، ويشير سميث إلى العنف والظلم فى عواطفنا الأنانية.." (TMS III. 4.2 [157])، ويؤكد أمارتياسن Amartya sen – الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٩٨ – أن سميث لم يكفر مطلقا بأن حب الذات أو حتى الحكمة المستوعبين بدرجة كبيرة، سيكونان كافيين لخلق مجتمع جيد، بل يقول إن سميث حافظ على الرأى المعارض (1987, p. 23). وتدعم معظم البحوث الحديثة وجهة نظر سين، التى تنتهى إلى أن نظرية المشاعر الأخلاقية وثروة الأمم يقدمان نظرية سلوكية موحدة. انظر أيضا الملاحظات على ص ١٢٣ الفصل ١٢.

ص٨٦	إن أشهر أقوال برنارد ماندفيل "إن الرذيلة الخاصة تخلق فضيلة عامة"، تأتي من إحدى قصائده حكاية النحل (١٧١٤). وتظل خلية النحل مشغولة وتستخدم بطريقة اقتصادية وفقا لميول كل شخص من ناحية الشهوة والهوى. وهكذا فإن كل جزء كان مملوءًا بالشر، ولكن المجموعة بأسرها تظل جنة. ("2nd edition. London, Bible & Crown, 1723) وقد رفض سميث صراحة نظرية ماندفيل باعتبارها "مغالطة أو تضليلاً". ([TMS, VII. Ii. 4. 12-14 [312-313). ويلاحظ سميث أن أفكار هذا المؤلف [ماندفيل] تكاد تكون خطأ في كل ناحية (TMS VII. ii. 4.6 [308])
ص٨٦	إن المجتمع الإنساني مثل آلة كبيرة وضخمة .. TMS. VII. iii. 1.2 .[316]
ص٨٧	"إن مشاعر القلب التي يبدأ منها أي فعل..." TMS, I.i. 3-5 [18]. "إن كل شخص يطلب إليه أولا وبصفة رئيسية أن يتولى رعايته الذاتية".TMS, VI. Ii. 1.1 [219].
ص٨٨	"هذه هي الحقيقة الأساسية لكل سيد حكيم..." WN. IV. ii . 11 [456]
ص٨٨	"إن ما يعتبر حكمة في سلوك كل أسرة...." WN. IV. ii. 12 [457].

الفصل الثامن

ص١٠٠	"عليك أن تحسن المهارة، والذكاء، وحسن التمييز لدى العمال..." WN, I. intro. 6 [11]. إن تأكيد سميث على تقسيم العمل باعتباره وسيلة لخلق الثروة يدل عليه المكان الذي يحتله في ثروة الأمم: فهو في أول فصل في الكتاب. كما أن قوله بإن "تقسيم العمل محدود بمدى السوق" يلي ذلك في الفصل الثالث. ودور التجارة الحرة يوجد في أمكنة عديدة، ولكن يمكن للقراء أن يبدءوا بما ورد في كتاب ثروة الأمم WN, Book IV Chapter 2 للاطلاع على نقد للعوائق التجارية.
ص١٠١	"عندما يتم تقسيم العمل بشكل متقن...." WN, I, iv, [37].
ص١٠٥	"... براعة الشخص في حرفته..." WN, V.i.f 50 [782].

ص١٠٥	"إن التعليم ينبغى أن يقدم إلى الفقراء لمواجهة الآثار الضارة للتخصص (WN, TV.i.f. 54 [784-5]).
ص١٠٥	"... حجم السلع التى تدخل فى دورة التجارة والسلع، وليست النقود الذهبية أو الفضية هى المقياس الحقيقى للثروة". WN, IV.i.1-3 [429-430].
ص١٠٦	ورد بحث رائع لدور الحكومة فى الدفاع الوطنى فى كتاب ثروة الأمم. WN, Book V, C.1 كما وردت مساندة للمحافظة على تفوق الجيوش العاملة فى WN, I. i.a. 13-23 [696-700]
	فى كتابه Principles of Political Economy and Taxation (1817)
ص١٠٦	قام دافيد ريكاردو David Ricardo (١٧٧٢-١٨٢٣) بوضع نظرية مؤادها أن الميزة التنافسية فى تكلفة الإنتاج، وليست الميزة المطلقة فى التكاليف (طبقا لآدم سميث) يمكن أن تكون أفضل ففى تفسير التجارة. وهذا هو الرأى السائد حاليا.
ص١٠٧	المعلومات الخلفية عن طريق كمبرلاند السريع مصدرها هو ما كتبه ويليام نيوكوت William Newcott, "America's First Highway", National Geographic, 193 (3) (March 1998) pp. 82-99. وهناك بحث عن أهمية الطرق فى انفتاح التجارة فى WN, I.xi. b.5 [163]. أما القول بإنه ينبغى دعم الطرق عن طريق الرسوم فقد تم تأييده فى WN, Vi.d [724].
ص١٠٩	للاطلاع على مشهد الجريمة المنظمة فى روسيا انظر كتاب الصحفى ستيفين هاندلمان Comrade Criminal: Russia's New Mafiya (New Haven, CT: Yale University Press (1995). القول أيضا بأن أبطال الجريمة الروس يعملون أيضا فى الولايات المتحدة هو ما يدعيه روبرت فريدمان فى كتابه Red Mafiya: How the Russian mob has invaded America (New York: Little, Brown and Co. 2000).
ص١١٠	"إن المجتمع لا يمكن أن يوجد ويدوم بين أولئك الذين لديهم على

	الدوام استعداد كى يجرح كل منهما الآخر". TMS II.ii.3.3 [86].
	"إن المقصد الأول والرئيسي لكل الحكومات..." LJ.i.10 , p.7.
ص١١٠	"إن العدالة هى العمود الرئيسى الذى يقوم عليه..." TMS, ii. 3.4 [86]. كان آدم سميث قد خطط لتأليف كتاب عن القانون، كان سيكمل به ثلاثيته عن الفلسفة الأخلاقية (TMS) والتجارة (WN) وفلسفة التشريع، إلا أن حياته لم تمتد به ليتمكن من القيام به. وقد أمر سميث بإحراق أوراقه ومخطوطاته غير الكاملة. قبل موته بدلا من عرض أعمال غير كاملة على الجماهير (Stewart, EPS pp. 327-8 , Ross 1995, p. 404) ومع ذلك، فإن الدارسين قد تمكنوا من جمع مجموعتين من مذكرات الطلبة الباقية من محاضرات سميث عن فلسفة التشريع فى جامعة جلاسجو. وتم نشرهما كجزء من طبعات جلاسجو (LJ). وفضلا عن هذا، فإن القراء ينبغى أن يلاحظوا أن سميث يخصص قدرًا كبيرًا من الاهتمام إلى مسألة العدالة فى كتابيه ثروة الأمم ونظرية المشاعر الأخلاقية. ويلاحظ الدارسون فى أعمال سميث وجود اهتمام أولا بعدالة "التعامل" – أى القواعد الخاصة بالتبادل الفردى. ووجود قواعد عادلة تسمح بقيام نظام طبيعي يمكن من خلاله تحقيق توزيع منصف للدخل والثروة. ومع ذلك، فإن من الخطأ، الظن بأن سميث لم يكن يحبذ اتخاذ إجراءات معينة بشكل مباشر لبلوغ قدر أكبر فى عدالة التوزيع – من خلالها يمكن للدولة إصدار قوانين لمساعدة الفقراء (مثل تمويل الدراسة بالمدارس العامة، والحد من قوة الاحتكارات، وما إلى ذلك). للاطلاع على مزيد من بحث هذه الأفكار انظر Young & Gordon (1996).
ص١١١	"إن الدولة الغنية تكون أكثر عرضة للهجوم عليها". WN, V.i.a 15 [698]
ص١١١	"إن جشع وطموح الأغنياء..." WN, V.i.b. 2 [709].
ص١١٢	"إن كل إنسان طالما لا ينتهك قوانين العدالة.." WN, IV.ix.51 [687]

"إن الجهد الطبيعي لكل فرد لتحسين وضعه..." WN, IV.v.b. 43 [540]

الفصل التاسع

ص١١٣ | كتاب إي.إف. شوماخر: E.F. Schumacher: Samll is Beuutiful: Economics As If People Mattered (New York, Harper & Row (1974) أصبح من الكتب النموذجية على الفور. وهو يقيم الحجج لمناصرة التنمية من أسفل إلى أعلى، بدلا من أن تكون من أعلى إلى أسفل. والمؤشر الحقيقي للتقدم (Genuine Progress Indicator (GPI هو مشروع لإعادة تعريف التقدم (rprogress. Org/ projects / gpi).

ص١١٤ | الحكاية الرمزية الرائعة التى رواها سميث عن ابن الفقير موجودة فى كتابه عن نظرية المشاعر الأخلاقية [181] TMS, IV.i.8.

الفصل العاشر

ص١٢٧ | يحتمل أن سميث قد شهد موسم الأوبرا فى باريس فى خلال عام ١٧٦٦(Ross 1995 p. 209). وتعليقاته على الأوبرا، وخصائص ممثلى كاسترانى موجودة فى كتابه "مقالات عن موضوعات فلسفية EPS. II. 16, PP. 194-5. وعلى الرغم من أن سميث كان يعلم بالتأكيد عن "حروب الأوبرا" (بين الملك لويس الخامس عشر وزوجته الملكة عن المزايا النسبية للأوبرا الفرنسية مقابل الإيطالية). فإن هذا النقاش قد جرى بالفعل فى أثناء سنة ١٨٥٠، قبل وصول آدم سميث إلى هناك. (Gay 1966, p. 125 & Wilson 1972, p.178).

ص١٣٠ | وصف فولتير الساخر للسناتور بوكوكورانتى الغنى والمرهق المتعب موجود فى رواية كانديد Candide (١٧٥٩). كان سميث من المعجبين المفتونين بفرانسوا مارى آرويت الذى كان اسمه الأدبى فولتير. وتظهر المتابعة التى وردت فى كتاب مقالات عن موضوعات فلسفية EPS لاسم فولتير مدى ما كان يقرؤه ويستوعبه

	آدم سميث، من كتاباته. ومن العجب، أن هناك أيضا إشارة لاذعة فى كانديد إلى صناعة الدبابيس، التى أصبحت فيما بعد والآن أحد الأمثلة الشهيرة التى يستخدمها سميث، فى تقسيم العمل. وسواء أكان استخدام سميث لهذا المثال قولا مقصودا أم مزاحًا سافرا عن فولتير، الذى كان يعتقد سميث أنه أعظم كتاب القرن المعاصرين، فإن الأمر ليس معروفًا (Ross, 1995 p. 399). ويعزو أصل مثال مصنع الدبابيس، عادة إلى مصدر ثالث، فى الجزء الخامس من انسيكلوبيديا (موسوعة) ديدروت التى صدرت فى عام ١٧٥٥ (Wilson 1972, p. 236). وكانت هذه الموسوعة أحد الأعمال التى كان سميث يعطيها مرتبة رفيعة (Wilson 1972, p.7, Ross 1995, 147 and 273) ومنها استعار سميث معظم ما ورد بشأن مثال مصنع الدبابيس.
ص١٣٢	إن سوء حظ الجزء الأعظم من الرجال ينشأ ببساطة من.." TMS II.3.32 [150
ص١٣٢	قصيدة ميلتون عن الجنة والجحيم من الفردوس المفقود (١٦٧٤) الكتاب الأول السطر ٢٥٣.

الفصل الحادى عشر

ص١٣٥	"إن المصدر الكبير للبؤس وانعدام النظام فى الحياة البشرية..." TMS III. 3.31 [149].
ص١٣٦	يدفعنا إلى انتهاك قواعد الحكمة أو العدالة.. [149] TMS III 3.31.
ص١٣٦	"إن مسرات الغنى وما تتضمن من زهو وتفوق، نادرًا ما تتسق مع الهدوء". موجود فى [150] TMS, III. 3.31.
ص١٣٦	إن الحالة "الطبيعية" للسعادة موجودة فى.. [45] TMS, I.iii.1.5.
ص١٣٧	"إن السلطة والثراء لا يمكن أن تحميك من عدم الرحمة" TMS, I.iii.3.1 [183].
ص١٣٧	"إن هذا الميل إلى الإعجاب، والذى يصل إلى حد العبادة" TMS,I.iii.31[61].

ص١٣٧	"إن المرشحين للثروة كثيرا ما يهجرون دروب الفضيلة" TMS, Iiii.3.8[64]
ص١٣٨	حصل جارى س. بيكر Gary S. Becker على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٩٢، بالمشاركة مع آخر لكتاباته عن اقتصاديات الجريمة (انظر أيضا الملاحظات على ص٢٢٤ الفصل ٢٢) وكانت نظرية بيكر هى أن العوامل الاقتصادية (بل والمجرمين) تعمل بطريقة رشيدة لزيادة المنفعة: إذ إن اللصوص قد يقومون بأكثر السرقات خطورة إذا ما ارتفع المقابل المتوقع منها، وهو ما يحدث عند ارتفاع قيمة البضائع المسروقة أو نقص احتمالات الإمساك بهم.
ص١٣٨	إنه الغرور وحب الزهو والتعالى، وليست الراحة أو المسرات هى ما يجعل البشر.. TMS, I.iii.2.1 [50].
ص١٣٨	"إن الرجل الغنى يفخر بثرواته.." TMS, I.iii.2.1 [50-5].
ص١٣٨	"بالنسبة لما يشكل السعادة الحقيقية للحياة البشرية" TMS, IV.1.10[185]
ص١٣٨	"إن الشحاذ الذى يجلس يلتمس دفء الشمس على جانب الطريق السريع.." TMS IV i.11 [185].
ص١٣٩	"إذا كان الجزء الرئيسى من السعادة البشرية ينبع من الشعور والوعى بأنك محبوب".
ص١٣٩	"لكى تؤسس إمبراطورية عظيمة لمجرد غرض وحيد هو زيادة" WN,IV.vii.c.63[613].
ص١٣٩	"إن وسائل الرفاهية التافهة تسحق مالكيها" TMS, IV.1.8[1823].
ص١٤٠	"هذا هو الخداع الذى يثور ويستمر فى الحركة الدائبة". TMS,IV.1.9[183]

الجزء الثانى: التحول

ص١٦٣	إن الاهتمام الجاد والصادق بخصائص سلوكنا .. TMS, iii, 18 [224].

ص١٤٣ في أحد الخطابات التي كتبها دافيد هيوم في أبريل ١٧٥٩، يمزح مع سميث عن الأنباء المجنونة التي تقول إن كتاب "نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) "قد نجح بشكل كبير في السوق. وهو ما يوحى بسخرية بأن علامات الترحيب هذه لابد أنها تعنى أن الكتاب عديم القيمة. (CORR No.31 pp. 33-36) وهذا الود المازح بين سميث وأعز أصدقائه نشأت عنه كتابات ممتعة في القراءة.

ص١٤٩ كان آدم سميث يعيش في أوروبا في خلال ١٧٦٤-١٧٦٦، وكان معظم هذا الوقت في فرنسا، وفي أثناء هذه الفترة، التقى آن روبرت جاك تورجوت (١٧٢٨-١٧٨١). وهو فيلسوف أصبح سياسيًا وكان يحاول ترويج مبادئ الإصلاح. وكان سميث على علاقة طيبة ومستمرة به، كما يدل على ذلك أحد خطابات سميث الذى كتبه إلى هيوم في يوليو ١٧٦٦ (COR No. 93 p.113). كما قضى سميث وقتًا في باريس مع كويزنى (انظر الملاحظات على ص٥٧ الفصل الخامس وعلى صفحات ١٧٠-١٧١ فصل ١٦). وعندما تولى لويس السادس عشر (١٧٥٤-١٧٩٢) السلطة كشاب في عام ١٧٧٤، ورث نظام اقتصاد إقطاعي جائر يقوم على الاحتكارات الداخلية والرقابة السياسية المشددة التي كانت في أيدى رجال الدين وكبار ملاك الأراضي. وقد عين تورجوت مراقبا عاما للمالية في أغسطس ١٧٧٤. ومن بين الإصلاحات الأولى لتورجوت كانت محاولته إلغاء الرسوم الداخلية ونظم الطوائف التي أفسدت المنافسة. كما اقترح أيضا منح البروتستانت كافة الحقوق المدنية، واقترح إعادة النظر في قانون الضرائب بحيث يشارك أصحاب الأراضي في أعباء المالية العامة، وكانت هناك معارضة عنيفة وصاخبة من النبلاء ورجال الدين أدت إلى فصل تورجوت في مايو ١٧٧٦ بعد

خدمة لم تتجاوز عامين (Gay 1966, p167) وعندما قامت الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ جرت محاكمة الملك، وتم إعدامه فى ٢١ يناير ١٧٩٣.

ص١٤٩ كان حظر كراسات التنوير إحدى النقاط التى ذكرها روس (Ross 1995, p.2009)

ص١٤٩ معظم التقييمات الحديثة لآدم سميث (انظر، دليل المؤلفات الوارد فيما بعد) تتناول الموضوع المعروف "Das Adam Smith Problem" وهى نظرية وضعت فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر ونقول إن كتابي سميث ليسا متوافقين فلسفيًا، وإنهما يعكسان مراحل مختلفة من التطور الفكرى لدى سميث. وهذه النظرية قد تم كشف زيفها (انظر مثلا Brown 1997).

ص١٥٢ "كانت التناقضات تعجب سميث". فى كتاب سميث مقالة عن الفلك". (EPS IV 34 P.75) يلاحظ أن الأشخاص من ذوى العلم عادة ما يحبون التناقضات" ويقال عن سميث أيضًا إنه قد استخدم المتناقضات كوسيلة تعليم (Stewent, EPS, P. 275).

ص١٥٣ آراء سميث الرائعة المتعمقة فى السعر "الطبيعى" فى الأجل الطويل بالسوق، وأثرها على الأرباح وغيرها من عوامل الإنتاج، تمت تغطيتها فى الفصل السابع من كتاب ثروة الأمم [72-81] WN.

ص١٥٨ "قبل أن نبدأ فى الإحساس كثيرا بالأخرين.." [205]TMS, V.2.9.

ص١٥٨ "إذا لم يكن لديك الشعور بالزمالة تجاه ما لقيته من سوء حظ" TMS,I.i.4.5 [21].

الفصل الثالث عشر

ص١٦١ كتب توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨-١٦٧٩) أنه دون سلطة مركزية قوية؛ فإن الحرب قد تنشأ بين الناس وبعضهم بعضا. وتكون النتيجة هى "لا فن ولا أدب ولا مجتمع، والأسوأ من كل ذلك، هو الخوف والخطر المستمر من الموت نتيجة للعنف. وبذلك

يعيش الإنسان حياة انعزالية فقيرة بهيمية مقززة وقصيرة" (The Leviathan (1651) Part i. chap xviii.) وللاطلاع على رد فعل سميث انظر [315] TMS, VII.iii.i.1 والملاحظة التالية.

ص١٦١ على النقيض من هوبز، يكتب سميث أن الإنسان يولد وبه "رغبة أصيلة فى أن يسعد الآخرين، وفيما يتجاوز ذلك فإن البشر يولدون وبهم رغبة فى أن يصبحوا ما ينبغى أن تتم الموافقة عليه، أى بالتحديد، أن يصبحوا أهلا للثناء عليهم". (-116] TMS, iii.2.6-7 [117). ووجهة نظر سميث لا تتعارض بالضرورة مع علم النفس التطورى الحديث، نظرًا لأن المذهب الأخير على النقيض من الإنسان الاقتصادى لا ينظر إلى البشر على أنهم آلات حاسبة رشيدة، بل إن علم نفس التطور يفسر السلوك الحالى على أنه ناجح من ناحية التطور، بما فى ذلك الاستراتيجيات الفطرية الخاصة بفعل الخير وتفضيل الغير على الذات. وإنى أشكر إريك كرافت Erik Craft على تفسيره هذا الاختلاف لى.

القول بإن البشر تحكمهم غرائز أنانية على المستوى الجينى والوراثى هو مقولة نادى بها داوكينز Dawkins (1976).

ص١٦٢ "مهما كانت درجة الأنانية المفترضة فى الإنسان.." [7] TMS, I.I.i.

ص١٦٢ "إن أكبر المجرمين والسفاحين، وأكثرهم قسوة وانتهاكا لقوانين المجتمع.." TMS, J.I.I [7].

ص١٦٤ "أولئك المغرمون باستنباط كافة مشاعرنا من..." [13] TMS.I.i.2.1.

ص١٦٥ يجادل سميث بإن "التعاطف يبعث الحيوية فى المرح والبهجة ويخفف الأحزان" .. [14] TMS, I.i.2.2.

ص١٦٥ "إن الود ليس سوى مجرد التعاطف المعتاد" [220] TMS, VI.ii.1.7.

ص١٦٥ عندما يقول سميث إن الحب عاطفة "سخيفة" خيالية (TMS, I.ii.2.1[31]) يبدو أنه كان يشير إلى عاطفة الحب الرومانسى المفرط فى المثالية، أو حتى الشهوة أو "حالة الحب" التى تتوقف فيها الخصائص الفكرية عن العمل. ومع ذلك، فإن هذه العاطفة يمكن أن

	تلعب دورًا هاما فى تنمية عواطف إيجابية أخرى كما يوضح هو فى كتابه "نظرية المشاعر الأخلاقية" TMSI.ii.21[32].
ص١٦٦	الرجل البرىء فى تولوز الذى يشير إليه سميث (TMS, III.2.11[120]) هوجين كالاس Jean Calas (المولود عام ١٦٩٨) وهو تاجر بروتستانتى تحول ابنه إلى الكاثوليكية حتى يتولى منصبا فى القانون. وقد شنق الابن نفسه فيما بعد. وفى الاضطهاد الدينى الذى تبع ذلك اتهم كلاس بالقتل والتسبب فى موت ابنه، وتم إعدامه بسرعة وبأكثر وسائل الإعدام تعذيبًا فى عام ١٧٦٢. وقد أدى التحيز القضائى الظاهر فى هذه القضية إلى إثارة المناداة بالعدالة على نطاق واسع فى أوروبا، بقيادة فولتير. وفى عام ١٧٦٥، قامت مجموعة أخرى من القضاة بمراجعة البراهين وقامت بتبرئة كالاس من التهم بعد فوات الأوان. وقد أدت هذه المأساة إلى إصلاحات قضائية فى فرنسا وإلى حركة للتسامح الدينى.

الفصل الرابع عشر

ص١٧٠	من المشكوك فيه أن يتفق آدم سميث مع الاقتصاديين المحدثين على مدى التقسيم الصّارم الذى يتمسكون به بين الاقتصاد القياسي والاقتصاد الوضعي، إذ إنه طبقا لما يقوله آلاسدير ماكلنتير Alasdair MacIntyre فى كتابه After Virtue: A Study in Moral Theory (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1997). إن هذا التقسيم يهمّش معنى وقيمة البحث والتتبع فى العلم. وأعبر عن امتناني للسيد/ جيم هالتمان Jim Halteman لتوضيحه هذه النقطة.
ص١٧٠	تتجسد الطبيعة الطيبة والرحيمة لآدم سميث فيما كان يلم به من نوبات الاكتئاب والحزن الشديد.

الفصل السادس عشر

ص١٩٣	لم يلعب آدم سميث البوكر، ولكنه لعب الويست Whist، وهى لعبة

	تشبه البريدج وإن كانت سابقة عليها.
ص١٩٣	حب العظمة لدى روسو وعدم عرفانه بالجميل لدافيد هيوم (وآخرين) أعيدت روايته فى خطاب أرسله هيوم إلى سميث فى عام ١٧٦٧ (CORR, No 211, pp.133-136). وقد عقدت صداقة بين هيوم وروسو ووجد له أحد الرعاة المموّلين فى انجلترا. ومع ذلك، فإنه يبدو أن المرض العقلى لدى روسو قد أدى به إلى رفض ظروفه، وإلى أن يوحى بأن هيوم قد تآمر عليه لإنقاص مرتبته ودرجته.
ص١٩٧	لم يتطلع روسو إلى عالم تسوده اليوتوبيا بطبيعته، بل قام روسو فى رواية "إميلى" بوضع فكرة أن الطفل ينبغى أن يسمح له بالتعلم من عواطفه وتجاربه قبل أن يتعرض للكتب والنظريات، وينبغى أن تكون أول قراءات الطفل هى روبنسون كروزو. وباختصار، فإن مزايا الحضارة تزيد كثيرا على التكاليف، طبقا لما يقوله روسو. وقد يكون الاهتمام بما ذكره روسو عن "الوحشيات النبيلة" إساءة فهم لآرائه (Gay 1966, p. 62) والذى قد يتحمل سميث وزرها. ويقول سميث إن روسو يرسم "الحياة البربرية كأنها أسعد حياة" (EPS, "Letter to the Edinburgh Review p. 251").
ص١٩٧	اقتباس روسو "بمجرد أن يحتاج إنسان واحد إلى مساعدة الآخرين..." هو إعادة صياغة لرأى سميث بشأن نظام روسو (EPS, Letter to the Edinburgh Review; p. 252). "إن قدرته على الإحساس القوى تفوق قدرته على التحليل" كان هذا ما كتبه سميث عن روسو فى مقال له عن "فنون التقليد" وهو موجود فى كتابه Essays on Philasophical Subjects, W.P.D. Wightman and J.C.Bryce, eds. (Oxford: Oxford University Press), p. 198. الذى أعيد طبعه بترخيص من مطبعة جامعة أكسفورد. ومن غير المحتمل أن يكون سميث قد عرف روسو معرفة شخصية (Ross 1995, 212).

ص١٩٨ — قام روس (Ross, 1995 p.212) بإعادة رواية موضوع العلاقة المحتملة بين دافيد هيوم مع الكونتيسة دوبوفلير. والسطر هو "إن كلماتى فاضلة.. ولكن أعمالى ليست كذلك"، هو إعادة صياغة لما سجله روس عما كتبته الكونتيسة عندما كنت تفكر فى خيانتها مع هيوم.

ص١٩٨ — "هل أنا حقا لست صديقا إلا لكتبى؟" هذه الجملة إعادة صياغة لما يقال إن سميث قد أخبر به أحد أصدقائه عندما كان يعرض مكتبته أمامه وتلمح علاقات سميث الرومانسية إلى نقاط متعددة. وتتناول السيرة الذاتية التى كتبها روس (Ross, 1995 pp 213-271) الأدلة القليلة الموجودة عن هذا الموضوع. ويبدو أن سميث كانت له علاقات عميقة مع امرأة شابة من فايف فى أثناء السنوات الأولى لإقامته هناك، ومع أن سميث قد سافر للعمل كمعلم فى فرنسا، فإن كثيرا من النساء الفرنسيات تأثرن به كثيرا. وكانت من بينهن ماركيزة فرنسية، إلا أن سميث تجنب هذه الشراك ليقع رأسا على عقب فى حب امرأة إنجليزية متزوجة. ونظرا لأنها كانت متزوجة فإن الحب لم يكن متبادلاً، وكان سميث فى حالة من الانفعال الشديد، حتى أن كثيرا من الأخرين الذين كانوا فى صحبته يتندرون عليه. وكان آخر ما ورد عن صلة غرامية هو ما ذكر فى أواخر أيامه عند عمله كمشرف عام على الجمارك فى إدنبره. وطبقا لما ورد فى سيرته الذاتية، فإنه قد وقع فى الحب "بشكل جاد" مع امرأة تعرف باسم "الأنسة كامبل". وقد ذكر أنها كانت وسميث على طرفى نقيض تماما، وهو ما قد يفسر عدم اكتمال هذه العلاقة فى نهاية الأمر.

ص١٩٩ — عادة ما ينسب الفضل إلى الجدول الاقتصادى لكويزنى Quesnay Tableau Economique لتقديمه أول نموذج رقمى للاقتصاد الكلى. ومع ذلك فإن الإصرار من جانب الفيزوقراط على "دولة طبيعية" والذى يعارض التصنيع، وإلى جانب ما كان أنصار كويزنى يبدونه من تباهى وتعالى وكبرياء عند عرض وجهات نظرهم، أدى

بكثيرين مثل هيوم، وفولتير وروسو إلى مقت الفيزيوقراط. وكان سميث يعبر في أرائه الشخصية عن دفء علاقته بكويزني، إلا أنه كان بعيدًا بشكل واضح عن هذه التأكيدات المتغطرسة لوجهة نظره. وكان سميث يؤيد وجهة النظر العامة بشأن نظام طبيعي متجانس، وأن الحماس المفرط للفيزيوقراط إنما يدل فقط على خطأ طفيف في نظامهم. "وخطأهم الأساسي" طبقا لما يراه سميث، كان يكمن في تقديم العمال لدى أصحاب الحرف اليدوية، والتجار وأصحاب المصانع باعتبارهم "غير منتجين"(WN, IV ix. 28 [674]) انظر أيضا الملاحظات على ص٥٢ الفصل الخامس، وصفحة ١٢٣ في الفصل ١٢ وصفحة ١٧١ في الفصل ١٦.

ص٢٠٠ القول بإن وجهة نظر الفيزيوقراط هي عبارة عن "الغيبيات التي تتخفى في ثياب العلم" هو من كتاب جاى (Gay, 1966 p. 104).

ص٢٠٠ القول بأن نظام كويزني بكل ما فيه من عيوب هو "الأقرب تقديرًا للحقيقة" هو مداهنة ونفاق موجود في كتاب ثروة الأمم (WN, IV. i.x.38[678]) ومع ذلك فإن سميث، في إشارة إلى قدرات كويزني الطبية، يستخدم المقارنة مع الجسم البشري ليظهر أن إصرار كويزني على الكمال والنقاء يتسم بالإفراط: ويقول سميث: "إن الجسم يحتفظ بأقصى درجة من تمام الصحة في ظل مجموعة واسعة من النظم المختلفة المتباينة" وكذلك بالمثل، عن طريق التشبيه، يفعل الاقتصاد (WN, IV.i.x. 28 [674]).

الفصل السابع عشر

ص٢٠٤ "من الأفضل أن نخاطر بإنقاذ إنسان مذنب بدلا من إعدام إنسان بريء" مقتبسة من رواية Zadig (زاديج) لفولتير (١٧٤٧) الفصل السادس. سجن فولتير في الباستيل مرتين، مرة في عام ١٧١٧-١٧١٨ لمدة ١١ شهرًا، إذ زُعم أنه كان يكتب رواية ساخرة عن الوصي الفرنسي على العرش، ومرة أخرى لفترة قصيرة في عام

١٧٢٦ لمنعه من مبارزة أحد النبلاء. وفى القضية الأخيرة أطلق سراح فولتير ليذهب إلى المنفى فى إنجلترا، وربما لم تكن الحياة فى الباستيل سيئة جدا؛ حيث كان هناك الأقلام والأوراق، والطعام الجيد والنبيذ، وكان يسمح للأصدقاء بالزيارة أيضا.

٢٠٤ "أعظم الخير لأكبر عدد من الناس" هى فلسفة مذهب المنفعة، الذى أسسه جيريمى بنتهام Jeremy Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢).

ص٢٠٩ "رجل برئ تم إحضاره إلى المشنقة.." TMS, III.2.11[119-120].

ص٢١٠ يعيد سميث رواية نظرية روسو بأنها "ليس لدينا شيء سوى مظهر خارجي خادع وغشاش، شرف دون فضيلة وعقل بلا حكمة وسرور بدون سعادة" (EPS, Letter to the Edinburgh Review pp. 253-4).

ص٢٠٩ "إن الكبرياء صعبة مثل سنام الجمل" هى إعادة صياغة لخطاب فولتير إلى بانصوفى Letter to Pansophe (ورد فى Winwar 1961, p.309).

الفصل الثامن عشر

ص٢١١ يظهر التعبير عن عدم عرفان روسو بالجميل فى خطاب من هيوم إلى سميث فى عام ١٧٦٧ (CORR.No. 111 pp. 133-136). كما تمت أيضا إعادة روايته في كتاب روس (Ross 1995, p.211) انظر أيضا الملاحظات على ص١٩٣ الفصل ١٦.

ص٢١٤ كان آدم سميث متحمسا بشدة فى محاولة منع أو تقصير "الحرب الطويلة والمدمرة وباهظة التكاليف" فى المستعمرات الإنجليزية بأمريكا (CORR. Appendix B, p.380) و(Ross, 1995 p.295). وقد تراجع سميث عن "جنون الحرب الحديثة" كما ذكر فى تأبينه (Appendix, 1. p.228) ومن المؤكد أنه قد تمت قراءة كتاب ثروة الأمم لآدم سميث باهتمام شديد فى المستعمرات الأمريكية الثائرة. انظر على سبيل المثال، خطاب المحافظ توماس بونال Thomas Pownall الذى كتب إلى سميث من ريتشموند، فيرجينيا فى ٢٥

	سبتمبر ١٧٧٦(CORR, AppendixA). كما أن جورج واشنطن كانت لديه نسخة من الكتاب، على الرغم من أنها من إحدى الطبعات المتأخرة[*] (Alan Kruger, Rediscovering "The Wealth of Nations" New York Times, Aug. 16, 2001).
ص٢١٥	"كان حكام بريطانيا العظمى يسلون الشعب بتخيلهم أنهم قد امتلكوا إمبراطورية عظمى.." (WN, V.iii. 92 [946-947]) وعلى الرغم من أن سميث ربما كان يحبذ الاتحاد مع أمريكا، فإنه كان من الناحية السياسية ذكيا بدرجة تجعله يدرك أن بريطانيا العظمى لأسباب ومصالح خاصة وكبرياء لا يمكن أن تترك مستعمراتها سلميًا بغض النظر عن أى خسارة صافية قد يسببها ذلك (WN, IV vii c.66 [616-617]).
ص٢١٥	تأييد سميث لاتحاد دستورى مع أمريكا مسجل فى مذكرة بعنوان "أفكار سميث عن حالة التنافس مع أمريكا. فى فبراير ١٧٧٨" (CORR, Appendix B) للاطلاع على بحث شيق وممتاز انظر كتاب أندرو سكينر. Andrew Skinner, "Mercantilist Policy: The American Colonies" Skinner (1966)
ص٢١٥	للاطلاع على حكاية رائعة عن "الآباء المؤسسين" لفيرجينيا واهتماماتهم التجارية الدولية انظر Woody Holton, Forced Founders: Indians, Debtors, Slaves, and the Making of American Revolution in Virginia (Chapel Hill. University of North Carolina Press 1999) وللاطلاع على بحوث ومناقشات سميث بشأن تجارة الطباق انظر الملاحظات على ص٢٣١ الفصل ٢٣.

[*] مذهب المنفعة Utiltarianism هو أن كل الأفعال يجب أن توجه نحو إحراز أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، إلى جانب الاعتقاد بأن قيمة الشيء تتحدد بمنفعته (المترجم).

الجزء الثالث: الفضيلة

ص٢٢١	"إن الحكمة الفائقة هى وصل أفضل رأس بأفضل قلب" موجود فى كتاب نظرية المشاعر الأخلافية [216] TMS, VI.i. 15

الفصل التاسع عشر

ص٢٢٥	يوجد تعريف سميث العريض للتعاطف فى كتابه نظرية المشاعر الأخلاقية [10] TMS, I.i. 1.5.
ص٢٢٧	يبحث سميث "المتفرج غير المتحيز" فى كافة أجزاء كتاب نظرية المشاعر الأخلاقية (TMS) وأفضل مكان لبداية القراءة هو الجزء الأول، وخاصة بداية الجزء الثالث. أما عن رغبة البشر فى الحصول على الثناء فقد تم تغطيتها بشكل موسع فى الجزء الثالث الفصل الثانى.
ص٢٢٨	"سلطة" قاضينا الداخلى موجودة فى [134] TMS, III. 3.1.
ص٢٢٨	أن "عيوننا تخدعنا" موجود فى [134-135] TMS, III. 3.12
ص٢٢٩	العواطف الأنانية والأصلية للطبيعة الإنسانية.."([135]TMS,III.3.3).
ص٢٢٩	حكاية ابتلاع الزلزال للصين مأخوذة من ([137] TMS, III. 3.4)
ص٢٣٠	"مشاعرنا السلبية تكاد تكون دائما دنيئة وأنانية" (TMS, III.3.4[137])
ص٢٣٢	"ما الذى يدفع الكريم فى كل المناسبات، والأنانى فى كثير منها" (TMS,III.3.4[137]).
ص٢٣٣	"إن الرجل الذى يكون صاحب أكمل فضيلة" ([52] TMS,III. 35)
ص٢٣٣	الصعوبات والأخطار والجروح وسوء الحظ" [153] TMS, III . 3.36

الفصل العشرون

ص٢٣٥	فكرة "التخيل الأخلاقى" وأهميته بالنسبة إلى الأعمال أصبحت سبيلا هاما للبحث. وتناول كينيث بولدنج Kenneth Boulding (١٩٦٩) فى خطابه الرئاسى للجمعية الاقتصادية الأمريكية بحث أهمية الاقتصاد

كعلم اخلاقى. انظر أيضا ويرهان (1999) Werhane.

ص٢٣٦ شخصية بيتر شين تقوم على أساس مايكل ميللر Michael Miller المؤسس المشارك ونائب رئيس لشركة إيفينستار Evenstar وقد تكرم مايكل بالسماح، باستخدام بعض من قصته وكلماته هنا. أما الاقتباسات الأخرى فقد كانت من حركة التحول التنظيمى فى الأعمال (انظر، على سبيل المثال، هوكين Hawken 1987). وفكرة أن الأعمال هى مغامرة فى التنمية البشرية جاءت من أوستربرج Osterberg (1993).

ص٢٤٠ إن المسئولية الاجتماعية للشركات قد تكون جيدة بالنسبة لمنشآت الأعمال، هى حجة نادت بها جماعة "الأعمال من أجل المسئولية الاجتماعية" (www.bsr.org) وفيفر Pfeffer (1994, 1998) وكثيرون آخرون. وإذا صدق هذا، فإنه لن يتعارض بالضرورة مع ما نادى به ميلتون فريدمان من أن المسئولية الاجتماعية للشركة هى تحقيق أقصى قدر من الأرباح لمساهميها – انظر كتاب فريدمان Friedman's Capitalism and Freedom (Chicago University Press, 1962) p. 133.

ص٢٤٤ يمكن الاطلاع على المعلومات الخاصة بثعالب الماء على موقع معهد مونترى للأحياء المائية (montereyaquarium. com) Monterey aquarium وعبارة "مأساة الأشياء الشائعة" أصبحت من العبارات المستخدمة شعبيا من خلال مقال كتبة جاريت هاردين Garrett Hardin تحت هذا العنوان في Science 162 (Dec. 13, 1968): 1243-8

ص٢٤٤ حصل رونالد كوز Ronald H. Coase على جائزة نوبل فى عام ١٩٩١ عن مقاله "مشكلة التكاليف الاجتماعية" "The Problem of Social Cost" Journal of Law and Economics 3 (1) (1960) : pp. 1-44. والذى شرح فيه أثر حقوق الملكية وتكاليف العمليات، على الأشياء الخارجية مثل التلوث. انظر أيضا الملاحظات على صفحة

٦٢ الفصل الخامس.

الفصل الحادى والعشرون

ص٢٤٧ إن الارتفاع المترنح لمنشآت الأعمال "دوت كوم" "dot.com" بوادى السيليكون إلى شكل فقاعة انفجرت في نهاية الأمر، يمكن تفسيره بعض الشيء من خلال أفكار آدم سميث. إذ إن المستثمرين قد لا يتصرفون طبقا للسلوك الرشيد الذى تتنبأ به بعض النماذج الاقتصادية، وهو ما لاحظه سميث عندما قال إن البشر لديهم قدرة عظيمة على خداع النفس، والذى هو مصدر نصف الاضطرابات فى الحياة البشرية "[158] TMS, III 4.6. انظر أيضا: Robert J. Shiller: Irrational Exuberance (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000).

ص٢٥٠ العميل يأتى أولا؟ ليس فى الواقع. فإن العامل يأتى أولا... وليس هناك طريقة لغرس أخلاق الخدمة الإيجابية للعميل قبل أن تجسد أخلاقا إيجابية للعامل. الاستجابة للداخل، تؤدى إلى الاستجابة للخارج" هذا الاقتباس جاء من كتاب بول هوكين عن تنمية منشأة الأعمال. Paul Hawken, Growing a Business, (New York, Simon & Schuster 1987) أعيدت طباعته بتصريح من سيمون وشوستر.

ص٢٥٥ القول بأن "العامل يعمل بشكل أفضل وبروح أفضل أكثر من العامل المبتئس والمثبط الهمة" هو إعادة صياغة لما ورد فى كتاب ثروة الأمم WN, I.viii.45[100-101]

ص٢٥٥ "الحكمة، والنزعة إلى، والعدالة.." TMS, IV.iii. 1.[23].

الفصل الثانى والعشرون

ص٢٦٠ "إن الشحاذ الذى يقف فى الشمس على قارعة الطريق السريع". TMS,IV.I.11[185].

ص٢٦١ إن الثقة تنبع من تقاسم القيم الأخلاقية، وقد كتب سميث أن أصحاب

	الأعمال يفضلون المحافظة على بقاء منشآت أعمالهم محلية، نظرا لأن الثقة تخفض تكلفة العمليات وتقلل المخاطر" إذ إنه يمكن (صاحب العمل) أن يعرف بشكل أفضل شخصية وأوضاع الأشخاص الذين يثق بهم" ([454] WN IV. Ii. 6) وللاطلاع على وجهة نظر حديثة انظر Fukuyama (1993).
ص٢٦٣	لعب كل من جارى بيكر (Gary S. Becker) [انظر أيضا الملاحظات على ص١١٦، الفصل ١١] وتيودور شولتز (Theodore W. Schultz) الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٧٩ أدوارا مهمة فى تطوير وقياس العائد على الاستثمار فى رأس المال البشرى. وقد حاول عدد من المنظمات توسيع بؤرة تركيز البحث الاقتصادي فى النواحى الاجتماعية والأخلاقية". وجمعية الاقتصاد الاجتماعي Association for Social Economics (ASE) من بين أقدم تلك الجمعيات، والتى مازالت تعمل منذ عام ١٩٤١. ويحدد دستور الجمعية (ASE)الاقتصاد الاجتماعى باعتباره العلاقات المتبادلة بين علم الاقتصاد والمسائل الأكثر اتساعا الخاصة بالكرامة الإنسانية، والقيم الأخلاقية، والفلسفة الاجتماعية. (Elliot 1996, pp. 15-28). وإحدى المنظمات الأحدث التى أنشئت أخيرا هى جمعية النهوض بالاقتصاد الاجتماعى Society for Advancement of Economics Socio - Economics (SASE) وتم تأسيسها عام ١٩٨٩.
ص٢٦٣	انظر J.S. Coleman, "Social Capital in the Creation of Human Capital" American Journal of Sociology, 94, (Suppl), 1988 pp. S95-S120.

الفصل الثالث والعشرون

ص٢٦٧	الدافع إلى الاكتشاف العملى هو "الاستغراب، والدهشة والإعجاب" طبقا لما يقوله سميث فى كتابه "مقالات فى الفلك" "Essays on Astronomy" EPS, Intro. 1p.33 وربما لم يعتبر سميث أن المعادلة

	التي اكتشفها ريتش – بينما كان في نزهته – شيئا غير عادى.
ص ٢٧٠	"قبل ثورة مستعمراتنا في أمريكا الشمالية" [WN, IV.iv.5[500. كان سميث يبحث عندئذ تجارة الطباق في مواضع مختلفة أخرى في كتاب ثروة الأمم (WN). وعلى سبيل المثال، لاحظ سميث أن بريطانيا كانت تشترى سنويا نحو ٩٦٠٠٠ برميلا كبيرا (Hogshead)(*) من الطباق من ولايتى فرجينيا وماريلاند، وكان الاستهلاك البريطاني يبلغ نحو ١٤٠٠٠ برميلا، مما يترك ٨٢.٠٠٠ برميلا لإعادة تصديرها إلى أوربا وتحقيق أرباح كبيرة للتجارة والبنوك من ورائها. ([WN.IIv.34[372-373). وكان التهريب هائلا في هذه التجارة، كما يروى ذلك فاى C.R.Fay, the World of Adam Smith, (New York: Augustus M. Kelley, 1966): pp. 42-47.
	وانظر أيضا الملاحظات على ص١٨٤ الفصل ١٨.
ص ٢٧٠	"... يباع الرجال والنساء والأطفال مثلما تباع قطعان البقر لأعلى سعر". (TMS, VII.ii.1.28) يتناول سميث هنا بحث العبودية، وكذلك في مواضع عديدة أخرى. ويلاحظ التناقض في معاملة العبيد بشكل أفضل في الدول ذات النظم السلطوية، عن معاملتهم في الجمهوريات الحرة [WN, IVvii.b. 54-55[586588.
ص ٢٧١	"الإنسان محكما فوريا على البشرية.." ([TMS, 3.2.31[130).
ص ٢٧١	"لو لم يكن الله موجودا كان سيصبح اختراعه ضروريا" مأخوذ عن
ص ٢٧١	فونتير، من رسالة إلى مؤلف كتاب" المحتالين الثلاثة The Three Imposters.
ص ٢٧١	"إن الأمل المتواضع وتوقع الحياة الآتية..." [TMS, 3.2.33 [132. على الرغم من تلك البلاغة الوردية الرائعة، فإن معظم الدارسين لا يعتقدون أن سميث كان متمسكا بوجهة نظر المسيحية الأرثوذكسية

(*) Hogshead برميل كبير تتراوح سعته بين ٦٣ إلى ١٤٠ جالونا يستخدم في نقل البضائع. الجالون الامريكي = ٣.٧٨٥ لتر/ الجالون البريطاني = ٤.٥٤٦ لتر (المترجم).

	من ناحية الحياة الأخرة (Ross.1995,p.406). كما كان سميث ممن ينتقدون الديانة المنظمة (خاصة كنيسة روما)، وكان يحتج بأن الميزة التاريخية والسلطة الدينية للكهنة تضع مصالحهم الشخصية فى تعارض مع "الحرية والعقل والسعادة" (WN,V.i.9.24[803]) وربما كان سميث مثل فولتير وكثيرين آخرون من دعاة التنوير من الربوبيين(*)، ولكن هيوم كان ملحداً.
ص٢٧١	"من خلال العمل طبقا لأوامر قدراتنا الأخلاقية" (TMS III. 5.7[166]).
ص٢٧١	"إننا نستخدم عقولنا لاكتشاف النتائج البعيدة لأعمالنا" موجود فى كتاب نظرية المشاعر الأخلاقية [189] .TMS IV. A.6.
ص٢٧٢	إن الحكمة... عندما توجه لرعاية ثروة المرء فقط .TMS,Vii.14[216]
ص٢٧٢	إن الحقيقة والعدالة لا تبتهجان لمجرد أنك أصبحت غنيًا. .TMS,III.5.8[166]
ص٢٧٢	"إن الحكمة العليا هي أفضل رأس موصولة بأفضل قلب". .TMS,VI.i.14[216]
ص٢٧٣	"الحكمة التامة والفضيلة التامة" TMS, Vii.14[216].
ص٢٧٩	"إن علماء الرياضيات بدون ضمائر" كان هذا انتقاد ماكس ديس للتعليم العالي فى الاقتصاد، الذى تدعمه بدرجة ما، لجنة التعليم العالى الخاصة بجمعية الاقتصاد الأمريكى، التى حذرت بأن البرامج كانت تخرج كثيرا جدًا من الموظفين الأغبياء، المهرة فى الأساليب، والسذّج فيما يتعلق بالموضوعات الاقتصادية الحقيقية" (Anne O.Kruger et al., "Report of Commission on Graduate Education in Economics" Journal of Economic Literature 29 (3) 1991, p. 1044-1045). قد يرغب بعض القراء المهتمين

(*) الربوبيون Deists أتباع مذهب الربوبية Deism الذى يدعو إلى الإيمان بالله بغير اعتقاد فى الديانات السماوية. (المترجم).

بالموضوع فى الاطلاع أيضا على آراء نقدية لعديد من المؤلفين الآخرين ذوى الآراء النافذة والخبرة: Blaug (1998) وكل من Heilbronerand Milberg (1996). وربما كانت لهذه الانتقادات آثار مفيدة على المواد والمنهجيات التى يجرى تعليمها حاليا فى برامج الدراسات العليا للاقتصاد طبقا لما ذكره Colander (2000). انظر الملاحظات على ص٤٣ الفصل ٤ وص٦٢، الفصل ٥ للاطلاع على تعليقات إضافية على التعليم العالي للاقتصاد.

ص٢٨٠ للاطلاع على بحث فى الجريمة المنظمة، انظر الملاحظات على ص١٠٩ الفصل ٨.

الفصل الخامس والعشرون

ص٢٨٧ منظمة التجارة العالمية The World Trade organization (WTO) بدأت عملها فى عام ١٩٩٥ للإشراف على اتفاقيات التجارة الدولية وحل النزاعات التجارية. ومنظمة التجارة العالمية WTO أكثر قوة من المنظمة التى سبقتها، وهى منظمة الجات(GATT) General Agreement on Tariffs and Trade. وقد قدمت الجات آلية للمفاوضات التجارية متعددة الأطراف فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. كما يقوم البنك الدولى، باستخدام رأس المال الذى قدمته الدول الأعضاء، لتدبير أموال فى أسواق رأس المال العالمية ويقدمها فى شكل قروض لمشروعات التنمية. وغالبا ما يعمل البنك الدولي وصندوق النقد الدولى IMF معًا لوضع الشروط الاقتصادية لإعادة الهيكلة قبل تقديم القروض. انظر أيضا الملاحظات على ص٢٩ الفصل ٢.

ص٢٨٨ "توجيه اللوم إلى صندوق النقد الدولي بسبب الفقر" هو إعادة صياغة لعبارة قالها مايكل مور Michael Moore، المدير العام لمنظمة التجارة العالمية، وتم اقتباسها فيما قاله مارتن كروستنجر Martin Crustinger "إن صندوق النقد الدولى يخصص مبالغ أكثر لتخفيف

	الديون على الدول الأكثر فقرا" الإثنين ١٧ ابريل ٢٠٠٠ فى تصريح للأسوشييتدبرس (The Associated Press, Seattlep -i- nwsource. com/national/meet 17. shtmal. accessed April 14, 2001) تمت إعادة طباعته بتصريح من الأسوشيتدبريس.
ص٢٩٠	القول بإن القرن التاسع عشر كان أكثر عولمة من القرن العشرين هو وجهة نظر يتمسك بها كثير من الاقتصاديين وتؤيدها إحصاءات عديدة وللاطلاع على بحوث إضافية يرجى الرجوع إلى ستريتن Streeten (2001).
ص٢٩١	القانون الانجليزى لحقوق المواطن. أصدره البرلمان فى عام ١٦٨٩. وضم إعلان الحقوق ، التى حدَّت من سلطات الحكومة.
ص٢٩٢	لإيقاف انتقادات المستهلكين، تقوم كثير من الشركات متعددة الجنسيات باستخدام المنظمات غير الحكومية (NGO's) كى تصدِّق على اتباعها لمعايير العمالة والبيئة الواجبة فى عملياتها عبر البحار. أما القول بإن هذا الإجراء قد أنتج بعض الآثار السلبية فهو من أفكار وضعها أوتاواى (2001) Ottaway.
ص٢٩٣	"فى السباق نحو الثروة والامتيازات.. قد يجرى الإنسان بشدة وبأكثر مما تمكنه قدرته" TMS,II.ii.2.1[83] التأكيد مضاف.
ص٢٩٤	إن فكرة أن الرأسمالية الناجحة تتطلب توجيه الاهتمام إلى التنمية المؤسسية وإلى نظام قانونى ولائحى قد تمت الإشارة إليها بشكل موسع فى الكتابات الأكاديمية. وينادى آدم سميث مثلا، بأن أصحاب العمل لا يحتمل كثيرا أن يتمكنوا من المشاركة فى وضع اللوائح التنظيمية، وأنه "عندما تكون اللوائح تمثل دعما للعامل، فإنها دائما ما تكون عادلة ومنصفة". (WN.I.x.c.61[157-158]).
ص٢٩٥	بالنسبة للموضوع الأكثر اتساعا الخاص بكيفية مساعدة المؤسسات لتنمية السوق، انظر تقرير البنك الدولى عن التنمية فى العالم لعام ٢٠٠٢.

- The World Bank, The World Development Report 2002: Building Institutions for Markets (NY: Oxford University Press, 2002).

وكذلك خطاب آلان جرينسبان، محافظ Alan greenspan speech الاحتياطي الفيدرالي "The Virtues Of Market Economies: June 10, 1997 (available online at the Federal Reserve Board).

ص٢٩٦	حصل جيمس توبين James Tobin على جائزة نوبل في عام ١٩٨١ وأصبحت معادلة نظريته q Theory، تقوم بأخذ معدل القيمة السوقية لشركة ما منسوبا إلى تكاليف إعادة إنشائها.
ص٢٩٧	"إن الطمع الدنيء... للتجار والصناع" WN, IViii.c.9[492].
ص٢٩٧	"إلا أن حديثهم ينتهي بمؤامرة يحيكونها ضد الشعب..." WN, I.x.c.27[145]

الفصل السادس والعشرون

ص٢٩٩	"إن العلم يتقدم نتيجة لجنازة تتبعها جنازة بعد جنازة" هو إعادة صياغة لفقرة مقتبسة ينسبها ستانلي فيشر إلى بول صامويلسون، في مقال له Samuelson's Economics at Fifty: Remarks on the Occasion of the Anniversary of Publication," Journal of Economic Education, 30 (4) fall (1999):363. والفقرة قد تكون أيضا إعادة صياغة لعالم الفيزياء ماكس إرنست Max Ernst

ص٣٠١	نحن أطفال التنوير: .. من كتاب شارل ل. جريسوالد Charles L. Griswald "Adam Smith and the Virtues of Enligltenment" (Cambridge: Cambridge University Press, 1999): p.2. أعيدت طباعته بتصريح من مطبعة جامعة كامبريدج.

(ج)

دليل إرشادى للأدبيات والكتابات

الأعمال المجمعة لآدم سميث

قامت جامعة جلاسجو بتنفيذ طباعة ونشر مجموعة محددة من أعمال ومراسلات آدم سميث. احتفالا بمرور مائتى سنة على صدور كتاب ثروة الأمم The Wealth of Nations وذلك فى عام ١٩٧٦. وقد تم نشر "طبعات جلاسجو" والمجلدات المصاحبة لها فى غلاف سميك فى خلال الفترة من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٣ من مطبعة جامعة أوكسفورد، وهذه الطبعات تعتبر بداية طبيعية لأى دارس وباحث مهتم بالموضوع. وتمت بعد ذلك إتاحة الكتب الستة فى غلاف عادى جيد من جانب Liberty Fund، (انديا نابوليس)، ولم يصدر فى أثناء حياة أدم سميث سوى الكتابين الأولين (كما هو موضوع فى التواريخ المبينة فى الأقواس). والكتب الستة من طبعات جلاسجو ومختصراتها هى:

TMS "نظرية المشاعر الأخلاقية" The Theory of Moral Sentiments عام ١٩٧٦ [١٧٥٩]. المحرران د.د. رافاييل وأ.ل. ماكفى D.D.Raphael and A.L. Macfie وقد راجع سميث بنفسه الطبعة السادسة من الكتاب التى صدرت قبل وفاته ببضعة أسابيع عام ١٧٩٠.

WN "بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم" An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations عام ١٩٧٦ [١٧٧٦] فى مجلدين المحرران: ر.هـ. كامبل R.H.Campbell وأ.س. سكينر A.S.Skinner. وقد صدر الكتاب أربع مرات فى أثناء حياة سميث وظهرت أخر طبعة عام ١٧٨٦.

EPS "مقالات فى موضوعات فلسفية" [1795] 1980 "Essays on Philosophical Subjects,"

المحرران: وايتمان وجي برايس. W.P.D. Wightman and J.C. Bryce

تم نشر هذا الكتاب بعد وفاة آدم سميث فى ١٧٩٥، ويحتوى على عدد من من المقالات الهامة التى كتبها سميث عن العلوم والفنون والميتافيزيقيا، وأهم

المقالات هى "مقالة عن الفلك". كما يضم أيضًا سيرة حياة ممتعة معاصرة عن آدم سميث بقلم دوجالد ستيوارت.

."Dugald Stewart, Account of the Life & Writings of Adam Smith

LRBL "محاضرات فى البلاغة والآداب الرفيعة"

Lectures on Rhetoric and Belles Lettres, 1983 (1963)

المحررون: ر.ميك ورافاييل وستاين R.L.Meek, D.D.Raphael and P.G. Stein هذا الكتاب عبارة عن ملاحظات أحد الطلبة على المحاضرات التى كان يلقيها آدم سميث فى جامعة جلاسجو.

LJ آدم سميث فى جامعة جلاسجو.

محاضرات فى فلسفة التشريع Lectures on Jurisprudence, 1978 [1896/1978]

المحررون: ر.ميك، د.رافاييل، وب. ستاين R.L.Meek, D.D.Raphael & P.G. stein هذه عبارة عن مجموعتين من ملاحظات الطلبة على المحاضرات التى كان يلقيها آدم سميث فى جامعة جلاسجو

CORR "مراسلات آدم سميث" Correspondence of Adam Smith, 1977

المحرران: إرنست كامبل موسنر ويان سمبسون روس Ernest Campbell Mossner and Ian Simpson Ross . وبالإضافة إلى الخطابات يضم هذا المجلد مستندات هامة مثل مذكرة سميث عن ثورة المستعمرات الأمريكية.

ويحتفظ صندوق الحرية Liberty Fund بمكتبة الكترونية ممتازة عن كتابي سميث "ثروة الأمم WN" ونظرية المشاعر الأخلاقية TMS" وهو ما يسهل البحث عن الموضوعات أو الجملwww.econlib.org . وبالنسبة لأولئك الذين يودون مجرد تذوق كتابات سميث، هناك خيارات عديدة أخرى. أولا: يمكن متابعة الجزء الخاص بالملاحظات التوضيحية فى هذا الكتاب لتحديد بعض الفقرات الممتعة المثيرة للجدل من كتابات سميث. وهناك عديد من الكتب الأخرى التى نورد نبذًا مقتبسة.

Heilbroner, Robert L. 1986. *The Essential Adam Smith* (New York: W.W. Norton and Co.).

Heilbroner, Robert L. 1996. *Teachings from the Worldly Philosophy* (New York: W.W. Norton and Co.).

Ryan, Edward W. 1990. *In the Words of Adam Smith: The First Consumer Advocate* (Sun Lakes, AZ: Thomas Horton and Daughters).

سيرة حياة آدم سميث

- Ross, Ian Simpson. 1995. *The Life of Adam Smith* (Oxford: Clarendon Press, 1995).
  - هذه إحدى السير الحديثة بالكامل.
- Rae, John. 1895. *Life of Adam Smith*. كانت هذه هى السيرة النمطية عن آدم سميث فى خلال فترة بلغت مائة عام.
- Stewart, Dugald. 1795. "Account of the Life and Writings of Adam Smith, LL.D." هذه السيرة القصيرة والمتعة فى قراءتها موجودة فى الكتاب الذى نشر بعد وفاة آدم سميث *Essays on Philosophical Subjects*، وتمثل الجزء الثالث من طبعة جلاسجو لهذا الكتاب لأنظر أعلاه
- Muller, Jerry. 1993. *Adam Smith: In His Time and Ours* (Princeton, NJ: Princeton University Press). هذه قصة رائعة عن الزمن الذى كان سميث يكتب فيه
- Heilbroner, Robert L. 1986. *The Worldly Philosophers: The Lives, Times, and Ideas of the Great Economic Thinkers*, sixth edition (New York: Touchstone Books, 1986).
  - للإطلاع على مقدمة قصيرة من حياة سميث وعصره، يستحسن قراءة هذا الكتاب.

بحوث ودراسات مختارة عن آدم سميث

البحوث والدراسات عن آدم سميث كثيرة وكبيرة الحجم ولا يبدو أن لها نهاية. وفى الفترة من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٩٧ فقط كتبت نحو ٣٠٠٠ مقالة فى الصحف. ذكرت فيها كتابات آدم سميث. وفى المتوسط، تكتب مقالات لا تقل عن المائتين يظهر فيها اسم

أدم سميث أو كتبه سنويا (Wight 2000). والمقالات والكتب الحديثة عن سميث تشمل الفروع الأكاديمية: الأعمال، والاقتصاد والقانون ، والعلوم السياسية والفلسفة وعلم النفس والسياسة العامة وعلم الاجتماع – التى مازال سميث يمكنه أن يقدم الضوء فى مساراتها.

والمؤلفات الواردة فيما بعد (لها فائدتها فى استكشاف سميث الإنسان، ومكانته فى الاقتصاد والعلوم الاجتماعية. وهناك كثير من الكتب والمقالات الرائعة التى تستحق الذكر ولكن ضيق المقام منعنا من إيرادها. والعناصر التى تحمل النجمة(*) تشير إلى الاستعراضات الخاصة بالكتابات أو التقييمات لأدم سميث والتى تتضمن مصادر إضافية عنه.

*Black. R.D. Collison. 1995 [1976]. "Smith's Contribution in Historical Perspective," in Mark Perlman and Mark Blaug, eds., *Economic Theory and Policy in Context: The Selected Essays of R. D. Collison Black* (Aldershot, UK: Edward Elgar).

*Brown, Vivienne. 1997. "'Mere Inventions of the Imagination': A Survey of Recent Literature on Adam Smith," *Economics and Philosophy, 13*(2) (October): 281–312.

Brown, Vivienne. 1994. *Adam Smith's Discourse: Canonicity, Commerce, and Conscience.* (London: Routledge)

Fitzgibbons, Athol. 1995. *Adam Smith System of Liberty, Wealth, and Virtue: The Moral and Political Foundations of the Wealth of Nations* (NY: Oxford University Press).

*Fry, Michaël (ed.). 1992. *Adam Smith's Legacy: His Place in the Development of Modern Economics*, (London: Routledge) pp. 1–14.

Gramp. William D. 2000. "What Did Smith Mean by the Invisible Hand?" *Journal of Political Economy, 108*(3), pp. 441–

Griswald, Charles L. 1999. *Adam Smith and the Virtues of Enlightenment* (Cambridge: Cambridge University Press).

Iutchinson, Terence. 1988. *Before Adam Smith: The Emergence of Political Economy, 1662–1776* (New York: Basil Blackwell).

Iuller, Jerry Z. 1993. *Adam Smith in His Time and Ours: Designing the Decent Society* (New York: The Free Press).

Recktenwald, Horst Claus. 1978. "An Adam Smith Renaissance anno 1976? The Bicentenary Output—A Reappraisal of His Scholarship," *Journal of Economic Literature 16*(1), 56–83.

Rothschild, Emma. 2001. *Economic Sentiments: Adam Smith, Condorcet and the Enlightenment* (Cambridge, MA: Harvard University Press).

Skinner, Andrew S. 1996. *A System of Social Science: Papers Relating to Adam Smith*, second edition (Oxford: Clarendon Press). This is an outstanding collection of essays by one of the leading experts on Smith.

Tribe, Keith. 1999. "Adam Smith: Critical Theorist?" *Journal of Economic Literature, 27*(2): 609–32.

Viner, Jacob. 1960. "The Intellectual History of Laissez Faire," *Journal of Law and Economics* 3: pp. 45–69.

Viner, Jacob. 1928. "Adam Smith and Laissez Faire," in J.M. Clark et al., *Adam Smith, 1776–1926* (Chicago: University of Chicago).

Werhane, Patricia H. 1991. *Adam Smith and His Legacy for Modern Capitalism* (New York: Oxford University Press).

West, Edwin G. 1990. *Adam Smith and Modern Economics: From Market Behavior to Public Choice* (Brookfield, VT: Edward Elgar).

West, Edwin G. 1988. "Developments in the Literature on Adam Smith: An Evaluative Survey," in William O. Thweatt,, ed., *Classical Political Economy: A Survey of Recent Literature* (Kluwer Academic Press, 1988): 13–43.

West, Edwin G. 1978. "Scotland's Resurgent Economist: A Survey of the New Literature on Adam Smith," *Southern Economic Journal, 45*(2) (October): 343–69.

*Wight, Jonathan B. 2002. "The Rise of Adam Smith: Articles and Citations, 1970–97" *History of Political Economy* (forthcoming, Spring).

Wight, Jonathan B. 1999. "Will the Real Adam Smith Please Stand Up? Teaching Social Economics in the Principles Course," in Edward J. O'Boyle (Ed.), *Teaching the Social Economics Way of Thinking*, Mellen Studies in Economics, Vol. 4 (Lewiston, NY: The Edwin Mellen Press): 117–139.

Young, Jeffrey T. 1997. *Economics As a Moral Science: The Political Economy of Adam Smith* (Cheltenham, UK: Edward Elgar).

Young, Jeffrey T. and Barry Gordon. 1996. "Distributive Justice as a Normative Criterion in Adam Smith's Political Economy," *History of Political Economy*, *28*(1): 1–25.

الاقتصاد كعلم "اجتماعي" أو "فلسفي" أو "أخلاقي"

نورد فيما يلي الكتب والمقالات التي تتناول بشكل عريض الاقتصاد كعلم اجتماع أو فلسفي أو أخلاقي. كما تتضمن القائمة أيضا الانتقادات المتعلقة بالاقتصاد الرسمي الشامل والعناصر المتعلقة بعلم النفس والأحياء.

Ben-Ner, Avner and Louis G. Putterman (Eds.). 1998. *Economics, Values, and Organization* (New York: Cambridge University Press).

Ben-Ner and Louis Putterman. 2000. "Values Matter," *World Economics* 1(1) (January-March): 39–60.

Blaug, Mark. 1998. "Disturbing Currents in Modern Economics," *Challenge* (May–June).

Boulding, Kenneth E. 1969. "Economics as a Moral Science," *American Economic Review*, *59*(1): 1–12.

Brittan, Samuel and Alan Hamlin, Eds. 1995. *Market Capitalism and Moral Values* (Brookfield, VT: Edward Elgar).

Brockway, George P. 1991. *The End of Economic Man: Principles of Any Future Economics* (New York: Harper and Row).

Colander, David. 2000. "New Millenium Economics: How Did It Get This Way, and What Way is It?" *Journal of Economic Perspectives, 14*(1) (Winter): 121–132.

Coleman, J. S. (1988). "Social Capital in the Creation of Human Capital," *American Journal of Sociology, 94* (Suppl.), S95–S120.

Coughlin, Richard M. (ed.). 1991. *Morality, Rationality, and Efficiency: New Perspectives on Socio-Economics*. (Armonk, NY: M.E. Sharpe, Inc.)

Dawkins, Richard. 1990. *The Selfish Gene* (Oxford: Oxford University Press).

Ekins, Paul, ed. 1986. *The Living Economy: A New Economics in the Making* (London: Routledge).

Elliott, John E. 1996. "Can Neoclassical Economics Become Social Economics?" *Forum for Social Economics, 26*(1) (Fall): pp. 15–38).

Elster, Jon. 1989. *The Cement of Society: A Study of Social Order* (Cambridge: Cambridge University Press).

Etzioni, Amitai. 1988. *The Moral Dimension: Toward a New Economics* (New York: The Free Press).

Flexnor, Kurt F. 1989. *The Enlightened Society: The Economy with a Human Face* (Lexington).

Frank, Robert H. 1996. "Do Economists Make Bad Citizens?" *Journal of Economic Perspectives, 10*(Winter): 187–192.

Frank, Robert H. 1988. *Passions Within Reason: The Strategic Role of the Emotions* (New York: Norton).

Frank, Robert H. 1987. "If Homo Economicus Could Choose His Own Utility Function, Would He Want One with a Conscience?" *American Economic Review, 77*(4) (September): 593–604.

Frank, Robert H., Thomas D. Gilovich, and Dennis T. Regan. 1993. "Does Studying Economics Inhibit Cooperation?" *Journal of Economic Perspectives, 7*(Spring): 159–171.

McCloskey, Donald. 1994. "Bourgeoise Virtue," *American Scholar, 63*(2) (Spring): 177–191.

McKee, Arnold F. 1987. *Economics and the Christian Mind* (New York: Vantage Press).

Myers, Milton. 1983. *The Soul of Modern Economic Man: Ideas of Self-Interest* (Chicago: Chicago University Press).

Nelson, Robert H. 1991. *Reaching for Heaven on Earth: The Theological Meaning of Economics* (Savage, MD: Roman and Littlefield).

Phelps, E. S. 1973. Introduction to *Altruism, Morality, and Economic Theory* (New York: Russel Sage Foundation).

Piore, Michael. 1995. *Beyond Individualism* (Cambridge: Harvard University Press).

Powelson, John P. 1998. *The Moral Economy* (Ann Arbor: University of Michigan Press).

Putnam, R. D. (1993). "The Prosperous Community: Social Capital and Public Life," *American Prospect, 13* (Spring): 35–42.

Putnam, R. D. (1995). "Bowling Alone: America's Declining Social Capital," *Journal of Democracy*, 6(1): 65–78.

Rabin, Matthew. 1998. "Psychology and Economics," *Journal of Economic Literature, 36*(1): 11–46.

Sen, Amartya. 1987. *On Ethics and Economics.* (Oxford: Blackwell).

Swedberg, Richard. 1987. *Economic Sociology* (London: Sage).

Wilson, James Q. 1993. *The Moral Sense* (NY: The Free Press).

النموذج الجديد والتحول فى الأعمال:

الكتب الواردة فيما يلي تتناول الاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية فى الأعمال. ومعظمها (وليست كلها) من تأليف كتاب وقادة في مجال الأعمال ممن يؤيدون وجهة نظر النموذج الجديد للتحول التنظيمي، إلا أنه قد يكون من الخطأ تصنيف هذه الكتابات. وهى تستدعى وتثير نطاقا واسعا من الآراء ووجهات النظر، والتى قد يتناقص كثير منها مع بعضه بعضًا.

Adams, John D., ed. 1984. *Transforming Work: A Collection of Organizational Transformation Readings* (Alexandria, VA: Miles River Press).

Arrow, K. J., (1993). "Social Responsibility and Economic Efficiency," in T. Donaldson & P. H. Werhane, eds., *Ethical Issues in Business* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall): pp. 255–266.

Blanchard, Kenneth, et al. 1997. *Managing by Values* (San Francisco: Berrett-Koehler).

Block, Peter. 1993. *Stewardship: Choosing Service over Self-Interest* (San Francisco: Berrett-Koehler).

Bolman, Lee G., and Terrence E. Deal. 1995. *Leading with Soul: An Uncommon Journey of Spirit* (New York: Jossey-Bass).

Bracey, Hyler, et al. 1993. *Managing from the Heart* (Atlanta, GA: Heart Enterprise).

Chappel, Tom. 1994. *The Soul of a Business: Managing for Profit and the Common Good* (New York: Bantam).

Dehler, Gordon E. and M. Ann Welsh. 1994. "Spirituality and Organizational Transformation," *Journal of Managerial Psychology*, 9(6): 17–26.

Gioia, Joyce L., and Roger E. Herman. 1998. *Lean and Meaningful: A New Culture for Corporate America*. (Oakhill Press).

Harman, Willis, and Maya Porter, eds. 1997. *The New Business of Business: Sharing Responsibility for a Positive Global Future* (San Francisco: Berrett-Koehler).

Hawken, Paul. 1987. *Growing a Business* (New York: Simon and Schuster).

McCormick, Donald W. 1994. "Spirituality and Management," *Journal of Managerial Psychology*, 9(6): 5–8.

Morris, Tom. 1997. *If Aristotle Ran General Motors: The New Soul of Business* (Henry Holt and Company).

Österberg, Rolf. 1993. *Corporate Renaissance: Business as an Adventure in Human Development* (Mill Valley, CA: Nataraj Publishing).

Peale, Norman Vincent, Kenneth Blanchard, and Norman Peale. 1996. *The Power of Ethical Management* (New York: Ballantine).

Pfeffer, Jeffrey. 1998. *The Human Equation: Building Profits by Putting People First* (Cambridge, MA: Harvard University Press).

Pfeffer, Jeffrey. 1994. *Competitive Advantage through People* (Cambridge, MA: Harvard University Press).

Ray, Michael and John Renesch. 1994. *The New Entrepreneurs: Business Visionaries for the 21st Century* (San Francisco: Sterling and Stone).

Ray, Michael and Alan Rinzler, eds. 1993. *The New Paradigm in Business: Emerging Strategies for Leadership and Organizational Change* (New York: Tarcher/Perigee).

Werhane, Patricia. 1999. *Moral Imagination and Management Decision-Making* (New York: Oxford University Press).

موضوعات الاقتصاد الدولى والمؤسسات الدولية

الكتابات الواردة فيما بعد تساعد فى تقديم مجال لرد الفعل المضاد للعولمة والذى يبرز فى المظاهرات والمعارضة والاحتجاجات السلمية وفى الأعمال العنيفة أيضًا. ونورد الكتابات مرتبة حسب الموضوعات ابتداء من الآراء ووجهات النظر العامة أولا. وتتضمن القائمة وجهة نظر كلا الجانبين.

Micklethwait, John, and Adrian Wooldridge. 2000. *A Future Perfect: The Essentials of Globalization* (New York: Crown). This is an excellent overview of globalization by two journalist for *The Economist* magazine.

Streeten, Paul. 2001. "Integration, Interdependence, and Globalization," *Finance and Development, 38*(2) (June): 34–37. This article explains the relative level of globalization today as compared to 100 years ago.

Roberts, Russell. 2001. *The Choice: A Fable of Free Trade and Protectionism*, 2nd edition, (Upper Saddle River, NJ: Prentice-Hall). This provides an excellent overview of David Ricardo's theory of comparative advantage in the format of an academic novel.

Krueger, Anne O. 1998. "Whither the World Bank and the IMF?" *Journal of Economic Literature, 36*(4): 1983–2020. An insider's view of the role of two major multilateral financial institutions, the World Bank and the International Monetary Fund (IMF).

Stiglitz, Joseph. 2000. "The Insider: What I Learned at the World Economic Crisis," *The New Republic* (April 17): 56–60.

Fischer, Stanley. 1998. "The Asian Crisis and the Changing Role of the IMF," *Finance and Development, 35*(2) (June).

Danaher, Kevin, ed. 2001. *Democratizing the Global Economy: The Battle Against the World Bank and the International Monetary Fund* (Monroe, ME: Common Courage Press). For views strongly opposed to the World Bank and IMF, see this book and the Web site "50 Years Is Enough: U.S. Network for Global Economic Justice," (*www.50years.org/*) which is a coalition of some two-hundred organizations working to transform or eliminate the World Bank and the IMF.

Ottaway, Marina. 2001. "Reluctant Missionaries," *Foreign Policy* (July/August 2001): 44–54. This article argues that imposing on multinationals to advance environmental or human rights agendas creates its own set of problems.

المقالات والكتب الواردة فيما يلى كانت ذات فائدة وساعدت فى وضع سميث فى نطاق التاريخ الفكرى لعصره.

Commager, Henry Steele. 1977. *The Empire of Reason* (New York: Anchor Press).

Gay, Peter. 1966. *Age of Enlightenment* (New York: Time Incorporated).

Lukes, Steven. 1995. *The Curious Enlightenment of Professor Caritat* (London: Verso).

Tarnas, Richard. 1991. *The Passion of the Western Mind: Understanding the Ideas that have Shaped Our World View* (New York: Ballantine).

Wheelwright, Philip. 1959. *A Critical Introduction to Ethics* (New York: Odyssey Press).

Wilson, Arthur M. 1972. *Diderot* (New York: Oxford University Press).

Winwar, Frances. 1961. *Jean-Jacques Rousseau: Conscience of An Era* (New York: Random House).

(د)

دليل إرشادى للمعلمين

يتحدث كتاب " إنقاذ آدم سميث عن موضوعات معاصرة تجرى تغطيتها فى عديد من مختلف المناهج الدراسية فى الاقتصاد، والأعمال والفلسفة، والفروع المتعلقة بها. ويتناول الكتاب، بصفة خاصة، النظريات الاقتصادية وأخلاقيات الأعمال، فى نطاق أمثلة وتطبيقات عملية، مناسبة لكل من المبادئ والمناهج المتقدمة، فى الموضوعات التالية:

خلق الثروة والتجارة:

- تكلفة الفرصة.
- تخصص العمالة.
- مكاسب التجارة.
- العوائد (الغلة) المتناقصة.
- دور الأسعار والأرباح فى تخصيص الموارد.
- "اليد الخفية".
- تكوين وتشكيل رأس المال البشرى.
- الإدخار والتراكم الرأسمالى.

إخفاق السوق ودور الدولة

- الاحتكار.
- السلع العامة، مثل التعليم العام والطرق السريعة.
- الأخطار المعنوية.
- فشل الحكومة.
- مأساة المشاع [الملكيات الشائعة].

الإصلاح الهيكلي فى الأسواق الصاعدة

- التثبيت، والتحرير ، وخصخصة الأسواق.
- عدم المساواة فى الإصلاح الهيكلي.
- ظهور حكومات القلة فى أمريكا اللاتينية وروسيا وغيرها.
- التنمية المستدامة.
- الفساد.

الأسس الأخلاقية للرأسمالية

- هل الثروة هى مصدر السعادة؟
- التنوير كأساس للديمقراطية والرأسمالية.
- دور العدالة كمتطلب سابق للتنمية المستدامة.
- التمييز بين المصلحة الذاتية والأنانية.
- كيفية تنمية الضمير الأخلاقي: "المتفرج غير المحتيز" لسميث.
- دور "اليد الخفية" فى الأسواق والأخلاق.

إدارة الأعمال والأخلاق

- دور القيم فى إدارة الأعمال.
- آدم سميث وتنمية الموارد البشرية.
- التحول التنظيمي.
- دور رأس المال الاجتماعي والثقة فى الإنتاج.
- برامج اعتماد العمالة والبيئة فى التجارة الدولية.

(هـ)

عرفان وتقدير

يقف آدم سميث على قمة هذا الجهد، مطاولاً ومرتفعًا عن أى شخص آخر من ذوى الصلة بهذا الكتاب. ولو لم تكن هناك سرعة البديهة والحكمة والأفكار المتعمقة اللانهائية التى تدفقت من قلمه منذ مائتى عام مضت، لما كان لدى كتاب. إن تنامى إعجابي به وعاطفتي نحوه كان مبعثها أعماله البليغة والعميقة، والتى جعلت من كتابة "إنقاذ آدم سميث" عملا ممتعا وحبيبًا إلى النفس. أما الدين الكبير الثانى فإننى أدين به لجمع غفير من العلماء والدارسين المحدثين الذين قاموا على مدار الأعوام الثلاثين الماضية بإجراء تحويل أساسي وعميق فى معرفتنا وتقديرنا لآدم سميث، وجعلوا كتاباته قريبة منا ومن أفهام المحدثين من القراء [انظر الدليل الإرشادى للأدبيات].

وقد كان إنتاج وإخراج هذه الرواية نتيجة جهد تعاونى وثيق: ضم بالفعل مئات من الطلبة، وعشرات من الزملاء، والأصدقاء، وأعضاء الأسرة الذين كانوا يقرأون المسودات الأولى ويقترحون تحسينات كبيرة وصغيرة هنا وهناك. ومع ذلك فإن كافة الأخطار تظل مستوليتى بمفردى. وقد استعملت مسودات الكتاب فى تدريس مبادئ الاقتصاد، والتنمية الاقتصادية، ودراسات ماجستير إدارة الأعمال في مادة الاقتصاد الدولى. وأوجه شكري العميق إلى كل أولئك الطلبة الذين شاركوا فى هذا الجهد، وأخص بالشكر رودريجو بينتو، وجيسون سافيدوف، وجيسون فارلى، ودان جيرتساكوف، وبراندت يورتجال، وفاتياس ساكردوت، وأندرو أولسون.

كما قام عدد كبير من الزملاء في جامعة ريتشموند وغيرها بدورهم فى تعريفي بموضوعات تراوحت بين التنوير والنموذج الجديد للأعمال. وكان من بين من ساعدونى بصفة خاصة كلارنس يونج، وإريك كرافت، وتيدلويللن، وجون تريدواى، وسكوت دافيس، وتوم بينفيليو، وريتشارد كوجلان. وقدم لي أندريا مانيشى تشجيعا كبيرا، كما قام باتصالات ساعدتنى فى ميدان تاريخ الفكر، كما أن بيل ثيووات، أول من علمني فى هذا المجال، كان يوحى إلى بمدى المتعة والإثارة التى سيكون عليها الموضوع. وقدمت ماريا

ميريك آراء متعمقة عن دافيدهيوم، وأعطتني جوان سيلولا نصيحةً مفيدة عن نشر الكتاب، وقام العميدان راندولف نيو، ودافيد ليرى بتمويل القراءات الجماعية في الكلية عن آدم سميث. أما العميد كارين نيومان فقد أيد المجهود بطرق مختلفة، بما في ذلك تغطية تكاليف البحوث من ناحية النسخ والسفر، وغير ذلك من التكاليف الثابتة. وقدمت سوهوبفنسبرجر، التي تدير الموضوعات الإدارية، فساعدات جميلة في كافة مراحل إعداد المخطوط.

ولعب دارسو آدم سميث دورا حاسما كمراجعين خارجيين. وشملت هذه المجموعة جيفري يونج، وجيري موللر، وباتريشيا ويرهان. وقد تكرم أندرو سكينر، بالعمل كمراجع غير رسمي. وبتقديم اقتراحات مفيدة مثلما قام جيمس هالتمان بنفس الدور. كذلك قدم جون (مورت) مورتون وبيتر داورتي تشجيعًا قويا وأنا مدين لكل هؤلاء بدين عظيم. ومن مجتمع الأعمال قدم كل من رولف أوستربرج، ومايكل ميللر (أنظر أيضا الملاحظات على صفحة ٢٠٥ الفصل العشرون) آراء متعمقة عما اكتشفاه في نموذج الأعمال الجديد. وأعطاني كل من داربي ويليامز وروبين ناكامورا رد فعل ممتاز عن الموضوعات الإدارية في إحدى الشركات التي مازالت في مرحلة البداية في وادي السيليكون. وأوجه شكري وتقديري إلى أولئك الأخوة الكرماء، وقدم لي الأصدقاء وأعضاء الأسرة دعما معنويا وفيرًا ومقترحات ممتازة في التحرير. ومن بين هؤلاء القراء كلا من جوجوويت، وجودي ويت، وبيكيت وتوم فيال، ورود وأليسون مكنال، وتوم دافي، وجاك وربنس فيدلر. وساعدني دان دافيس في اكتشاف المواقع في رحلة طويلة عبر أمريكا، ومن الصعب أن يوجد رفيق أكثر تجانسا واتفاقًا وأكثر إثارة للاهتمام والتشويق لرحلة مثل هذه.

وقد أظهر بيل بيفيل، المحرر الأقليمي لمركز برنتس هول، حماسا فوريًا للمشروع، كما ساعد كثيرا في سرعة مراجعته من جانب المسئولين الآخرين حتى أعلى السلم الإداري. وأعرب عن امتناني اللانهائي إلى تيموثي مور، نائب رئيس برنتيس هول، لقيامها بتقدير احتمالات الكتاب ولتقديمها المدعم المادي والمعنوي البارز لإتمامه، وقدم جريتشين كومبا مساعدة كبيرة في التحرير منذ البداية وحتى النهاية، كما قام جولانزيرا بالتحرير النهائي الممتاز. أما سكوت مكلينج وآن جارسيا فقد كانا مديرين صابرين

وقادرين للمشروع. وقام راس هول وراسل روبرتس بلعب الأدوار القيمة كمحررين للناحية الخيالية، وأنا مدين لهما بشدة لاقتراحاتهما التى أدت إلى تقوية جدلية الرواية ونطاقيا وحبكتيا وشخصياتها. كما يستحق راسل روبرتس شكرًا إضافيا خاصاً. وقد كتب منذ بضع سنوات رواية رائعة عن التجارة الدولية (الخيار: قصة خيالية عن حرية التجارة والحماية (The Choice: A Fable of Free Trade &Protectionism)، والتى ساعدتني فى استلهام الأحداث. وقبل أن يكون "إنقاذ آدم سميث" مجرد مخطط أولى، تقاسم راس معى بكل ترحيب، وقته وأفكاره وإلى جانب تشجيعه الذى سأظل ممتنا له بعمق.

كانت البحوث والكتابات المبكرة لهذا الكتاب، قد بدأت عندما كنت فى أجازة سبتية* لمدة عام فى أثناء ١٩٩٧-١٩٩٨، وهنا يجب أن أقدم عرفانى وامتنانى لجامعة رتشموند لهذا الوقت الذى أتاحته إلى للتفرغ فى أثنائه. وقد ساعدنى بيل ونانسى رودينهزار إجازتى السبتيه إلى كاليفورنيا، وإلى راندى وبونى ليند اللذان وفرا لي بيتا بعيدًا عن بيتى.وفى خلال إجازتي السبتية، قدم لي معهد علم النفس عبر الشخصى Institute of Transpersonal Psycology (ITP) في بالو آلتو بكاليفورنيا مساحة جميلة لمكتبي وبيئة محفزة على العمل، والمعهد هو إحدى مدارس الدراسات العليا لعلم النفس (بما فى ذلك علم النفس الأخلاقي). وهناك فى هذا المعهد كثير مما أظن أن آدم سميث قد يجده متجانسا، وأشعر بالعرفان والتقدير لدعم هيئة التدريس بالكلية الشهيرة والطلبة. وأود أن أشكر جيم فاديمان وآرثر هاستينجز، ومايكل هاتون وستيف سولماير لإسهاماتهم فى هذا المشروع.

وأخيرا، فإنه ليس من المستغرب أن يكون أكبر قدر من المساعدة هو ما قدمته زوجتى جين ماكنال ويت التى عاشت معى ومع الكتاب أربع سنوات، ثابرت فيها على قراءة مخطوط الكتاب بأكمله عدة مرات، مع تقديم مقترحات وافرة. وهذا الكتاب لم يكن ليكون كما هو الآن بين أيديكم لولا لمساتها في كل صفحة تقريبا. وأنا أهدى هذا الكتاب إليها. وشكرا لكم.

(*) الإجازة السبتية Sabbatical Leave إجازة لمدة عام تمنح عادة كل ست سنوات لأستاذ الجامعة للسفر والقيام بالبحوث، وتكون مدفوعة الأجر. (المترجم).

المؤلف فى سطور

جوناثان ب ويت

يعمل أستاذا مشاركا للاقتصاد والدراسات فى مدرسة روبينز للأعمال، جامعة ريتشموند، حيث حصل على جوائز التدريس المتفوق والخدمة المتفوقة.

ولد فى واشنطن دى. سى. أمضى سنوات عمره فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية. ويقوم بتدريس الاقتصاد والدراسات الدولية. فى مدرسة روبنز بجامعة ريتشموند.

وقد نال بحثه الذى قدمه بعنوان "A Little Adam Smith is a dangerous thing" على جائزة باكستون المتفوق، التى قدمها الاتحاد الدولى لنوادى الشعلة International Association of Torch Clubs. كما أن له مقالات أخرى "هل يتفضل آدم سميث الحقيقى بالوقوف؟" و"نهوض آدم سميث: مقالات واقتباسات، ١٩٧٠ – ١٩٩٧" (أنظر قائمة المراجع). وفى مشروعات بحثية أخرى شارك فى تأليف كتاب عن تمويل الرعاية الصحية وعديد من المقالات عن التنمية الاقتصادية الدولية.

المترجم فى سطور:

سمير كريّم

كان يعمل وكيلاً أول لوزارة الاقتصاد والتعاون الدولى فى خلال فترة النصف الثانى من عقد السبعينيات وأوائل الثمانينيات، قبل أن ينتخب مديراً تنفيذيا وعضوا بمجلس إدارة بنك التنمية الأفريقي ممثلاً لمصر وجيبوتى، حيث عمل لمدة أثنى عشر عاماً.

وفى أثناء رحلة العمل الرسمية الطويلة بوزارة الاقتصاد حمل عبء المفاوضات مع أغلب دول شرق أوربا، ثم مع مؤسسات التمويل الدولية المختلفة مثل البنك الدولى وبنك التنمية الأفريقي وصناديق التنمية العربية وصندوق الأوبك مما أكسبه خبرة تفاوضية واسعة كان لها أكبر الأثر فى عمله بعد ذلك.

هذا إلى جانب قيامه بالتدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة التى حصل منها على ماجستير فى إدارة الأعمال، فضلا عن دراسته العليا بالخارج بعد أن حصل على شهادته الجامعية الأولى من كلية التجارة جامعة القاهرة عام ١٩٥٢.

وقد قام بترجمة عدد كبير من التقارير والمؤلفات الاقتصادية كان من أهمها "الاقتصاد الدولى الحديث" من تأليف جان هوجيندرون، وويلسون براون، وكان أخرها عن ترويض النمور من تأليف روبرت جران عن الأزمة المالية فى جنوب شرق آسيا فى عام ١٩٩٧. كما قام بترجمة كتاب التثبيت والتكيف "قصة الإصلاح الاقتصادي فى مصر" من تأليف د. جودة عبد الخالق. وكتاب "تدمير النظام العالمى من تأليف د. فرانسليس بويل من إصدار المجلس الأعلى للثقافة ضمن المشروع القومى للترجمة.

المقدم فى سطور:

جودة عبد الخالق

يعمل أستاذا للاقتصاد فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة القاهرة وهو يحمل درجة دكتوراه الفلسفة فى الاقتصاد من جامعة ماكمستر (كندا). وقد عمل مستشارًا لعدد من المؤسسات والهيئات المختلفة، ضمت جهاز تخطيط الطاقة بمصر، والبنك الأهلى المصرى، كما عمل خبيرًا استشاريًا مع الأمم المتحدة اللجنة الاقتصادية لأفريقيا (ECA) واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا (ESCWA) وجامعة الأمم المتحدة (UNU) ومجلس السكان والمركز الدولى لبحوث التنمية (IDRC). وقد كان زميلاً زائرًا رئيسيًا فى جامعة جونز هوبكنز، وأستاذًا زائرًا فى جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس وكذلك فى جامعة جنوب كاليفورنيا كما عمل كخبير ممتاز فى البنك الدولى.

وله العديد من المؤلفات والكتابات منها الاقتصاد السياسى لتوزيع الدخل فى مصر، وسياسات التثبيت والتكيف والبرامج، بالإضافة إلى مقالات كثيرة فى أوراق القاهرة فى العلوم الاجتماعية.

(مجلة فصلية تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة) ومجلة مصر المعاصرة، واقتصادات الطاقة، والمشكلات الاجتماعية.

وقد حصل على جائزة الدولة للتفوق فى الاقتصاد عام ٢٠٠٥.

التصحيح اللغوى: لوتس على

الإشراف فنـــى: حسن كامل